ولدي

بقلم

الدكتور محمد حسين هيكل بك

الطبعة الأولى

١٣٤٩ — ١٩٣١

مطبعة السياسة — شارع المناخ نمرة ٣٠ — بالقاهرة

marefa.org

موسوعة المعرفة

المعرفة مشروع علمي ثقافي يهدف لجمع المحتوى العربي والإضافة إليه، لإنشاء موسوعة دقيقة، متكاملة، متنوعة، مفتوحة، محايدة ومجانية، يستطيع الجميع المساهمة في تحريرها، بالكتابة أو بالاقتباس من مصادر مرخِصة بالنقل. بدأت المعرفة في 16 فبراير 2007 ويوجد بها الآن 35,587 مقال و 2,409,583 صفحة مخطوط فيها.

خلافاً للغات العالم الكبرى الأخرى، تفتقر الثقافة العربية إلى المحتوى الإلكتروني، ويفاقم من ذلك الوضع قصر عمر المواقع الإلكترونية العربية، مما يجعل محتواها الإلكتروني مملوكاً لكيان اعتباري قد زال من الوجود، ولا يستطيع حتى كاتب المحتوى نشره في مكان آخر.

لذا فندعو المهتمين إلى المساهمة في جمع تراثنا في موسوعة المعرفة الحرة والحصول على تصاريح النقل من مختلف المصادر وتوعية أصحاب تلك المصادر ببدائل علامة حفظ الملكية التي تتيح نشر المعرفة. **ادع أصدقاءك للكتابة في أي موضوع معرفي يهمهم.**

مشروع معرفة المخطوطات

تشهد الثقافة العربية تراجعاً على كافة الأصعدة. ونتيجة لذلك تخلى العديد من الشعوب عن استخدام الأبجدية العربية، مما أدى إلى سقوط مراكز إشعاع الثقافة العربية في تلك الشعوب في غياهب النسيان. فنرى حواضر حيدر أباد وتنبكتو وزنجبار وسمرقند ملآى بمئات الآلاف من المخطوطات العربية في حالة يرثى لها من الإهمال. ولقد شكلت التقنية الحديثة من الماسحات الضوئية والإنترنت بارقة أمل. إذ أصبح بإمكان المتطوعين، حيثما كانوا، المشاركة في تحويل تلك المخطوطات الممسوحة إلى نصوص رقمية يعم نفعها الجميع.

وتفخر موسوعة "المعرفة" بحصولها على 25,000 مخطوط تحتوي على 2,409,583 صفحة من المخطوطات من حكومة الهند، وهي تمثل 5% من المخطوطات باللغة العربية التي يعملون على مسحها ضوئياً. قائمة بروكلمان لأهم مصادر الكتب والمخطوطات العربية تضم 16 مكتبة بالهند بين أهم 168 موقع بالعالم. أمدتنا الهند كذلك بملايين الصفحات بالفارسية والتركية (بحروف عربية). وبعد أن كانت الهند أكبر مشتر وقارئ للأدب العربي أصبحت اليوم لا تجد بين أبنائها من هو قادر حتى على قراءة عناوين تلك المخطوطات. الفرصة سانحة لإثراء تراثنا ودعم أواصر التعاون الإنساني مع حضارة الهند الصديقة. المشروع ذاته يجري تكراره مع تجمعات Corpora المخطوطات العربية الكبرى في الصين وتنبكتو (مالي).

هذه قائمة جزئية للمخطوطات التي لدينا. إذا كنت تريد أن نعجل بنشر أي منها فأخبرنا بالضغط هنا.

خطوات المشروع:

1. الحصول على صور المسح الضوئي للمخطوطات.
2. نشر المخطوط إلكترونياً مقروناً بمقالات من موسوعة المعرفة متعلقة بالمخطوط والكاتب. ويمكن للجميع تحميل المخطوط. قائمة المخطوطات الجاهزة للتحميل.
3. تدوين المخطوطات, أي تحويل الصورة إلى نص حرفي يمكن التعامل التحريري معه، وذلك للمخطوطات التي لا يوجد لها نصوص. وهذا عن طريق مشروع معرفة المخطوطات الذي يضم برنامج تدوين المخطوطات عن بعد Distributed Proofreading. وتلك الخطوة تتطلب جهداً فائقاً ندعو القراء للمشاركة فيه (بالتسجيل هنا).
4. تقديم نص المخطوط إلى مشروع گوتنبرگ Gutenberg Project لنشر كتب التراث العالمي. وقد انضمت موسوعة المعرفة **لمشروع گوتنبرگ** وهي بذلك المشارك العربي الوحيد في هذا المشروع العالمي.

مع تحيات مدير المشروع

د. نايل الشافعي

الى روح ولدى

ممدوح هيكل

الراقد فى صحراء القاهرة الى جوار ربه

والذى تخطى الحياة مابين

٦ يونيو سنه ١٩١٩ و ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٥

أهدى هذا الكتاب

هيكل



ممدوح هيكل

تقديم

ما أعجب لعب الحوادث بنا وتوجيهها إيانا . فلو أن هذا الكتاب نشر من عام مضى لنشر باسم غير اسمه ولنظمت مواده غير نظامها الحاضر . فالى عام مضى كان عزمى أن أجعل عنوانه « خلال اوربا » وان أرتب مواده على أنه كتاب سياحة ، وأن اجعل اهداءه الى زوجى أن كان من أجلها اجتيازنا اوربا شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . ولم يكن عنوان « ولدى » ليدور يومئذ بخاطرى أو لتجرأ أن تخطه يدى ان كانت كلمة « ولدى » جديرة بأن تثير فى نفسى وفى نفوس أحب الناس الى آلم الذكرى وأفجع الأثر . لكن رحمة الله بنا وعطف القدر علينا وماعوضنا عما احتسبنا خفف من لوعة هذه الذكرى الأليمة يثير خيال ورودها الى النفس عبرات من ماق يعز على أن تنهل منها دمعة ألم واحدة . واليوم وان بقيت فى القلب ندوبه فان الثغر ليفتر عن ابتسامة لهذه الطفلة التى رزقنا والتى نرجو لها مايرجوه أبر الآباء لأحب البنين ، ونرجو بها فى الحياة متاعا حرمنا منه مدى سنوات اربع كنا نمد النظر خلالها الى كل واحدة منها بصبر ذاهب لنفر من بلاد الذكرى المحزونة آملين فى فسحة بلاد الله عنها عوضا . وهيهات أن تعوض بلاد الله جميعا نفسا كليمة وقلبا كسيرا وفؤادا ينزى ألما ، الا ما فى تنوع مظاهرها واختلاف

الليـل والنهار فيهـا مما يصرف القلب الى الجديد الذى يقع عليه فينسيه من حر لوعته ويسكن من نيران جراحه .

فقد ولد لى « ممدوح » فى ٦ يونيو سنة ١٩١٩ بالقاهرة فى بيت جده لأمه . وكانت جدته لأمه فى السادسـة والثلاثين من عمرها ولم يبق القدر لها من خلف غير زوجى وأختها.وكانت هذه الجدة الشابة يسـيل وجودها كله رقة وتـكاد الأمومة تنسيها كل ماسواها من العواطف . وكانت مريضة بالسكر . فلما انجبت ابنتها ولداً جهدت فى العناية بالطفـل وأمه وبالغت فى الجهد حتى انهدت كل قواها فرضت واشـتد بها المرض فلم تستطع مداومة العناية بالطفل وبابنتها التى كانت فى فراش الميلاد ماتزال . وكانت ابنتها الصغرى لما تبلغ الثانية عشرة من عمرها وكانت تتردد على المدرسـة فلم يكن يقع عليها وهى فى سنها وفى تلمذتها أن تقوم بخدمة أمها . واضطرت ابنتها التى كانت موضع جهدها وموضع رعايتها أن تترك فراشها لتقوم فى خدمة هذه الام المريضة فى الليل وفى النهار أياماً طوالا أعلن الطبيب بعدها بأنها فى خطر.وأجريت لها عملية جراحية أسلمت روحها بعد يومين من اجرائها . وغادرت هـذه الحياة صبح ٣ يوليو سـنة ١٩١٩ ، أى بعد مولد ممدوح بسبعة وعشرين يوما .

وحزنت زوجى لفقد أمها حزن جنون أنساها حالها وأنساها ابنها وأنساها صحتها . وعبثا حاولت فى الايام الاولى أن أرد اليهـا شيئا من صوابها . ولئن نسـيت فلن أنسى قولها انها كانت تتمنى لو أن الولد هو الذى مات فنحن شابان ماتزال والابن يعوض لـكن

الأم لاتعوض. ولعل فرط الحزن الذى أنطقها بهذه الكلمة غشى على بصرها فلم تر فى حجب الغيب مايكنه القدر لها ثم لابنها. واسلمت للحزن نفسها وجعلت من واجبها المقدس زيارة قبر أمها وسيلة لمضاعفة أساها وحزنها. والحق أشهد أن المصاب كان جديراً بكل هذا الاسى. لكننا فى الحياة ألاعيب يعبث بها القدر. ولئن بلغنا على الحياة مابلغنا من جاه ومكانة، ولئن امتلأت نفوسنا بما امتلأت به من عاطفة وفضيلة، فلايفتنا انا من القدر هذه الألاعيب وان عبث القدر بها بعض حقه، وأنا اذا أردنا أن نسمو على الحياة فنحدق بالقدر وجها لوجه فلن يكون ذلك بالسخط منه والحقد عليه، ولكن بالاذعان له والتسليم بحقه والرضى بكل مايصيبنا من جانبه. على أن افدح ماتصيبنا به الحياة غير جدير أن يترك من الأثر فى نفوسنا إلا ما يذره أعظم مايسرنا. وكما أن السعى والعمل أكبر مسرة فى الحياة تزيدنا رضى على رضانا وغبطة على غبطتنا بكل خير ننالة، فالسعى والعمل هما كذلك أكبر عزاء عن أفدح شجن وأجل كارثة.

وتوالت الفصول والسنون وهدأت فى النفوس لوعة الحزن. لكن القدر الذى حرم زوجى من أمها أبقى لها «ممدوح» وحيداً يرجوها فى براءة طفولته أن تجعل له أخا أو أختا فتكتفى هى عن الحرمان. محمد الله على جوده به علينا وبالرجاء الحار أن يبقيه لنا. وكنت أشاركها من أعماق قلبى فى هذا الدعاء ان كان الولد قرة عين لنا وان دفع نتائج السنين الى نفوسنا أنه كل ماقدر لنا من خلف. وانا لفى الاسبوع الاول من شهر ديسمبر

سـنة ١٩٢٥ اذا الولد مرض مرضاً لم يلق الطبيب اليـه أول الامر بالا ، ثم اذا به يعلن بعـد ثلاثة أيام أن المرض حمى الدفتريا . في هاته البرهة اخترقت بصـيرة الأمومة حجاب الغيب وانبعثت الأم باكية تنتحب كأنما رأت الموت رأى العين يمد يده الى صغيرها يتخطفه منهـا . ثم تنبهت الى واجبهـا نحوه فاسرعت ترعاه وتمرضه . وعالج الطبيب المرض أياما خيل الينا معها أن كل خطر زال وأن دموع الأم التي انسكبت على قسوة القدر ألانت منه فرد اليد الغادرة الممتدة في جنح الظلام . وفي مساء السبت ١٢ ديسمبر ذهبت الى عملي وأنا أشد طمأنينة من كل يوم سبقه منذ مرض الطفل . فلما عدت عند منتصف الليـل رأيت الانوار في مسكني والباب مفتوحا فدخلت فقابلتني زوجي بهـذه الكلمة « ممدوح مات » .

تسري الرجفة الى بدني ويقشعر الآن جسمي لكتابة هاتين الكلمتين وقد مضى على سماعي اياهما خمس سنوات وأشهر . نطقت زوجي بهذه العبارة الفاجعة في صمت الليل المحزون فاسرعت أرى أين هو ودخلت الى غرفة النوم فاذا أمي جالسة الى جانب السرير والطفل الذي أورثنا الثكل على ركبتيها ومن حولها أختاي ، اختار الله احداهما الى جواره في ٢ اغسطس سنة ١٩٣٠ ، وثلاثتهن واجمات كسيرات القلب ينظرن في حسرة ملتاعة الى هاته الأم الشابة فقدت وحيدها وهي ذاهلة لما تقدر مدى هذا المصاب الكارث . وتركتهن بعد أن قبلت جبين ولدي وانتقلت الى غرفة أخرى وقد هوى الحزن بقلبي الى قرار سحيق . وانتقل ممدوح في عصر اليوم التالي

من بيت أبويه الى فلاة الصحراء ليرقد الى جانب جدته الشابة فى جوار الله. وعدت بعد ماودعته هذا الوداع الأخير ولا شيء أخشاه أكثر من ساعة التقى مرة أخرى بزوجتى وقد تغيرت حياتنا وقد انطفأ سراجها وخيم عليها الظلام .

والتقينا فى الصباح فاذا ذهنها فى شغل بمسائل كثيرة يحاول أن يظفر لكل منها بجواب، واذا هى لما يتركز الحزن فى قرارة نفسها بمثل ما تركز بعد ذلك بأيام قلائل . وكانت كبرى المسائل التى تشغلها وتكاد تستأثر بتفكيرها مبلغ ماعلينا ، هى وأنا ، من تبعة فى هذا الحادث، وهل كان محالا علينا أن نتغلب على القدر وأن ندفع الموت عن فلذة كبدنا ؟ وفى سبيل الجواب على هذه المسألة جعلت تحلل التفاصيل ومافعلنا وما كان يجب علينا أن نفعل وكيف عاملنا طفلنا أثناء مرضه وهل قسونا فى كلمة صدرت منا له . وعلى أساس هذا البحث جعلت ترتب احكاما كالاحكام التى يرتبها الناس عادة والسيدات بنوع خاص على ما يؤديه غيرهم لهم من المجاملات وما يترتب عليهم من دين لهذا الغير مقابل مجاملاته . وأدى هذا البحث بزوجى الى تقدير فداحة ما أصابنا، وما ربما كان فى مقدورنا دفعه، الى نتائج خفتها وارتمت لها . ولست أدرى ما كان يؤول اليه الأمر لو أن شقيقتاى لم تكونا يومئذ الى جانبها ولم تقفا كل جهدهما على محاولة صرفها عن فاجع الأسى الذى القت بحياتها بين يديه وكأنما كانت تستطيب عذابه وتجد اللذة فى المزيد من مرارته .

أما انا فاذعنت لحكم القضاء واسلمت أمرى لله اليه مصير الأمور وواجهت الزمن التمس فيه ماعلى من واجب أقضيه . وكان

كبر واجبي يومئذ ان أعمل لعزاء زوجي فهو لي أكبر عزاء .
وهل كان يزعجني أكثر من ان أرى انسانا ارتبطت بحياته حياتي
منذ عقدنا شركة نلتمس بها زينة للحياة تنسينا متاعبها بل تجعل
هذه المتاعب لذة ونعيما ، فاذا زينة حياتنا تحطمت في لحظة ووقف
اليأس البشع بشبحه المخيف يصدم شبابها الجدير بالأمل وينذره
بجدب الحياة وأن لم يبق لزينة فيها رجاء ؟ ولولا هذا الواجب الذي
كنت أراه ملموسا محسوسا أمامي كل يوم مرات لهون على القضاء
من لجيتي . فقد رأيت يومئذ أن لاعزاء في الحياة عن مصاب
كمصابنا تتحطم له العزائم وتنشق منه المرائر خيرا من العمل يلقي
الانسان بنفسه في احضانه ويضاعفه ما استطاع الى مضاعفته سبيلا .
لذلك عدت الى مكتبي في اليوم الثالث وأسلمت نفسي لمشاغل
الصحافة الكثيرة المشاغل وجعلت كل همي أن أنسى في العمل
نفسي وان القي اليه كل بالي وكل تفكيري . والعمل خير بلسم لجراح
الحياة بما يستغرق من انتباهنا فيشغلنا عن جراحاتنا ويترك للزمان
تضميدها في أناة ورفق . لكني لم اكد البث أن أعود الى بيتي حتى أرى
وأسمع ما يحرك ألمي . فجعلت التمس في بعدنا عن موضع الفجيعة سبيا
للعزاء وخيل الى أني نجحت فيما حاولت من سفرنا الى السودان
لنشهد افتتاح خزان سنار . غير أني علمت عشية السفر بأن
لا سبيل لمصاحبة زوجي اياي . وبعد تردد في السفر دونها رأت
هي ضرورة سفري حتى تتفرغ لما كنا شرعنا فيه من البحث عن مسكن
آخر لا تحدثنا جدرانه ولا يحدثنا نظامه ولا تحدثنا كل صغيرة
وكبيرة فيه بما يحرك القلب ويهيج الشجن .

وعدت من السودان فالفيتها أتمت بحثها وتبدأ يوم وصولنا الى القاهرة انتقالنا الى المسكن الجديد . اذن فقد شغلت بعمل هى الاخرى . واذن فهى واجدة فى هذا العمل الجديد بعض السلوى . كان ذلك بعض رجائى وبخاصة اذ كان لها بنظام المنزل عناية تستغرق عادة الكثير من اهتمامها . لكنها هذه المرة اكتفت بالاشراف دون الاشتراك بالفعل وتركت أكثر الامر للعمال يقومون به بارشادها . وما لبثت أن انتهت من وضع النظام الذى أرادت أن تتم كل واحدة من الغرف على نسقه حتى عادت يخترمها الهم وتتناوبها ألوان الألم

وأخذت نفسى يومئذ بأن أقل مااستطعت من الحديث فى شجننا المشترك وأن انصرف بها الى ضروب مختلفة من التفكير لعلى أنحو بها ولو بعض الشىء من خيالاتها السوداء المضنية . ولست حتى اليوم أدرى اذ كنت قد أسأت أو أحسنت فى اختيار هذا المسلك . فقد فجعت من قبل ذلك ومن بعده فى أخى وفى أختى وهما فى ريعان الشباب الناضر فلم يكن لأمى حديث شهورا متوالية بعد هاتين الفاجعتين غير ترديدها ما أصابها فى اغوار نفسها وطيات قلبها من عميق الأثر . أفترى يجد السيدات عن الألم عزاء فى تذكر الألم ، أم هن يرين فى استذكار فلذة الكبد التى ذابت وذهبت ما يرد اليها فى نفوسهن وهما من حياة ؟ أم تراهن يحسبن القدر أبر بهن فى مستقبل أيامهن حين تدعوه كل أم بما تنقلى عليه نفسها من ذلك الحزن الى الرثاء لها والاشفاق عليها؟ لست أدرى ألا اننى لو اعتقدت أن القدر يقبل بأى ثمن رجاء فذلك أن لايفجع أما

فى ولدها وأن لايجود به عليها اذا كان قد كتب فى لوحه انه متوفيه قبلها . فالدمعة التى تسكبها الثاكل ولدها لا تنهمل من ماقيها بل تنهار بنصيب من حبة عينها ومن سواد نظرها متصعدة الى هناك زفرات ملتهبة متأججة من ذوب قلبها ومن حشاشة فؤادها. وأية دمعة وأية زفرة تذهب بالبصر وتحرق الكبد وتهدم الحياة غير هاته الدموع ليست دموع أسى ولا دموع حزن ولا دموع ألم بالغة مابلغت شدته وقسوته ، بل هى أجزاء من الحياة تسيلها العين وهى نفس تساقطها المآ قى أنفسا . وانى لاذكر بينما أكتب هذه العبارة أمهات ثكلن بعد سن متقدمة وحيدا لهن خلف أبناء فلم يجدن فى أبنائه عنه العزاء ، وبقين السنين يذهب بصرهن ثم سمعهن ثم ابعاض حياتهن وهن يحملن مع ذلك وفى كل موسم فى محفة حزن سوداء الى قبر هذا الذاهب تاركا اياهن يتقلبن على جمر الحسرات واللوعات — أفيرد الانسان لهاتيك البائسات بنكبتهن اليائسات من عيشهن مايحرك شجونهن؟ أم يصرفهن عن هاته الناحية السوداء لعلهن يجدن فى قبس من رحمة الله رجاء وأملا ؟

الناس فيما يخيل الى من هذه الناحية أمزجة . ولعل النساء والرجال فى اختلاف المزاج سواء . ولعل للامل ولانقطاعه على المزاج أثراً بالغاً. فما أزال حتى اليوم أذكر هذا الشيخ الذى كان يذرى الغلال فى قريتنا وقد فقد وحيده البالغ مايزيد على الاربعين والذى رزقه بعدعدد من الابناء ماتوا صغاراً . فلما فجع فيه ولم يبق لديه فى عوض عنه رجاء تولاه الذهول وانقلب الجو كله أمام نظره مليئا بخيال وحيده الذاهب حتى كان كلما سأله انسان عن حاله وقف يرسل

«المواويل» يصعد فى ألفاظها مايكتوى به من نيران الهم واليأس ويردد فيها ماأصابه من فجيعة جعلت حاله وجعلت حياته وجعلت الجو المحيط به وجعلت كل بقية له فى الحياة فجيعة تطير به على اجنحة من سعير الألم لتهوى به آخر الأمر الى خلد الموت المريح يلقى فيه ابنه ويستعيد واياه فيه ذاهب سعادته وهناءته .

وأذكر شيخا آخر أوتى حظا من العلم غير قليل مرض ولده الأكبر مرضا خيف منه على حياته فكان على ضعف بصره يقضى النهار على مقربة من ولده ينتف شعرات ذقنه وتنهل الدموع الصامتة من عينه وظل كذلك حتى جاوز ولده الخطر ثم نجا.

وأذكر غير هؤلاء شيوخا وشبانا يختلف من العلم ومن الايمان حظهم وهم يذعنون للقدر ويأبون أن ينهد ركن عزمهم ويرون الحياة واجبا يؤدى وخير مايعين على ادائه مواصلة الجهد للمزيد منه . فان أصابهم التوفيق فذاك والا فضمائرهم وقلوبهم وعقولهم فى نجوة من الاسف والأسى . فاذا غلبهم ضعف الانسان زمنا فليكن واجبهم مغالبته والسمو فوقه والعود للقيام بأداء واجب الحياة .

وأنا من هؤلاء . فليس يسيغ عقلى ان ينهزم الانسان أمام حادث من حوادث الحياة أيا كان جلاله وأن يهن ويضعف . واذا اضطر الانسان للوقوف أو للتراجع يوما فليس وقوفه ولا تراجعه هزيمة تدك ركن عزمه ، وانما هى بعض أعمال الحياة كالتقدم والاندفاع سواء . وكما قد يصيب السوء المتقدم والمندفع وهما فى أشد أوقات اعتزازهما بنصرهما وظفرهما . كذلك قد يفيد الواقف

والمتراجع من موقفه الخير الوفير . ثم ان الحياة كثيرا ماتهزمنا فى ناحية لتصرفنا الى ناحية غيرها يكون ظفرنا فيها أكبر أثراً ويكون مانؤديه من واجب الحياة فيها أجدى على الحياة وأعود علينا بطمأنينة النفس بل بالمجد بل بالسعادة . فليس خليقا اذن بانسان أن يبقى كلمة الهزيمة فى سجن مايدور بخاطره من لفظ أو معنى . وليس خليقا كذلك بانسان أن يجعل للنصر معنى يقابل هذه الهزيمة التى يضطرب لهولها المتواكلون وضعاف العزم. وانما النصر الحق المؤزر أن يتغلب الانسان على ضعف نفسه وأن يؤدى فى الحياة واجبه باخلاص للحياة .

هذا الايمان عندى هو الذى دعانى لأ قلل من التحدث الى زوجى فى شجننا المشترك وأن أحاول صرفها الى ضروب من التفكير مختلفة علها تجد فى احداها مايعوضها عن سابق حياتها . ونجحت فى حملها على القراءة والا كثار منها وعاونتها فى اختيار كتب من الادب الفرنسى بالغة من جمال الاسلوب والتصوير مايستهوى النفس ويأخذ باللب . على أنى رأيتها تندفع فى قراءتها باحثة عما يحرك شجنها حتى اذا عثرت بشىء منه وقفت عنده وأعادت الكرة فى قراءته ثم نقلته الى كراسة خاصة واستذكرته عن ظهر قلب واتخذته وسيلة لاسالة عبراتها فى الفترات القصيرة التى تتاح لها الوحدة فيها. ولم تكن القراءة وحدها هى التى تستحيل فى نفسها عبرة وشجنا ، بل كانت تجد فى كل شى تعالجه صورة الأسى والألم اللذين دستهما الفجيعة الى قلبها والى أعصابها والى دمها والى وجودها كله والذى كسا الحياة أمامها لونا صحراويا ممحلا هو لون اليأس القاتل. وضلت

بأحلامها وهذه الصحراء المحيطة بها بعد أن أجدبت الواحة الوحيدة النضرة التي اشتملت كل حياتها وكل رجائها فاذا هذه الاحلام لاتجد رجاء الا في الموت أو فيما يشبه الموت من انقطاع عن العالم الى دير من الاديرة أو خلوة من الخلى . وكنت أحسب هذه الحال يذهب بها الزمان وهذه الجراح يأسوها النسيان فاذا صاحبتها هي التي يذهب الزمان رويداً رويداً بها وكأن حياتها كلها جرح برؤه في انطفائه ، واذا هي تحول شخصاً آخر نظرته غير نظرتها التي عرفت وابصاره مضطرب وأعصابه متهدمة وكل مافيه نذير مخيفة رغم ما كان لها من عنفوان شباب وصحة . ورأى الاطباء أن لاشيء من المرض بها ونصحوا اجميعا بضرورة سفرها لتغيير الهواء.

وكنت يومئذ قد بلغني الملال فكرت في هذا السفر ولم أجد خيراً من أوربا مصحاً لزوجي ولي . فسافرت وإياها في ١٩ يوليو سنة ١٩٢٦ على الباخرة موجوليا من بواخر (بننسيولار واوريانتال) قاصدين مارسيليا فباريس وكان لي أربعة عشر عاما لم أرها لما ضربت الحرب ثم تصاريف الزمن بيني وبين أوربا جميعا من حجاب . وقضينا في باريس ثلاثة أسابيع ثم غادرناها الى لندن حيث قضينا سبعة عشر يوماً ومنها عدنا الى باريس لنمر بها مروراً فقضينا بها اسبوعين آخرين . ومن باريس سافرنا في ١٢ سبتمبر قاصدين جبال الألب في السافوا العليا لننتقل منها الى سويسرا نقطعها من الطرف الفرنسي الى الطرف الايطالي ثم تنحدر الى البندقية نزورها ونأخذ بعد ذلك الباخرة حلوان من بواخر (اللويد تريستينو) لترسو بنا في الاسكندرية في ١٨ اكتوبر يوم تمام الشهر الثالث لمغادرتنا مصر.

وبحسبي تقديراً لأثر هـذه السياحة أن أذكر كلمة كانت تكررها زوجي : «ان باريس ردت الى طعم الحياة» ، وأن أذكر كذلك ساعة ارتقينا الباخرة فى تريستا لتعود بنا الى مصر وحين نظرت هى الى الشاطىء فانهملت من عينها دمعة اختلطت بماء البحر أسفا على سياحتنا الجميلة الساحرة التى انقضت وكأنها حلم معسول . وكان لمسافر ظريف ملاحظة أن العبرة المختلطة بماء البحر تعود بصاحبها الى البحر والسياحة . والحق أنا من تلك الساعة نذرنا أن نجعل مصيفنا بعيدا عن مصر . وكانت زوجي أشد على تحقيق هذا النذر حرصا وأشد بضرورة الوفاء به إيمانا . فكانت اذا تنصف الربيع تذكرني به فنعد العدة ونختار الباخرة ونجهز متاعنا . وكذلك قضينا صيفي سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٢٨ . ففي صيف ١٩٢٧ اخترقنا اوربا من الاستانة الى بوخارست فبوادبست ففينا فبراج فباريس ثم عدنا الى الوطن . وفى صيف ١٩٢٨ ذهبنا من جنوه الى برن فايانس فكولونيا فبرلين فونيخ فبادجاستين فباريس ففيشي ومنها الى مرسيليا فالاسكندرية . فلما كانت سنة ١٩٢٩ عاودنا الرجاء فى أن نعود بآفاقنا الى طفل تعوض علينا ابتسامته جمال اوربا وجمال العالم بأسره .

وانا اليوم لنشكر القدر كلما ابتسمت طفلتنا وكلما جمعت حياة الوجود كلها الى جانبنا سواء أكنا واياها فى غرفة صغيرة أو كبيرة من غرف منزلنا أو فى الهواء الفسيح نسعد بها وهى تسعد هـذا الهواء وتسعدنا به وترينا زينة الحياة الدنيا تجدفيها على الحياة عزاء بل بالحياة سعادة ، وتغنينا بذلك الى حد عظيم عن التجوال فى فضاء الله كأنا موكلون به نقطعه . وانى اذ اذكر هذه السنون التى جبنا فيها

أوربا من أقصاها الى أقصاها لأذكر كثيرين ولأذكر أضعافهم كثيرات كانوا يقضون حياتهم يزرعون العالم من امريكا الى أوربا الى مصر الى الصين واليابان ثم لا تجد نفوسهم الى أى مكان فى العالم مستقراً، لأنها نفوس قلقة هائمة تفتقد شيئاً كان سر حياتها وموضع رجائها، وكانت عنده تقف وبه تتعلق، فلما انتزع منها جعلت من العالم كله مسرح قلقها عليه وافتقادها رجاء جديداً فى عوض عنه. فأما الذين يسعدهم الحظ بالعوض فيعودون الى ما كانوا قبل هيامهم فى بلاد الله فيه . وأما الآخرون فيظلون تضيق بهم فسحة العالم زمناً ثم يجدون فى بعض العالم عن ضيقهم بعض السلوى زمناً آخر حتى تطمئن نفوسهم الى الرجاء أو الى اليأس . واليأس كما قالوا احدى الراحتين .

وقد تركت هـذه السنون الثلاث التى حببت الينا الارتحال بعيدين عن مكان الذكرى الممضة آثاراً كانت الذكرى تتخلل بعضها فتزيده قداسة وجلالا . والذكرى والرحيل وآثارهما هى التى أملت هذا الكتاب . وزوجى التى كانت الصورة الحية لقداسة الذكرى هى صاحبة الوحى بخير ما فيه ، ولها من أجل ذلك الفضل الأكبر فى تحريره فضلا جعلنى اطمع فى اهدائه اياه . لكنها رأت أن يكون الاهداء لولدنا الذى تركنا الى جوار ربه والذى لو بقى حياً لكان اليوم يتدرج الى الشباب ويتمتع كهولتنا مما يفيض عنه من روعة الشباب ورونقه . أما اليوم فحسبنا ما عوضنا القدر ورجاؤنا أن تكون الحياة أربنا من بعد وأحنى على قلبين ذاقا ألم الفجيعة والثكل واليأس قرابة أربعة أعوام ، ورأيا من قبل ذلك ومن بعده ما يبهض القلب

ذكره . ولنا في عدل القدر أكبر الثقة بأن يحقق هـذا الرجاء وأن يجعل رحيلنا في المستقبل وما نكتب عنه مضيئاً بنور النعمة يكسوه ثوب من الطمأنينة للحياة ويدفع اليه التفكير في مجد الانسان وسعادته بدل السعي لتبريد لوعة القلب والعمل لسلوته ما ؟

محمد حسين هيكل

الكتاب الأول

---

١٩ يوليو — ١٨ اكتوبر سنة ١٩٢٦

بور سعيد — باريس

كانت معدات سفرنا لرحلة سنة ١٩٢٦ تامة يوم ١٨ يوليو لا ينقصها الا أن نعرف بالدقة الساعة التى تبرح فيها الباخرة موبجوليا ميناء بور سعيد . وبرغم ترددى على « كوك » لأقف منه على الموعد المضبوط فقد كان آخر مااتصل بعلمنا أن آخر قطار يدرك الباخرة هو الذى يغادر القاهرة فى الساعة الحادية عشر من صباح ١٩ يوليو . وخيل الينا أن هـذا معناه ان الباخرة تتحرك بعد ساعة أو نحوها من وصول القطار الى بور سعيد، ففضلنا أن نسافر بقطار الصباح الباكر . وجاءت الساعة التى يصل فيها القطار الذى أشار « كوك » اليه ولم تكن الباخرة قد وصلت الميناء ولا كان أحد يعرف عن موعد وصولها بالدقة خبراً ، بل قيل لنا انها قد لاتصل قبل صباح اليوم التالى . فأثار هذا التأخير فى نفسى حالة عصبية اذ كنت اعتبر كل ساعة اكسبها أدنى الى تحقيق الغرض الذى من أجله نسافر كما كنت أشعر بشىء من الطيرة أن لا يكون كل شىء فى السفر كما أريده أن يكون .

وفى الساعة الثامنة مساء قيل أن الباخرة تصل بعد ساعتين وأن أنوارها ظهرت بالفعل على قناة السويس . واقلتنا اليها الزوارق اذ ليس فى بور سعيد أرصفة ترسو عليها السفن . وسألنا الحمال عن متاعنا فاذا به مبعثر فوق ظهر السفين فجمعناه على عجل من هنا ومن هناك وشكرت للذين ودعونا متمنين لنا سلامة السفر وآويت الى

الى مخدعي متعباً منهوكا أن قضيت النهار كله منذ الصباح البا كر وحين سفرنا من القاهرة أتقلب بين مشاعر واحساسات ليست كلها مما تبتهج له النفس . فلما تنفس الصبح اذا الباخرة تجرى بنافوق موج بسام تزجيه ريح رخاء واذا سطح السفين الفسيح تتلطف أشعة الشمس عليه بما ينعش النفس من نسيم البحر الجميل . وكانت حياة السفين وعباب البحر المحيط بها هي الانتقال الاول من بيئة الذكرى المريرة لولا ما كان من سفر وحيدنا من قبل معنا على البحر بين موانيء مصر والشام ، ولولا ماتدعو آفاق البحر النفس اليه من الاستجمام والتفكير والتذكر .

على أن مافي حياة السفين من جديد وما تعود المسافرون على البحر خلقه من أنواع اللهو والمتعة يهون من غضاضة ساعات التفكرة والذكرى ويخلق أمامنا عالما جديداً يستغرق من طلعتنا بمقدار مايستغرق السفر على البحر بين مصر وأوربا من أيام قلائل . والبواخر الانكليزية أشد من غيرها اثارة للطلعة . فأنت في سريرك ماتزال تغط في نومك ولا تنتظر قط من يزعجك عن فراشك فاذا باب القمرة يدق حتى تستيقظ واذا القائم بخدمتها يحمل اليك فنجانا من الشاي وثلاث بسكويتات أو أربعا وتفاحة أو برتقالة أو واحدة غيرها من الفاكهة ويضع ذلك على الرف الى جانب مخدعك تكاد تتناوله من غير أن تجلس في فراشك . فاذا اطمأن الى انك استيقظت أهداك في رقة وأدب تحية الصباح وسألك عن الساعة المضبوطة التي تريد أن تذهب فيها الى حمامك وان كنت بحاجة قبلها الى شيء من الماء الفاتر لتزيين ذقنك . هذه الحركة كافية لتدلك على أن الساعة

أصبحت السادسة وان الوقت آن لتأخذ بأسباب اليقظة . على أنك في حل من أن تظل آخذاً بهذه الاسباب الى مابعد الساعة التاسعة حين تصعد لتناول افطارك بغرفة الطعام عصيدة وبيضاولحماً وشايا وفاكهة وماشئت الى جانب هذا كله من المطعومات . وبعدالساعة التاسعة تبدأ اليقظة على سطح البواخر عامة والانكليزية خاصة .

ولقد يود المسافر ،في اليوم الاول بل في الساعات الاولى من سفره، أن يتعرف الى البيت الجديد، بل المدينة الجديدة، التي يقيم فيها أيام هذا السفر فيلتمس صالون الباخرة وغرفة المطالعة وغرفة التدخين فيها وما قد يكون في بعضها من صالونات وغرف عدة. فاذا استوى اليه علم ذلك كله عاد الى سطح السفين يمشي اخوينا يحاول أن يتعرف وجوه المسافرين معه . وهذه النظرة الاولى من المسافر الى بيئته الجديدة تستغرق من وقته ساعات سفره الاولى وتبعث الى نفسه مالكل جديد من لذة مالم يحل دوار البحر بينه وبينها. فاذا انتصفت الساعة الحادية عشرة صباحا رأيت عربة صغيرة يدفعها أحد خدم الباخرة تتبعها عربة أخرى وعلى احداهما فناجين الشربة وعلى الاخرى بسكويت غير محلى يتناول كل مسافر من ذلك حظه . وفي الساعة الأولى من بعد الظهر ينزل الكل الى غرفة الطعام لتناول غدائهم ثم تعقب ذلك فترة هدوء وسكينة ينتهزها البعض لينالوا غفوة الظهيرة سواء على مقاعدهم الطويلة فوق سطح المركب لمن لم يشأ منهم أن ينزع ملابسه وفي القمرات لمن أراد الراحة التامة . ولعل مواطنينا المصريين أشد الناس حرصاً على هذه الراحة التامة . فاذا كان العصر تناول المسافرون الشاي وأمضوا ساعة أو نحوها بعده ثم سمعوا ناقوس المساء يدق

يدعوهم ليعدوا أنفسهم لطعام العشاء ولارتداء ملابس السهرة .
فاذا كانت الساعة الثامنة أشرقت غرفة الطعام بالسيدات فى ملابس زينتهن وفى حليهن البديع البريق وبالرجال يلبسون الاسموكنج ويتخللون السيدات فى جلستهم الى المائدة لتبدو كل جميلة بينهم كأنها زهرة عطرة بين أوراق يانعة هى بالزهرة بر وعطف وحنان.
وينتقل الكل لتناول القهوة فى الصالون وينسحب المدخنون من الرجال الى سطح المركب أو الى غرفة التدخين ثم ينقسم الجمع طوائف تهفو آذان طائفة الى سماع الموسيقى فتجدمن سيدة بارة أو من رجل متقن من يشنفها بحلو النغم ، وتنتقل طائفة الى حيث يلعب كل جماعة منها نوعا من أنواع الورق على موائده الكثيرة فى البار وفى غرفة التدخين وفى غيرها من الاماكن التى يهوى اللاعبون اليها . فاذا تنصف الليل أوقارب أن ينتصف بدأ الناس ينسلون لواذا الى مضاجعهم يقضون فيها ليلهم منتظرين دقات القائم بخدمة القمرة على بابها متى أصبحت الساعة السادسة ثم دخوله بفنجان الشاى والبسكويت والفاكهة.

هذا نوع من الحياة جديد بالنسبة لسيدة مصرية لم تألفه من قبل ولم يحل حائل دون أخذها منه بنصيب أية سيدة اوربية من المسافرات معها . وهو جديد ، وان كانت بدرأت فى مصر مظاهره ، لانه اشتراك فى تمثيل رواية الحياة على صورة جديدة بدل الاكتفاء بالجلوس أحيانا مع النظارة لمشاهدة ممثليها . وهو لذلك جدير بأن يحدث فى نفسها ثورة تبعث اليها حياة جديدة كلها نشاط وحركة واقبال على الحياة بدل القعود والخمول وما الف المصريات من التخلى

عن الحياة. فليكن لهذه الثورة النفسية من الأثر الحسن ما رجونا من سفرنا فراراً من وسط مليء بأشباح اليأس والألم.

لكن لا! ان الهزة الاولى لا تكفي لتذيب ما تركز في النفس من أكداس الهم لتبعث الى سواد الحزن آملا في ابتسام. لذلك كان من بين المسافرين معنا سيدة فرنسية وزوجها يحمل هو شارة الحداد وتلبس هي السواد فما كان أسرعنا الى التقرب منهما والتعرف اليهما والسؤال عن سبب حزنهما وأساهما. وروت السيدة طرفا من قصتها. لكنها كانت في روايتها لا يخترم الهم كيانها وكانت تبدي من الاسلام للقدر ومن مجالدة الأسى مثلا صالحا يجمل الأم الثاكل تفكر من جديد فيما طالما ذكرته لها من أن الحزن لا يعيد مفقوداً وأن مغالبة الألم والتغلب على اليأس خير ما يفتح مغالق الحياة وينير للأمل السبل الى النفس ينشر في انحائها من ضيائه ما يعيد اليها في الحياة كل رجاء. ولعل السيدة الفرنسية لم تكن وحدها التي مهدت للأمل والرجاء سبيلهما. فقد كان بين المسافرين جماعة لا يهون عليك أن تتصور كيف لا ينكشون معتزلين الحياة وهم مع ذلك مقبلون أشد اقبال عليها مسلمون أنفسهم لألوان من المتاع فيها كأنما هم غارقون منها في لجج النعيم. فهؤلاء شيوخ وعجائز هدهم الكبر وهم مع ذلك يأخذون كل مساء أبهج زينتهم فاذا غادروا غرفة الطعام وجاء خدم الباخرة خلقوا من أنفسهم موسيقيين يوقعون نغمات الجاز والفوكستروت والشارلستون هرعوا الى حلقة الرقص كأكثر الشبان فيها نشاطا ومرحا. وهذه سيدة نصف آتية وحدها من أستراليا لم تنعم عليها الطبيعة بشيء من الجمال وان أسبغت عليها فيضا من الصحة

والعافية يختفى فى طيه سنها تندفع الى المرقص كلما عثرت بمن يرقص معها حياء من الحاحها نامية عن بدنها وانتفاخ وجهها حتى يكاد ينطمنه الدم مكتفية عن الجمال والشباب بالعافية المقترنة والماس الثمين تحلى به أصابعها وصدرها ورأسها. وهؤلاء شبان وفتيات من الانكليز لايدرى أحد مارعا أنتاب حياتهم من فواجع وهم يقضون نهارهم يلعبون نوعا من التنس يطيقه سطح السفين. اليس من هؤلاء العجائز والشيوخ والفتيات والشبان أحد غاله من أسباب الأسى ماغالنا ومن لو تفتحت كلوم قلبه لألهبت صدره زفرات تفرى المهجة وتذيب الحياة ؟ قد يكون فيهم هذا الرجل أو هذه المرأة وقد يكون بينهم من هؤلاء أكثر من رجل أو امرأة. وأنى لنا ان نعرف والناس أسرار. لكن هاته الحياة الغربية يجتمع فيها الناس بعضهم ببعض رجالا ونساء ومن بينهم من تعرف ومن لا تعرفه تحمل الفرد على أن يتعالى كبراً عن ان يحنى الهم هامته أو يظهر منه الا ما تهش له الجماعة وتستريح اليه، كما يحمله يكبر فى مغالبة ضعف نفسه لتسمو الى مكانة من تحية الجماعة واكرامها . حياة هذا شأنها تقوى النفس وتشغلها بكثرة تكاليفها عما يضعضع منها ويضعفها . ولنا فى حياة المزارعين من أهل ريفنا مثل حى لصدق هذا الرأى ولصلاح الحياة الحرة ولدفعها صاحبها للسمو فوق مواطن الانحلال مما تهوى بالقلب اليه الحياة الحبيسة التى كانت نساء الطبقتين الوسطى والموسرين يحياها، والتى ما تزال حتى اليوم نصيب الكثرة الكبرى منهن . وكذلك يتجلى للناس ان الحرية قوام كل خير فى نواحى الحياة جميعاً ، ناحية العقل وناحية الحس

وناحية العاطفة وناحية الشعور ، وان الحرمان من الحرية وتقييدها مفسد للعقل والحس والعاطفة والشعور جميعاً قاتل لحياة الانسان كما يقتل الظلام والسجن حياة الحيوان والطير والنبات وكل ما في الوجود من صور الحياة .

وجازت الباخرة بنا كريت من غير ان نراها ثم كنا في اليوم الثالث من سفرنا ننتظر ان يجتاز بنا بوغاز مسينا . وتناولنا شاي العصر واليابسة ما تزال تتبدى امام النظر سراباً لا تستقيم حدوده. فاستعنت بمنظار مقرب لأحد المسافرين فأبصرت عن بعد نواتئ لعل أحدها دير أو ما يشبهه . على أنها ما انفكت تقترب ثم تقترب حتى انكشفت امام النظر رمال مسينا القاحلة ورمال الجنوب الايطالى المجدب . وكلما ازددنا من هذه الشواطئ الممحلة من كل علامات الحياة دنواً نبتت أمام النظر بعض علامات الحياة من منازل ومراع للنعم أو لعلها أشجار أصارها البعد في مثل نبات المراعى . والآن تبدأ تباشير مغيب الشمس ويبدأ البوغاز في أضيق اجزائه ينكشف أمام العين لترى البحر من ورائه تنفسح لجته حتى تبتلع آفاق السماء وتبتلعها آفاق السماء . في هذه البرهة وقفت محركات السفين فجأة ليحاذر بها ربانها ما يحيط بها من صخور . كذلك قالوا . أما أنا فخيل الى أن جلال هذه الساعة الساحرة وهذا المنظر العظيم في جماله وجده قد بلغ من نفسه مكان البهر فاستمهل وتأنى ليزداد به ويزيد منه المسافرين متاعاً . ولم يكذبني المنظار المقرب حينما أرانى وما نزال بعيدين ديراً . فهذا البناء السامق في قمة الهضبة المطلة من مسينا على البوغاز صومعة أو دير أو طابية أقيمت لتحمى

البوغاز وفناره . ولعله الى الطابيـة أقرب . فهذا الفنار على قرب منه بل بجانبه يهـدى البواخر التى ما تفتأ تعبر البوغاز هو بحاجة الى حماية كما يحتاج كل هاد الى حماية. وعلى مقربة من الطابية فيما خلا حرم فسيح من الرمال تقوم منازل منثورة على سـفوح الهضبة لا أدرى ما قوت أهلها وليس ما حولها من النبات الا ما قدمت. وما خلا هـذه المنازل القليلة على سفوح مسينا وجنوب ايطاليا فحجارة ورمل لا تنبت الا التجرد والمحل . على أن لها فى تجردها وامحالها جلال وروعة كجلال موج البحر وروعته . ثم ان الحظ الحسن هو الذى ساقنا لتراها فى ساعة المغيب حين تبدأ تكتسى ، بدل قطوبها ساعات تجهد الضوء الباهر ، وشياً رطباً تختلط فيـه الحجارة بما يندى به أثير جو الغروب . وقد استوقف لين هذه الرمال والحجارة نظرى زمناً ولفتنى الى ملاحظة لم تدر من قبـل بخاطرى . فهبوط الظلام يدخل على الاحياء الآهلة وحشة تزداد كلما أوغل الظلام الى دجنته وتصل بك الى الفزع منها بعد أن تكون ألوان الخشية فالخوف فالوجل قد تسربت الى نفسك مع كل قطعة تهبط من كسف هذا الظلام . فأما هذه البقاع القاحلة فأخوف ما تكون ساعات الظهيرة وحين الضوء فيها يبهر الابصار . فاذا تولت الشمس عنها بدأت تأنس اليها ثم كان لك من نجمها وان غاب القمر سمير وأنيس . وسبب هذا فيما اخال أن الاحياء أشد مايخشى الحى وان الانسان أخوف ما يخاف منه الانسان . فظلمة الاحياء الآهلة لباس لكل ألوان الغدر والخيانة واللؤم والجريمة . أنت فى كل خطوة لك فيها معرض لغادر يسلبك مالك أو حياتك ولـكين

تنصب حبائله لشرفك أو نفسك . والنور وحده هو الكفيل بترك الكثير مما تخاف من غدر الغادر ولؤم اللئيم . فأما هذه الرمال المنفسحة أمامك والتي تشعر بنفسك فيها بعيداً عن الناس والاحياء فلا تعرف الظلمة الدرديبس مكمن الاؤم والغدر ولا تخاف فيها الا الحيوان المفترس أنت ما حذرته أشد به فتكا وأقوى عليه سلطاناً .

واجتازت الباخرة البوغاز وأطلقت لمحركاتها العنان وانطلقت محاذية شاطئ ايطاليا والجو يظلم رويداً رويداً ونحن في شغل بذلك كله وبما تكشف عنه المقربات من أنوار تبدو على الشاطئ . وللمسافرين على البحر ولع أي ولع باستجلاء كل ما يستطيعون من مظاهر الحياة على الارض، وكأنهم مازالت تتحرك في نفوسهم غرائز الأقدمين من أجدادهم ممن كانوا يرون في البحر عدواً لدوداً لهم ويرون في اقترابهم من اليابسة أنساً لنفوسهم ومعلم نجاة من خطر قد ينزل بهم ، أوكأنما يدفع بهم الى هذا الاستجلاء ماركب فيهم من طلعة فهم يحاولون والسفين فوق البحر تجرى بهم أن يستكشفوا مايجرى خلال الجدران على أبعاد نائية . ولم يصرف المسافرين عن الامعان في طلعتهم الا رنين الاجراس تدعوهم كيما يتزينوا لطعام العشاء . وخيمت الظلمة على الوجود حين تناولنا القهوة في صالون الباخرة وحين أعلن إلينا أن بعد برهة سنمر ببركان سترمبولي الذي سكن منذ أيام هياجه . لكنه ما يزال يقذف في وجه السماء أشواظا من نار يرسل الفينة بعد الفينة منها شرائظ . ووقفنا في مراصدنا تجاه الشاطئ الايطالي وأمسك بعضهم منظاريه رغم حلكة الظلام . ثم نادى أحد هؤلاء : هذا هو ذا رأيته .

وحدق الابصار وامتدت الاعناق وحاذت السفين منطقة البركان فاذا به يقذف من فوهتــه المتدثرة فى حجاب الظلمة كل دقيقة أو دقائق قطعة مصهورة من حجر أو حديد تندفع فى الجو كأنها شهاب ثاقب، أو كأنها النار التى يقص العجائز ان عيون الجن تتقدبها وتقدح منها شررها. وكلما دفعت فوهة البركان بواحدة من هذه القذائف ارتفع من بين المسافرين فى صوت واحد نداء : ها هى : ثم عادوا ينتظرون القذيفة التى تليها يتنفس عنها غليان هــذا الجبل المائج جوفه . ولما كثر ما رأينا منها هدأ نداء المسافرين شيئا فشيئا حتى سكن وجعلوا ينصرفون واحداً اثر واحد حتى باعدت الباخرة بينهم وبينها ودخلت من الظلام فى لجة كانت هى وحدها ضياءها .

وفى الغــداة تناول الحديث وصولنا مارسيليا والساعة التى نبلغها فيها . وعلمنا انا واصلون صباح الغد . وعلقت الباخرة الاخبار اللاسلكية الـتى تلقتها من المرفأ الفرنسى فوصلت بذلك بيننا وبين حياة جديدة بمقــدار ما زجت بما خلفنا فى مصر طى النسيان . وقصت هذه الاخبار ما تجيش به فرنسا من قلق بسبب هبوط سعر النقد فيها . فقد هوى سعر الفرنك حتى صار مائتين وأربعين للجنيه الانجليزى بينما الجنيه الذهب لا يساوى الا خمسا وعشرين فرنكا ذهبا. وأدى ذلك الى استقالة الوزارة الاشتراكية التى كان يرأسها هريو وقيام وزارة بوانكاريه الائتلافية. وقد نشأت عن الهبوط على رواية اللاسلكى قلاقل فى باريس تنذر بقيام أهلها ضد الاجانب الذين يتلاعب نقدهم باسعار نقدها، والذين جعلوا من غلاء الحياة تى أهلها ما أزعجهم وأعاد امام أبصارهم أسباب الثورات

وأشباحها . وأعلن بعض المسافرين أنه سيبرح مارسيليا ساعة وصولنا اياها توآ الى سويسرا نجاة بنفسه عن ان يزج بها فى بلد يغلى جوفه باسباب الثورة كما كان يغلى جوف البركان الذى شهدنا من ساعات بقذائف الحمم . أما أنا فبقيت على عزمى ان نقصد توآ الى باريس فهى خير مصح نبدأ به لزوجى ولى. وربما زاد من خيره ان يضطرب باسباب القلق أهله بما يدعونا الى مزيد من التفكير فيه والى مزيد مثله من نسيان أنفسنا . وقد شهدت من قبل فى أمم مختلفة وفى باريس نفسها ظاهرات قلق بل ثورة فألفيتها لا تمس الا من ألقى بنفسه فى غمارها وأخذ بنصيب فيها .

وأرست الباخرة بكرة الغد فى مرسيليا فلم نتمكن من مشاهدة مدخل ميناها الجميل بهضابه وبالقصور المتوجة هذه الهضاب . وأتممنا التأشير على الجواز وجاء الحمالون فأنزلوا متاعنا الى الشاطئ ومررنا به من الجمرك وأقلتنا سيارة اخترقت بنا أحياء مارسيليا فأرتنا من جديد حياة جديدة وأنزلتنا فندق « نواى » لنبدأ فيه حياة الفنادق فنبدأ حياة جديدة هى الاخرى

***

صعدنا الى غرفة الفندق التى اخترنا وصعد الحمالون اليها بمتاعنا وأجابت جرسنا خادمة تخطو من الصبا الى الشباب صبوح الوجه باسمة السن ضاحكة النظرة متوردة الخد ناصعة اللون حلوة التقاطيع متقاربة القوام بضة من غير سمن كلها حياة وصحة وكلها هشاشة باشة ويكاد كل جسمها ووجهها ونظراتها وثغرها يصيح من فرط الشباب حبوراً ومرحا . وما لبثت أن دخلت حتى فتحت النوافذ فأرتنا

ميدانا تتوسطه الاشجار باسمة الخضرة الزاهية. وأجابتنا الى ماطلبنا في بشاشة وخرجت كذلك في بشاشة . وأجالت زوجي بصرها في الغرفة مرة أخرى وأطلت مرة أخرى من النوافذ وجلست الى المقعد الطويل تطوق ثغرها ابتسامة خالصة لم أشهد منذ ثمانية أشهر مثلها ناطقة بالغبطة والرضى كأنها تستقبل بها هذا النوع الجديد من الحياة ترى فيه أملا جديداً في شيء من السعادة كان قد خيل اليها أنها فرت من بين يديها فرار الأبد ولم يبق لها في شيء منها رجاء . وسعدت أنا بهذه الغبطة أن أيقنت فيها بداية البرء من سقمها النفسي الذي هد وجودها وضعضع صحتها. وبداية البرء بشير خير بتواتر تقدمه . لذلك أيقنت أنها واجدة في باريس الدواء الناجع لهذا السقم

وخرجنا نجوب شوارع المدينة المحيطة بالفندق وندخل الى بعض متاجرها . وأخذنا عربة عند مقترب الظهر طافت بنا البرادو والكورنيش والكانبيير ثم انتهت بنا الى مطعم له شهرة في صنع سمك البريابيس . وأذكرني طواف العربة بنا في هذه الشوارع والمتنزهات البديعة على الشاطىء الفرنسي الجميل الكلمة المعروفة التي يسخر أهل باريس من أهل مارسيليا حين يقولونها : « لو أن باريس كان بها كانبيير لكانت مارسيليا مصغرة». ولئن يسخر أهل باريس من هذه الكلمة فللمرسيليين عنها من العذر أن متنزهاتهم هذه والبرادو في مقدمتها لها من روعة الجمال وتنال من عناية بلدية المدينة ماينقل اليك أثناء اجتيازك اياها من سحر ابتسام شجرها وزهرها ومن التقاء هذا الشجر في بعض

مواضعه بالكورنيش الذى يحاذى البحر وصخور شاطئه ماينسيك كل شجن ويطير بك على أجنحة الخيال والنسيم كل مطار .

وعدنا بعد تناول الطعام الى الفندق نسأل عن مواعيد القطارات المسافرة الى باريس معتزمين اجتياز طريقها أثناء الليـل . لكن صديقا ذكرنى بجمال هذا الطريق وبأنه جدير بأن يراه الانسان فى سفره . ولئن كانت اربعة عشر عاما قدمضت منذ تركت فرنسا فإن مالا يزال باقيا من أثر جمال أريافها فى نفسى جعلنى أفضل الأخذ برأى صديق . وكذلك أتاح لنا الحظ أن نقضى اربعا وعشرين ساعة كاملة بمرسيليا هى أطول مدة أقمتها بها خلال المرات الكثيرة التى جزتها فيها .

وقضينا عصر ذلك اليوم نرتاد المدينة آنا فى عربة وآخر على الأقدام. واحسب السير على الاقدام خير وسيلة لمن أراد أن يعرف شيئا عن بلد يحل لأول مرة فيه . وأنا لفى مسيرتنا اذ استوقفنا بناء جميل فخم كله الرهبة والجلال لايشوبها عبوس ولا ينقصهما حسن اتساق . وصعدنا النظر فى واجهة البناء فاذا مكتوب على بابه « قصر العدالة ». هذا القصر اذن هو محكمة مارسيليا الكبرى . هو مأوى القانون ورجاله والعدالة وطالبيها . هو معبد كهنة الحرية والنظام فى هذا العصر الديمقراطى الذى سما بحرية الفرد الى مكان القداسة العليا فلارقيب عليها ولا حسيب الا أن يحاول الفرد الاعتداء على حرية غيره . فاذا فعل ألقت عليه سلطة القانون يدها وجاءت به أمام هؤلاء الكهنة . وهم افراد من أمثاله لا امتياز لهم فيما وراء جدران هـذا المعبد عليه ، فطبقوا عليـه القانون الذى

ارتضى لا القانون الذى يفرض عليه ولو على كره منه . هـذا المعنى جدير بأن يقام له هـذا القصر بل هـذا المعبد الرهيب الجليـل . فالعدل القائم على أساس الحرية الصحيحة هو اسمى المعانى الجديرة بالتقديس والاكبار . والناس ما استمتعوا بحريتهم وما قام العدل بينهم ليكفلها ويحميها جديرون بأن ينالوا كل مايمكن أن يكون فى الحياة من سعادة وأن ينهضوا بالحياة وبالانسانية الى مرتبة الكمال التى ترجو الانسانية بلوغها .

ومررنا بميدان فسيح لاتستوقف النظر عمارته ، لكن زوجى استوقفتنى منه عنـد منظر أثار دهشتها وعجبها لأخلاق « هؤلاء الفرنسيين » . ذلك شاب وفتاة يتحدثان فى الطريق . فلما آن لها أن يفترقا قبلته وقبلها وتخذ كل سبيله . أو ليس مدهشا حقا أن يتبادل شاب وفتاة القبلات فى الطريق العام ، بل فى ميدان فسيح وبأعين جمهور المارة من غير أن يحول الخجل دون ارتكابهما هذا الفعل علناً . وذكرت لها أن هـذا من متعارف أخلاق الاروبيين فهو لايجرح حياء أحد ، وهو كذلك لأنه قبـلة أخوية للقاء أو وداع يعـبر اللذان يتبادلانها عن احساس جميل وعاطفة نبيلة . والاعمال تقدر ، ويجب أن تقدر ، بالنوايا التى تدفع اليهـا أكثر مما تقدر لذاتهـا . والحياة الحرة التى بلغتها أوربا بعد جهاد طويل وثورات مضنية وتضحيات غالية ، والتى أقامت بين الرجل والمرأة من المساواة والاخاء ماجعلهما يتبادلان العواطف والمنافع كما يتبادلها رجلان أو كما تتبادلها امرأتان ، قد قضت فى القـلوب والاذهان على الاعتبار الجنسى الوضيع الذى يجعله أكثر المصريين وأهل الشرق فى المكان

الأول من قدر صلات الجنسين الذكر والأنثى، وارتفعت بالنفوس الى اعتبارات انسانية سامية دفعت الناس جميعا رجالا ونساء ليتنافسوا كى يبلغوا فى الحياة كل مايستطاع من كمال . ومتى غلب نزوع النفس الى السمو أهواء الجسم فى التدلى الى شهواته اختلف معيار التقدير الخلقى واختلف تبعا له نظرنا الى أعمالنا وأعمال غيرنا وحسن قدرنا اياها أو أعراضنا عنها حياء من أن تقع العين عليها . فقبلة شاب وفتاة فى الطريق العام وضيعة مخجلة اذا كانت دوافع الجنس وحدها هى التى تهيج نفسيهما بها . وقبلة شاب وفتاة بريئة طاهرة ماكانت مظهر حب طاهر وعاطفة شريفة . وما دامت الحرية الحقة تفترض فى الناس الطهر والبراءة فليكن النظر العام للقبلات كلها على انها قبلات انسانية سامية كقبلة الأخ لأخته والاب لابنته والخطيب لخطوبته ، ولتكن القبلة الوضيعة موضع اعراض عنها واغفال لها، وكفى بصاحبيها جزاء شعورهما بعدها بأن العمل الذى أتياه ونفوسهما ملوثة يكون أبدع مظهر للطهر والبراءة صادرا عن عاطفة أنزه وأنقى . وبعد فا هذه الصلات التى تلوث جمال القبلة وماقيمتها من نفوس مهذبة وأذهان مصقولة وعقول تدرك أن أكبر متاع فى الحياة طرب الذهن لتفكير دقيق ومنطق سليم وطرب الفؤاد لفن جميل وأدب رائع ! وأجمل ساعات المرأة حين تبدو قطعة من الفن ومن التفكير وحين تسمو كل الصلات بينها وبين الرجل لتكون فنا وتفكيرا هى الأخرى .

وقضينا طرفا من الليل متنقلين فى أماكن مختلفة قريبة كلها من الفندق . وفى الصباح انطلق بنا قطار وجهته باريس يقطع من

جنات الله ربى ووديانا وغابات وأنهرا محاذيا الرون السريع الاندفاع تتجلى للمنظر من نوافذه أرض فرنسا الجميلة كأنها حديقة يسقيها المطر وتتدرج أغلب الاحايين مزارعها بين ارتفاع وانخفاض بما يلائم مسيل الماء عليها . وفى ديوان سكة الحديد الذى كنا فيه رجال وسيدات على غير ماألفنا فى أسفارنا بمصر . وهؤلاء وأولئك يتحدثون جميعاً بعضهم الى بعض بعدما أحدث السفر بينهم التعارف. ومن بين السيدات جميلة تزهو بجمالها ولكنها لاتراه وحده حياتها ولا تحسب فرضا على كل مافى الوجود أن يكون له عابداً . ونزلت هذه السيدة كما نزل غيرها ليون والمحطات السابقة لها وجعل رفقاء الديوان يتغيرون يتركه بعضهم ليجىء اليه غيرهم . فلما تخطينا ديجون ولم يبق بيننا وبين باريس غير محطة لاروش لم يكن بالديوان غيرنا الا سيدة نصف أدنى الى الكهولة صحبتنا من مارسيليا وهى لاريب تقصد مثلنا باريس . ومنذ تحرك القطار فى الصباح جعلت تلتمس فى حقيبتها غطاء من الشبكة لشعرها وتعنى الحين بعد الحين بشىء من زينتها وتقضى مابين ذلك ملقية نظرها على كتاب بيدها أو محيلة اياه فى الفضاء . فلما انفردنا واياها بعد ديجون اتصل بيننا حديث عرفت منه اننا مصريان نقصد الى مدينة النور تسليا بها عما أصابنا واننى أعرف باريس اذ قضيت ثلاث سنوات فى طلب العلم بها ، وعلمنا نحن انها كانت مدعوة فى الحفلة التى أقامتها شركة المساجيرى ماريتيم لتدشين الباخرة ماريت باشا وان الباخرة سافرت بهم ذهابا وجيئة بين مارسيليا وبرسلونه باسبانيا، واطلعتنا على صور صالون الماريت وغرفة الطعام بها وبعض غرف نومها . وسألتها ان

كانت دعيت كصحفية ليكون لى شرف مزاملتها فاكان أشد عجبي حين علمت انها الكاتبة الفرنسية الكبيرة مارسل تنير صاحبة «هللي» و«بيت الخطيئة»و«ملاحة العيش» وغيرها من الروايات التي يشيد بها الادب الفرنسي وتشيد به . وذكرت لها ماقرأت منها وما أثار اعجابي من كتبها فاستحييت وعدلت بنا عن حديث الادب وأخذت تحادث زوجي فيما لايمل النساء الكلام فيه : الملابس : وأعطتها عنوان خياطة زكتها بأنها متقنة غيرعالية الاجر وحذرتها من المحلات الكبيرة التي تستغل الاجانب شر استغلال. وعجبت أنا لهذا حتى خالجني الشك فى أمرها . فلئن كانت حقا مارسل تنير فما بالها تعدل عن حديث الادب الفرنسي حتى كأنها لا تعرف عنه شيئاً،وما بالها وقد تجاوزت بسنها الشباب مراحل تظهر كل ما أظهرت من عناية بزينتها، ثم ما بالها تقف من حديثها عند الملابس شأن أية فتاة وأية سيدة لم تنل من التثقيف والتهذيب حظاً يذكر ، بل لم تنل منهما أى حظ . ولكنها ان لم تكن مارسل تنير فلماذا تسمت باسمها ،وان تكن هى حقاً وكان ما أثار عجبي أغلب شأنها فما أشدها شبهاً بشعراء وأدباء عرفت وأعرف لا تلمح على سيماهم أى مظهر للنبوغ بل للموهبة وهم مع ذلك فى الشعر والأدب فحول مقدمون ، وكأنما يتنزل عليهم الوحي فى سر من الناس أو كأنهم اذا فرغوا من تصوير ما يلهمون شعراً أو نثراً خلت أفئدتهم فى انتظار وحي جديد . وهذا جان جاك روسو الكاتب الخالد يذكر عن نفسه فى اعترافاته أنه كان فى الجماعات أقرب الى العي وأبعد ما يكون عن حضور البديهة وفراغة الذهن . وهذا أمير الشعر العربي

فى عصرنا أحمد شوقى بك يصل منك الاعجاب بشعره الى غاية المدى فاذا تذاكرت معه فى شئ عن الادب العربى أو الادب الفرنسى خيل اليك أنه لايعرف شيئاً منهما. فلعل مارسل تنيره ان تكن هى التى رأيتها ، من طراز روسو وشوقى . أم لعلها استكبرت عن أن تحدثنا فى أدب فرنسا وقد ذكرنا لها أننا مصريان وفى ذهنها مثل ما فى ذهن أكثر الاوروبيين عن مصر صورة شوهاء يتراءى لا تشرفهم لأنها تدل على جهالة ما كان يصح بقاؤهم متورطين فيها . واذا كان لى أن أبتعد عن هذا التأويل بعد ماعرفت منى أنى قضيت بباريس ثلاث سنوات فى الدراسة العالية فانى لا أظنه مستحيلا وقد رأيت من جهابذة العلم والادب فى أمم مختلفة باوروبا من يبلغ بهم سوء التصور حتى لا يحسبون معرفة بالعلم والادب فى غير أوروبا ولغير الاوروبيين

على أنها رأت حينما قاربنا باريس أن لاتترك فى خيال زوجى صورة وهمية من عاصمة فرنسا تجعلها، حين تراها مدينة كالمدائن، تشيح عنها بوجهها وترى رحيلها اليها وماقطعت من بحار واقطار لهوا وعبثا . فذكرت لها أن باريس شوارع وطرقات ومنازل وعمارات ، وأن بها احياء فقيرة كغيرها من المدن وكالقاهرة نفسها، وأن الكثيرين الذين يحضرون لأول مرة اليها يظنون قبل نزولهم اياها أن مبانيها حجر من ذهب وحجر من فضة وأن هواءها معطر بالورد وأنها بعض ماورد فى الف ليلة وليلة من مدائن الخيال ،فاذا رأوا أن لاشىء من ذلك فيها أعرضوا عنها وأعتزموا الانصراف الى غيرها . لكنهم مايلبثون يقيمون بها زمنا حتى يتبدى لهم أن

جمال باريس روح باريس ؛ وأن الانسان كلما ازداد بهذا الروح اتصالا ازداد به تعلقا وشغفا . ووافقتها أنا على ذلك تمام الموافقة واضفت أن مايبدو للنظرة الاولى من باريس هو أقبح جمال باريس، وأن طول المقام بها والمزيد من التعرف اليها والاختلاط بصميم حياتها ذلك هو الذي يكشف عن روعة جمالها وعظيم بهرها .

وبلغ بنا القطار مدينة النور قبل منتصف الليل بساعة فاذا أرصفة محطة ليون من محطاتها تكاد تكون خالية واذا نورها ضئيل واذا بنا نصيح بحمال ينقل متاعنا خارج المحطة فلا يجيبنا أحد زمناً غير قليل . ومتاعنا كثير غير سهل الحمل . فجعلت أدور هنا وهناك مناديا : شيال . شيال . حتى عثرنا منهم على من أوصلنا الى أوتوبيل أقلنا ومتاعنا الى فندق شاتام مجتازاً أكثر الشوارع خلاء وسكونا في هذه الساعة الساكنة بطبعها من ساعات الليل . وكان السفر قد هدنا تعباً ولغوبا فأوينا الى غرفتنا منتظرين بكرة الصباح لكي نستقبل باريس وتستقبلنا باريس .

فى باريس

بعد أسبوعين من مقامنا بباريس دلفت ضحى يوم منفرداً أسير الهوينا فى طريق الاوبرا، من ميدان الاوبرا الى ميدان التياترو الفرنساوى، أمتع النظر بما حوته حوانيت هـذا الطريق ومخازنه من بديع الطرف وروائع آثار الفن . وانتهيت الى قهوة الريجانس نحو الساعة الحادية عشرة . ولم أر المكث على مائدة من موائدها الخارجية التى تشهد المارة فى الميدان يسيرون جميعاً مسرعين سواء منهم الرجال والنساء والشباب والشيب، بل جزت الى داخل المكان وجلست الى مائدة فى أحد أركانه وطلبت « نصفاً » من البيرة ثمناً لجلوسى . وداخل الريجانس كداخل أكثر مقاهى باريس ضئيل الضياء حتى لينيرونه بالكهرباء فى الأيام الغائمة . وجعلت وأنا بمجلسى أجيل الطرف فيما حولى وأفكر فيما أضيع فيه الزمن الباقى على موعد الغداء . وكان الى جوارى شخصان مكثا حوالى ربع الساعة ثم انصرفا وصرت بعد ذهابهما وحيداً فى المكان كله . فطلبت الى الخادم أدوات الكتابة ورحت أسطر رسالة «للسياسة» عن باريس ورحلتى اليها . وما كان لى أن أفضى للناس فيها بما تتوجع له نفسى وأنا أشدهم مقتاً ان يرى احدهم أى مظهر من مظاهر ضعفى . لكن الكاتب لا يصدر فيما يكتب الا عن نفسه . ولئن تناول غير ما يدور بخاطره فان ما يتناول يصطبغ أبداً باللون الذى يرى هو به الحياة . لذلك كانت مقدمة رسالتى الأولى من باريس كما يأتى :

« أربعة عشر عاماً من الحياة (من سنة ١٩١٢ الى سنة ١٩٢٦) تقضت بين مغادرتي باريس بعد تمام دراستي بها ، وعودتي اليها زائراً متنزهاً ككل زائر متنزه . أما باريس فتغيرت أن صارت أكثر حياة وحركة . وأما أنا فتغيرت الى نقيض ما تغيرت باريس . وما بالك بأربعة عشر عاماً هي خير أشطر الحياة تساقط واحداً بعد الآخر في غيب الماضي بين حرب وثورات واضطراب لم ير العالم ولم تر مصر لها نظيراً . ما بالك بربيع الحياة تطوح به الحياة في السعير واللهب وفي حمأة الجنون والهوس العالمي مما لا يزال يضطرب به جوف العالم . لذلك كان مقامي بباريس تملؤه الحسرات ! أين الفؤاد الذي كان يهتز لما في باريس من روعة ولما في ضواحي باريس من جمال ؟! أين النفس التي كانت لا تعبأ بالقذى التافه لأنها تستطيع أن تهضم الرواء العظيم الذي يشمل مدينة النور وتفيض مدينة النور به !وا أسفا! ان الممعود ليضطرب لمرأى أطايب الطعام ، والاعشى ليقذى بساطع الضياء ، وهما مع ذلك يدركان لذة الطعام السائغ وبهاء النور الوضاء. كذلك من تحدرت سنون شبابه فعدا الزمن على فؤاده وخرم الهم شغاف قلبه. هو يرى بهاء الحياة وجمال الوجود ويقدرها ويعجب بهما . لكن حجاباً ما يفتأ يغشي خاطره الكليم يحول بينه وبينها ويجعل منها ، الحين بعد الحين ، عذاباً له وألماً . أرأيت الى هذا البدر المحجوب بغلالة بنفسجية فوق قوس النصر ؟ لقد كان من أربع عشرة سنة بدعة من بدائع باريس تتعلق بها الأنظار ساعات متواليات . ألم يكن البدر يومئذ عاشق السموات أحله الحب وشفه

الغرام والجنون ! ألم يكن يحبو فى غلالته مبطناً آمالاً فى لقيا محبوبه شفاء من ألم أرقه وأضناه . أما اليوم فتحت قوس النصر قبر الجندى المجهول . وفى قلوب كثيرة قبور لجنود غير مجهولة . قبور اخوان وخلان وآباء وأبناء . نعم وأبناء ! وهل لمن فى قلبه قبر ابنه بالبدر أو بباريس عزاء ! انما عزاؤه فى الحياة ملكه الحياة واخضاعه اياها راضية أو كارهة .

«ولكن ...... هل أنا وحدى تحدرت بى سنون الشباب، أو أن باريس هى الأخرى عانت ما عانيت وتألمت كما تألمت وحزنت بعض ما حزنت ؟ أما الفرنسيون فيجيبونك أن باريس اليوم ليست باريس الا أن يكون الصالح الذى أثم والبرئ الذى أجرم ما يزال هو اياه لان عينيه ما تزالان تلمعان حرصاً على الحياة ولأن قوامه ما يزال معتدلا كما كان . نعم . ما يزال قوام باريس معتدلا ليس كمثله اعتدال وعيناها ما تزالان تلمعان حرصاً على الحياة . بل هى اليوم أكثر حياة وحركة . ما تزال باريس مدينة النور ومهبط وحى الفن . لكن نور باريس وفنها ليسا صفواً كما كانا . لم تبق باريس الغادة الهيفاء الضاحكة السن الناعمة البال المطمئنة للعيش الواهبة الحياة كل ما فى الحياة من جمال . بل ارتسم على جبين مدينة النور ، وما يزال أملس وضاء ، جهام من وجل تقطب له ناظراها فوقفت مستبسلة كى تدفع غارة الاجنبى وعدوان الجاهل جمالها وهيبتها المتزعاله كى يملك هذا الجمال وهذه الهيبة من غير أن يكون قلبه وعقله وجنانه على ملكهما قديراً »

أقرأ اليوم هذه المقدمة لرسالتى الاولى فأسأل نفسى أفكنت

كتبها بهذه النغمة المحزونة لو انني ذهبت يومئذ الى باريس زائراً متنزها ولم أذهب اليها مستشفياً طالباً الشفاء لشريكة حياتي وقد هدها المرض النفساني أضعاف ما هدني . لقد بدأنا سياحتنا بعد ذلك بعام ، وبعد أن كانت النفس قد اطمأنت الى ماأصابها، بزيارة الاستانة . وعن الاستانة كتبت ماسيتلوه القارىء من رسائل كلها الحرص على نسيان النفس فى روعة الوجود لتنسى النفس فيها مايحزنها ذكره . أما فى باريس فكان الجرح لماينكدمل وكانت اللوعة ماتزال تبرح بالنفس فى ساعات الوحدة من مثل تلك التى كتبت فيها رسائلى الاولى . على أن مقتي لظهور الناس على ضعفي جعلني أخفيه فأجمله ضعف باريس وهمها بسبب تدهور سعر الفرنك يومئذ فيها فأقول .

« هذا هو الهم الذى يخترم نياط قلب باريس اليوم . وهو لكل فرنسى هم مقيم مقعد . فما تكاد تجلس الى أحدهم وتتحدث اليه فى أمر من الامور حتى يكون عود الحديث وختامه عن الفرنك ولو كان بدؤه عن الادب أو الفن أو السياسة أو أى ماشئت من شئون لاترى أنت لها بالفرنك علاقة أو صلة . وليس فى ذلك من عجب والفرنك وهبوط سعره هو اليوم مرض فرنسا العضال . ومن شأن كل مريض ان يربط كل مافى العالم بمرضه . فالجو والشمس الساطعة أو الذابلة وضجة الناس واضطراب الحوادث وكل ماينظر له الصحيح على أنه بعض مظاهر الحياة الدائمة التغير مع ثباتها الدائم ينظر له المريض فى علاقته بعلته ويكاد يخيل اليه انه يتغير ليزيده علة أو ليدنيه من العافية . وهو لايخفى أمر ذلك على جليس من جلسائه

و عائد من عواده. بل يتحدث به ويفيض فى شرح صلته بأسباب علته ويلتمس فى كلة من محدثه أو نظرة من نظراته بعض « باب الشفاء » .

ولو ان الحق وعرفان الجميل هما وحدهما اللذان أمليا على تلك الرسالة لاقتضيانى أن لا أسلم قلمى الى وحى العاطفة وحده وان أذكر ان هذين الاسبوعين كان لهما من الاثر على نفسينا أطيبه ، وان كل يوم من أيامهما كان يوسع للفؤاد فى فرجة الأمل ويحطم جانباً مما أقامه الهم تمثالا لليأس فى قلب زوجى ويعيد اليها رويداً رويداً طعم الحياة كما لا تفتأ تذكر . فقد قمنا بكرة الغداة من وصولنا فدلفنا من الفندق فى شارع « دونو » الى طريق « الكابوسين » ثم الى ميدان الأوبرا ومقصدى أن أريها دار الاوبرا البديعة وميدانها قلب حى الحياة من قلب باريس ، وأن أسير واياها فى طريق الاوبرا الذى سرت ميمما الرمجانس فيه يوم كتبت رسالتى الأولى لترى معروضات حوانيته ومخازنه واثقاً من أنها واجدة فيها من صور الجمال والزينة ألواناً ليس لنا بها فى مصر عهد ، واجدة بذلك فى الحياة جديداً يسرى عنها برمها بالحياة ويفرج من ضيق صدرها بها . وعجبت ان لم تحقق البرهة الأولى ظنى . فانها ما لبثت اذ رأت مئات الاتوموبيلات المتتابعة فى طريق الكابوسين ثم ما لبثت فى تخطينا من ميدان الاوبرا الى طريقها ان اضطربت امام حركة الاوتوموبيلات الذاهبة والآيبة بين ميدان الأوبرا وميدان الفندوم وأن بدا عليها الضجر من هذه الضجة المفزعة . ثم لعلها ، برغم حديث مارسل تنير حين كانت تقدم باريس اليها ، كانت تنتظر ان

تحيط نظرتها الأولى لها بغير ما أحاطت به . على أن هذا الضجر ما لبث أن زال أكثره حين جعلنا نقف أمام معروضات طريق الاوبرا فى كل حانوت من حوانيتها ومخزن من مخازنها . ولطريقة العرض وحدها أثر فى النفس كبير . والفرنسيون أكثر أهل الامم فى طريقة العرض براعة . لذلك استرعى نظرها الشيء الكثير مما تحتوى معارض هذه الحوانيت . استرعت نظرها صور وتماثيل كما استرعت نظرها أقمشة وأزياء فجعلت تقارن بين أزياء باريس وأزياء مصر مما اعترف بأنى غير طويل الباع فيه ولذلك اقتصر على الاستماع اليه والموافقة على مايبدى من الملاحظات فى شأنه . وأنا لكذلك اذ غامت السماء وأرسلت رذاذا جعلنى أفكر فى ضرورة المظلة أو المطرية كما يسميها الفرنسيون ، فى بلاد ما أكثر المطر فيها صيفاً . وتابعنا طريقنا حتى اذا كنا على مقربة من ميدان التياترو الفرنساوى أفضيت الى زوجى بأنا يجدر بنا أن نقضى مساء اليوم نشهد التمثيل فى « الكومدى فرانسيز » فقالت

— لكن الفصل صيف وفصل أجازات . أفلا تخشى أن يكون المتفننون من الممثلين قد غادروا باريس الى مصايفهم وبقى من دونهم من الممثلين درجة ؟

فاجبتها :

— لاعليك ياصديقتى . ان بيت موليير يعتبر فى نظر كل فرنسى عنوانا من عناوين مجد فرنسا ، فلن يسمح رجاله لهذا المجد أن يتضاءل ضياؤه فى الصيف أو فى الشتاء . ولن ترى يوما فى بيت موليير رواية لاينال موضوعها اعجابك ولا يأخذ تمثيلها بلبك كل مأخذ .

وذهبنا وكانت رواية (الحب يرعى — L'Amour Veuille) فما اخرجنا كانت أشد مني اعجابا ببيت موليير وتقديراً له كآية من آيات مجد فرنسا . ولم تقف بتقديرها عند التمثيل والممثلين ، بل كان الجمهور وكان جو المكان وعمارته وكل مافيه ذا نصيب في هذا التقدير. فلم يكد أول فصول الرواية يرفع الستار عنه حتى كانت المقاعد كلها قد جلس اليها النظارة ولم يبق منها مقعد خالياً . ورغم هذا الحشد العظيم لم تكن تسمع أثناء التمثيل همساً أو جرسا الا ما يفيض به الاعجاب ببراعة ممثل أو ممثلة في موقف من المواقف من دوي المكان بالتصفيق. وزينة المسرح وملابس الممثلات بنوع خاص كان من بعض مالفت نظرها . على أن هذه اللغة الفرنسية الرقيقة القوية وهؤلاء الممثلين والممثلات الذين يصورون بها أشد العواطف عصفا بالنفس وأدق الافكار اتصالا بالذهن، ذلك ماهو أدى بالجمهور الى اقباله وحسن استماعه وعظيم اعجابه وهو ماأدى بنا لنكثر التردد من بعد على مسرح فرنسا القومي . وانتهى الفصل الاول من الرواية فتركنا أماكننا الى بهو الممثل مجتازين اليه من طريق الشرفة المطلة على ميدانه . والشرفة طويلة نحو الثلاثين متراً . لكن طولها وحده ليس ملفت النظر، وانما ملفته هاته التماثيل الكثيرة القائمة فوق عمدها على مقربة من جدار الشرفة على ابعاد متساوية . وهي تماثيل نصفية للمؤلفين المسرحيين تبعث رأس كل مؤلف منهم الى تمسك صورة ماألف وصلته بهذه الصورة العصبية أو الدموية الخيالية أو الواقعية الشعرية أو المفكرة . وانتقلنا الى البهو فاذا به أربع تماثيل احداها تمثال كامل لفولتير بالحجم الطبيعي

واذا النظارة يخطرون يختال الشباب وتبسم الرجولة وبين المشيب . والشرفة والتماثيل والبهو والنظارة كلها تحدثك عن المسرح وفنه وتملأ نفسك اقبالا عليه وقدراً اياه . ودق الجرس للفصل الثانى فلما انتهى هبطنا نقضى الفترة ما بينه وبين الفصل الاخير فى الطابق الأول وصالته المتصلة بميدان اللوفر . وفى الصالة وفى بهو الدخول تحدثت الينا تماثيل موليير وراسين وكورنى كما حدثتنا تماثيل كبار الممثلين والممثلات وفى مقدمتهم مونيه سولى. فلما صعدنا للفصل الأخير لفتت نظرنا لوحة على جدار السلم كتبت عليها أسماء من استشهدوا من رجال هذا المسرح فى ميدان الشرف اثناء الحرب الكبرى دفاعاً عن وطنهم فرنسا ، فأعادت بعض هذه الأسماء الى الذاكرة صورا محبوبة فى براعة تمثيلها . وكذلك لم تكن الرواية التى نشهدها وحدها مأخذ النفس ، بل كانت البيئة كلها تنقلك الى عالم الفن التمثيلى وتجعلك أدق شعوراً ببدائع مايجليه الممثلون والممثلات على المسرح امامك .

ورأيت فى اعجاب زوجى بالمسرح دليلا حسناً على توفيقى فى اختيار باريس لتبدأ فيها استشفاءها وعدت بها الى الكومدى فرنسيز بعد ذلك مرات . ولم تكن أمسية تمر من غير ان نذهب الى أحد المسارح الا نادراً . على أن اعجابها بالكومدى كان لا ينفتأ فى ازدياد . وانى لا أنس لا أنس يوماً كانت فيه الى يمينى وصديق من أساتذة كلية الحقوق الملكية الى يسارى وكنا نشهد تمثيل رواية « ابنة رولان » ونسمع فيها البير لمبير ومدموازيل بييرا وزملاءهما من أكابر الممثلين والممثلات . و « ابنة رولان » رواية قديمة تقص

تاريخ حادثة بين الاندلسيين وشارلمان ملك فرنسا . وفيها يتحدث شارلمان عن المسلمين بأنهم كفار ويستنزل عليهم لعنة الله تطوح بهم فى أعماق سقر . وكان البير لمبير يمثل شارلمان . فما كان أشد عجبى ، وأنا أسمعه يرفع عقيرته بأشد عبارات التعصب ويدعو قومه لقتال هؤلاء المسلمين الكفار، ان أسمع عن يمينى وعن يسارى تصفيقا حاداً من مسامة ومن مسلم تصحبه عبارات الاعجاب بهذا الملك المجيد . والحق أن سمو فن الكاتب وعظمة الممثل وبراعته قد أنسيا السامعين كل ماسوى الفن والاعجاب به . ذلك بأنه أخذ بالمشاعر جميعا فأنساها الحياة الوضيعة وسما بها الى حيث لاتقدر شيئا غيره كائنة ما كانت المعانى التى يعبر عنها والصور التى يجلوها والعواطف التى يجيشها . وهل تريد للفن عظمة أكثر من أن يستر مايملأ نفسك من العواطف العميقة ليقيم مكانها ماينا قضها كل المناقضة !

ولست بناس لبيت موليير كذلك يوم شهدنا فيه رواية الحب — Aimer) تمثل : هذه الرواية الخالدة من روايات بول جرالدى يقص فى جانب منها فجيعتنا . فهذان زوجان فقدا وحيدهما واقفر العالم حولهما وهوى الحزن بالأم وتعلقت بأسباب الحياة تلتمس عزاء ورجاء . وكان لهما صديق كثير التردد على البيت كثير التودد للزوجة مابرح يزجى لها أسباب الاغراء حتى تعلقت به وأحبته وأعلنت ذلك الى زوجها وطمعت اليه فى أن يرد لها حريتها لتلحق بصاحبها من غير أن يلحقها عار أو ضيم . وعبثا حاول زوجها ردها الى حمى الزوجية والواجب . ثم هدته الفكرة الى أن ينزل عن الجهاد

وأن يدع المحاولات وأن يظهر كأن فراق زوجه لايعنيه. وأبلغها أنه أجابها الى حريتها فهي طليقة تفعل ماتشاء على أن لايبقى عنده منها فى البيت أثر . وجمعت الزوج متاعها وكل ماكان فى الدار لها وأرادت أن تستأذن فى الانصراف . فذكر لها زوجها أنها نسيت شيئاً لايصح أن يبقى بعدها وأعطاها صورة وحيدها الذى غادرها وغاله الموت منها وطلب اليها أن تحتفظ هى بها . وحدقت الأم بالصورة ثم ردت طرفها الى زوجها تسأله ان كان حقا أن ذهابها ينزع حتى هذه الذكرى المقدسة من نفسه . وكان جواب الرجل الجريح فى عزته الجريح فى أبوته أنها هى التى تريد فى سبيل هواها ان تمحو من كل نفس ذكر فتاها . وكانت هذه الذكرى هى التى ردت الى الأم أمومتها والى الزوجة زوجيتها وهى التى ربطت بين هذين القلبين برباط مقدس لايستطيعان وان حاولا منه فكاكا .

لست بناس ذلك اليوم . ولست بناس عبرات خنقتنى ولا سبيل الى حبسها وان حبست صوتى ان يجهش بالبكاء اشفاقا على جارتى التى ترى على المسرح مأساة لجيمة الأم فى وحيدها من جديد تمثل ، فتحاول ما أحاول عبثاً من حبس صوتها خجلا من الجمهور وضنا بالفن ان يفوته . وخيل الى زمناً ان خيراً لو غادرنا المكان، وأشرت بين فصلين بذلك اليها فاذا هى أشد حرصاً على شهود هذه الرواية وأشد حباً للمسرح من أجلها . وكذلك كانت الكوميدى فرانسيز حتى فى اسالتها العبرات الصادقة من مآقينا تمد يد الفن المحسنة فتجعل من كل عبرة بلسم شفاء لاشد جرح نفوراً . وكذلك كانت وستبقى بحق آية من آيات مجد فرنسا ، وكنت أنا على

حتى حين تخذت منها لصاحبتى أبرع وسيلة فى باريس للسلوى .

وكما أنك تتخطى طريق الاوبرا ما بين معبد الموسيقى (الاوبرا) ومعبد التمثيل (الكوميدى فرانسيز) فانك اذ تسير فى اتجاه الطريق نفسه ما تلبث بعد خطوات ان ترى أمامك المعبد الاكبر للنقش والتصوير اذ تقابلك البوابات الضخمة المؤدية الى الفناء الفسيح ، فناء متحف اللوفر ، والى حدائق التويلرى البديعة الجمال بقوس نصر الكاروسل وبالتماثيل الكثيرة الجميلة المنثورة فيها وبأشجارها المكتملة النماء وبفسقيات الماء يدور من حولها الاطفال يلعبون . وكنت قد رأيت منذ نزلنا باريس انا لا يجمل بنا ان نزور متحف اللوفر فى أيامنا الاولى وأن لا نزوره قبل زيارة غيره من المتاحف . بل رأيت أن لا نعجل بزيارة المتاحف ففيها دائماً هيبة ورهبة ونحن بحاجة الى رواء وبهجة . لذلك اخترقنا التويلرى أول زيارة لنا اياها ميممين ميدان الكونكورد تقوم وسط جوه الاوروبى الكثير التقلب مسلة الأقصر الفرعونية التى لم تعرف قبل انتقالها اليه ما تقلب الجو وما عبثه ، وان عرفت مدى ألوف السنين التى شهدت كيف تطل على معبد آمون وعلى معبد الاقصر وعلى آيات من مجد الفن الخالد الباقى . ووقفنا عل افريز حديقة المسلة نسرح البصر فى الميدان الفسيح تقوم فى جوانبه التماثيل الكبرى ومن بينها تمثال مدينة ستراسبور كان الى ما قبل الحرب الكبرى متشحاً جانبه بالسواد وها هو اليوم كغيره من التماثيل قد زال عنه السواد منذ استردت فرنسا الالزاس واللورين واستردت ستراسبور معها . وتقوم مع التماثيل

نافورتا المياه البديعتين ترسلان بالمياه صبوب السماء من أفواه السباع المتقابلة . وولينا وجهنا نحو الشانزليزيه مقابل حديقة التويلري فلم يبلغ البصر مدى هذا الطريق المظيم عند قوس النصر الاعظم . وعن يميننا امتد شارع رويال منهيا بكنيسة المادلين الموهوبة العزة فى غير جفوة ولا قسوة . وعن يسارنا تخطى البصر نهر السين ليقع على قصر بوربون دار مجلس النواب الفرنسي . ماهذا كله ؟ أين هذا في مصر وأين هذا في أوربا بل في العالم كله ؟ ماهذا الجمال والجلال وما هذه العظمة البديعة اختيالا وتيها ؟ ان هذه المجموعة التى تشهد لمجموعة فذة فى عالم العزة وفنها ، وهى بحاجة لكى تنال النفس ريها من بهائها الى عشرات بل مئات من الزيارات لا تزداد النفس بعدها الا تعلقا به وشغفا باستجلاء بديع الدقائق فى دمعها . ومع ذلك فهذا الميدان الفسيح المحيط بكل هذا الجمال قل من يقف فيه اجتلاء لجماله الا الذين قدموا باريس وزاروه للمرات الاولى . فهو على انه متحف تماثيل وعمارة هو متحف فى الهواء الطلق ، وهو متحف فى وسط هذه الحركة العنيفة ماتكاد فى ساعة من النهار تهدأ . ولذلك يمر الناس به سراعا تطير السيارات عن تقله منهم ويسرع المشاة الى تخطيه لتحطمهم السيارات ومن فيها . على أنى بينما أشارك زوجى فى الاعجاب بروعة الميدان وما فيه أسرعت بذاكرتى لفتة الى الماضى حين كان الكونكورد بعض الميادين التى خطا بباريس فيها شبابى وحين كانت المادلين أول عمارة باريسية فخمة وقع عليها بصرى . وما عسى تفيد الذكرى أو ينفع رجع الشباب فى مثل موقفى . فدلفنا متقين العجلات الى

الشانزليزيه متخطين اياه الى الطرق المحاذية له لا تفصلها عنه فاصل وتزينها الاشجار تكاد تحسبها غابة لا يصل نظرك الى آخرها . والقينا عصا التسيار غير بعيد ان طال بنا السير فاستوقفنا عربة ازلتنا حيث نتناول طعام الغداء .

وعدنا بعد ذلك مرات بل عشرات المرات الى التويلرى فالشانزليزيه . وعدنا اليهما في ساعات مختلفة من الليل ومن النهار . أتراني أستطيع وصف ماتقع عليه العين منهما أو ماتنقله للنفس من احساسات ومشاعر ؟! من العبث أن أحاول وصف مجموعات العمارة مما تقع عليه العين في الشانزليزيه عند تقابل القصرين الكبير والصغير عبر الشارع الذي يفصلها لينتهي الى جسر الاسكندر أبهى جسور السين وأروعها بتسوره المحلقة يلمع في الهواء لونها المذهب ، ويسير الطريق من بعد الجسر حتى ينتهي الى الانفاليد مثوى نابوليون ومستقر رفاته « بين أمة الفرنسيس التى أحب حباً جما » كما كتب على باب قبره . ومن العبث أن أصف قوس النصر الأعظم غاية الشانزليزيه وملتقى شوارع باريس الاثنى عشرة الكبرى ومن بينها طريق غاب بولونيا الذى ينتهي بك الى مسرح ما في باريس من حياة فن وعاطفة وشعور ورغبة . من العبث ان أصف لك هذا وكل من القصرين والجسر والقبر وقوس النصر يحتاج كل واحد منها الى دراسة في الفن ودراسة في التاريخ لوصفه ، ويحتاج الى أن تقف لذلك عنده الساعات تباعاً . ونحن أشد حاجة الى السلوى منا الى الدراسة ، وأشد حاجة للمتاع بما تنقله الى النفس هذه المجموعة الفذة في مجموعها من اعجاب بها وبما تشتمل عليه من حركة دائمة النشاط حتى تخيل لزوجي أول

مرة رأتها أنها فى يوم عيد ، أو على حد تعبير سيدة مصرية جليلة ، أنها فى مولد النبى . والحق ان هذا النشاط الدائم الحركة فى هذا الحى البديع من أحياء باريس ليشعرك أنك فى مثل يوم الحشر . أنت كل لحظة فى وجل من العجلات ، فاذا أنت ركبتها رأيتها مضطرة لأن تقف برهة بعد برهة خضوعا لنظام حركة المرور ، ولأن تدفع من البنزين ومن الجاز مايضيق له فى كثير من الاحايين صدرك ويزكم له أنفك . ثم انك بالكونكرد والشانزليزيه ماسررت بهما صدر الليل أكثر متاعا . فى هاته الساعات حين يبدأ شىء من السكون ينسل الى شوارع باريس وميادينها ، يمسى الكونكورد والشانزليزيه بحراً لجيا من ضياء المساء يكسو المار بهما من غير أن يغرقه ، ويبعث خيالاته الى كل ماينطوى عليه الليل من نعيم ومسرة وهدوء يستمتع بنور الليل الذى لاتعرفه مدينة ماتعرفه مدينة النور . فاذا دلفت الى الطرق المحاذية للشانزليزيه وجدت كل آن وحين ملاك الحب يتمشى تحت أشجارها أو يستريح الى مقعد من مقاعدها مصورا فى شاب وفتاة اكثر أمرهما متخاصران وهما يتناجيان بوحيه ويتابعان سعيدين مسرى اهوائه . وتبدو لك هنا وهناك خلال أشجار هذه الطرق أنوار وضاءة تهدى الى ملهى فيه طعام وشراب ورقص وموسيقى وفيه امترفين من أهل اليسار ماتخفف عنهم عبء أموالهم وما يحدثهم غير حديث هؤلاء الذين يكتفون بالسماء والشجر ستارا لحبهم لأنهم لايجدون لغير السماء والشجر الوسيلة . فاذا اغذذت فى الشانزليزيه سيرك مصعدا نحو قوس النصر حتى مررت بالقصرين الكبير والصغير تقاربت فى

الطريق الفخم الانوار والفنادق والقصور فلم يبق للحب المطمئن في هذه الناحية ستار وان بقيت له بعد قوس النصر في طريق غاب بولونيا وفي كثير غيره من الطرق أستار . وفي هذه الناحية المهتوكة الضياء يقوم مسرح الفمنا وملهى ألليدو وغيرها من متع باريس ماجن الليل أهل باريس . وقد استحدث في هذه الناحية من المقاهي والمطاعم والبارات ماجعلها، وهي التي كانت من قبل حي السادة والاستقراطيه من أهل باريس ، تشبه (الجران بولفار) مسرح الديمقراطية التي سادت بعد الحرب فطغت على الاحياء جميعا ، وان بقي حي الشانزليزيه في ديمقراطيته مكان ارستقراطية المال الذي جد بعد الحرب لمن كانوا من قبل لا يملكونه. وهذه المطاعم والمقاهي هي أنس الشرقيين الذين يقصدون باريس لما تتيح لهم من حياة كلها الشبه بحياة الشرق في اطمئنانها وكسلها . فاذا أنت جاوزت المطاعم والمقاهي وبلغت قوس النصر وادرت بصرك فيما حولك رأيت بساط الليل ممدودا فوق ما سوى الشانزليزيه من كبريات الطرق ليست فيها أنوار الشانزليزيه وليست فيها حياته .

وقفت يوما الى جانب قوس النصر أحدق بالنار الخالدة تبدي مافوق قبر الجندي المجهول لهيبها . لم يكن هذا القبر ولا كانت هذه النار هنا من سبع سنوات ماضية ومع ذلك صارا في عداد الخلد الذي صار قوس النصر قبلهما اليه. وهما بالخلد جدير ان لأنهما يمثلان فكرة خالدة هي فكرة التضحية في سبيل الوطن. التضحية الصامتة المجهولة التي لم تفكر يوما في أية فائدة مادية أو معنوية ولا فكرت في مجد أو جاه أو بقاء على الزمن . التضحية يرتضيها صاحبها باسما

سعيداً لأنها واجبه يؤديه غير منتظر جزاء ولا شكورا لا لأنها وسيلة يمن بها على مواطنيه ليقتضيهم عنها مضاعفا . التضحية الصادقة الخالصة اخلاص تضحية الأم لابنها والمؤمن لله والانسان للوطن . التضحية فى أسمى صور التضحية وأجل معانيها . هذا المعنى الخالد جدير بأن يكون مثاله فى كل نفس خالدا . وأنت لذلك تشعر أنه كان فى هذا المكان منذ الأزل ، وأن فراغ هذا المكان منه قبل أن يقام فيه انما كان تفريطا ممن أقاموا قوس النصر وهم يعلمون علم اليقين أن لا نصر فى الحياة من غير تضحية .

ومتى أقيم قوس النصر هو الآخر ؟ ومتى شق الشانزليزيه ؟ ومتى أقيم القصران الكبير والصغير ؟ ومتى مهد ميدان الكونكرد ؟ ومتى نسقت حدائق التويلرى ؟ وكم من الاجيال أقامت قصر اللوفر ؟ نعم ! كم اقتضت هذه المجموعة نرتع خلالها ونستمتع بجمالها من زمان وجهد وعبقرية ؟ قل ان يعرض لنا هذا السؤال ونحن نتخطاها على حين يقضي بعضهم سنوات من حياته بل حياته كلها يتقصى أخبار هذا التاريخ العظيم الذى تنطوى عليه هذه البقعة من باريس ليست أقدمها وان كانت أروعها ، وليست أبقاها أثراً فى النفس وان كانت أشدها أخذاً بالنظر وبهرا للب . وأنت فى غير حاجة لكل هذه الدراسة التى يقضى فيها من شاء السنوات ليقص أخبارها ، بل أنت فى غير حاجة للرجوع الى قصص هذه الاخبار لتقدر ما ذاب من فلذات الانسانية أذهانا وأرواحا وخيالات وعواطف وأذرعا ليذر لنا وللاجيال من بعدنا أن نشارك هؤلاء الذين سبقونا فى الحياة فى ارتشاف أكبر نصيب من حياة الكون والوجود كله .

ان ما يقع عليه نظرك كفيل وحده بأن يريك من هذه الاجيال ونبوغها وسمو فنها وقوة عاطفتها وجلد أذرعها وبنائها ما يشعرك نفسك صغيراً بينها بانقطاعك عنها ، كبيراً معها باشتراكك واياها في ذوق الفن والسعي لمزيد منه تستمتع الانسانية به . حقاً ! ان الوطن ليس هو هذه الارض التي نحفظ منذ صغرنا حدودها ونعتبر شركاءنا عليها اخواناً وأعواناً ، بل ان للآباء والاجداد ، وللمقابر وللرفات ، لحظاً من الوطن أعظم من حظ أرضه . حظاً هو الذي يجعل بقعة من الأرض وطناً ويجعل الوطنية روحاً ويجعل لنا بهذا الروح ايماناً تقتديه بمهجنا وأنفسنا وأرواحنا وتتخذ له من أرض الوطن معبداً ومقاماً . فمن أولاء أقاموا اقوس النصر وفيم أقيم ؟ ومن أولاء مهدوا ميدان الكونكرد ورفعوا تماثيله وفيم مهد الميدان ورفعت التماثيل ؟ وقصر اللوفر كم من ملوك تعاقبوا عليه ومن مهندسين صوروه ومن رجال فن نقشوه ؟ والقصران والجسر وقبر نابليون وكل عمارة وكل أثر !! ليس هذا ثرى الوطن ، ولكنه حياة ألوف الاجيال من أبناء هذا الوطن . ولذلك يدافع عنه أبناؤهم بايمان وحرارة ، لأنهم يدافعون عن آبائهم وعن تراثهم وعن أنفسهم وأرواحهم ! يدافعون عن الدم الذي يجري في عروقهم كما يدافعون عن الارض التي يقوم عليها هذا التراث المقدس عندهم وعند كل الاجيال التي تخلفهم والتي تطوى الرفات العالية التي أقامت هذا التراث فأقامت منه للوطن هيكله ومعابده وجعلت الوطن لذلك أكثر في النفوس قداسة كما جعلت النفوس أكثر بالوطن ايماناً .

جست هذه الخواطر بنفسي فأردت أن أفضي بها الى زوجي لعلها تشاركني فيها أو تدلي الى بخاطر جديد . لكني سرعان ما ترددت ثم أحجمت مخافة أن يثير ذكر الماضي شجنها بعد ان بدأ الامل يفتح لها أحضانه ويعدها في المستقبل متاعا بجمال العالم كله يعوضها عن عالمها الذي ذهب . ولقد سألت نفسي بعد ان اعتصمت باحجامي بم كنت أجيبها لو أنها صاحت بي :

— لا كان وطن ثراه رفات الأطفال وفلذات الاكباد :

على أن ذكر هذا الجدق جانب من جوانب باريس هفا بذا كرتي الى جانب آخر أشد اتصالا بها . ذلك هو « الشاطئ » الايسر والحي اللاتيني منه . هذا الحي الذي قضيت فيه خير ما قضيت بمدينة النور من شبابي . ولئن كان الشاطئ الايمن حيث مسرح الاوبرا والاوبرا كوميك والكومدي فرانسيز وحيث الكونكردوقوس النصر ومتحف اللوفر والجران بولفار وما يتصل به قد أمتعني أيام ذلك الشباب بما نعمت به سواء أكنت مقيما ببعض أحيائه أو كنت مرتاداً اياه لأعود الى حي الجامعة والكليات ، فان هذا الحي العلمي المليء بالشباب والنشاط وبالحياة الساخرة من الحياة وبالمتاحف والحدائق هو الذي كون شبابي ووجه معارفي ونظم الى حد كبير خطة حياتي . وزادني شغفاً بزيارته شوق للاماكن التي مررت فيها والمنازل التي آويت اليها والمعاهد التي درست بين المكاتب التي ترددت عليها وحديقة اللكسمبور طالما فتنت بجمال ربيعها والى وراء هذا الحي الذي تاسمت ووجود شبابه الذين بينهم نشأت واعتادت متحف اللكسمبور رقي بمنتيوزان لا يزين كمن ث

لمثليه وكم دورت حول جدرانه وتحت أقبيته أتمهد فيها عند فلاماريون الكتب الحديثة التى ظهرت وأبحث لديه عن الكتب القديمة التى اندثرت وأضيف من ذلك كله يوما بعد يوم جديداً الى حياتى والى عاطفتى والى روحى والى ذهنى . وما كانت زوجى لتخالفنى الى مشيئتى وأنا دليلها وقد أقمت لديها على حسن تصرف الدليل . ويسير عليك أن تصل الى حى العلم بأن تتخطى السين على جسر الكونكرد أو جسر سولفرينو أو جسر اللوفر أو أيا من هذا الجسور التى تقابل التويلرى ومتحف اللوفر وتكون بعد برهة فى طريق سان جرمان تنحدر منه خلال أى من شوارعه الكثيرة الى حيث تقصد عند الاوديون أو الكسمبور أو البانتيون أو شارع المدارس أو بالفارسان ميشيل . والى هـذه الاماكن مواضع ذكرى الشباب وطلب العلم ذهبنا ذات صباح وفى نفسى للقياها بعد انقطاع أربعة عشر عاما عنها هيبة وطفة وللوقوف بكل مكان تركت فيه بعض حياتى وترك لى على الحياة ذكراً باقياً شغف وحنين . هانحن بشارع المدارس أمام كلية فرنسا (College de France) نصب أمامها تمثال كلود برنارو أقفلت أبوابها فى هذا الفصل فصل الاجازات المدرسية . ومع اقفالها اخترق خاطرى أبوابها وحاولت أن أستعيد فى ذاكرتى صورتها فألقيتنى داخلا اليها منعطفاً عن يمينى الى قاعتها الكبرى لاستمع كما كنت من خمسة عشر عاما استمع الى برجسن ثم داخلا اليها ميمامها الذى يواجه الباب لاستمع كما كنت استمع الى دركيم . لقدمات دركيم وشغل برجسن بالدعوة للعلم ولفرنسا وما أزال أرانى جالسا فى هـذه القاعات الفسيحة يتابع ذهنى آراء

هؤلاء الفلاسفة الجبارين ومن حولى سيدات جاوزن الأمومة وشابات لما يدركنها وقسس ورجال من كل الطبقات والكل مصغ الى هذا الفيض من نور التفكير العلمى السامى يرتفع بصاحبه فوق كل اعتبار دينى أو غير دينى ويحله من كل قيد اجتماعى أو مادى ويحلق به فى سماوات رفيعة ينسى فيها نفسه والعالم المحيط به ويستمع لهؤلاء الدعاة الى مدينة فاضلة جديدة تقوم على أساس العلم الواقعى الصحيح لا على صور وهمية تخلقها الخيالات والاحلام . ويخرج المستمعون من هذه القاعات تحوى كل واحدة منها عالما كاملا يعتقد صاحبه انه عالم الحقيقة والكمال فلا يأبهون ساعة خروجهم لضجة الحياة المحيطة بهم ، بل ترى جماعات تسير منهم يتحدثون فيما سمعوا ويبدى كل منهم عليه ملاحظته وترى آخرين يسير كل واحد منهم منفرداً يحاول ذهنه أن يضع ما عرض عليه من النظريات موضع التحقيق والنقد العلمى . وهذا الاتجاه الذهنى عندهم هو الذى يدعو الكثيرين منهم الى الاعتكاف فى قهوة أو محل حلوى أو نحو ذلك يجترون فيه هذا الغذاء العلمى الدسم يرددونه ويلوكونه وينقدونه يحاول كل منهم أن يكون لنفسه فكرة ذاتية منه تتصل بتفكيره فى نظام الحياة والعالم ليجاهد فى حدود طاقته كى يسمو بنظام الحياة والعالم الى مثال فكرته .

ومن عند كلية فرنسا صعدت يسرة الى سان جاك لاقف برهة أمام كلية الحقوق أذكر لديها سنوات ثلاثا كانت خلالها مثابة درسى ومآب تحصيلى ، وأذكر كذلك انى كتبت على منضد مكتبتها الغنية بالوف المجلدات الحقوقية والقضائية صحفا غير قليلة

من رواية «زينب» كنت أجد فى كتابتها فسحة واستراحة من عناء البحث والدرس . يارعى الله أيام الشباب وذكرت ابدا بالخير . انى لارانى الساعة داخلا الى الدهليز المؤدى الى المكتبة متخطيا اياه أقفز فى نشاط ومرح عشر درجات أو نحوها لأكون فى بهو الكلية يخطر فيه الشباب فتيان وفتيات بين منتظر درسه وخارج منه ويسرع آخرون الى هذه المدرجات الكبيرة (الأمفتياترات) يجلسون منها فى المكان الخالى ومنهم من يدخل فى أعقاب الاستاذ ومنهم من يضيع زمنا من درسه وأكثرهم متأبط كراسة يسطر فيها مايلقى من علم كيما يراجع مافيه من نظريات وآراء من بعد . والاساتذة فى عباءاتهم الطويلة وقبعاتهم الحمراء الصغيرة لاتكاد تستر الا بعض رؤسهم يسيرون فى وقار ورزانة ومن ورائهم حاجب علقت فى عنقه سلسلة طويلة من معدن وهو يحمل بين يديه عدداً من الكتب قل أن يفتح الاستاذ منها كتابا لأنه يحيط بما فيها احاطة مدقق ناقد ذى رأى مستقل وفكرة تكونت بعد قراءة أضعاف هاتيك الكتب التى يحملها حاجبه واتسقت له فى كمال شبابه ثم جعل يصقلها ويدقق فى تحديدها وينفى كل مايراه من زيف يختلط بها حتى اذا بك حين تسمعه يلقيها وهو يهز رأسه الابيض الشعر الجميل المشيب تسمع الفكرة ملكت صاحبها كما ملكها فسمت به وسما بها وتملكته بمقدار ماأحبها وصار يقلبها أمامك فى حنان وأعزاز كما تقلب أنت طفلك العزيز قضيت لياليك وأيامك فى العناية به وأعانك القدر فى انجاحه فصار عندك كل شىء وصار عليك أعز من نفسك وصرت تتعصب له وتتفانى فى سبيله

على حين أنت متسامح فى شأن ماسواه غاية التسامح . وذكرت وأنا فى موقفى هذا من كلية الحقوق ذات مساء كنت أستمع فيه لجواز العلوم الجنائية الى العلامة الكبير جارسون ، الكبير على صغر جسمه وقصر قامته وبريق عينيه الضيقتين . وفيما هو يتحدث ضرب لنا مثلا رجلا قصد الى قتل ملك فأصاب شخصا يشبهه ولم يصبه ، أفيعاقب على جريمة قتل الملك وتطبق عليه الظروف المشددة ؟ وآخر أطلق عيارا على سرير شخص فلم يكن فيه ماجزاؤه ؟ فقلت أنا ان المثل الاخير هو مثل الجريمة المستحيلة وان المثل الأول فيه جريمة مستحيلة بإزاء الملك ولكنه القتل عمداً بالنسبة لمن وقع عليه . وهنا أبرقت عينا جارسون وانطلق فى فيض من الحجج بدأها بقوله : لكنى لا أسلم يا سيدى بالجريمة المستحيلة . ليس هناك شئ اسمه الجريمة المستحيلة . فالركن المعنوى هو كل شئ والركن المادى ثانوى بالنسبة له . ولو ان الركن المادى كان الأول فى التقدير لما عوقب الشروع بعقوبة الجريمة التامة ولو كان شروعا خائبا . وانطلق فى تدليله انطلاقة انقلب امام نظرنا اثناءها شابا حالى الكلمة متوثر الحجة ناهض الدليل حتى كنا جميعاً فى صمت ذاهل هو صمت الاجلال والاذعان .

كذلك كان أستاذنا المغفور له جارسن ونحن نسمع له فى شتاء ١٩٠٩ — ١٩١٠ وكذلك ارتسم امامى ساعة وقفت أمام كلية الحقوق وكذلك هو الآن وكذلك ستبقى فى نفسى صورته . ولكن هذا الشيخ الهرم السن الصغير الجسم الشاب العلم المتوقد الذكاء كانت تقوم منابر فحول القانون الجنائى والمدنى والتجارى والدولى وغيرها من هذا العلم الذى ينظم صلات الافراد والجماعات والدول

والذى يتصل من ناحية بأسمى النظريات الانسانية والاجتماعية ومن الأخرى بأدق تفاصيل الحياة العملية فى تفاعلها تفاعل تعاقد وخروج عليه واجرام وامعان فيه وحرب وما يتبعها من عدة هلاك ودمار واجراءات تنظم ذلك كله فتهون على الجمعية من سيئاته قدر المستطاع وتجنبها شروره ما أمكن للانسان ان يجنب نفسه الشرور .

ما أكبر رسالة كلية الحقوق وهذه غايتها وعلى منابرها يجتمع النظر والعمل على سواء . لكن جلال الرسالة لم ينسنى حين ذكرت أيام طلب العلم مآب هذا العلم حين الامتحان . وانى ليخيل الى أن الامتحانات لولم توجد لكانت علاقة الطلبة والاساتذة أكثر اجلالا من الاولين وأكثر عطفاً ومودة من الآخرين ولما رأينا ما فى علاقاتهم من شوائب الضغينة المستخفة من الشباب بالمشيب والازدراء المستكبر من المشيب للشباب . أم لعل الامتحانات ليست وحدها مبعث هذه الشوائب . فلها كذلك مبعث من ثورة الشباب يحاول الخروج على ما يسميه قواعد المشيب ونظمه البالية ودفاع المشيب عن هذه النظم فى انتظار اليوم الذى ترد الحياة فيه عقل الشباب الى رأسه فيدرك أن الثورة ليست الا كبرياء الوهم الغرور وان التطور فى اناة وروية وعلى مهل حذر هو وحده سبيل الانسانية الى الكمال .

ومن شارع سان جاك درنا الى طريق سان ميشيل مجتازين اليه شارع سوفلو كظلته حوانيت كتب الحقوق وتطل نهايته القريبة من كلية الحقوق على البانثيون بينا تطل نهايته المتصلة ببولفار سان ميشيل على حديقة اللكسمبور الرشيقة البديعة . ثم تخطينا ميدان

السوربون ووقفنا نواجه مثوى الفن والادب والفلسفة في نظامها العلمي المستند الى التاريخ المطمئن أكثر من استناده الى ماقي كلية فرنسا من ثورات توجه تاريخ التفكير الانساني وجهات جديدة .

كم لهذا الاسم اسم « السوربون » من رنة في العالم كله وكم لاساتذته في نفوس طلاب علمهم وفي نفوس علماء الارض جميعاً من مكانة سامية ومقام رفيع . وكما كنت وأنا طالب حقوق أتردد الوقت بعد الوقت على كلية فرنسا فقد كنت على السوربون أكثر تردداً وكان لي بالاستماع الى بعض كبار أساتذته أمثال مسيو كروازيه ومسيو لانسون ولع خاص . وما أزال حتى اليوم أذكر هذه النغمة المطمئنة الرضية التي كان يلقي بها العميد كروازيه محاضراته عن أدب اليونان وعن فلسفتهم حتى لتحسبه أفلاطون يتحدث الى المشائين من تلاميذه، وان كان تلاميذ كروازيه كلهم جلوس في الامفتياتر الكبير يتسع لعدة آلاف من بينهم الشباب والشيب ومن بينهم نسوة يعدلن الرجال ان لم يفقنهم عداً . وفي نغمته الرضية أسبغ عليها علمه ومشيبه مزيداً من الطمأنينة والرضى كان هذا العالم العظيم يصل ما بين أدب الاقدمين وفلسفتهم وأدب عصرنا وفلسفته ويجمع ذلك في هذا البهو الفسيح قروناً من الزمان عدة تتالت متصلة في تتابعها على الزمان واصلة بسلطانها الذهني بين مختلف الامم في مختلف بقاع أوروبا بل في مختلف بقاع العالم القديم كله ويخلق من هذه الصلة أمام سامعيه صورة من وحدة الحياة الانسانية على هذا الوجود في مختلف بقاعه وأزمانه . وهو لم يكن ينسى في مقارناته أن يصل بين أدب الاغريق والادب الفرنسي . لكنه كان يشير الى مجمل من

هذه الصلة تحتاج الى تفصيل يكفله لك مسيو لانسون فى محاضراته عن تاريخ الادب الفرنسى وبخاصة أيام تأثر هذا الأدب بشعر اليونان والرومان وتراجم فى عصر راسين وكورنى . وكم كان ابداعا بيان مسيو لانسون حين شرحه كيف استقل الادب الفرنسى بنفسه بعد ذلك رويداً رويداً وكيف بنى استقلاله على أسس من هـذه الصلة بينه وبين الادب القـديم ثم كيف تخلص فى القرن الثامن عشر من هـذا الادب القديم وان لم ينكره ولا أنكر عليه ما كان له من فضل فى نهضة الادب فى فرنسا وفى أوروبا كلها .

الى يسارك وأنت منحدر فى الزقاق المؤدى من السوربون الى شارع المدارس كانت تقع مدرسـة العلوم الاجتماعيـة العليا الحرة اثناء دراستى بباريس ، ولعلها حتى اليوم ما تزال فى هـذا المكان . وكنا نذهب الى هذه المدرسة مقابل اشتراك زهيد تؤديه نستمع فيها الى محاضرات فى شؤون اجتماعيـة مختلفة يلقى المحاضر منها اثنتان أو ثلاثاً حسب الموضوع الذى يختاره . وقد يفصـل أسبوع بين المحاضرة والتى بعدها وقد يفصـل بينهما أسبوعان أو أكثر . وكانت هذه المدرسة أقساماً يتصل كل قسم منها بعلم من علوم الاجتماع . والمحاضرون ليسوا دائمـاً من كبار الاساتذة بل بينهم من الشبان ومن غير المشتغلين بالتدريس من تشغل أذهانهم فكرة أو نظرية خاصة يدرسونها ويلقون على السامعين نتائج دراستهم فيها ويطلبون الى مستمعيهم مناقشتهم فيما قد تمن لهم المناقشة فيه . ويقع فى أحيان كثيرة ان يكون من بين المستمعين من هو أكثر تضلعا من المحاضر ومن كنا نجد فى الاصغاء اليه لذة ومتاعا يشاركنا

المحاضر فيها ولا يأبى ان يعترف، اذاهو اقتنع بخطأ رأيهأوبنقص البحث فيه، عما أدى به اليه اقتناعه . وقد يطلب الى المستمعين مهلة ليقوم فيها من جديد بدراسة فكرته وليلق بعدها محاضرة يرجو مناقشه ان يكون بين المستمعين اليها ليكون البحث بينهما اداة للوصول الى الحقيقة . فالوصول الى الحقيقة يجب ان يكون الغاية العليا التي يتجه اليها نظر الانسان المهذب .

يقابل شارع المدارس شارع مدرسة الطب تقع فيه كلية الطب احدى كليات جامعة باريس الكبرى . وعلى مقربة من كلية الطب تقع مدرسة الفنون الجميلة العليا . هذا خلا عدداً من المدارس الحرة ومن أبهاء الجماعات العلمية يقصد اليها كبار الاساتذة يلقون فيها محاضرات علمية وفلسفية واجتماعية وأدبية ويبعثون فيها بذلك الى الذهن والى الحس والى العاطفة ما ينبه نشاطها ويدعوها للامعان في البحث الدقيق عن الحق والخير والجمال مما تدعو اليه كلية فرنسا وكلية الحقوق والسوربون ومدرسة العلوم الاجتماعية العليا ومدرسة الفنون الجميلة وهذه المدارس والكليات الكثيرة الجمة النشاط المنصرفة للدراسات العليا والتي تجعل من هذا الحي اللاتيني القلب الحساس والذهن المفكر والعاطفة المتقدة والفن المبدع في باريس جميعاً .

أي المجموعتين أبهى جمالا وأشد بهراً : مجموعة الحي اللاتيني هذه أم مجموعة اللوفر والتويلري والكونكرد والشانزليزيه ؟ هذه الاخيرة هي الجمال البارع أمام النظر والزينة البادية لكل عين . أما الأولى فهي القلب الذي يوزع على باريس وعلى كثير من أنحاء العالم أسباب الحياة الانسانية السامية . لذلك أحسب ان باريس

بحيها اللاتيني أشد تيهاً وفخراً ، وأنها تعد في مجموعته التي أشرنا الى بعض ما فيها أكبر سبب من أسباب مجدها لأنه مصدر كل مجد لها على المسرح وفي الفن الجميل وفي العلم وفي الطب وفي الحقوق وفي الادب وفي كل ما تزدهي به باريس على كل المدائن

وفي باريس مجموعات شتى مجتمع بعضها يصل بينه تجاوره ومشتت بعضها يصل بينه تشابهه . ومن المجموعات التي تزدهي بها باريس زهوها بالمجموعتين اللتين وصفنا مجموعة عجائبها وآثارها وعماراتها من مثل كنيسة نوتردام والانفاليد مستقر قبر نابليون وبرج ايفل والبانثيون واللوفر وما يخضع لعظمته من سائر المتاحف . وهذه المجموعة هي ما يقصد اليه زائرو باريس كما يقصدون مجموعة ملاهيها في المولن روج والفولي برجير والاوابيا وأشباهها من الابهاء الموسيقية البديعة التي تجتمع فيها أسباب الفن بأسباب اللهو وجمال الرقص بوضيع الرغبات . ذلك بأن أمثال تلك المجموعة الأثرية أو تكاد وهذه المجموعة الناعمة باللهو والمسرة هي كل ما يتحدث الاجانب من زوار باريس عنه كأنه كل ما في باريس . على أني كنت دائماً عميق الشعور بأن أقوى ما تنبض به حياة باريس ليس في هاتين المجموعتين وان كانتا في الطليعة من مواضع فخرها . أما حياتها النابضة فهي في هذا الحي اللاتيني وفي تلك المظاهر التي تتصل بقوس النصر ثم هي كذلك في مسارحها .. بل لعل للمسارح على كل مجموعة سواها فضل الاقتدار على صلة ما بين الفرنسي والاجنبي بما لا تستطيعه الآثار ولا الملاهي وبما لا يستطيعه الحي اللاتيني لا يتذوق ما فيه الاشاب مقبل على العلم والفن أو شيخ اتصل بهما منذ شبابه ثم آلى ان يجعل منها

ختام حياته . أما مسارح باريس فتجمع من كل الثمرات أطيبها لتجليها على نظارتها بما يجعل منها سحراً يفتن العقول ويملك القلوب . وان فى العشرات الكثيرة من مسارح باريس لما تشتهى الانفس وتلذ الاعين ومافيه للروح غذاء وللفؤاد راحة وللقلب مسرة . فيها من ثمرات الذكاء الفرنسى أطيبها . ومن ثمرات الذكاء العالمى أجلها . ولو أن شيئاً كان لباريس جناناً يترجم عما يدور بعقل العالم ولب الأديب وجنان الفنان ومطامع الوضيع وشره الحاكم وقسوة رجل المال . ويكشف بذلك ما تنطوى عليه الأضالع رما يعبث بالعواطف ويلعب بالاهواء — لكانت المسارح هى هذا الترجمان القوى الصادق . ولم لا ! وهل من بين آثار الفن ما امتاز بكثرة الفنانين الذين يتعاونون فى استظهاره امتياز المسرح ، وهل كالمسرح فن يعبر بمثل قوته عن كل معانى الحياة . انك لتقرأ القصه القصيرة أو الطويلة فتترجم كما يحلو لك ما وضعه الكاتب من صور ومعان وعواطف وتكون أنت فى نفس الوقت بطل الرواية وبطلتها وكل شخص من أشخاصها . وانك لترى الصورة أو التمثال فتعيره من المعانى ما يشاء خيالك متأثراً بظروف حياتك . ومثل الكتاب والصورة والتمثال غيرها من آثار الفن . فيها الفنان الذى أبدعها وأبدع ما فيها من قوة أو عظمة أو جمال وفيها أنت تترجم هذه القوة أو العظمة أو الجمال كما تفهمها ، أو كما تريد أن تفهمها . أما المسرح ففيه الكاتب وفيه فنانون قد لا يقل أحدهم عن الكاتب عظمة يترجم كل منهم ما أراد الكاتب أن يظهره لك من الصور والمعنى . فاذا نال الكاتب حظها فى فنه كان الممثلون الذين يترجمونه

لان عظماء كذلك فى فنهم كان مشهد الرواية التمثيلية لا شك قطعة فنية نادرة الجمال .

فاذا أضفت الى ما تقدم زينة المسرح وما يتصل به فى بعض الأحيان من موسيقى تعين الممثلين خير عون على اداء أدوارهم كنت ميالا كل الميل الى مشاركة أنصار المسرح رأيهم فى امتيازه على غيره من الفنون ، أو بعبارة أدق فى جمعه مختلف الفنون معاً لتكون أكثر قوة فى أداء ما فى الحياة من معان وصور مختلفة أشد الاختلاف متناسقة فى اختلافها أشد التناسق .

تحدثت من قبل عن الكوميدى فرانسيز التى تعتبر فى العالم كله أبرع مسارح العالم دقة فن ومثل جمال . ويلى الكوميدى فى عرف الفرنسيين مسرح الاديون . وكلا المسرحين قوميان تتعهدهما الحكومة ولا يدخلهما من الممثلين الا الذين لهم فى فنهم مقام محمود . لكن ذلك لا يعنى أن ماسواهما من المسارح لا يمتازهو الاخر بمثل ما يمتازان به . بل ان كثيراً من الممثلين والممثلات الذين رفعوا للفن المسرحى فى فرنسا مناره وكانوا نجوماً ساطعة فى سماء هذا الفن فى العالم كله قد ظلوا حياتهم أو أكثرها بعيدين عن هذين المسرحين . وهذه سارا برنار وهذا ساشا جيترى واضرابهما كثيرون لم يلتحق أحدهم ببيت موليير أو بالاوديون . والممثلون الثائرون على عرف الفن فى زمن من الازمان والذين يخلقون فى الفن ويجددون هم أبداً بعيدون عن أن يظلهم علم الجماعة وان كان كل منهم علما يستظل به . لذلك كان لكثير من المسارح فى باريس من المقام فى نظر الفنانين ما للمسارح القومية ، وكان لها الى جانب ذلك فضل الاقدام على

التجديد فى الفن بتمثيل روايات قد تظل عشرات السنين قبل أن تقرها هذه المسارح القومية . فاذاهى أقرتها كانت غرة فى جبين الروايات التى تمثل فيها وحازت من رضا الممثلين عنها وتقدير النقادين لها واقبال الجمهور عليها مايدلك على فضل الذين سبقوا بتقديمها للجمهور ولنقد رجال الفن .

ثم أن لهذه المسارح غير القومية فضلا آخر . ذلك انها أدل من المسارح القومية على تطور الروح القومية . وأنت اذا سمعت فى الكوميدى فرانسيز أو فى الاوديون روايات راسين وموليير وهوجو وبرنشتين فانما تسمع المعانى الثابتة فى النفس الفرنسية مما لايسرع اليه التغير . أما ماتسمعه فى كثير من المسارح الاخرى من الروايات الجديدة ففيه مظاهر البحث العامى عند آخر طور من أطواره ، بل بعد آخر طور من أطواره أحيانا ؛ وفيه ما تأثرت به هذه المعانى الثابتة الى حد كثير أو قليل حسب ماس بفرنسا أو بالعالم من صور التطور المختلفة . ولقد يدهشك أن ترى هذه الآثار مصوغة فى قوالب كلها الفكاهة والمجون كما هو الحال فى رواية (قسيس عند الاغنياء) التى تمثل على مسرح سارا برنار ، وفى رواية (الحقيقة العارية) التى تمثل على مسرح باريس ؛ وفى رواية (لأول هذين الرجلين) التى تمثل على مسرح باليه رويال . وقد تكون هذه الآثار أقرب الى الجد منها الى الفكاهة كما تراها فى رواية (السجينة) على مسرح (فينا) . على أن الفكاهة فى هذا الوقت أغلب . وترجع غلبتها الى أن الناس مايزالون منذ أيام الحرب ينفرون من كل منظر يثير الألم ويهرعون الى حيث المجون واللهو وما يثير فى

النفس شهواتها الدنيا . وكما انتقلت موسيقى الرقص من الفالس وما اليه من نغمات شجية هادئة أكثر الوقت الى الجازباند وما اليه من نغمات — استغفر الفن — بل من ضجات وحشية مضطربة ثائرة، كذلك انتقل الفن المسرحى فى أكثر دوره من رزانة الحكمة وسكينة الفن الى ثورة الحواس واضطرابها . ولست أدرى أى هذين الأمرين الى الطبيعة أقرب . لكنى أميل الى الاعتقاد بأن الفن وان ضج وصخب ميال ابداً الى شيء من الاتساق والتجاوب أكثر مما فى هذه الموسيقى وفى هذه الروايات الثائرة بالناس الى المجون والى اللهو والى حكم الشهوات . على أن هذا المظهر من مظاهر التطور الطبيعى الذى نشأ عن الحرب له هو الآخر قوته وابداعه . ولقد ترى مظاهر المجون التى كان ينفر منها الذوق قبل الحرب أشد النفور قد هذبت ونظمت حتى كادت تصير فناً هى الاخرى، بل حتى صارت بمقدرة الممثلين فناً جيلا ان أثار فى النفس الطرب الماجن فلن يثير منها نفوراً أو اشمئزازاً . ولعل الزمن كفيل بالتوفيق بين هـذا المظهر الجديد من مظاهر الحيوية الانسانيـة وبين الفن فى أرق صوره وأسماها . ولئن تعذر ذلك على أهل هـذا الجيل ممن شهدوا الحرب ومن لاتزال آلامها وأحزانها تحز فى قلوبهم وأفئدتهم حتى ليطلبون فى اللهو المضطرب منجاة من هـذه الآلام والاحزان ، فقد يكون لاهـل الجيل الناشيء اليوم والطامح باخلاص وحرارة الى السلام والسكينة ان يقوم بهذا التوفيق وان يعيد الى الفن المسرحى كل ما يرجو الفن من اتساق وتجاوب

وليس معنى ما سبق ان الروايات التى تمثـل اليـوم على مسارح

باريس ليس فيها ما كتب له البقاء ؛ فهاماينوق كثيراً من الروايات التي تمثل على المسارح القومية قوة ودقة . كما ان الحرب الاخيرة وما خلفت من مظاهر ليست عرضاً ضئيلا على الحياة بقاؤه ؛ بل هي وقفة من وقفات الانسانيـة عند أطوار الانتقال الكبرى اذ لم تظهر كل آثارها في فترة قصيرة كالفترة التي انقضت بين انتهاء الحرب وهذا الوقت الحاضر فهي لا بد ستظهر متى هدأ غليان هذا البركان العالمي وعادت الى الامم قوة التفكير المطمئن الهادئ . لكن كثيراً من هذه الروايات التي تمثل اليوم في مسارح باريس ستبقى بين آثار الفن الماضي وآثار الفن المقبل ، وكأن فيها بعض نشاز لا أدرى ان كان يصرف عنها بعض اهتمام الاجيال المقبلة أو يجعلها حتى ناهتدية ! ا والاقبال عليها .

ومهما يكن مصير هذه الروايات فستبقى مسارح باريس في المستقبل كما هي اليوم وكما كانت في الماضي آية من اروع آيات فتنتها. وسيجد الذين يقصدون باريس في مسارحها ما يزيد ليلها على النهار جمالا . فاذا هم غادروا هذه المسارح وقد تنصف الليل أو كاد ألفوا ليل باريس يقظاً وفيها ناشطاً . واذا كتب عليهم أن يغادروا باريس ناجتهم مسارحها مع ماينا جيهم من كل ما فيها من فتنة وجمال وسحر : انى أنا الشباب الضاحك السن المقبل على جد الحياة ولهوها بكل ما في الشباب من حرارة . وفي أحضان الشباب حياة ماتزال كل يوم تتجدد . وهي كل يوم خير منها بالامس . ومن فاته الشباب فاتتـه الحياة . وليس الشباب شباب الجسوم ولـكنه شباب القلوب .

اذا كان للمسرح فى باريس كل هذه الفتنة فان لفن مسرحى يتصل به ويختلف عنه فتنة تزيد عند قوم عليه وان لم تنل عندنا نحن أهل مصر والشرق كل هذه الحظوة . ذلك الفن هو الموسيقى . ولقد يكون الجيل الناشىء بعدنا أشد منا لموسيقى الغرب ذوقاً كما أنا فيما يخيل الى أكثر قدراً للأدب والمسرح الغربى من الجيل الذى سبقنا . والاوبرا هى معبد الموسيقى الاكبر فى باريس . وهى جديرة بأن تكون كذلك وفيها من روعة العمارة وجمال زخرفها ما تزدهى به على أبدع الهياكل وأجل الكنائس أياً كان طرازها . والقلم لا ريب يضل بى اذا أنا حاولت وصف هذا المعبد كما يضل الزائر للاوبرا فى مختلف أنحائها المرات العشر الاولى من زيارته اياها . وهو فى أى ناحية كان ضلاله بها سعيد بهذا الضلال الذى يؤدى به من بهو الى بهو الى مقصف الى طنف وكلها روعة تتلو روعة تنتقل اليها جميعا على سلم بالغ من الفخامة حداً تتضاءل أمامه كل روعة . فاذا خرجت الى شرفتها المطلة على طريق الاوبرا أخذت أنواره البديعة اللألاء بنظرك وأخذ أنغام الموسيقى الشجية بسمعك . فاذا عدت بعد ذلك لتسمع الرواية الموسيقية التى تمثل رحت من زينة المسرح ومن غناء المغنيات ومن رقص الراقصات ومن موسيقى ساحرة طروب فى نوع من البهر تذهل معه عن نفسك ثم لا يردك منه الا بهر مثله بالمتفرجات المستمعات جئن الى الاوبرا كاملات العطر والزينة فبعثن فى جوها المرح الطروب مزيداً من المرح والطرب بجمالك تود لو ان الهياكل والمعابد كلها كانت على هذا المثال . ولو ان الانسان كان يجزى بعد الموت عن أعماله كما يجزى

اليوم بهذا المتاع البارع عن مشقة يومه وكما يتلهى به المترفون اضاعة للوقت لانهم لا يعرفون فى يوم مشقة .

والاوبرا هى القمة من هذا الفن المسرحى المتصل بالتمثيل . فالتمثيل فيها تطغى عليه الموسيقى ويطغى عليه الغناء والرقص أشد الطغيان . وبين هذه القمة من الفن الموسيقى وبين التمثيل المسرحى درجات تبدأ عند اختلاط طرف من الاغانى والموسيقى بالتمثيل بمقدار لا يزيد على ما يدخله بعض الكتاب من شعر فى تراجم ثم تتدرج لتكاثف التمثيل ثم لتزيد عليه ثم لتدنو من الاوبرا فيما تشهد من روايات بالاوبرا كوميك حظ التمثيل فيها أكثر ظهوراً من مثله بالاوبرا ولكنه قليل الظهور ومتصل بالغناء وبالموسيقى أوثق الاتصال . وهذا التدرج فى معهد الموسيقى يوازيه تدرج مثله فى الموسيقى نفسها . فالموسيقى التى تسمعها فى الاوبرا كوميك ليست هى الموسيقى الكبرى التى تسمعها فى الاوبرا ، بل هى موسيقى أخف وزنا وأسهل مساغا عند نفوس أمثالنا الذين لم تتصل هذه الموسيقى الاوربية بغرائزهم منذ نشأت هذه الغرائز . والغناء فى هذه التفرقة كالموسيقى ، ولذلك ترى الشرقيين أكثر اقبالا على الاوبرا كوميك منهم على الاوبرا كما أن أكثر الغربيين أشد للاولى ميلا لانها لا تقتضى نفوسهم وعواطفهم ما تقتضيه الموسيقى الكبرى . فاما المسارح الموسيقية الاخرى من مثل (البوف ارزين) ومسرح (موجادور) وغيرها فموسيقاها وغناؤها ورقصها فيها من الدعابة ما يجعلك أشد حبا لاهوها منك طربا بموسيقاها وغنائها . وان كانت أدوارها جميعا أكثر رواجا فى انحاء باريس وفى أنحاء

العالم الغربي كله من تلك الادوار الفخمة الضخمة التي تغذي تقرس نظارة المسرحين القوميين الاوبرا والاوبرا كوميك .

* * *

أتراني وقد تحدثت عن بعض ما في باريس من عمارة وعلم وفن وأدب متناولا ناحيه أخرى أشد اتصالا بالحياة ولكنها تنال من عناية السائح في باريس حقا غير قليل ؟ أتراني اتناول حديث الطعام والمطاعم . فالطعام في باريس فن جيل وطهاتهم لاريب من خير طهاة العالم حتى لتراك حين تقرأ عن فنادق لندن وفينا وبرلين وغيرها من كبريات العواصم تقرأ من حسناتها أن طهيها فرنسي . ومطاعم باريس فيها فن تمتاز به على غيرها من المطاعم . وأكثرها له طابع خاص في عمارته وفي طريق تقديم الطعام لزبائنه وفي اختيار الانبذة التي تزيد لونا أو آخر من الطعام مساغا ولذة . ولخدم هذه المطاعم أدب خاص بالطعام يجعلك له أكثر اشتهاء . على أن لبعض المطاعم من الطابع ما يدعو الاجانب الى زيارته كما يزورون اللوفر وقبر نابليون وبرج ايفل أو كما يزورون متحف جريفان حيث تعرض الصور الشمعية تمثل الحياة تمثيلا حيا . واشهد لقد كان لمشوى (الرين بدوك) ولمشوى ميداز سان ميشيل من الجاذبية ما كان يذهب بنا اليهما في اغتباط وبهجة . ولغيرهما من المطاعم في انحاء مختلفة من باريس ما لها من جاذبية ببساطة الاثاث مع ابداع الطهي أو لطرافة عجيبة في نظامها . ولست بناس أول مرة ذهبنا فيها الى مشوى الرين بدوك حين دخلنا فاذا بنا في قاعة ضيقة لا تزيد على ستة أمتار في مثلها يجلس الى موائدها عدد يزيد على الاربعين أمامهم طعامهم وشرابهم والى جانبهم في ناحية من

المكان شواء تدور عليه دجاجة لا يديرها أحد وهم جميعا فى جذل ومرح والخدم لا يكادون يشقون لهم طريقا من بينهم لضيق المكان بهم، ويحمل أحدهم وهو فى لباس الطهاة أصناف (الهرديفر) على صورة لم يألفها قط نظرنا. فالزبدة قطعة ضخمة تزن أكثر من سبعة أرطال أو ثمانية وضعت فى ماجور كبير يقدم الى كل طالب (هرديفر) وتقدم معها كميات ضخمة من اللحوم والاكباد السمينة والسمك والسلطات المختلفة وغيرها مما لا يكاد الانسان يجد بعده فى نفسه للطعام مكانا لولا مرح المطعم ولذة الشواء والجدل الذى لا ينتهى بين الآكلين والخدم جدلا تشوبه النكتة الظريفة من هؤلاء ومن أولئك وانتظارك حتى يجىء اللون الذى طلبت فاذا بك حين مجيئه وقد تجددت شهيتك وقد فكرت فى طلب غيره. وهذا المطعم فيه خلا هذه الغرفة التى دخلت اليها أول مرة غرفة مثلها فى البدرون وغرفة مثلها فوقها وكان الله يحب المحسنين. أما مشوى سان ميشل فأفسح مكانا وان لم يكن أقل ازدحاما. وغير هذين المطعمين مطاعم مختلف ألوانها مختلف طابع كل منها وان ألف بينها جو باريس كله الظرف والرقة ليتهما كانا حدهما طابع أهل باريس فلم تشبهما شوائب تجعل الكثيرين أشد حبا [illegible] منهم لأهلها.

ماذا فى باريس غير ماذكرت مما يلفت النظر ويستنفد الوقت فى المتاع به؟ أرى الجواب يسرع الى نفسى: وماذا تراك ذكرت من باريس. ثم ماذا تراك تعرف منها برغم ماقضيته من السنين فيها! وهذا حق. فباريس عالم بل فى كل ناحية من باريس عالم. ثم أن كثيرا مما أعرف منها لم يكن موضع عنايتنا فى سفرنا فلم أذكر عنه شيئا. وأنا

انما قصصت ما كنا نزور وما كنا به نشغف، وقصصته فى اجمال ما كان لى ان أعدوه الى التفصيل أو يضيق هذا الكتاب بأيامنا فى باريس وحدها . والحق أشهد أن هذا الذى أغرقنا أنفسنا فيه من حياة باريس كان عظيم الاثر فى عزائنا بما كشف لزوجى عن آفاق فى الحياة جديدة وما جلا أمام نظرها من صور الجمال فى الحياة حتى لكنا نتساءل أى هذه الصور أشد جمالا فلا نجد على سؤالنا جوابا . جلست يوماً أتحدث الى جماعة من أصحابى وكان لاحدهم بلندن ولع قديم دعاه يومئذ للنظر الى باريس نظرة فيها جفوة وقسوة ثم شاءت المقادير أن تنقلب جفوته وقسوته حناناً وحباً لباريس. وقد جعلنا نفاضل بين ما فى باريس فنقدم مسارحها على متاحفها ومتاحفها على عمارتها ونذهب فى هذه المفاضلات الى مدى بعيد فقال :

— والله يا أخى انك لترى باريس منذ يدخلها القطار من أية ناحية من نواحيها حتى يخرج من ناحيتها الثانية ومن حين يتنزل المطر من سمائها حتى يصل الى جم الارض فلا ترى الا حسناً يزحم حسناً وجمالا يأخذ بتلابيب جمال .

وكانت لاحد كبار المصريين عبارة ظريفة رد بها على سائل يسأله ان كان يواثق على ذهاب ابنه فى بعثة لباريس من غير ان يخاف عليه الفتنة . فكان جواب الكبير : وما الخير فى ذهابه الى باريس اذا لم يفتتن بها. اذهب به اليها فسيرته فى طرقها وشوارعها أجدى عليه فى تكوينه للحياة وحسن ذوقه اياها من كل درس يمكن ان يتلقاه هنا.

على أن باريس مدينة مهما يكن فيها من جمال . وحياة المدنية

المكتظة بالحياة المليئة بالعجلات المشبع جوها بأنفاس الناس ودخان المصانع وبنزين السيارات وكهارب الجو وكل البقايا والفضلات تثقل على الصدر وتدفع أهل المدن لالتماس الهواء الطلق . ونحن كنا الى الهواء الطلق أشد من كل من سوانا احتياجا . فأعصابنا كانت أشد ما فينا كلالا . والهواء وفسحة الجو خير ما يبرىء الاعصاب من كلالها . وما تكن التويلري واللكسمبور وما فى باريس من حدائق كثيرة كفيلة بالتنفيس عن الناس فى جو المدينة المثقل بما فيه فهى فى جوف المدينة وهى لذلك متأثرة بجوها وما يحمل. لذلك أحاطت باريس غابات وأحاطتها ضواح يهرع أهل باريس اليها عادة كل أحد، وكنا نحن نهرع اليها فى كل أسبوع مرات . وغاب بولونيا ألصق ضواحى باريس بباريس . وغاب بولونيا مرتع جمال ومسرح نعيم ومجمع مسرة تتصل فيه حياة المدينة بحياة الضواحى وحياة العمارة بحياة الغاب . فيه البحيرات تتخلل أشجاره تخترقها الطرق البديعة النظام . وكأن هذا الغاب مدينة وحده نسقت لتكون حديقة باريس وملجأ أهلها من كل نصب، ومراح شبابها كلما عزم المراح. وأهل باريس يجدون فيه من الحرية ومن ألوان المتاع ما فى الحياة الغربية مما يزيدنا للحياة حبا وبها اعجابا . دهشت زوجى ونحن بمارسيليا لمرآى ذلك الشاب وتلك الفتاة يتبادلان قبلة الوداع ساعة افتراقهما . اما اليوم فلم يبق لها أن تدهش لهذا الشباب المرح فى زوارقه فوق سطح البحيرات أو حين استلقائه على الاعشاب المخضرة بين أشجار الغاب أو اثناء مسيرته تائها فى أحلامه يتهادى لغير وجهة يمرفها؛ وهو فى هذه الصور كلها لا يدور بخاطره ما يدور بخاطر الشرقى

أن يتوارى من المحيطين به ممن تخطوا الشباب لجؤوا بأطفالهم يستمتعون وإياهم بهذا الجمال ويرون أولئك الشبان فى مرح الهوى وأولئك الاغنياء ممتطين خيولهم أو تسرع بهم سياراتهم ومرح الهوى فى الخالين لهم رفيق، فيرون فى أصائل الخيل وفى فخامة السيارات صوراً أخرى من الجمال تزيد الغاب ابداعاً وان زجت به فى غمار حياة المدينة وجعلت الكثيرين يلتمسون فى ضاحية أكثر عن باريس نأياً وسيلة للتخلص من جو المدينة ومن مشاغلها.

وضواحى باريس من هذا القبيل كثيرة لا يعنيك اختيار احداها كلما حدثتك نفسك بالخلوة اليها والاستمتاع بجمال جوها وغابها. ذهبنا منها الى فرساى وسان كلو وفنتنبلو وانجان وسان جرمان وغيرها وغيرها ومتعنا فى قصر فرساى بآثار لويس الرابع عشر ملك العصر العظيم فى تاريخ فرنسا وبحديقة هذا القصر كم شهدت من غرام رجال القصر وسيداته ثم أصبحت اليوم كما أصبحت غرف القصر متاع الجمهور الفرنسى بل متاع أهل العالم كله، خاضعة بذلك لما تطورت اليه أفكار العالم حينما نقلت مصدر السلطة من الملك الذى كان يعتبر نفسه خليفة الله على الارض الى الامة التى تنصب الملوك وتنصب رؤساء الجمهوريات وتملك الامر طراً . والى هذا المصير الذى خضع له قصر فرساى خضع قصر فونتنبلو وان بقى محتفظاً من آثار نابليون بأكثر مما احتفظ به قصر فرساى من آثار لويس . فأما سان كلو وسفر وأنجان وغيرها من الضواحى فليس لها ما لفرساى وفونتنبلو من بهاء ان لم يكن لما بها من قصور أثر على التاريخ له من العظمة ما لنابليون وما للويس الرابع عشر.

لكن في هـذه الضواحي جميعاً متعة للنفس وسكينة للفؤاد برواء بهجتها ولين خضرتها ورقة هوائها وغير ذلك وما فيها من أسباب المسرة والنعيم . فاذا أنت قضيت بها نهارك وجاء عليها الليل ألفيت بها من مظاهر مدينة النور شيئاً غير قليل وآنست في بساتينها وفي المطاعم والمقاهي المنثورة بين غاباتها أنواراً تعبث بحجاب الليل وتدعوك الى متاع به فيها يعوضك عن متاعك بليل باريس وان على صورة ريفية الا يكن لها ما لليل باريس من بهاء فلها ما لليل الريف من بهجة ورواء .

وقضينا بباريس ثلاثة أسابيع تغيرت اثناءها صورة الحياة أمام زوجي . لكنها بعد هذه الاسابيع الثلاثة بدأت تألف حياة باريس وبدأت تعاودها الذكرى فيعاودها من الألم ما نسيت أول ما غمرتها هاته الحياة واستبدت كل انتباهها . والحق أشهد أنها جاهدت لتتغلب على أساها ولتنسى في الحياة نفسها لكنها كانت ترى الوقت بعد الوقت ما يهيج هذا الاسى حين ترى أما تفيض أمومتها على طفلها حناناً وحباً وحين ترى الاطفال يرتدون في الحدائق وبين أشجار الغابات فتهيج أمومتها الجريحة من أساها ما تجاهد بعزم صادق أن تنساه ، وكم شعرت بهذا الجلاد النفساني فجعلت كل همي أن أصرفها عنه الى جديد أو أن أمحو من نفسها اليأس ولو بوهم من رجاء ، وكنت أنجح أحياناً ثم تغلب الغريزة الانسانية مجهودي وتبعث الى ما خلقت باريس من صفو الجو أمام ناظرها سحابة تسيل من عبراتها ما كان هدأ . وزاد في الامر أنا في خلال هذه الاسابيع الثلاثة التقينا بمصريين ومصريات ممن نعرف وتعرفنا الى طائفة من المقيمين

بباريس لم نكن من قبل نعرف . وشعرت هي بما لمبالغة هؤلاء وأولئك في حسن معاملتها من معنى الاحساس معها وتقدير ألمها فازدادت ألماً . عند ذلك فكرت في ضرورة الانغماس في بيئة جديدة تختلف عن بيئة باريس ويكون بينها ما بين البيئة الفرنسية والبيئة المصرية من بون. ولم أكن أعرف المانيا لأختار برلين فآثرت أن نذهب الى لندن وأن ننتقل الى البيئة الانكليزية نرى فيها جديداً يشغل دينس . وأعددنا للسفر متاعنا في الثاني عشر من أغسطس معتزمين أن نقضي بالعاصمة الانكليزية أسبوعا نعود بعده الى القارة . وكان هواى ان نعود الى بروكسل . ولم يدر بخاطرى ساعة غادر بنا القطار محطة الشمال من محطات باريس انه سيعود بنا بعد أسبوعين الى هذه المحطة ، وان انتقالنا من بيئة باريس الى بيئة لندن سيكون اكبر أثره أن يزيد زوجي لباريس حباً وعلى العود اليها حرصاً .

في لندن

تقطع السفين ما بين مصر والقارة الاوروبيـة فى أربعة أيام ، أى فى مائة ساعة . وهى تقطع ما بين القارة وانكلترا متخطية من كاليه الى دوفر فى ساعة واحدة . مع هذا يشعر الانسان بتفاوت بين انكلترا والقارة أكثر مما يشـعر به بين مصر وأوروبا حتى ليخيل اليه أن مضيق المانش يفصل بين عالمين مختلفين . ولعل هذا الشعور يكون على أشده حين يجتاز الانسان من مصر الى ايطاليا أو الى فرنسا ثم يجتاز من فرنسا الى انكلترا . فأما الذين يقصدون الى البلاد الانكليزية من ألمانيا فلا يبلغ منهم الشعور بالتفاوت كل هذا المبلغ ويجدون وجوهاً من الشبه بين الامتين لا شئ منها بين انكلترا والأمم المحيطة بالبحر الابيض المتوسط . ذلك بأن بحر الروم هذا كان مستقر حضارات قديمة منذ ألوف السنين ومنذ كانت انكلترا وألمانيا وبلاد الشمال الاوربى كله ما تزال تعصف بها ريح الوحشية والتأخر، وما تزال بعيدة عن ان تنال من الحضارة أى حظ أو تشاطر فيها بنصيب . وقد جمعت هـذه الحضارات التى يطلق الاوروبيون عليها افتياتاً اسم الحضارة اللاتينية بين مصر واليونان وروما والبلاد التى جاورتها وخضعت لهـا وأفادت منها . وهـذه الجامعة ما تزال الى يومنا، واخالها لن تزال فى المستقبل، مبعث الاوجه شبه شتى بين البلاد المحيطة بالبحر المتوسط . وهـذه الجامعة هى التى تجعلك تشعر من التفاوت بين انكلترا والقارة بأكثر مما تشعر به بين مصر وأوروبا .

وأنت ترى هذا التفاوت فى كل شئ . فى الجو وفى البيئة الطبيعية وفى العمارة وفى صور الناس وطبائعهم وعاداتهم . وكم قيل ان الحرب الكبرى قربت بين انكلترا والعالم وأزالت ما كان فى خلق الانكليزى وطبعه من انقباض واعتزاز . وقد يكون حقاً ان بين الانكليز اليوم وما قبل الحرب فارق فى ذلك محسوس . لكن الانكليزى ما يزال هو الانكليزى وانكلترا ما تزال انكلترا . فأنت تشعر لأول ما تتخطى دوفر ويتحدث اليك رجال الجمارك فيها ان للحياة هنا نظاماً غير الذى رأيت فى فرنسا وغير ما يمكن ان يجول بالخاطر عن نظام مصر . رجل الجمرك يحدثك فى سكينة يسألك عن سبب زيارتك انكلترا وعن متاعك وما قد يكون فيه مما يستحق دفع الجمرك عليه . فاذا آنس الثقة اليك من حديثك ونظرتك وفيما قد يفيده من جواز سفرك لم يثقل فى شئ عليك وتركك تجتاز الى القطار أشد ما تكون طمأنينة له وثقة أنت الآخر به . وأنت فى القطار لا يسألك أحد عن تذكرة سفرك ولا عن أى شئ من أمرك . ويجتاز القطار بك الطريق من دوفر الى لندن بين مروج بامعة الخضرة يزيد السحاب الذى يعترض جو انكلترا فى أحيان كثيرة خضرتها ليناً . فاذا وقف القطار فى محطة فيكتوريا وانطلق بك الاوتموبيل فى شوارع لندن ألفيت حياة جديدة ونظاماً جديداً وادراكاً لمعنى المدينة وحياة المدينة غير ما خلفت وراءك فى باريس . وأول ما يلفت النظر من ذلك سير العربات الى يسار الطريق وهى فى غير انكلترا تسير الى يمينه . ويلفت النظر كذلك رجال البوليس كلهم طوال أقوياء يقظون تلمح على وجوههم

حتى قدرتهم لواجبهم وترى فيهم حقيقة ما يردده الانكليز من أن الطريق ملك البوليس هو الذى يحمى نظامه وينفذ القانون فيه . ثم ان عمارات لندن ليست هذه المبانى الشاهقة التى ترى فى باريس والتى تنتظم شوارع بأكملها ، بل هى أغلب أمرها دور مكونة من ثلاث طبقات أو أربع ولا يزيد على ذلك الا بعض العمارات فى أحياء التجارة الكثيرة الحركة والنشاط . وخلال هذه الشوارع والطرق تمتد حدائق فسيحة متصلة تقوم مقام الرئة من قلب لندن وتزيد فى مساحتها على أضعاف أضعاف التويلرى والكسمبور وبارك منسو وغيرها من حدائق باريس، وتخترقها الطرق تجرى فيها العجلات على نحو ما ترى فى غاب بولونيا . ثم انك ترى التجارة محصورة فى أنحاء معينة بينا ترى أحياء فسيحة كلها منازل للسكنى تتخللها حدائق صغرى تنفس عنها هى الاخرى . وفى أحياء التجارة لا تجد هذه المقاهى والمطاعم منظومة موائدها ومقاعدها على رصيف الشارع حتى لتحسب انك غير واجد فى أنحاء العاصمة الانكليزية كلها مكاناً تستريح اليه اذا أضناك السير وشق عليك طول الطريق . لكنك لا تلبث متى عرفت عن حياة لندن بعض الشيء أن ترى فى أماكن الشاى الكثيرة المنثورة فى كل مكان، والتى لا تتبدى على الطريق أكثر مما يتبدى أى حانوت آخر، مواضع لراحتك ، ثم ما تلبث ان ترى فى عدد كثير من أماكن الشاى هذه من أسباب الترف وجمال نغم الموسيقى ومن أدوار الرقص ما لا تذكر له فى باريس مثيلا . وفى أبهاء الفنادق الكثيرة الكبيرة مأوى للراحة والترف قل فى كبريات فنادق

باريس نظيره . فاذا طال مقامك بالعاصمة الانكليزية وأزددت بحياتها اتصالا ألفيت فيها من دواعي النعيم غاية ما يصل اليه الترف، ثم هو ترف غير متكلف ولا مشوب بتقليد لأنه ترف انكليزي صميم . على أن نوادي الليل التي يجتمع هذا الترف فيها هي أكثر الأمر في طبقات تحت الارض تشعرك بما في غريزة الانكليزي من حرص على أن يبدوا أمام الناس في مظهر الجد والرهبة فاذا خلا الى نفسه استغرق في كل أسباب المتاع والنعمة لا يحول حائل بينه وبين نوال كل ما يستطيعه منهما .

وأحسب ان الجد والرهبة والمتاع والنعمة كلها طبيعية في النفس الانجليزية وكلها ترجع الى ما اصبح بعض غرائز الخلق الانجليزي من الاعتزاز بالنفس والاعتماد عليها . فالانكليزي لا يرى في الحياة رأي الفرنسي ولا يجعل الادخار كبرى وسائله للاحتياط للمستقبل، بل يرى الاقدام والصبر والسعي المتواصل أكفل الاسباب التي تهيء النصر في الحياة . لذلك تعيش انكلترا معتمدة في عزلتها البديعة على قوة اتصالها بالعالم كله اتصالا يكفل لها ما هي فيه من نعمة. ولو انقطع هذا الاتصال وانقطعت واردات العالم عنها شهراً واحداً لطحنتها المجاعة . أما فرنسا وأكثر الأمم اللاتينية فحياتها وقوتها في الادخار وفي الخوف المستمر من المستقبل والاحتياط له . وهذا الخوف هو ما يجعلك ترى حياة الفرنسي في بيته حياة شح واقتار وانكماش أمام شبح الفقر . وهذا الاعتماد على النفس والاتصال بالعالم هو الذي يجعل حياة الانكليزي غزوة مستمرة للحياة وحرصا على استنفاد ما بها من صنوف المتاع . قص على صديق سافر الى

برقة أثناء الحرب الايطاليـة التركية سـنة ١٩١١ ومر بالسلوم أن الحامية المعسكرة بها كانت فى قيادة مصرى فلم يكن بها غير الخيام والرمال. فلما أقام ببرقة الشهور التى استغرقتها الحرب ثم عاد منها فى طريقه الى مصر ألفى قيادة حامية السلوم انتقلت لانـكليزى والفى خيمة القائد تحيط بها حديقة جميلة فيها حشائش خضر وأزهار ذات بهجة ووجد فى ضيافة هذا الانـكليزى المنقطع بالصحراء كل مايطمع الانسان فى المدينة فيه من أنواع المتاع. وما رأيت أنا من حياة الانـكليزى بالسودان يؤكد هذا الذى رواه صـديقى. فاذا كانت هذه حياة الانـكليزى خارج بلاده وكان هذا مبلغ حرصه على المتاع بالحياة فليس عجبا أن تكون انـكلترا المظهر الأقوى لهذا الحرص ولظهور الخلق الانجليزى بكل مافيه من اعتداد بالنفس واعتماد عليها.

والخلاف بين الخلق الانـكليزى والخلق الفرنسى يرجع فى رأيى الى أطوار التاريخ فى الامتين أكثر مما يرجع الى عزلة الجزر البريطانية والى قسوة الطبيعة عليها وعدم برها بها. فقد أرادت أقدار التاريخ، ولعل الطبيعة البريطانية بعضها، أن يقوم النضال بين سلطة الملك وسلطة الأمة فى انـكلترا منذ القرن السادس عشر وأن تنتصر سلطة الامة انتصاراً باهراً. وبرغم ماحدث بعد ذلك من استبداد الزعماء والقادة بالأمة الانـكليزية مااستبد نابليون بفرنسا فان الروح القوميـة بالمعنى الديمقراطى شقت طريقها فى انـكلترا بينما كانت سلطة الفرد ماتزال كل شىء على القارة. والروح القومية تسمو بنفس الفرد وتجعله يسعى الى أسمى ما تقصـد اليه

الحضارة من غاياتها: الى حرية الفرد وتضامن الجماعة . والحرص على حريته لحرية ذويه لحرية انكلترا هي التي قوت في الخلق الانكليزى ماقدمنا من صفات وهي التي أدت به ليجعل لكلمة الدار «Heme» معنى لامثيل له في غير انكلترا . والواقع أنه حيثما كان التسلط لفرد على الجماعة ، وحيثما كان حكم المستبدهو القاعدة التي يؤمن الناس بها كنظام لاجتماعهم ، وسواء أكان المستبد مصلحاً أو مفسداً ، فان هذه المعاني الخلقية التي نمت في النفس الانكليزية منذ النضال الاول بين سلطة الأمة وسلطة الملك ظلت دفينة بل معدومة في النفوس التي كانت تؤمن بأن لاوجود لها الا بمقدار مايريد المستبد أن يكون وجودها. ولذلك كانت حياة كل فرد وحريته وماله في هذه البلاد معلقة بين شفتي الحاكم، تكفي كلمة منه لسعادة رجل ، وتكفي كلمة أخرى لشقائه أو للقضاء على حياته . وفي ظل نظام كهذا تنمو أنانية الافراد غاية النمو فلا يفكر أحدهم في غير نفسه وقل منهم من يفكر في خير الغير أو يهب حياته لمصلحة الجماعة وعلى غير كره منه . فأما حيث تتحقق الحرية المدنية ويصبح الحكم عملا اجتماعياً كغيره من الأعمال الاجتماعية فلا يبقى للحاكم على غيره أي حق، وحيث تصبح علاقات الناس مقررة بالقوانين بما يطمئن كل معه الى ان ماله وعمله وحياته بمأمن من كل اعتداء مالم يعتد هو على غيره — هنالك يتأصل بين الناس نظام تقسيم العمل والتضامن فيه ويهون على الفرد ان ينزل للجماعة مختاراً عما فاض عنه من ثمراته . ولذلك تراك حيث وجدت الحضارة أشد تأصلا رأيت الناس أشد للحرية تقديسا وللتضامن الاجتماعي سعياً وعملا.

وهذا ماترى مظاهره فى انكلترا واضحة قوية بما ترى من قيام الحرية الفردية بالنفوس قيام الغريزة وتقديسها حتى يعتبر أى مساس بها جريمة دونها أى جريمة، وما ترى من التضامن الاجتماعى تضامنا يجعل أغلب الاعمال ذات المنفعة العامة من مثل الجامعات والمستشفيات مستقلة بذاتها قائمة على تبرعات الأفراد والهيئات غير متصلة بالحكومة ولاخاضعة فى قليل أو كثير لسلطانها . قص علينا صديق مصرى أثناء مقامنا بلندن أن فتاة مصرية كانت تتعلم فى احدى المستشفيات بها وانها كلفت جمع الاعانات من الجمهور لفائدة المستشفى، وكم كانت دهشتها عظيمة حين مرت ببائع صحف فأعطاها جنيها وبجزار فأعطاها خمسة جنيهات لهذا المستشفى .

قد تدهشك ثقة بائع الصحف والجزار بالفتاة المصرية ودفعهم المال لها لمجرد ابرازها تذكرة شخصيتها . بل لقد تدهش هذه الثقة فى فرنسا وفى بلاد كثيرة . لكنها مظهر الحياة فى انكلترا . فالانكليزى يثق بنفسه ويثق بغيره . ذلك بأنه تاجر وبأن الثقة فى التجارة أساس النجاح . فأما من خان هذه الثقة فله الويل أكبر الويل من القضاء من ناحية، ومن ازدراء الجماعة الانكليزية اياه من الناحية الاخرى ازدراء لا يستطيع معه أن يعيش فى انكلترا كلها . وأستطيع أن أقص عليك من مظاهر هذه الثقة وما يقابلها من أمانة الشىء الكثير مما رأيت . فكم كنا نأخذ بضاعة من متجر ثم لاتعجبنا بعد يوم أو أيام فنردها فيردون الينا ثمنها من غير أن يفتحوا صندوقها . وكم نسينا ونسى غيرنا من معارفنا محافظ نقودهم فى غرف الفندق الذى يقيمون به ثم عادوا فوجدوها حيث كانت

لم تمسسها يد وان كانت الغرفة كلها قد نظفت وتغير فرشها . روى لى صديق انه ذهب يوما قبيل سفره من لندن عائداً الى مصر لمشتروات يقضيها هو وزوجه . فلما عادا الى مسكنهما تفقد حافظة نقوده فلم يجدها وكان بها كل ما بقى له من نقد . فتذاكر وزوجه أين دفعا آخر دفعة لها فاذكرا مخزناً من المخازن الكبيرة والفتاة التى باعتهما فيه . وفى الصباح ذهبا الى هناك فلما رأتهما الفتاة عن بعد أقبلت عليهما فى ابتسام قائلة : ان لدى شيئاً لكما . وذهبت بهما الى درجها وأخرجت منه الحفظة . وعبثاً حاول صديقى أن يدفع شيئاً لها اذ رفضت أن تقتضى ثمناً عن أمانتها

هذه هى البيئة الانكليزية التى نزلناها فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٦ . ولنقف منها على ما ذكرت قضينا بالعاصمة الانكليزية سبعة عشر يوماً كان اخواننا المصريون المقيمون بلندن دليلنا اليها وسلوانا فيها . وما كنت لأدعى معرفتها ولم أقم بها أكثر من شهرين منها ستة أسابيع فى صيف ١٩١٠ وأسبوعين فى ربيع ١٩١٢ . لذلك وقفت معرفتى اياها عند ما يعرف السائح من متاحف بلد من البلاد وآثارها الظاهرة وبعض الشىء عن مسارحها . وما كنا لنعنى بالمسارح وقد فتنتنا باريس عن مسارح العالم كله . فزرت وزوجى برج لندن حيث انبهر ناظرها بجواهر التاج البديعة وبماسة (كوهى نور) المنقطعة النظير فى حجمها وصفائها . وحاولت أن أتسلق البرج على نحو ما صنعت فى سنة ١٩١٠ فصدتت عن ذلك نفسى ان لم يبق لديها من طلعة الشباب ما تستهين فى سبيله بالجهد والمشقة . وزرنا المتحف البريطانى وطفنا بابهائه وصالاته الختلفة

وقفنا منها عند الصالات المصرية القديمة ثم هبطنا الى صالة التماثيل فوقفت أمام تمثال ايزيس الحبيسة فى زجاجها . كم أخذنى من البهر أمام هذا التمثال يوم وقفت اشاهده للمرة الاولى سنة ١٩١٠ . أما اليوم وقد رأيت الكثير من التماثيل المصرية فقد سلكته فى عدادها وان بقى فى النفس من ذكرى بهرها ما يجعل له فيها اعزازاً ومحبة . وزرنا (الناشونال جالرى) ووقفنا أمام صورة لادى هملتن. وجبنا غير ذلك من أنحاء المدينة ورويناالنظر بآثارها . ثم زرنا من أماكن الشاى ما كان لنا متعة بموسيقاه ومراقصه. على أن اخوانى المصريين ومن بينهم أصدقائى فى السفارة وفى القنصلية المصرية اغنونى كماقدمت عن ان أجمل من المتاحف والآثار كلها متاعى وجعلوا من ضواحى لندن والريف الانكليزى مواضع نزهتنا حتى خرجنا الى هـذا الريف أكثر من اثنى عشرة مرة فى الأيام السبعة عشر التى أقمناها بينهم . والحق ان هـذه الضواحى وهذا الريف الانكليزى البديع وما يجده الانسان فى هامبتن كورت وفى قصر وندسور وفى غيرهما من الاماكن الفخيمة من الآثار لما يصل بك الى فرط البهر بسحر جماله وبارع فتنته .

بعـد يومين من مقامنا دعانا صديق الى نزهة على النهر فركبنا السيارات العامة « الاومنيبس — أو البس فى اختزال الانكليز » الى رتشمند احدى الضواحى القريبة من لندن والمتصلة بها بالقطار والمترو « أو تحت الارض أو الانبوبة فى تعبير الانكليز لان النفق الذى تجرى فيه اسطوانى » وبالبس وبكل أسباب المواصلات. ورتشمند ضاحية جميلة هى طليعة الريف الانكليزى البديع . واذا

قلت عن الريف الانكليزى انه بديع فأنت لم تقل فى الحقيقة شيئاً . فالريف الانكليزى ، أو على الاقل ما رأيت منه ، حديقة متصلة تجرى خلالها الطرق العامة وصفت كلها بالاسفلت رصفاً يجعلها تصل ما بين انكلترا واسكتلندا بحيث يقطعها المسافر فى الاوتوبيل وهو نائم بسفره مستريح أشد الراحة له . ورتشمند ليست بعد من ريف انكلترا ، بل هى بساتين تصعد من شاطىء النهر الى مرتفع عظيم يقع عليه البصر فيبعث الى النفس راحة وطمأنينة والى القلب سروراً وسعادة بفتنة هذا الجمال . وبين هذه البساتين تنثرت مبان قليلة بعضها فنادق وبعضها منازل صغيرة على طراز المنازل الانكليزية المبنية بالطوب الاحمر تكتنفها من أمامها ومن خلفها حدائق تكاد أزهارها تكسو وجهة البيت جميعاً فتحيله كله زهرة ضاحكة . وجاورنا النهر ومررنا على شاطئه فرأينا مالا نظير فى غير انكلترا له . زوارق يخطتها العد استقلها شبان وشيوخ وكلهم يجدفون فى نشاط وكلهم على الرياضة البدنية اقبال أى اقبال . وركبنا زورقاً بخارياً أخبرنا مضيفنا انه يسير وغايته هامبتون كورت فما كدنا نتخطى رتشمند حتى تبدى الريف الانكليزى على شاطئى النهر فى كمال روعته . ومن آن لآخر نمر ببعض الزوارق بها كل ما يجب لادوات الشاى وذكر صاحبنا ان بها كذلك طعاما يكفى أصحابه آخر الاسبوع أى من ظهر السبت الى صبح الاثنين يهجرون اثناءه العاصمة الى صفو هذا الجو الجميل ، مبتعدين بذلك عن ضجة المدينة وعما يفسد جوها حتى يضيق به الصدر . هذه بعض مميزات الخلق الانكليزى المولع بالرياضة . على أن للانكليز من بالغ المـنر

ما يدعو ويفهم الجميل النفس له . ونهر التمس نفسه قد زينته الصناعة خير زينة وقامت على شاطئيه دور تحف بها الحدائق تزيد زينته بهجة وابتساماً . ثم انك حيث نزلت من هذا الريف وجدت أماكن لراحتك ولتناول طعامك وشايك تحسبها أول الامر غير قادرة من ذلك على كثير ثم ما تكاد تدخل اليها حتى يشتملك جوها بكل ما يبعث الطمأنينة الى نفسك . نزلنا مع صديقنا عند احدى بوابات النهر الحاجزة مياهه تنظيما للملاحة فيه وكانت ساعة الشاى فلنا الى دار مؤلفة من غرفتين هى دار خفير البوابات ، فاذا به قد وضع فى رحبة من الارض امامها بضع موائد تدعو يتناولون الشاى ، واذا زوجه وابنته تقومان بخدمة من ينزلون عندهم هذه الغاية وتقومان لذلك بتحضير كل ما يلزم من فنجان وخبز وزبدة وكعك وتقدم ذلك نظيفاً لطيفاً تشتهيه النفس ويأخذ الانسان منه ما يشاء راضياً مغتبطاً ببساطته واتقانه سعيداً بالهواء النقى وبمنظر النهر وبجد الفتاة اذ تؤدى واجب الخدمة فى رزانة ووقار وكأنها تؤدى واجباً مقدساً . وأراد صاحبنا التبسط معها فأجابت بكلمة وانفلتت لترى غيرنا ممن هم بحاجة الى خدمتها . وضحكنا لهذا المظهر من الجد ان اتفق وبساطة عيش الريف فهو يتنافر والشباب وهو اشد مع الانوثة تنافراً . وأدينا عن شاينا هذا دريهمات قمنا بعدها الى النهر والى الزورق البخارى الذى أقلنا الى رتشمند ونحن باليوم كله وبجمال الريف الانكليزى وبهجة مناظره وبروعة الحدائق المنثورة هنا وهناك مبعثرة خلال خضرتها دور الريف الصغيرة الرشيقة وبكل ما أحاط بنا وأمتع نظرنا نشوة ومرح لا سبيل الى

مثاها فى جو المدينة، وان عوض جو المدينة الناس من أسباب المرح والنشوة ما قد يهيج النفس أضعاف ما تهيجها نشوة الريف ولكن على حساب الصحة وعلى حساب الاعصاب .

وسارت السفينة بنا بعد ذلك بأيام بين خضرة هذا الريف البهيج حتى بلغنا هامبتون كورت مقر احدى القصور الانكليزية الملكية . والناس أشد بحدائق القصر منهم بالقصر ولعاً . فلئن كانت طنافس القصر وبديع أثاثه وما به من صور زيتية ينال الكثير منها الاعجاب العظيم فان هذه الحدائق الفسيحة الارجاء والبحيرات الصغيرة التى تتخللها والازهار الباسمة الالوان وما يشتمل ذلك من جو صفو رقيق يقتضى الناس أضعاف مايقتضيهم القصر من الزمن الذى ينفقونه فى هاته الضاحية . ثم ان أكثر الناس يكتفون برؤية هذه الآثار الفنية مرة ثم هم مع ذلك يترددون على الحدائق وحشائشها وبحيراتها وأزهارها كلما دفعهم ملال المدينة الى الخروج اليها لتنسم الهواء الصافى الصحيح . وفى هذه الحدائق تبسم الثغور وتفيض النظرات بمعانى المرح والغبطة وتعود الحياة نعيما ومسرة يغريان بالحب وبالمودة وبكل العواطف الرقيقة الجميلة التى تحبب الينا الحياة اذ يرش لنا ما فيها ويجيبنا الى ابتسامتنا لها بابتسامة كلها حنان وحب ومودة .

أما قصر وندسور، أو حصن وندسور كما يسميه الانكليز « Windsor Castle » فما يزال منزلا لملوك انكلترا فى بعض الظروف ، وما يزال بنوع خاص منزلا لضيوفهم من الملوك ورؤساء الجمهوريات . وهو حصن حقاً فى ظاهره . فأنت ماتلبث تدخل الى

فنائه حتى ترى أمامك جدرانا من الحجر لم تطلس ولم تنقش ولا تكاد ترى فيها نافذة أو فجوة. وتستدير الى بابه فيزيدك الطريق اليه اقتناعا بأنك أمام حصن من طراز برج لندن. لكنك متى تخطيت الباب الى الدرج فواجهتك غرف القصر وابهاؤه المبيت تفسك فى قصر منيف بديع النقوش ثمين الآثار ملكى الغرف بما فيها من صور زيتية ونقوش جدارية وصور فى السقوف وآنية فى غرف المائدة وسرر فى غرف النوم وما الى ذلك من مظاهر الجلال والأبهة مما ينسيك هامبتون كورت بل مما ينسيك قصر فونتنبلو. على انك ماتكاد تذر القصر حتى يعاودك الشعور بأنك أمام حصن مهيب ليس حوله ماحول هامبتون كورت من حدائق غناء. ثم يصل مابينه وبين قريه وندسور طريق قصير يقرب مابين مقر الملك ومراح الشعب بما يرفع من معنى الديمقراطية الى المكان الصحيح وما يحقق الوحدة القومية المستندة الى سيادة الأمة والى رمز هذه السيادة.

كثيرة ضواحي لندن وان لم أعرف بها قصورا غير قصرى وندسور وهامبتن كورت. وأكثر الضواحي يزهاروعة وجمالا. ذهبنا الى برتن والى ايسبورن الواقعتين على شاطىء المانش وذهبنا الى غيرها من الضواحي يقع بعضها على التمس والبعض خلال الريف غير متصل بنهر ولا ببحر فكنا فى جولاتنا جميعا نستمتع بنضرة وبهاء وصفو جو وننعم خلال ذلك بأماكن الشاى الريفية الجميلة المنثورة خلال انكلترا مآبا للسكينة والنعمة. على أن شيئا فى هذه الضواحي جميعاً لم يأخذ بنظرنا ماأخذ منظر من أروع

ظواهر التضحية وأبدعها . ذلك حين عرجنا أثناء تجوالنا أنحاء الجنوب الانكليزى مما حول لندن على قرية المسنين، أو قرية ويتلى كما يسمونها هناك باسم المحسن الذى أنشأها . هذه القرية الواقعة بين نضارة ريف انكلترا يهز القلب مرآها كما تأخذ باللب فكرة الاحسان التى دفعت مستر ويتلى الى انشائها . لها بوابة حديدية فخمة تخطيناها الى غابة صغيرة تتخلل أشجارها الباسقة أزهار جميلة ويمر الطريق من خلالها نظيفاً منتظما حسن الرصف يصل بين القرية وبينها . والقرية بيوت مشيدة كلها على طراز واحد غاية فى البساطة، غاية فى الحسن . بنيت من الطوب الاحمر ، وفى الدور الاسفل منها غرفتان أو ثلاث غرف، وفى الدور الاعلى غرفة أو غرفتان. لكن البناء على رشاقته وظرفه ليس هو الذى يسبغ على القرية جمالها . فمن حول كل من هذه البيوت حديقة ظريفة غرست على النظام الانكليزى فيها الأزهار مختلف ألوانها وفيها الاشجار الزاهية الخضرة مالم يذبل خضرتها قر الشتاء . وخلال الأزهار والأشجار طرق ضيقة تفصل الجازون الذى يكسو الارض بخضرته بعضه عن بعض ، وتجعل الحديقة تبدو كأنها خريطة مرسومة على ذوق البستانى الفنان الذى يقوم على العناية بها . وفى جانب القرية كنيسة رشيقة هى الأخرى يحيط بها فضاء يسبغ عليها مايجب لبيوت العبادة من هيبة . والمنازل والكنيسة ومستشفى القرية وما فيها من سائر صور الحياة منثورة تتخللها الحدائق والطرق وتنبسط بينها ساحة واسعة مفروشة كلها الا طريقاً يمر من وسطها ويقوم عند غايته تمثال مستر ويتلى منشىء هذه القرية . والقائم على

زراعة الحدائق وتعهدها هم أولئك المسنون الذين بنيت القرية • من أجلهم كما أنهم هم الذين يعمرون دار العبادة كل يوم حين أوقات العبادة . وهم وحدهم الذين يقيمون في القرية . فلست ترى فيها الا من جاوز الخمسين على الأقل وقد ترى فيها من أربى على الثمانين . وما أجمل منظرهم رجالا ونساء وهم يروحون ويغدون أمام منازلهم يتعهدون الحديقة طوراً ويتريضون تارةوهم عن هموم الحياة وآلامها بمعزل بعد أن كانت الحياة لكل منهم نصيبه من هذه الهموم والآلام .

كلا . بل بقى لهم بعض هم الحياة . ذلك أن مستر وتلى حين فكر في بناء قريته للذين يتجاوزون الخمسين وتضيق بهم سبل العيش لم يرد أن يتركهم بغير عمل ولم يرد أن يخليهم من كل مسئولية . وما قيمة الحياة بلا عمل ولا مسئولية . انها تصبح اذا حملا ثقيلا وهماً دونه كل هم . لذلك اكتفى بأن شيد القرية ليسكنوا ومنازلها وقدم لهم الماء والكهرباء والوقود والدفء وترك على عاتقهم العمل لكسب القوت . واذن فعليهم مسئولية ولهم عمل . واذن فلديهم شفاء آلام النفس كلها . وهل غير العمل هذا الشفاء . وهل ينسى المكلوم القلب والمحزون كلومه وحزنه في خير من أحضان العمل . وهل ينسى المسن هموم الماضى وهم الحاضر وخوف المستقبل في شيء خير من العمل .

لكن التقدم في السن يصل بالرجل وبالمرأة الى حد العجز عن العمل ويضطرهما الى انتظار غاية الحياة وهما ينظران اليها تقرب سراعا ولا يستطيعان امساكها ولا شغلها . لذلك قرر مستر ويتلى أن

يذهب كل من عجز عن العمل الى المستشفى يقدم له فيه طعامه وشرابه الى جانب ما كان يقدم له ولسواه من قبل ويبقى فيه الى ان ينقل منه الى المقر الأخير يتنظر فيه الأبدية التى قدم فى سبيلها من أنواع العبادة ماقدم .

هذه قرية ويتلى . وهى مثل من أمثال التضحية بالمال فى سبيل خير الجماعة أدت اليه فكرة غاية فى السمو والنبل . فمن الحق أن يصل الانسان من عمله أيام المقدرة عليه الى ما يخفف عنه عبء العمل حين الضعف وعدم استطاعة الانتاج بما يكفى كل حاجات الحياة . لكن نظام الجماعة الحاضرة لا يكفل هذا الحق وقد يكون عسيراً أن يكفله . فعلى من يؤمن به أن يعمل ما استطاع لكفالته . فاذا كان هذا المؤمن من الذين أتاحت الحياة لجدهم أو لعملهم أن يتم ما يفيض عن حاجاتهم فيضا عظيما نخير ما يعمله ، كفالة لهذا الحق ، أن يقوم بمثل ما قام به مستر ويتلى وأن يبنى قرية على طراز قريته .

وأحسب أن الذين يؤمنون بما آمن به مستر ويتلى كثير . لكن الذين يدفعهم ايمانهم للقيام بمثل عمله قلال فى أكثر الامم وغير موجودين فى البلاد التى لم تتأصل فيها بعد حضارة حرية الفرد وتضامن الجماعة . وقد يكون لهم شىء من العذر حتى فى البلاد المتمدينة لضعف الجماعة فى بعض الظروف عن حماية الفرد مما قد ينزل به من هموم وكوارث .

ولعل مصير مستر ويتلى نفسه ، هذا المصير المحزن العجيب ، مما ينهض حجة للانانيين . فهذا الرجل المحسن العظيم الذى عمل

لانقاذ مئات ومئات من الذين قضوا حياتهم سعياً وجداً وكادت الحياة تجنى عليهم . هذا الرجل البر بالانسانية قد مات منتحراً . ولئن بقيت قريته تشهد باحسانه وبقى تمثاله القائم بين أولئك الذين أنقذهم من براثن البؤس يدل على سمو نفسه فان فاجعة انتحاره تدل على أن كثيراً من جوانب الحياة الانسانية ما يزال لغزاً غامضاً عسيراً حله ، وان الاحسان وان عظم قد لا يكفى لسعادة الحياة ، كما أن المجد والمال وكل ما ينظر اليه الناس على أنه غاية من الغايات التي يسمون اليها قد تجتمع كلها للرجل ثم لا تكفى مع ذلك حتى لطمأنينته الى الحياة فيفر منها جميعاً ويطلب الراحة فى أحضان العدم يصل اليه من طريق الانتحار .

***

سبق لى القول ان أصدقاءنا المصريين فى لندن كان لهم أكبر الفضل فى اتصالنا بكثير من نواحى حياتها وبالريف الانكليزى البارع الجمال مما يحيط بها . والحق أشهد أنهم أحاطونا بكل صنوف العناية حتى لم يكن يمر يوم لا نرى فيه جماعة منهم كل مقصدهم أن يروحوا عنا وأن يعاونونا على نسيان ما شعرت باخلاصهم فى مشاركتنا اياه من أسانا . وان نسيت فلا أنسى ما كان لقنصل مصر يومئذ بلندن صديقى مصطفى الصادق وأسرته الكريمة من فضل مضاعف . ولن أنسى الى جانب فضله فضل اخواننا جميعاً ممن أخشى ان حاولت ذكر أسمائهم أن تخوننى الذاكرة فلا يرد اسم أحدهم أو بعضهم فيكون على فى ذلك من اثم الجحود ما أرجو ان أبرأ منه . وهذه العناية من جانبهم وما اقترنت بها من حفاوة شبتنا

وقنياتنا الذين يتعلمون فى انكلترا هى التى جعلتنا نمد زمن بقائنا بالعاصمة الانكليزية الى أكثر من الاسبوع الذى اعتزمنا بقاءه بها . وقد كان مستطاعاً ان تنفذ خطتنا وان نذهب الى بروكسل لنعود منها الى باريس بعد ان ازدادت زوجى فتنة بها بعد مقامنا بلندن لو ان الاسبوع لم يمتد الى أسبوعين . بل لقد حجزنا تذاكر العودة الى باريس فى ختام الاسبوع الثانى فأصر اخواننا على أن نجيب دعوة دعينا اليها فأجلنا سفرنا يومين آخرين . فلما كان الظهر من يوم ٢٩ أغسطس ركبنا القطار لنعود الى باريس كى نقيم بها يومين اثنين ننظم بعدها رحلتنا الى الألب وسويسرا. لكن سحر باريس كان أقوى من عزمتنا فاستبقانا بها أسبوعين كاملين .

لندن — باريس — السافوا العليا

غادرنا لنــدن ظهر ١٢ أغسطس على قطار الوتر الذهبي (The Golden Arrow) فجاء مجلسنا في ديوان به أربع مقاعد جلس الى أحدها شيخ انكليزي كان غاية في الرقة والظرف . وقصته هي التي عادت بي الى الطريق بين لندن وباريس ، ولولاه لبدأت هذا الفصل بما سأذكره من أسبوعينا بمدينة النور . تحدث الينا طويلا فكان حديثه شهياً يدعو الى الاقبال عليه كما يستغرق النظر تحديقه بالوجه الجميل الساحر . سنه أربع وسبعون سنة على قوله . رأيناه فوددنا لو كان معنا من أمتعه الشباب بحلته الباسمة، وتركناه عنــد دوفر وركبنا المانش ثم التمسناه على ظهــر الباخرة ونحن على الاستماع لحديثه الظريف جد حراص . وهو يعــد فخور بقوته وصحته محب لما في الحياة من لهو ومسرة . قال : انى أقيم بباريس أتجر في الجلود منذ ثلاثين سنة . وكنت فيما مضى أسافر الى لندن ثلاث مرات أو أربعاً في السنة . أما الآن فهبوط عمــلة فرنسا وغلاء الحياة في انكلترا جعلني أزور لندن مرتين وكفى . واذ كنت قد ولدت بها على مقربة من ميدان شيرنج كروس فلي فيها عدد من الاهل غير قليــل . لكني لا أنزل عند أحــد منهم اثناء زيارتي اياها، بل أنزل دائماً بالنادي (Circle). فلست أريد الخضوع لرقابة أحد ان أنا تأخرت في الدخول ليلا أو لذ ت أي نوع من أنواع اللهو .

وكان يحدثنا وهو يتناول الطعام ويتناول معه قدحين من الوسكي . ولما سأل الغلام عن حسابه ودفع له اثني عشر شلناً قال :

— لو علمت زوجي اني دفعت في أكلة واحـدة مائة فرنك لغاضبتني ان لم أشتر لها بهذا المبلغ قبعة تعجبها وان أنفقته لنفسي . لذلك يحسن ان يخفي الرجل عن زوجه ما يدعو لخصومة أو مغاضبة

وظل يحدثنا في هذا وفي مثـله حتى لم نشعر بالوقت ومره ما بين لندن ودوفر .

ولم يجـد التماسنا اياه على الباخرة شيئاً أن حال اضطراب البحر بيننا وبين كل حديث،وانتقلنا من كاليه الى باريس في ديوان لم يكن من بين شركائنا فيه . فلما كنا بالفندق شعرنا كأنا عدنا الى بلدنا وأهلنا ومنزلنا . وخرجنا نلتمس بعض المسارح تقضي الامسية به ففاض هذا الشعور عن نفوسنا وأحسسنا أنا لن نستطيع مغادرة هذه المدينة في الموعد الذي ضربنا وكأنا منها مدنف مكبل بسحر فاتنته . وتعاقبت الايام وكانت زوجي قد عرفت من باريس مدة مقامنا الاول ما جعلها تنفرد بالبحث في مخازنها عما تريد . وأنجتني معرفتها من قضاء الوقت معها في مخازن اللوفر والبون مارشيه والسمارتين والفصول الاربعة وغيرها ممـا لا أطيق عليه صبراً ، كما أتاحت لي أن أذهب الى باعة الـكتب أبحث عن جواب على سؤال كان وما يزال حتى اليـوم يتردد بخاطري عما صار اليـه الادب الفرنسي بعد الحرب . فقد كنا أيام مقامنا بالحي اللاتيني ابان طلب العلم نعرف الرؤوس المتوجة في الادب الفرنسي، وكنا نذكر أسماء اناتول فرانس وبول بورجيه وجول لمتر واميل فاجيه وغيرهم، وكان لمن

لعجب به منهم مكان القداسة فى سويداء القلوب . فمن هم أصحاب تيجان الادب اليوم ؟ حتى أن بول بورجيه مايزال حياً وما يزال لا دبه ماكان من سمو المكانة له . لكن فرنسا كانت غنية أبدا بهذه الرؤوس التى تعتبر بحق أبهى مظاهر مجدها . فمن هم أولاء الذين مهد لهم الخلود صفحة فى كتابه ومازالون بيننا تهز أقلامهم قلوبنا وعواطفنا واحساسنا ؟ سألت كثيرين فذكروا لى أسماء ربما ألفت أذنى بعضها ولكن واحداً منها لم يتحرك له قلبى ما كان يتحرك لأولئك العظماء الذين بقيت أسماؤهم مقترنة بكتبهم فى ذاكرتى وباعزازهم ومحبتهم فى قلبى . أفيكون هذا لانصراف الحياة بى عما كان شاغل معظم وقتى من مطالعة ؟ أم أن مذاهب الادب اهتزت مع ما هزته الحرب الكبرى فلم يثبت بعد منها ما يتوج رأس صاحبه ؟ أم أن ضخامة ما يقوم به الناشرون من اعلان عن رجال القلم هو الذى ضلل الجمهور فى شأن أقدارهم ؟ لقد سمعت من هذه الاجابات غير قليل وأعترف بأنى حتى اليوم لا أستطيع الحكم أيها أدنى الى الحق وأصدق للواقع تصويراً .

وفتنتنا مسارح باريس من جديد حتى لكنا نقضى أحيانا بعد الظهر ونقضى المساء جميعاً فيها . وكم كنا نتحدث عن الموعد الذى نسافر فيه من باريس فاذا بنا نرى رواية لها الشهرة يقوم بتمثيلها نوابغ الفن فنحجز أماكننا بالمسرح الذى يمثلها قبل الموعد بأيام ونرانا لا مفر لنا من الانتظار هاته الايام حتى نشهدها . فلما انقضى الاسبوع ثم انتصف الاسبوع الثانى منذ حضورنا من لندن شعرت بأنى يجب أن أستجمع كل عزمى لأفهم كل ما يقوم من

تردد بنفسي . وذهبت ضحى يوم الى شركة القطارات السويسرية فحجزت تذاكرى الى اكس — لى — بن فشامونى فجنيف فانترلاكن فلوسرن فيلانو فالبندقية وبذلك خطوت الخطوة الاولى فى سبيل النصر . ثم طلبت الى الشركة ان تحجز لى مقاعدى ليوم ١٢ سبتمبر فخطوت الخطوة الثانية . وانى لأذكر ما كانت تبدى باريس فيه بعد هاتين الخطوتين من زينة وما كان يظهر على لوحات الاعلان عن مسارحها من روايات يروى لنا أصدقاؤنا عن ابداعها الشيء الكثير مما خشيت معه أن أعود فأغير موعد السفر . على أنى غالبت كل عوامل التردد وبقيت على عزمى برغم ذلك كله

ولما كانت عشية السفر ذهبت وزوجى نودع غاب بولونيا ونودع باريس . وأرخى الليل سدوله وأضاءت أنوار الكهرباء متسللة فيما بين أوراق الشجر من ثغرات، ومر الوقت مسرعاً كأنه بساعة أخرى ضنين . فطلبنا الى سائق السيارة أن يسير الهوينا بعض الشيء فى أنحاء الغابة قبل أن ينحدر بنا وسط باريس . وكم مررنا خلال الغابة فى مثل هذه الساعة ! وكم متع الفؤاد بما فيها من جم المعانى العذبة الساحرة ! لكن هذه الساعة الاخيرة فى الغاب كانت فريدة فى معانيها ، وفى عذوبتها ، وفى سحرها ؛ فكأنما كنت أرى فى اثناء الشجر كله عيوناً باسمة وثغوراً متلألئة وأصواتاً رخيمة تدعونا أن لا نفارق هذه الثغور وهذه العيون وتعدنا أن تكون أبهى جمالا وأعذب مما كانت سحراً . وخرجنا من الغابة الى الشانزليزيه فكأن لم نره من قبل، وكأن أمواج النور المترامية من عند قوس النصر الى ما بعد ميدان الكونكورد لم تكن من قبل

وضاءة الضياء مثلها هذه الساعة . وأضاء برج ايفل من قمته الى أخمصه بما لا عهد لنا من قبل به . وتبدت باريس غير باريس ودعانا كل ما فيها أن لا نغادرها . ولولا الشعور بأنا مغادروها لا بد عما قريب ولولا الأنفة أن تفتنني هذه اللعوب لغلبت باريس عزيمتي ولطال بنا أسارها الشهي المحبوب .

***

غادرنا باريس صباح ١٢ سبتمبر سنة ١٩٢٦ قاصدين السافوا العليا لنمتع النظر بجبال الالب الرفيعة وبثلوجها وأشجارها ومنحدرات مياهها ولنتمتع بطقسها اللطيف بعد أيام تشكى الناس فيها القيظ الذي لم يألفوه وان احتفظت غانيات باريس بفرائهن استمتاعاً بزينتها . غادرناها وفي الجو نذر المطر وفي نفوس المقيمين بها رجاء أن يذهب المطر بالقيظ وآثاره . وكانت اكس لي بن غاية القطار الذي أقلنا والذي يصلها بعد مسير ساعات تسع . لكن السفر في هذا الطريق لا يمله مسافر يسير به القطار بين سفوح خضراء وغابات كثيفة ومياه جارية ، ويخترق به الأنفاق ليخرج من كل منها الى منظر جديد جميل . وقد زاد هذه الطبيعة البديعة زينة أن ظلت السماء الى ما بعد الظهر ممسكة ماءها وان بقيت الشمس وراء الحجب . فلما آن للقطار أن يستدير عند أبواب الالب بدأ المطر رذاذاً . ثم ما لبث أن هتن منه وابل أخذ على النظر السبيل لرؤية القمم التي غربها . ووصلنا اكس في منتصف الساعة الخامسة وقد صحت السماء بفترة هدنة استطعنا خلالها أن ننتقل الى مركبة الفندق لتصعد بنا في شوارع المدينة الصغيرة

الجميلة الى أعلاها . وما كدنا نستقر فى غرفتنا سويعة حتى انهمر المطر من جديد بما أيأسنا من مغادرة صالات الفندق وصالوناته هذه الليلة . فلما كان موعد العشاء ذهبنا الى غرفة الطعام وأخذنا منها مقاعدنا . وما هى الا دقائق حتى رأينا منظراً لفتنا واستثار دهشتنا . تلك عجوز نيفت لاشك على التسعين قد جلست فى عربة صغيرة أنيقة ومن ورائها من يدفع بها فى البهو الى ناحية غرفة الطعام . فلما وصلت الى باب هـذه الغرفة عاونها رجل وامرأة ، لعلهما من خدم الفندق ، على النزول من العربة وأسنداها لتهبط الدرجتين وسارا بها الى ناحية مائدتها يتقدمهم شاب يغلب انه حفيدها . وانسحب الرجل والمرأة بعد ماجلست بازاء هـذا الحفيد الوارث . ولما انتهيا من تناول الطعام جاء معاوناها وسارا بها الى أن أجلساها فى البهو تتناول قهوتها وتشنف آذانها بسماع الموسيقى.

كم قاست هذه السيدة من هموم الحياة وآلامها ؟ ولقد تكون وهى فى شيخوختها هذه قد فجعتها الاقدار بشر الفواجع . وقد يذكرها هذا الحفيد الذى يلازمها بصدع فى قلبها ماينفك تتفجر جوانبه بلذعات ألم لما يتدثر فى ثوب الماضى ولما يخفف الزمن شدة وقعه . لكنها ماتزال تحيا ، وفى الحياة جمال وروعة يعوضان ماينزل بالناس من غدر القدر ، فمن الحكمة أن ننسى فى أحضان هذا الجمال وتلك الروعة أحزاننا وهمومنا وأن ننهل منها بما يطغى على كل ألم ويغرقه .

ولفت منظر هـذه السيدة تحمل الى قاعة الطعام والى بهو الموسيقى نظرنا الى غيرها من العجائز . ما أكثرهن وما أرقهن

وما أشدهن ذوقاً للحياة واستمتاعاً بها . لا يكاد موعد طعام العشاء يجيء حتى تراهن وقد لبسن لباس السهرة يبارين الفتيات البارعات في اعتدال القوام وارتداء ما يحلو لهن من الازياء . فاذا كانت ليلة راقصة كن أسرع من بناتهن الى الرقص وأكثر به حبوراً

وكانت على المائدة المجاورة لمائدتنا عجوز حلوة النظرة بعينيها الزرقاوين ، بيضاء الشعر بياضاً ناصعاً . وانا لنتناول طعام الغداء يوما أشرقت شمسه وصفت سماؤه وطاب هواؤه وتعطر بأريج الزهر جوه اذا بها تقبل الى مائدتها في ثوب أبيض وحذاء أبيض وقبعة بيضاء قد ظهر من تحتها شعرها الابيض وتبدو بذلك وكأنها زهرة بيضاء ذات رواء وبهجة . ولو أنك نظرت الى قوامها وهندامها وحسن ذوقها فيه لخلتها فتاة حريصة على أن تزيد جمالها جمالا ببهاء الحلي والثياب .

لفتت هاتيك العجائز نظرنا وكن في كثير من الاحيان موضع حديثنا ان كانت زوجي وما تزال تأسى لفقد أمها الشابة وأبيها الطفل ترى في استنفادهن الحياة وامعانهن في المتاع بها مظهراً مؤلماً لظلم الطبيعة وغدر القدر . وكم حاولت ان أصرفها عن هذا وان أرجو لها مثل شيخوختهن فتأبى الا ان تجعل من ذكراها ما يصور لها تفاوت العدالة وتفريقها بين الناس بما يسلبها كل معنى العدالة . وكم رأيتها أثر أحاديثنا في هذا الشأن وبعد مشهد العجائز مقبلات على الرقص آخذات بأكبر نصيب منه شاردة اللب سارحة في تيهاء الخيال بما لم أكن أشك معه في أنها كانت تحدث قلبها وبين نفسها :

— ما بال هؤلاء الجدات قد خلعن عذار الوقار وتهالكن على أنواع اللهو . هل حسبن أنهن مستعيدات فى أحضانه مرح الصبا وروعة الشباب . أم هن يزعمن المقدرة على خداع الحياة :

انما العيش صحة وشباب فاذا وليا عن المرء ولى

الا انه لأولى لهاتيك العجائز اللائى انحدرن الى خريف العيش أن يترفقن بأنفسهن وأن يقضين ما بقى من أيامهن فى سكينة وهدوء . فلن يستطعن ، ولو حاولن ، أن ينعمن بأيامهن وأيام غيرهن . وليحمدن الله الذى مد فى آجالهن بينما تحطم على صخرات القدر أعمار شباب كانت الحياة أشد حاجة لهم ولهن وكانوا وكن للحياة زينة ومجداً .

أم لعل الذكرى وحدها لم تكن مثار هذه الصورة للمشيب فى نفسها . لعل مثارها ما رسمته الحياة وما ثبتته منذ طفولتنا فى نفوسنا صورة للمشيب ، ولمشيب النساء بنوع خاص . فهن قد فرغن من الحياة ونصبها والعيش وهمومه فلم يبق لهن الا أن يرتجين حسن الختام بالانقطاع لله ولعبادته وتقواه . وفى انتظارهذا الختام يقضين بقيتهن فى الحياة راكعات ساجدات قانتات ليغفر الله لهن ما تقدم من ذنبهن وما تأخر . هذهالصورة التى كانت تمثل فى نفسى جلال المشيبوهيبتهماتزال تذكرنىطفولتى وتذكرنىشيوخقريتنا يجتمعون فى المسجد قبيل الفجرلقراءة الوردحتى يحينأداءالفريضة فيصلون ثم ينصرفون يسبحون بحمد الله ويقدسونه ويقصون لمن حولهم قصص الماضى حتى تحين فريضة الظهر فيؤدونها فى المسجد جماعة كما يؤدون سائر الفرائض . وما تزال هذه الصورة تذكرنى

كذلك عجائز القرية وهم كل واحدة منهن اداء فريضة الحج وزيارة النبي والانقطاع بعد ذلك لله بالعبادة . على أن الحياة الغربية تأبى هـذه الصورة وتنفر منها وتنكر على العجائز الفـراغ من الحياة ونصبها والعيش وهمومه لأنها لا ترى في الحياة همـاً أو نصباً الا يعوضه ما في الحياة من رقة وجمال ، وترى حقاً لـكل انسان ان أن ينعم بالعيش الى آخر لحظاته وان ينظر الى الموت على انه عمل من أعمال الحياة هو آخرها ، واننا نـكون سعداء اذا استطعنا أن نستمتع بحياة طويلة وموت جميل .

وافضيت غير مرة بهذه الخواطر الى زوجي وذكرت لها أن الأيام لا تضيق بالشباب عن أن يتمتع بها اذا تمتع بها من تخطوا الشباب . فالأيام رحبة الصدر تقبل على كل من أقبل عليها وتدبر عمن قطب لها جبينه ، لا تفرق في ذلك بين شاب وعجوز وبين رجل وامرأة . وهي في ذلك محسنة عادلة . واذا كان الشيوخ والعجائز قد تخطوا الى خريف الحياة فللخريف جمال وروعة لا يقلان عن روعة الربيع وجماله . وما دمنا أحياء فللحياة علينا حق الاستمتاع بها ، والصادف عنها كالجالس الى صديق وفى ، ثم هو مع وفاء صـديقه منصرف عنه الى التفكير فيما لا يرضاه . بل لعل الشيوخ والعجائز أحق أن يستمتعوا بالحياة من الشبان والغانيات . فهؤلاء ما تزال عليهم للحياة واجبات السعي والعمل وما يزال شـبابهم لذاته متاعاً لهم يغنيهم عن التماس غيره من أسـباب المتاع . أما أولئك فقد أدوا للحياة واجبها وقد أصيبوا في الحياة بألوان من المحن تؤلم ذكراها ، ثم قد تحدر شبابهم في غيب الماضي . فالحياة عبء ثقيل عليهم حمله

اذاهم لم يلتمسوا نسيان أثقاله فى المرح والمسرة . والحياة كريمة محسنة لاتأبى المرح على عجوز ولاعلى شيخ اذا هدته حكمته فطلب من ألوان السرور مايجمل الهرم ويجعله كالصبا بهاء وروعة . ولعل الانسان اذا جلس الى واحد من الذين تربدهم صورة المشيب فى نفوسنا على الانزواء فرآه مقبلا على الحياة محباً لها يغتبط بجلسته معه مقدار اغتباطه بجلسته الى شاب ذكى أو سيدة جميلة فى حين هو اذا جلس الى منزو عن الحياة زاهد فى العيش لم يجد فيه مما يحسبه جلالا وهيبة الا ما يجده فى الدور المهدمة الخربة التى تطن بأصوات الحشرات الكريهة ولا تسمع فيها شدواً مشجياً كالذى تسمعه فى القصور القديمة الآهلة بأسباب الحياة والنعمة

لم يقف أمر العجائز اللاتى بعثن هذه الصور والتفكيرات الى نفسينا عند من رأينا فى الفندق . فقد تنفس الصباح بنا فى اكس—لى—بن عن جو صحو جميل زاده انهيار المطر صدر الليل صحواً وجمالا فانحدرنا الى ميدان المدينة العام حيث نبوع الماء المعدنى يشربه المستشفون ، وحيث تقوم عمارة الحمامات المعدنيــة وحيث كازينو المدينة على مقربة منه، فألفينا حول العيون من العجائز كثيرات جئن مستشفيات مستمتعات. ولم نقصد نحن اكس للاستشفاء وانما قصدنا اليها اذ كانت فاتحة الطريق الى الالب الفرنسية ومناظرها البديعة وهوائها الحسن الصحيح الذى ينبه الاعصاب وينشطها ويزيد فى الحياة ما يزيدنا حرصاً عليها . لذلك آثرنا ان نطوف المدينة ومجاوراتها فركبنا عربة يجرها جواد واحد كى تمشى على مهل يسمح لنا بالتأمل فيما نرى . وركنا لسائق العربة ان

يكون دليلنا فذهب بنا أول ما ذهب الى « حلوق سرفوز Les Gorgesde Cervoz » . وهى أخدود عميق فى الارض يحيط بجانبيه صخر أملس وأسى الانحدار تجرى فيه المياه المنحدرة من الجبال وتكسوه أشجار كثيفة . وهبطنا من العربة ودخلنا اليه وأخبرنا السائق أنه منتظرنا عند غايته . فلما بلغنا أول الاخدود ألفينا زورقاً صغيراً جداً يتسرب فوق الماء خلال الصخور الرأسية متجهاً صوب الانحدار من النبع حيث يهوى الماء الى أخدود الحلوق مضطرباً هائجاً يثير من حوله رشاشاً كأنه البخار الصاعد من الماء الفائر ويبعث فى عزلة المكان الهادىء فصلت الاشجار بينه وبين حياة الطبيعة خريراً أجش كأنه نزع الكليم من خيفة ان تفصل الحياة بينها وبينه . وبلغ الزورق الانحدار وسدت فى وجهه السبيل ولم يبق له الا أن يعود فارتقينا بضع درجات صنعت من الخشب وجعلنا نسير والماء ثم نصعد درجات أخرى نسير بعدها فوق الصخر، ويقينا السقوط الى الماء درابزون من خشب امتد حتى بلغ بنا مصدر النبع حيث فورة الماء الاولى . ومن هناك خرجنا فألفينا عربتنا فركبناها فسار السائق بنا يتسلق هضاب هذه المنطقة المحيطة باكس حتى اذا بلغ احدى قممها أشار الينا لنجتلى فيما حولنا هذا المنظر الجميل منظر الجبال الخضراء المفوح تطل على بحيرة بورجيه تلقى عليها شمس ذلك اليوم الجميل أشعتها فيحيلها الموج لجينا متكسرا . وعدنا الى الفندق حين استوت الظهيرة لنخرج منه بعد ذلك مصعدين فى المرتفعات الذاهبة الى ما بعد اكس وكلها مزارع خضر ترتفع

فيها النعم وتقوم خلالها عزب صغيرة يقطنها مزارعون من أهـل هذه الجبال يقومون فيها بأعمال الزراعة ويعنون بتربية الماشـية والدجاج عناية خاصة. بين هؤلاء المزارعين وخلال مزارعهم شعرت بحياة جديدة انتقلنا اليها بعد باريس ولندن. حياة صحيحة تتنفس ر ها هواء نقياً يتخلل مسام الجسم جميعا فينعش الروح والاعصاب ويرتفع بالنفس لتشارك الـكون فى كل حياته ولتشعر أن هذه الـكائنات كلها من ماء ونبات وشجر وحيوان وطير تحيى كما نحيى، تتنفس كما نتنفس وتنمو كما ننمو وتحس كما نحس، فتألم وتطرب وتبتهج وتنقبض وتشاركنا ونشاركها فى هـذا الـكون هو كله وحدة متصلة نحن بعضها كما أن هذه الأحياء المحيطة بنـا بعض آخر مثلنا، أو لعله أعظم فى هذه الوحدة مكانا منا

وفى صبح الغـد ركبنا سفينا بخارية مخرت بنا بحيرة بورجيه نزور عند شاطئها الثانى ديرا ينقطع للعبادة فيه جماعة من الرهبان ويحتوى بعض آثار فنيـة قيمتها قدمها. على أن مايحيط بالبحيرة من جبال هى مقدمات الألب الفرنسية أسبغ على البحيرة من الجمال مايكفل متاع من لا تعنيه آثار الأديرة. فلما عدنا كان القطار الذى سافرنا الى سان جرفيه يقوم على أثر عودتنا. على أنا آثرنا أن نقطع الطريق عند آنسى نبيت بها ونطوف فى صباح الغد انحاء بحيرتها ثم نستأنف السفر ظهر ذلك اليوم. ودعانى الى هـذا الايثار ذكرى ماقرأت فى جان جاك روسو عن آنسى وبحيرتها وما حولها ومنطقة شامبرى كلها. هذه المنطقة التى كان عاشق الطبيعة يتحدث عنهـا فى تهدج واجلال ويرى فيها معبد ماأبدع الله على الارض من جمال.

ولم يكذب الواقع ظنى . فقد دارت بنا السفين فوق بحيرة آنسى محاذية الشاطئ حينا متخطية البحيرة من جانب الى الآخر حينا مرسية عند بلاد هذا الشاطئ البديع مغنية فى دورتها ذهاباً وأوبة خمس ساعات كاملة استولى علينا البهر فيها جميعاً ولم ندر أية بقعة من بقاع هذه الشواطئ يمكن ان تفضل الاخرى . وقامت القرى المتصلة بها بين ألوان من الخضرة ذات رواء ولين وبهجة تظللها سماء تغرى روحها بالمحبة والعطف وتفتح النفس لحياة هذا الجو الفسيح كله جمال وهوى . وأشهد لقد انقضت الساعات الخمس وعدنا الى آنسى وتناولنا فيها طعامنا وركبنا القطار ولا حديث لنا الا بحيرة آنسى وسحرها وفتنتها مما كان جديراً بأن يسبينا عن أنفسنا ويمسكنا فى احدى قراها المحبوبة لولا ثقتى بأنك فى الالب تتخطى من جمال الى جمال فالخير فى أن تنهل من هذا الجمال جميعاً .

وبلغ بنا القطار لفاييه ثم صعدنا منها بالقطار الصاعد الى سانجرفيه أقمنا بها أربعة أيام خالدة على الزمن فى النفس ذكراها . هانحن فى منطقة جبلية لا تعرف السهل ولا البطيح وان عرفت الغابات وعرفت السفوح الخضراء مراعى النعم ومراتعها . وهانحن نقضى الكثير من وقتنا نتغلغل خلال هذه الغابات ونتسلق هذه السفوح ونندمج بكل وجودنا فى هذه الطبيعة ننال منها متاعاً وصحة ونقف فيها عند ساكنى هذا الجبل يأنسون فيه لوحدتهم وسكينتهم أنس أهل المدينة لضجتهم ومضطربهم . على أن للطبيعة فى كثير من هذه الأنحاء الجبلية بدائع تزار لتقدس الطبيعة فيها كما يقدس بارئ الطبيعة فى هياكل المدن ومعابدها . ذهبنا يوما

الى ثلوج بيوناساى « Glaciers de Bionassay » نشهد روعة الجبل عند قلله روعة تأخذ بالقلب والنظر والفؤاد. وثلوج بيوناساى ترتفع عن سطح البحر ألف متر ونصف مئة متر وترتفع عن سان جرفيه ألف متر أو نحوها. وركبنا القطار الصاعد فجعل يزحف متسلقاً الجبل بين الغابات تكسو أشجارها السفح من ناحية وتكسو الوادى المنحدر الى يسار القطار من الناحية الأخرى. وعلى جوانب هذا الوادى تتبدى للنظر منازل منعزل بعضها كأنه صومعة الناسك مجتمع بعضها كأنه عزبة وسط واحة من الشجر. ويزداد البطء بالقطار فى زحفه وتسلقه كلما قام السفح أمامه عمودياً أو يكاد فيتيح لنا بطئه أن نجتلى ما حولنا من جمال الجبل وسفوحه ووديانه. وظللنا كذلك ساعتان ثم بدأنا نشعر بالطقس تهوى حرارته وبالسيدات يضممن اليهن معاطفهن وبأم أوجدة لماها تطلب الى فتاها أن يلبس البالطو. وبعد ساعة أخرى وقفنا فى بطيح فوق الجبل به مطعم يتناول المسافرون فيه طعام الغداء ويجدون فى نبيذه وسيلة للدفء ثم يخرجون منه ليمتعوا ناظرهم بهامات الجبال الرفيعة كستها الثلوج تيجاناً ناصعة البياض ألا ما تكسوها به الشمس ساعات بزوغها ومغيبها من تورد لخمرة قدم قان ولهب مستعر. والجبل الابيض من بين قلل الالب هذه جميعا يسمو عليها رفعة هامة ويكسوه الثلج بتاج تعنو له تيجانها جميعا. فلما أمتع السفر من هذه المناظر طلعتهم عاد القطار زاحفاً متسلقاً حتى اذا بنا نقترب من نفق طويل تتجلى من ورائه ثلوج هائلة كساها ضوء الشمس نور الالاء انبهرت له نواظرنا وخشعت قلوبنا وأفئدتنا وبقينا محدقين بالثلوج لا نملك

ان نميل بالنظر عنها أو ان نفكر في شيء سواها . تلك ثلوج بيوناساي التي قطعنا ويقطع المئات والالوف كل صيف هذا الطريق اليها عدا من يصلونها متسلقين الجبال على أرجلهم من الالبيين ومن ينسجون على منوالهم . واستمر القطار يتسلق فيقترب من هذه الفرجة الوحيدة التي تتبدى روعة هذا المنظر الباهر من خلالها بينا يصدم النظر هذا الجبل الاجرد الذي يخرقه النفق فلا يقف عنده ويعود ليحدق بما بهره وسحره . وجزنا النفق وظل القطار يسير بعده زمناً حتى بلغ غايته . وهبطنا منه ثم صعدنا الى ناحية الثلوج وحاول بعضنا ان يبلغها فاذا الطريق اليها وعر مخوف واذا بنا نقف زمنا امامها مشدوهين في ذهول ثم يحاول بعضنا ان يصل ما بينه وبينها بحجارة يقذفها نحوها فتهوي في وسط الطريق ولا تبلغها . وآن للقطار ان يؤوب الى سان جرفيه فتركنا هذا المنظر الجميل اليه فاخترق بنا النفق ثم انطلق مضاعفاً سرعته حتى بلغ البطيح ثم اجتازه وهبط بنا الى حيث بدأ في الصباح صعوده وترك لباصرتنا هذا المنظر العظيم الجميل ما نكاد نذكره حتى يتبدى امامنا بسفوحه ووديانه وأشجاره ومنازله وبطيحه وثلوجه .

والموقع الثاني الذي يحج الناس لزيارته هو شاغور ديوزا أو حلوق ديوزا اذا أردت الترجمة الحرفية للاسم الفرنسي (Les Gorges de Diozas) . واذا قلت ديوزا فلا تذكر بجانبها سرفوز ولا تذكر شاغور حمانا ولا تذكر أكثر مساقط المياه في الجبال مما رأيت . فلديوزا جمال وجلال لا يدانيه في تلك المساقط جمال أو جلال أو هيبة أو رهبة . دخلنا الى حديقة أخذنا

من غرفة فيها تذاكر تسمح لنا بزيارة المساقط ثم تخطينا أبواباً وسرنا فى طريق ما لبث أن استدار فزج بنا فى جوف الصخر حتى كنا نجيل البصر فى كل ما حولنا فلا نرى الا صخراً يشقه الطريق كلما صعدنا واياه زاد بنا فى جوف الجبل ايغالا. وبعد زمن سمعنا زئيراً تتجاوب اصداؤه فى هذه الفجوة من الجبل يصدمه جانب منها فيتلقاه جانب. ذلك زئير الماء المنحدر من قمة هـذا الجبـل فوق صخر لا يكاد يطمئن اليـه حتى يسقط هاويا فوق صخر آخر ثم فوق صخر ثالث ورابع، وهو فى كل واحدة من سقطاته يجأر ويزأر فلا يغنيه ذلك شيئاً بل تدفعـه السقطة الى السقطة حتى يهوى الى حضيض يجرى فيه غديراً سا كناً مستسلماً خاضعاً لارادة الانسان ولميول اهواء الارض التى يجرى بها . وتابعنا نحن الى جواره مسير تنافوق مسالك من الصخر يفصلها عن الهاوية درابزون حاجز . ثم أصبح الصخر ولا سبيـل للمسير عليه فمهـدت الصناعة طريقاً من خشب يرتفع ثم يستحيل سلما تصعد اليـه لتصل الى مهبط الماء أول سقوطه . وهـذ المهبط عال يرتفع مئات الامتار ولذلك يقتضى صعود الدرج فيه عناء ومشقة كما يتعرض الانسان فيه لرشاش هذا الماء الذى يستحيل كله رشاشاً أول ما يصدمه الصخر ساعة سقوطه عليه أو اصطدامه بجوانبه . على أنها مشقة لا تصد ورذاذ منعش يزيد النفس بهـذا المنظر ابتهاجاً وغبطة ويدعوك لتتابع الدرج مستنداً الى الدرابزون تارة والى جدار الصخر تارة أخرى معجبا بالماء وانحداره وزئيره وبالصخر الأملس ينبت الماء العشب والشجر من خلاله وبكل هـذه الفجوة كأنها البئر تقر فى الجبل صاعداً

فوق الارض يتدفق الماء من قاعه فيروى ماحوله ويكسوه جميعا بهاء وخضرة ونضرة

وغادرنا سان جرفيه الى شامونى فى غاية الالب الفرنسية وأكثر البلاد الجبلية ارتفاعا وشهرة . وفى طريقنا اليها بالقطار الكهربائى شققنا جبالا جرداء صخورها بعضها فحمية اللون تمعن فى تموج يجملك تقتنع بأنها كانت أخشاب غابات هائلة أتت عليها ريح صرصر عاتية فعصفت بها فضمرت تحت الارض أكداسا جزوعها فاستحالت جبلا فتفحمت فصارت ماترى . وبين هذه الجبال وجبال بعدها انطلق القطار فى وديان خضر ممرعة يروى بهاء خضرتها النظر الظمىء بعد تلك الجبال الفحمية الى خضرة نضرة . فلما كنا بشامونى حاطت بنا حياة الالب فى أوضح صورها ومعانيها . يلبس الناس غير ما يلبس المصطافون فى البلاد الأخرى ويحمل الكثيرون فى أيديهم عصيا فى طرفها حديد مدبب يعاونهم فى تسلق الجبل . ولا تكاد تغادر المحطة وتميل بعد ميدانها الى الشارع الرئيسى حتى ترى نهراً يجرى خلاله متدفقاً ماؤه الابيض اللون كأنه ثلج مايزال . وعلى حافة هذا النهر قهوة يقصد اليها من لايريد المكث بأماكن الشاى والحلوى . على أن القهوة وأماكن الشاى قل قاصدوها فى شامونى لان زوار هذا البلد يقصدون نهارهم الى الجبال يرتقونها ويستمتعون بجوها الصحيح ، فاذا كان الليل وجدوا فى فنادقهم ما يغنى أكثرهم عن القهوة وعن مكان الحلوى .

وزرت كثيراً من البلاد الجبلية المحيطة بشامونى . على أنا لم نكن لنغادرها دون أن نزور بحر الثلج بها . وتسلق بنا القطار

الصاعد بعد ظهر يومنا الاخير بالمدينة اليه فوق سفوح قل شجرها اذ كان جو المنطقة تكثر الثلوج فيه وتنحط حتى فى الصيف درجة حرارته الى ما تتعذر معه حياة الشجر والنبات . فلما بلغ القطار غايته مررنا غير بعيد فبصرنا بين جبلين بواد منخفض علاه موج جامد لا حركة به . واستوقف هذا الموج نظرنا فقيل لنا هو بحر الثلج وطلب الينا ان ننزل اليه وان نسير فوقه . والذين يغريهم هذا النوع من الطلعة يلبسون فوق أحذيتهم جوارب حتى لا ينزلقون فوق الثلج فيصيبهم من صلابته أذى ويمسكون بأيديهم هذه العصى المدببة الطرف يستعينون بها على حفظ توازنهم فى مسيرتهم . وهبطنا حتى كنا عند شاطئ هذا البحر العجيب ولم تطاوعنا أنفسنا على هذه الرياضة الخطرة وان كان من أهل هذه المنطقة من يهاونون عليها جماعة الذين تغريهم المخاطر ليقولوا انهم فعلوها أكثر من معونتهم جماعة المولعين بالرياضة والذين يقبلون عليها تدفعهم فطرتهم وسليقتهم أكثر مما تدفعهم الطلعة أو حب الغريب من الاشياء . وبرغم ذلك كله وبرغم الذين تخطوا الجبل الى بحر الثلج فقد ظل بعضهم وفى نفسه ريبة ان يكون هذا الوادى كله بحراً ، أو بالاحرى نهراً من الثلج حتى كان المرتاضون فوقه يكسرون قطعاً منه يقذفون الينا بها ليزيلوا كل شك من أية نفس تظل بها من الشك خلجة . وهو بالاحرى نهر الثلج لأنه كالنهر فى مجراه وفى طوله وفى عدم انفساح شاطئيه حتى لا تراهما العين معاً . لكن أهل هذه المنطقة يسمونه بحر الثلج اجلالا واكباراً ولان موجه الجامد هو بموج البحر أشبه .

وآن لنا بعد مقامنا بشاموني ان نغادر الالب الفرنسية وان نغادر فرنسا الى سويسرا نبدؤها بجنيف . وفيما نحن نعد عدتنا لسفر يكاد يستغرق يوماً كاملا استعدت امام ذاكرتي هذه الاسابيع السبعة التي انقضت منذ سفرنا من مصر والتي قضينا منها بفرنسا شهراً كاملا فتوجهت بكل قلبي الى هذه البلاد الجميلة والى عاصمتها مدينة النور والى جبال السافوا شاكراً باخلاص أنعم الله علينا فيها أن أحالت لون الحياة أمام عيوننا فقضت فيه على صورة اليأس البشعة السوداء وان بدلتنا منها صورة فيها من بسمات الرجاء ما كنا نلتمس قبل سفرنا خيطاً منه فلا يساورنا أمل فيه . وعاد بنا القطار الكهربائي من شاموني الى لفاييه ثم انتقلنا الى قطار آخر سار بنا ساعات ثلاث وسط زروع نضرة وجبال تبدى قريبة آونة بعيدة أخرى مختفية حتى ما يكاد يلمحها النظر ثالثة . ومن هـذا القطار انتقلنا الى قطار ثالث بدأ مسيرته مع الليل حتى بلغ بنا الحدود ما بين فرنسا وسويسرا . ثم نزلنا جنيف وأقلتنا خلالها عربة الى فندق روسيا أول الفنادق المطلة على بحيرة لمان . وما هو الا أن قاربت العربة جسر الجبل الابيض الذي يجتاز البحيرة على مقربة من منابع نهر الرون وعند جزيرة جان جاك حتى اذا الجسر كله أعلاه وأوسطه وأسفله عرس من الكهرباء يهز القلب بالفرح والنشوة ويجعل الحياة أمام النظر كلها ضياء وأملا . هنالك توجهت لله بشكر خالص مرة أخرى . لقد حشدت باريس ولندن أمام النظر والذهن والخيال فنونا من ألوان الحياة جعلت زوجي ترى الحياة بغير العين التي كانت تراها بها قبل

أن نحل فيها ونشعر بأنا قادرون على الحياة بالغة مابلغت قسوة الحياة بنا والألم والأذى للذين يصلان منها الينا فكان لها من ذلك شفاء للنفس والروح . ولقد تكشفت السافوا العليا عن صور من جمال الطبيعة ومن صفو الهواء بما فيه شفاء للجسم وأعصابه . وها نحن ندخل من سويسرا في محفل الطبيعة الأكبر فيه غذاء للروح والجسم معاً . فلنسارع الى النهل من ذلك والى الاستمتاع بعرس الطبيعة الدائمة الابتسام . لذلك مالبثنا أن صعدنا الى غرفتنا بالفندق حتى جلست وزوجي الى شرفته المطلة على هذا العرس وعلى بحيرة ليمان وعلى سماء وضاءة بنور القمر وعلى جو معطر بأريج الجمال وعلى حياة كلها نعمة كافر بالحياة من ينكرها نستمتع بذلك كله فيدخل المتاع به الى نفوسنا وقلوبنا وأرواحنا فيضاً من السعادة .

في سويسرا

« هنا يبتدئ الزمن القصير السعيد من أزمنة حياتي . هنا تجيء البرهات السريعة الهادئة التي تجعلني أقول اني حييت . ايه أيتها اللحظات الثمينة المأسوف عليها ! ارجعي فاسترجعي مسراتك الهنيء. أنسابي في ذاكرتي ان استطعت أكثر بطأ مما كنت في سرعة مرك . ما عساي أعمل لاطيل كما أريد هذه الذكرى البسيطة المؤثرة ولأقول وأعيد الاشياء نفسها ولا يمل قارئ باعادتها كما لا أمل أنا باستعادة ذكراها ، ولو ان ما كان بمشكوته الوقائع والاعمال والالفاظ لاستطعت وصفه وتبيانه . ولكن ما تراني أذكر من شيء لم يقل ولم يعمل بل لم يأخذ أي مكان من الفكر ثم هو قد ذيق بل أحس وليس لدي ما أستظهر به سعادتي غير ذلك الاحساس نفسه ، كنت أستيقظ مع الشمس وكنت سعيداً . كنت أتنزه وكنت سعيداً . كنت أرى أمي وكنت سعيداً . وكنت أتركها وكنت سعيداً . كنت أقطع الغابات والاحراش وكنت أجوب الوديان وكنت أقرأ وأسكت وأشتغل في الحديقة وأجمع الفاكهة والسعادة تتبعني حيث كنت ولا تستطيع ترك لحظة لانها لم تكن في شيء معين بل كانت ممتزجة بنفسي وروحي »

هذه صورة من اعترافات جان جاك روسو عن مقامه بالشارمت على مقربة من شمبري . وهي صورة صادقة للزمن الذي قمنا بسويسرا . فقد كنا نجوب خلالها وكنا سعيدين . وكنا نتنزه

بلادها وكنا سعيدين . وكنا نهبط وديانها ونصعد جبالها ونخترق ثلوجها ونركب بحيراتها ونتنسم هواءها ونستمتع بأرج عبيرها وكانت السعادة تتبعنا حيث ذهبنا لأنها لم تكن في شيء معين مما نرى أو نسمع بل كانت ممتزجة بنفسينا وبروحينا .

والحق أن سويسرا جديرة بأن تبعث الى أشد النفوس انقباضاً ما يزيل انقباضها ويفرج كربتها . فقد حبتها الطبيعة موقعاً وجواً وجمالا لا يدانيه فيما رأيت من ربوع العالم كله جمال . جبالها وبحيراتها وغاباتها ذات حياة لا تعرفها غيرها من البحيرات والغابات والجبال . ذلك بأن أهل سويسرا مزجوا حياة الطبيعة بحياتهم وحوروا في صورتها بما يلهمه ذوق الجمال للانسان فنفخوا في سفوح الجبال وفي أغوار صفائحها وفي أعالي قللها روحاً تجعل بين الانسان والجبل شركة وثيقة الاتصال طويلة العمر قديمة التاريخ أكبر غرضها التعاون على المزيد مما حبت الطبيعة الجبل به من جمال ليزداد الانسان بالجبل وجماله متاعاً . وقد امتدت يد الانسان الى البحيرات كذلك فجعلت في لجها وفي جوها الرقيق الصافي مثل هذه الشركة في المزيد من الجمال ومن المتاع به . وبلغ من متانة هذه الشركة بين الانسان والطبيعة في سويسرا ان الانسان ليعجز اليوم لو حاول تصور أحدهما دون الآخر عجزه لو أنه حاول ان يتصور جسما حياً لا روح فيه ، أو روحاً يتم عليه الحس ولا جسم له تتصل بالحس أجزاؤه

وهذه الشركة القديمة التي تعاقبت عليها الاجيال قد ربط بينها روح تضامن في سبيل غرض واحد وغاية مشتركة هما بعث الحياة

الانسانية فى هذه الكائنات الطبيعية ليجلى على أهل الارض جميعاً صورة نادرة من الجمال الحى يستمتعون بها أحراراً متساوين متاعاً مشتركا . فأنت لا ترى صومعة معلقة فى جبل تحدث عن زاهد منقطع الى الله وعبادته . ولا ترى قصراً منيفاً تحيط به أكواخ الاتباع والخدم محدثة عن أبيقورية مترف أثر لا يعرف من الحياة غير نفسه فاذا رضيت نفسه فعلى الحياة وعلى الانسانية العفاء . بل أنت ترى الجمال منثوراً بأيدى الاجيال لمتاع ما يتعاقب من الاجيال . وأنت ترى قوى الطبيعة كلها مسخرة لمتاع من شاء المتاع من أهل الانسانية كلها . وأنت تحس حيث كنت من سويسرا كأن كل شخص من أهل هذه البلاد قد عاون جهد طاقته ليزيد فى جمالها وليبعث اليها من جمال روحه كل ما حوت روحه من حب اياها وتعلق بها ، وكأن كل انسان رأى فى شئ منها نبوا عن ذوق الجمال الوليد معه قد آلى على نفسه الا أن يزيل النبو وان يغرس مكانه من الجمال مزيداً . والطبيعة العادلة المحسنة التى لا تنسى جزاء انسان باحسانه قد جزت هذا الشعب عن حبه الجمال ان ازدادت هى الاخرى جمالا وان ازدادت فى أحضان الالب تبرجا وزينة . فثلوج سويسرا وأقمارها ونجومها وشموسها ليست كـكل الثلوج ولا كـكل الأقمار والنجوم والشموس . بل تكاد هى الاخرى تكون من صناعة رب فن ماهر أبى عليه فنه أن يكون بين هذه الثلوج والكواكب وبين ما على الارض من جمال نشازا فشارك الانسان فى عبادة الجمال بأن جعلها أبهر زينة وأبرع جمالا .

وهذا العرس الذي قابلتنا به جنيف على جسر الجبل الابيض تتخطى فوقه بحيرة ليمان في اختراقها مدينة كالفن هو بعض هذه الشركة المبدعة بين الانسان والطبيعة وان لم يكن أروع ما أبدعت الشركة من منشآت فذة . وبحيرة ليمان من جنيف الى مونتربه أكبر شاهد على افتنان السويسريين في المزيد من جمال البحيرة وشاطئها بينما ترى شاطئها الفرنسي لايلقى من العناية الامالتلقى جبال السافوا العليا . على أن ليمان وحدها بدعة ساحرة تتغنى مباهجها والجبال المحيطة بها والغابات الكاسية سفوح هذه الجبال والسماء التى تظل الجبال ولج البحيرة جميعا بانغام من ألوان باهرة تلتهمها العين فيطرب لها القلب وتنتعش بها النفس ويشعر الانسان معها كأن روحه وفؤاده قد استحالا أوتاراً توقع هذه الانغام عليها . وكم كنا نطرب لهذه الانغام سواء كنا نسير على شاطىء ليمان أو نصعد في الهضاب المحيطة بجنيف أو نجدف في زورق فوق البحيرة أوتدور بنا بواخرها لتمتع السائحين بمناظر شواطئها الساحرة، وكم كانت هـذه الانغام تختلف باختلاف ساعات الليل والنهار . ماكان أرقها وأجملها ساعات المغيب حين يتجاذب الليل والنهار حتى يتعانقا ثم يفنى أحدهما في صاحبه . قضينا بجنيف ستة أيام نستمتع بهذه الصور جميعاً في مراح ونشوة ولا يدع لنا استمتاعنا بها أن نتابع ماكان يجرى في عصبة الأمم وكانت منعقدة وقتئذ وكانت جريدتها تصل الينا مع الصباح وقبل طعام الافطار . فلما فكرنا في مغادرة جنيف الى لوزان ولم نكن قد ارتقينا واحداً من جبالها استشرنا دليل « بدكر » كما استشرنا رجال الفندق فأشاروا علينا

بالصعود الى جبل ساليف . فلما كان الصباح رأينا الجو مكفهر فترددنا بعض الشيء وسألنا أهل الفندق ان كانوا يتوقعون مطراً . قال أحدهم :

— كلا . فجو المطر تملأه روائح السمك كأنما هو يقترب من سطح البحيرة لينعم بالماء الجديد تساقط عليه . وليس في الجو من هذه الروائح شيء .

وتخطينا جسر الجبل الابيض Pont de Mont Blanc الى شارع الرون فالميدان الذى يقوم منه الترام الى فيربيه ليتصل بالقطار الصاعد الى الساليف. ومر الترام اثناء صعوده شوارع جنيف بميادينها الفسيحة وطرقاتها الواسعة وبالخضرة الباسمة رجاء منظر العابسة فى هذا الجو المقطب الجبين بالسحب . ثم غادرنا حدود المدينة الى الضواحي الناضرة التي تقوم فى أحضان الالب على حدود ما بين سويسرا وفرنسا . فلما اجتزنا هذه الحدود صعد الى الترام عامل الجمرك الفرنسى وسألنا عن جواز السفر . وكان معنا فى القطار انكليزيتان ألقى عليهما هذا السؤال وكنا جميعاً قد تركنا الجواز فى فنادقنا اذ لم يكن بدور بخلدنا أن نزهة ساعات قصيرة نتخطى فيها الحدود لنعود بعدها ادراجنا تحتاج الى ما تحتاج اليه السياحات الكبيرة من عدة. وبعد أن ألح الرجل فى ضرورة عودتنا من حيث أتينا تسامح وتركنا نسير فى طريقنا . وما أدرى أكانت تطيب نفسه بهذا التسامح لو أننى كنت وحدى ، أو لو أنه كان مكانى السيدات الثلاث اللاتى نظرن لهذا التصرف بدهشة باسمة . ثلاث رجال بالغة حجتهم ساحر بيانهم

وارتقينا القطار الصاعد الى جبل ساليف فجعل يتسنم الجبل بين سفوح قامت فوقها الاشجار الباسقة ، والشجيرات اليانعة، وأزهار قليلة منثورة من حين الى حين . وكنا كلما تقدمنا ازداد الجو غيوماً وتساقط السحاب فى الوديان بين القمم والجبال المختلفة . على أن تلبد السماء من فوقنا وانحدار الغمام فى الوديان المنخفضة دوننا لم يبلغ من الكثافة ان يحجب النضرة اليانعة المحيطة بنا . بل ظللنا فى ارتقائنا ننعم بمنظر رقيق من ورق الشجر الاخضر لما تعد عاديات الخريف منه الا على قليل . وكنا وكان المسافرون معنا يملؤنا الامل أن يبدد خيط من ضياء الشمس هذا القتام الذى كان يزداد تراكما كلما ازددنا ارتفاعاً . وكيف نرجو اذا لم ترسل الشمس من نورها الوضاء ما يجلو الجو أن نرى ثلوج الجبل الابيض التى طالما نعمنا من قبل بمرآها أو ان نمتع النظر بخضرة الجبال التى لا يعلوها الثلج . لكن القطار وصل الى غايته وأملنا ما يزال سراباً . فصعدنا الجبل الى فندق قائم فوقه كأنه صومعة الناسك فى عزلته،ودخلنا غرفة الطعام نتناول غداءنا فألفينا من فيها قد أقفلوا أبوابها ونوافذها اتقاء البرد القارس فى هذه الظهيرة العابسة .

وفندق ساليف كفنادق الجبال فى بساطته ورشاقته . لا ترى فيه آثار نعمة المدن من فرش وثيرة وأبهة ووجاهة . لكنك تجده ظريفاً فى بساطته نظيفاً كل النظافة . على مناضده مفارش بيضاء نقية من غير تطريز، وآنية بيضاء نظيفة ، وكل ما تحتاج اليه فى طعامك وشرابك . ولقد أخذنا مقاعدنا الى احدى مناضده

وأدرنا نظرنا نلتمس الخادم فلم نجد أحداً فانتظرنا برهة ثم اذا باب فتح وظهرت منه فتاة لاأحسبها تزيد على الخامسة أوالسادسة عشرة من عمرها ، واذا هذه الفتاة هي وحدها القائمة بخدمة كل الذين يتناولون طعام الغذاء ويبلغون الخمسة عشر عداً . تأتيهم بطعامهم وشرابهم وتقوم بمحاسبتهم وأهلها من ورائها يطهون الطعام لتقدمه هي الى متناوليه .

كانوا يحدثوننا من سنين خلت ان صبياناً أو فتيات كانوا سبب سعادة المتاجر التي يحلون بها حتى كان التجار يتنازعونهم لتسعدهم متاجرهم ، وكنا بعد أن تحدرت من حولنا سنون الصبا نذكر هذه الاحاديث فنضحك منها ساخرين . ولو أن كلا منا أتيح له أن يرى صبية فندق السااليف وأشباهها من الصبايا القائمات بشؤون التجارة في مدائن أوروبا وأريافها لما سخرنا من هـذه الاحاديث ولصدقنا بما يحمله الصبا في أردانه من أسباب السعادة

وصبية السااليف ليست ذات جمال فاتن وليس لهـا من الدلال ما يهوى اليه الفؤاد؛ بل هي ككل الريفيات، كثيرةالبساطة شديدة الحذر تضن بالابتسامة مخافة أن تتهم بالخلاعة وتقـل من الكلام حتى لا تكاد تجيبك الى ما تسأل عنه بجملة كاملة . وأرنبة أنفها المستديرة تربو على قصبة الانف بما لا تقره قواعد الجمـال . وهي بعد في لباس جمع الى الذوق الريفي حشمة الفقر . وليس لهـا من رشاقة الباريسيات أو خفة بنات المدن كثير ولا قليل . لـكن في أردانها مع ذلك أسباب سعادة هـذا الفندق المنقطع في قمة الجبل والذي يأوي اليه مع ذلك من الناس غير قليل .

ذلك بأنها صبوح الوجه ضاحكة السن ، وبأن الطبيعة قد جملتها من ذلك بما يعجز أمهر فنان فى صناعة الجمال . ترى وجنتيها فتدهش لتوردهما ، وترى صدغيها فتدهش لنقاء لونها الابيض المشرب بالحمرة . ولها شفتان دقيقتان لا يطاوعانها الى عبوس لانهما دائمتا الابتسام . ونظراتها البريئة وقوامها اللدن مازال فيهما كل معانى الطفولة المتدرجة الى ريعان الصبا ، الجامعة الى الطهر النزيه أسباب النضارة الودود ، فاذا أقبل ذلك كله عليك رأيت ابتسامه وسمعت حديثه وان لم تبتسم هى ولم تتكلم ، ورأيت اقباله عليك فأقبلت عليه فى تلطف وابتسام وسرك ما تقدم صاحبته لك لانها هى التى قدمته لك .

ولذلك أقبل كل الذين نزلوا فندق الساليف على طعامهم أكثر اشتهاء له وحرصا عليه ، خلا شابا وفتاة لم يكونا أقل ممن سواهما على الطعام اقبالا ولكنهما كانا معرضين عن الصبية لاشتغال كل واحد منهما بصاحبه . ولقد بلغا من ذلك أن ترك الشاب مقعده بأزاء الفتاة الى مقعد بجانبها ليكون أقرب الى نوالها . وما كان ليلاحظ ذلك عليهما أحد أو يأخذهما به ، والناس يحترمون الحرية احترام اجلال وتقديس ، لولا عجائز جلسن بازائهما وجعلن يتهامسن لكل مايرينه من حركاتهما . وكأنما كانت بين العجائز ثقيلة السمع فكانت بعض عبارات حديثها لاتخفى على الحاضرين وان لم تغير من أمر الشاب والفتاة شيئاً . ولعل كثيراً من حديث هاتيك الجدات كان يشير الى أيام صباهن وحوادث غرامهن والى هذه الأوقات اللذيذة التى هوت فى ظلم الماضى تاركة وراءها ذكريات تطيب

استعدادها ويحز الألم في النفس أن لا سبيل من بعد الى مثلها . وأي شيء غير هذا تراهن يذكرن بازاء الصبا اليانع تتقارب زهراته الندية ، انهن لاشك أبعد من أن ينلن مظاهر الحب بسوء وهن يرين في الحب حياة وقوة ولا يجدن في مظاهره مايعافه معروف قرءهن من قواعد الخلق . بل لعلهن كبعض أصدقائنا المصريين الذين يحدثوا في شتى الشؤون "بينما يقلن لمن ينال المحبين بسوء ورفع العقيرة ناعياً الاخلاق وانهيارها : — هون عليك ياصاح ولا تقف عند النظر الى هذه الشؤون التافهة . فليست هذه كل حضارة الغرب وان كانت بعض آثارها . بل النظر الى ماحولك من سائر المظاهر في الفن والادب والصناعة والاختراع والاكتشف . فدا عجب أن ذلك كله من صنع أولئك الذين تنعى عليهم سلوكهم وتعيبهم بأخلاقهم فراجع نفسك وتذكر أن هذه الحضارة اليانعة الدوحة الثابتة لايقوم بانشائها وحفظ كيانها من لاخلاق له أو من ساء سلوكه .

وكان الجو خارج الغرفة يزداد قتاما والسحب تزداد تراكما . وخرج أحد الحاضرين بعد ماارتدى معطفه ثم عاد معلنا أن رذاذا يتساقط وأن الوقت قر ، وأن لا سبيل الى نزهة في الجبل . وكذلك تداعى كل أمل في مشاهدة الالب السويسرية والفرنسية من هذه القمة البديعة ولم يبق إلا العودة الى جنيف من طريقها الثاني المار بالماس . فعكف الحاضرون على قهوتهم يشربونها وشيكائرهم يدخنونها . وكان بيننا رجل وزوجه ومعهم ابنتهم طفلة الى لا تزيد على السنتين من العمر الا قليلا . وما رأت من سبداك

[illegible] تضع فى فيها عوداً دقيقاً تقلد به بنات جنسها عن [illegible] منقولة . ولقد كانت فى تقليدها وفى لعبها وفى [illegible] عن الجو وعبوسه والسماء وقتامها .

ثم [illegible] الدائمة بأنفاسهم وبحرارة الطعام والنبيذ [illegible] يطلبون المحطة فى انتظار القطار . وتلفت الى ما حولى [illegible] الوديان كلها قد ملأتها السحب حتى صار كل ما حولنا لجة من [illegible] غرقت [illegible] أطواد الجبال فاختفى بعضها بما عليه من نبت [illegible] وبيت [illegible] بعضها طافية كأنما هى حيتان ضخمة تسبح فى لجة [illegible] المذابة ركاما . وسرحت النظر ألتمس الافق فاذا منظر قلّ ما أذكر انى رأيت مثله فى سياحاتى وما أحسب كاتباً [illegible] حسن وصفه وان هو جاء قدرته . فهذه الحيتان السابحة وهذه [illegible] وهذه السماء المذابة تشتملها عند الافق [illegible] فى هذه الساعة التى تتكبد فيها الشمس الافق [illegible] الحرارة والنور .

[illegible] ولا [illegible] ولا سماء [illegible] هو ديجور [illegible] فى خيط من ضياء . وفيما [illegible] فى [illegible] سناه الابصار ويغشى [illegible] يبعث الى السكينة الموحشة [illegible] لاحت [illegible] النفس من خيفة المنظر الهتون .

[illegible] ثانية أو بعض ثوان ثم عادت السكينة [illegible] وزادت أشباح الحيتان السابحة جلالا [illegible] الا رذاذاً وظل من حولنا

ينظرون الى ساعاتهم يقدرون الدقائق الباقية لوصول القطار . أما الطفلة التى كانت معنا فى قاعة الطعام فلم يزدها البرق والرعد الا امعاناً فى اللهو والضحك ، وكأنها آمنة ، ما رأت أباها ، من عدوان الطبيعة وغدر القدر . وطالت الدقائق الباقية كأنما هى باقية على ساعة البعث والحساب .

ثم ظهر القطار زاحفاً الى قمة فصعت تغور بتسامة نحيسة وأخذ كل مكانه مطمئناً الى أتقاء ما يخشى من صيب السماء . وانحدر القطار صغيراً ضئيلا تحفه السحب من كل جانب فما يكاد النظر يرى من النبت المحيط به الا القليل . واستبدلنا به غيره هبط بنا الى أن اتصل السفح بالارض . ثم استبدلنا بالقطار ترام فلنا الى جنيف ماراً بأنماس فى شوارع وطرق دون شوارع جنيف وطرقها جمالا

* * *

وأصبحنا فى الغد فاذا الجو مطير والسماء هتون والشمس فى الحجب فلزمنا فندقنا آملين صلاح الجو بعد الظهيرة . لكن المطر ظل هاتناً فحبسنا فى فندقنا . فلما كان المساء ذهبنا الى مسرح الكوميدى نمضى فيه شطراً من الليل نعتاض به عن سجن النهار . وخرجنا فى منتصف الليل وحاولنا ان نعود الى الفندق على أقدامنا ليطول استمتاعنا برقيق هوائه فلم يطل بنا السير أن انفجرت أفواه السماء أكثر تهتانا منها طوال النهار . وذهبت من ناحية وزوجى من الاخرى نصيح بعربة أو أوتوبيل يقينا هذا المطر . على انه لم نعبس له ولا بعث تهتانه الى نفوسنا أى امتعاض . فقد كفل المرح الذى يملأ جو سويسرا كلها طمأنينة نفسينا فى كل شىء

واغتبطنا بكل مظاهر الطبيعة وبالمطر يكاد يغرقنا رغم احتمائنا منه بالجدران والابواب . وعثرنا آخر الامر بأوتوبيل ركبناه الى الفندق فاستقبلنا رجال السهرة فيه بابتسام لما رأوا ماعليه حالنا . فلما أخبرناهم أنا مسافرون في الغد الى لوزان نصحوا الينا أن نتخذ طريقنا اليها فوق البحيرة على الباخرة « هلفسيا » أكبر بواخر لمان وأحدثها وأكثرها جمالا وحسن نظام .

ونزلنا أوشي ميناء لوزان على البحيرة واخترت فندق بوريفاج حيث وقعت معاهدة لوزان . وأذكرني هذا الفندق نزولي صيف سنة ١٩١٠ بفندق انكلترا من فنادق أوشي لان لورد بيرون كتب به قصيدته (تشيلدهارولد) . فقد وضع فندق انكلترا على جداره لوحة يسجل عليها هذا الحادث الجليل في تاريخ الادب ووضع فندق بوريفاج على جدار بهوه الكبير الذي وقعت المعاهدة فيه ... يسجل عليها هذا الحادث الخطير في تاريخ السياسة ... . وأوشي ... ظريفة بسامة تقابل افيان على الشاطئ ... بحيرة ... وتكون ... من ... وأجمل أضعاف ما لافيان ... مياهها المعدنية . وفندق بوريفاج زينة أوشي ... حدائقه المتدرجة من الهضبة التي يقوم الفندق عليها ... شارع المتصل بشاطئ البحيرة وبجمال عمارته وبفسيح أبهائه ... . و... لتخطي صالوناته قاصدين الى غرفة الطعام ... التي نيفت على التسعين والتي استرعت نظرنا في ... حين جاءت الى المائدة في عربة ثم أسندها خادمان حتى وصلا ... بازاء حفيدها. واذا حفيدها يدفعها في

عرينها . فلما وقع نظرها علينا ابتسمت وحيت برأسها تحية جميلة جعلت زوجي أشد عشيها براً وعلى المشيب كله عطفاً . ولعلها رأت بعد هذه الابتسامة أنه كان حسناً بالشيوخ وبالعجائز أن ينزووا حين كانت الحياة فى اعتبار الناس شراً يتبرمون به ويتمنون الخلاص منه لأنها كانت فى نظرهم عبئاً ثقيلا بما تقتضيه من جهد وكد لا عوض عنه فى مرح أو مسرة ، ولذلك كان من حقهم ان يروا الفضيلة فى الزهد والانزواء . أما اليوم وقد تكدس فى الحياة من أسباب النعمة ما خلقته الاجيال المتعاقبة خلقاً وما أبدعه الخيال والعقل ، فقد وجب أن يتغير ذلك الاعتبار القديم ، وأن ينظر الناس للحياة على انها خير يجتنى ومورد سائغ يزداد عذوبة كلما كثر وراده والمستمتعون به ، وكما كان من ينعم هؤلاء الشيوخ والعجائز الذين يزيدون الحياة جمالا باقبالهم على الاستمتاع بكل ما فيها مما يرونه خيراً ونعمة .

ويصل الترام بين أوشي ولوزان فى دقائق معدودة مرتقياً هضبة بنيت فوقها المدينة تطل منها على مياه ليمان يستمتع أهلها بمنظرها فى أماكن عدة منها . وليس فى المدينة كثير يستوقف النظر ما يستوقفه قصر العدالة بما قامت عمارته الجميلة بين حدائق وأشجار هى لأهل لوزان متنزه حر وموضع جمال ومسرة . على أنا لم نكن نعنى بتقصى ما فى المدينة من آثار وعمارة بعد الذى شهدنا منهما بالعاصمتين الفرنسية والانكليزية وبعد قصور جمعية الامم فى جنيف . ثم ان ما يحيط بالمدينة من غابات كان أكثر اجتذابا لنا كى نجد فيه هذا الهواء الصافى الصحيح الذى يقوى حب الحياة

في نفوسنا . خرجنا ذات صباح الى غابة قاصية يقطع الترام أكثر من ساعة في مسيره اليها في بطيح من الارض لا يقع النظر حتى دقه عن جبل أو شبهة من جبل . وهبطنا قرب الظهيرة فكان أول همنا أن نعرف أين نتناول غداءنا . وسألنا فدلنا رجل هو وحده الذي أستمر وايانا الى غاية ما وصل اليه الترام على مكان قال انه الوحيد في الناحية . وقطعنا اليه مسيرة ربع الساعة فاذا هو كوخ ما كنا لنرضى ان نجتاز بابه لولم يضطرنا اليه أن لا سبيل الى غيره . ووجدنا في صالة فسيحة كثيرة النوافذ بها بار وبها بضع مناضد حولها كراسي من الخشب المكسو بالقش من ذلك النوع الذي عفا ولم يعد يرى الا في أحياء العوز والمتربة . ولم يك الا دقائق حتى دخل الى المكان عدة أشخاص في قبعاتهم ريشة خضراء وهم يلبسون لباس الصيد ويحمل كل منهم بندقيته ويتكلمون لغة لا نفهمها . وجاءت خادم سألناها عما تستطيع ان تقدمه [illegible] تصيد السمك من نهر قريب ولكن صيدها لم يكن في ذلك اليوم مثمرا . ولكنا قد رأينا حول المكان دجاجا فسألناها ان كانت تستطيع ان تطهي لنا منه شيئا فترددت ثم أجابت رغبتنا بعد ان أخبرتنا ان الطهي يحتاج الى ساعة أو نحوها فوافقناها على ذلك وخرجنا نقضي هذه الساعة في الغابة الهائلة الممتدة الى ما لا نعرف حدوده نجد خلالها روعة جمال وبديع متاع . وعدنا بعد ان قضينا أكثر من ساعة فقدمت الخادم الطعام الينا دجاجا وبطاطس فأقبلنا على التهامه بشهية ووجدنا فيه لذة لم نجدها في أفخر ما تقدمه أعظم الفنادق مما جعلنا نأنس الى هذا الكوخ الذي

كان موضع ازدرائنا وتقززنا حين وقع نظرنا عليه ساعة مجيئنا.
وعدنا الى الغابات حتى قارب المغيب فعدنا الى لوزان ثم الى أوشى وكلنا على طعام العشاء اقبال وله شهية .

وآن لنا أن نغادر لوزان الى انترلاكن فركبنا البحيرة حتى مونتريه والقطار الى مدينة البونج فراو . هنا يقف بي القلم اذا أنا حاولت وصف هذا الطريق يتعلق النظر والقلب والفؤاد بكل جزء منه لأنه يرى في كل جزء منه جمالا جديداً . مرت الباخرة « بفق » فذكرت روسو وذكرت هلويز الجديدة وذكرت بيرون وشلى فكنت لهم جميعاً عذيراً مما بعثته هاته البقاع الى نفوسهم من حب وشعر وولع بالجمال وجنون بالطبيعة . كلا ! ليست تلك هنا بحيرة ولا هذه الارض من حولها شواطىء ولا هذه المرتفعات جبالا وليست تظلنا هاهنا سماء كالسماء التي تظل العالم كله . بل هذه صورة افتن فيها خيال روفايل فنقشها بريشته ثم قيل لنا هي ماء وشواطىء وجبال وسماء . وكيف سما خيال رفايل ليضع في هذه الصورة الساحرة مافيها من حياة وغرام وفتنة وبهر ? لقد كنت أرى على وجوه المسافرين جميعاً منظاً نشوة النعمة الراضية وفي نظراتهم من الاستسلام لروعة هذا الجمال مثلما ترى في نظرة المحب وعلى وجهه ساعة يلتقي بمحبوبته الفاتنة . وهل كانوا يستطيعون مقاومة هـذا السحر وما حولهم من موج البحيرة وضحك الزهر وابتسام الشجر ورقة الهواء وخضرة السفوح وحنان السماء كله سحر وحب وفتنة وهوى ! وظلت الباخرة تجرى بنا فترينا من اختلاف مناظر الشاطىء مايزيد في اساره لبنا حتى بلغنا مونتريه

قرب الظهيرة . وأخذ حمال متاعنا على عربة يد وتيممناه الى محطة السكة الحديد نصعد الطرق اليها فى هذه المنطقة الجبلية تتجاور فى مدنها الشوارع مرتفعاً أحدها عن الآخر أمتاراً عدة . على أنا لم نسر وراءه غير بعيد حتى اذا به جرى بالعربة ثم انعطف الى طريق غاب فيه عن أنظارنا حتى خيل الينا أنه فر بمتاعنا فرار لص أثيم . واغذذنا السير حتى بلغنا المحطة وجعلنا نلتمسه فيها فلم نجده . فقصصنا الأمر على أحد رجالها فقيل لنا انه قد يكون فى المحطة العليا . والمحطة العليا ترتفع عن المحطة السفلى أكثر من عشرة أمتار يصعد الانسان اليها على درج أحسبه منقوراً فى صخر الجبل . فأشرت الى زوجى أن تنتظر حتى أصعد فأرى الى الحمال وما صنع الله به وما صنع هو بمتاعنا ثم أعود اليها . ووقفت أجيل بصرى فى هذه المحطة العليا فاذا الفتى مقبل على يخبرنى انه التمسنا فلم يجدنا وأنه أودع متاعنا فى الأمانات وأن القطار يقوم فى الساعة الثانية . وذهبت معه الى الأمانات فاطمأننت حين رأيت كل شىء كما أحب وحمدت فى نفسى للفتى أمانته وجزيته عنها ثم عدت فهبطت وخرجنا من المحطة الى فندق يقابلها نتناول فيه طعام الغداء انتظاراً لموعد قيام القطار فى الساعة الثانية من بعد الظهر

وركبنا القطار وبدأ مسيره . ولئن كان الطريق الذى مر به والذى مر به القطاران الآخران اللذان انتقلنا اليهما حتى وصلنا انتر لاكن كله روعة بسمو جباله البديعة السفوح ووديانه الممرعة المخضرة فانى أنسى حياتى الساعة الأولى لمغادر تنامونتريه حين جعل القطار يتسلق الجبل ثم يستدير صاعداً فتتبدى البحيرة منحدرة

اليها سفوح خضر غاية فى النضرة، ثم يستدير ثانيا فاذا الجبل يمدل البحيرة جمالا ثم يستدير مرة أخرى فاذا البحيرة فى منظر أروع وأشد سحراً . فى هاته الساعة كان السفر يبدون من الاعجاب كلما تبدت البحيرة لناحية منهم ماجعل العربة والقطار كله اعجابا متصلا . ويرتفع القطار فوق الجبل وتتبدى البحيرة أمام النظر تتسع خضرة السفوح الفاصلة بيننا وبينها فى كل استدارة للقطار فترينا منظراً جديداً عجبا . وبعد استدارة أخرى أوغل القطار فى الجبل يشق طريقه الى سويسرا الالمانية .

وبلغنا انترلاكن فى الساعة العاشرة من المساء وآوينا الى فندق فيكتوريا ويونج فراو . وانترلاكن قرية صغيرة لا يزيد سكانها من السويسريين على ألفين. لكنها مصيف فذ يقصد اليه عشرات الالوف كل صيف تجذبهم الاوبرلند تتجلى الالب فيها بما لا تتجلى بمثله من روعة في سائر أنحاء سويسرا مما شهدت . ذلك ان الالب فيها عظيمة الروعة برفعة قممها وبأن الانسان شارك فى تجميلها وفى تيسير ألوف الامتار التى ترتفعها ليصعد المصطافون الى قممها أو ليخترقوا جوفها . هـذا الى أن بحيرة ثون وبحيرة بيين المحيطتين بها لهما من الروعة حين تحصرهما القمم الرفيعة تتراءى بعضها فى أثر بعض حتى لترى أحياناً قمماً ثمانية تقابل نظرك ولترى الماء منحدراً منها فى البحيرة فى اندفاع وقوة تحيلانه رغاء وزبداً . ومما شارك الانسان الطبيعة فيه مما حول انترلاكن كثير أذكر منه هنا ثلاث صور تصدم كل واحدة منها الخيال وان تفاوتت فى ذلك بين العجب الخفيف فى هاردركلم الى الدهشة

المرتفعة فى بياتس هوهلن الى الاجلال والاكبار فى اليونج فراو. فأما الهاردركلم أو قمة الهاردر فالعجب فيها هو القطار الصاعد اليها. هو لا يصعد على السفوح متعرجاً مع ميولها كما كان يصعد القطار الذى ذهب بنا الى الساليف أو الى ثلوج بيوناساى فى السافوا العليا ، بل هو يصعد فى خط مستقيم على شريط حديدى معلق فوق أخشاب فى الهواء يعتمد على قواعد متينة فوق الجبـل ويصعد فى زاوية أكثر من نصف قائمة . وهو قريب من انترلاكن يصـل اليه الانسان فى أقل من ربع الساعة سيراً على الاقدام . ذهبنا اليه عصر الغداة من وصولنا اليها فألفينا المحطة فى بناء به ثلاث غرف يصعد الانسان اليها عشرين درجة أو نحوها ومنها دخلنا الى القطار عجلاته تحت عربته فى مثل المثلث حتى يكون الجلوس فيه مستريحين على مقاعد أفقية . وصعد القطار فلم يكن الا دقائق حتى كنا واياه معلقين فى الفضاء فوق شريطه وحتى كنا ننظر من زجاج نوافذه فلا نرى حولنا الا فضاء . وبدا على وجه بعض الراكبين نوع من الوجل من خيفة أن يهوى وان تتحطم فوق صخر الجبل . والقطار يسحبه جنزير تديره الكهرباء فيصعد ونصعد معه. فلما كنا عند منتصف الطريق مر بنا القطار الهابط وظللنا نحن فى ارتفاعنا حتى وصلنا القمة فسرنا فوقها الى فنـدق قريب من المحطة تناول المسافرون فيه فنجالا من الشاى. لكن الجو ما لبث ان دكن فلم يسمح لنا بمقام طويل فوق هذه القمة . درنا فيها فاذا الطرق الممهدة قليلة وكأن الغاية من الصعود اليها ان يحدق الانسان بسلاسل الالب فى الاوبرلاند . ودكنة الجو تحجب

بين النظر وهذه الجبال فلا خير فى المقام وقد انقطعت السبيل الى هاته الغاية .

فأما البياتس هوهلن فيثير الدهشة المرتاعة حقاً . أخذنا اليه الترام عند آخر البلد المتصل ببحيرة تون وانطلق بنا فى طريق جميل محصور بين شاطىء البحيرة وسفح الجبل حتى وقف بنا فى المحطة التى تؤدى اليه . وتسلقنا الجبل بضع مئات من الامتار قامت على جانبى طريقها المتعرج فى صعوده أشجار وحشائش حتى كنا عند فوهة فى الجبل تخطينا اليها بعد رسم دفعناه فاذا بنا فى فوهة مغارة نقرت فى مختلف جوانبها كهوف صورت فيها تماثيل تصف حياة القديس بياتوس التى سميت هذه المغارة باسمه . ففى كهف كنت ترى تمثال هذا الشيخ الطويل اللحية البيضاء وامامه أدوات ما كان لأهل العصور القديمة . وفى كهف آخر تماثيل أهل العصر الحجرى ، وهلم جرا . وجاء الدليل خارجاً من فوهة المغارة الموغلة فى جوف الجبل يتبعه زوار سبقونا اليه وآن لنا ان ندخل بدورنا فاذا نحن فى مضيق من الصخر أشبه بأبواب بعض الاهرامات ، ثم اذا بنا نوغل ثم نوغل فى جوف الجبل وتضىء لنا الكهرباء الطريق نصف اضاءة لا تذهب بالظلمة ولا تذهب بالروعة . وبعد مسير عشر دقائق فى هذه الدهشة الموحشة بدأنا نسمع خرير الماء فى أعماق جوف الجبل كأنما انفجر فيه شريان فهو مقبل علينا يكتسحنا . وماهى الا لحظة حتى كنا نصعد درجا نعبر بعده على قنطرة من خشب تقينا الماء وفيضانه . ونوغل ثم نوغل يتقدمنا الدليل ونحن آنا نصعد درجا وآنا نهبط درجا غيره وثالثة نكاد نخطو

فى الماء، وأنوار الـكهرباء خلال جوف الجبل قد نظمت ولون بعضها بما يزيد المكان المهوب مهابة والمدهش دهشة . وكنا نقف فوق قنطرة من الخشب نحدق دونها بالماء يتسرب خلال الجبل فاذا موقفنا الى جانب رجل وسيدة سبقانا الى هـذا المـكان ثم بقيا لاتنفرج شفاها عن كلمة اعجاب لأنهما صنما من الشمع ووضعا فى هذا المـكان العجيب ليزيداه عجباً واغرابا . ويقص الدليـل دقائق المـكان مما خلفت العصور البعيدة فى أطوار التاريخ فى الصخر من آثار بعض الاسماك أو الحيوان أو مايزعم أنه نقر المعتزلة الذين اختاروه مقاماً لهم أيام بياتوس وأتباعه من بعده ونحن مأخوذون عن قصصه بعجيب ماحولنا وبموقفنا هذا وقد ابتلعنا الجبل فى جوفه كما ابتلع الحوت يونس فى القصص المقـدس . وانشعبت أمامنا المسالك حتى كنا نضل لولا تقدم الدليل ايانا خلال شعبها . فلما آن لنا أن نخرج من جوف الجبل بقينا فى دهشتنا وذهولنا حتى ركبنا الترام ووصلنا الى الفندق ساعة طعام العشاء .

وكان برنامجنا فى الصباح أن نرتقى اليونج فراو المرتفع أربعة آلاف وثلاثمائة متر فى هذه القطارات الصاعدة التى انفقت الشركة السويسرية فى انشائها أكثر من عشرة ملايين فرنك ذهباً . فلما جاءنا الخادم بطعام الافطار سألناه عن حالة الجو وما اذا كان ملائماً أن نصعد ونحن فى خيفة أن يصيبنا ما أصابنا فى جنيف يوم صعدنا الساليف . فأجابنا بأن السماء محملة بالسحب وان جو انترلاكن ينذر بأن يكون مطيراً اليوم كله وان التصعيد فى الجبل وفوق السحاب خير ماتتقى به ظلمة اليوم . فلما خبرناه بخبر الساليف ابتسم ابتسامة

معجب باليونج فراوا (السيدة الصغيرة) وذكر أن ارتفاعه الى أضعاف مايرتفع السالف يسمو به فوق السحاب وفوق المطر. ولم يكذبنا الرجل. فقد خرجنا وركبنا القطار والمطر يداعب الوجوه مؤذنا بأنه سينهمر بعد ساعة صبياً هتوناً. وانطلق القطار ماراً بمحطات شتى حتى وصل بنا الى القطار الصاعد والسحب فى الجو تزداد كل ساعة تكدسا. وذهب القطار الصاعد يتسلق السفح تارة ويجرى فى بطيح فسيح من الجبل أخرى ثم يتسلق ثم يجرى وهو كلما ازداد تصعيداً ازدادت السحب من حوله تكاثفا حتى كنا فى لجة لا نرى خلالها مثل ماترى فى لجة ماء البحر اذا أنت غطست فيه.

وظللنا كذلك زمنا ثم اذا القطار يخترق اللجة فجأة وينفذ منها فاذا الشمس ساطعة والسماء صفو والجو ابداع واذا هذه اللجة تنحدر الى أسفل منا كلما أمعن القطار فى صعوده، واذا القمم تتبدى صاعدة من خلالها ممتدة الى غاية مدى النظر حتى لكأنما غرس هذا السحاب كله قمما.

ونزلنا من القطار فى البطيح وانتقلنا الى القطار الصاعد الى قمة اليونج فراو. وما هو الا أن صعد ثم استدار حتى دخل بنا فى نفق جعل يصعد أثناءه ثم يصعد ويصعد ونحن لا نعرف متى ينتهى النفق ولا الى أى شىء ينتهى. ووقف القطار فى محطة ونزل المسافرون منه فيها بازاء كهوف فسيحة نقرت فى الجبل وينفذ النور من اشباه النوافذ فيها غطيت بالزجاج السميك اتقاء البرد وأعاصير الطبيعة. وذهبنا الى أحد هذه الكهوف على مقربة من النافذة فاذا يقع النظر منها على سفوح بيضاء لا يدرك حدودها قد كستها الثلوج لوناً ناصعاً.

ووضعت عند هذه الشبه النافذة مناظير مقربة يعملها الناظر حيث شاء

ليرى هذا العالم من الثلج تخترق خلاله والثلج لاشك يملو هذا النفق الذى نسير فيه مادام يمتد على مادونه من قمم وأباطح . وعاود القطار سيره حتى وقف بنا عند غايته فهبطنا منه وصعد بنا في رافع (اسنسير) وقف بنا في فناء غرفة الطعام دخلنا اليها فاذا هي نقرت في الجبل ونسقت أبدع تنسيق وفرشت أوثر فراش ودفئت وأعدت فيها خير وسائل الراحة مما يجعلك وأنت في قمة من أعلى قمم الالب تجد من الرفاهية ما تجده في خير الفنادق وان دفعت ثمنها غالياً . وتناولنا طعام الغداء ثم آن لنا أن نتسلق الى القمة وأن نخرج من فوهة النفق المؤدية لها . ياجلال الطبيعة ولابداع فنها البارع الباهر! ما كدنا نرتقى الدرجات القليلة ويأخذ الدليل بيدنا ونمسك العصى المدببة لتعاوننا في سيرنا ونسير بضع خطوات حتى اذا عيوننا تكاد تعشى دون مقاومة لالاء هذا الضياء ترده الثلوج من أشعة الشمس الساطعة . وحاولنا الامعان في السير فانذرتنا الثلوج تحت أقدامنا بالتعرض للانزلاق في كل خطوة نخطوها برغم العصا التى نعتمد عليها . وجازفنا مع ذلك وسرنا فاذا الى يميننا قباء نصح أهل المنطقة الينا بالدخول فيه فاذا هو مغارة كلها من الثلج قد مدت الكهرباء داخلها لتنير السبيل الى من يسلكون سبيلهم خلالها . وخرجنا من مغارة الثلج الى بقعة من القمة كشفت عنها الثلوج وأحيطت بسياج من الخشب يحمى اللاجئين اليها من السقوط في الوهد السحيقة المحيطة بها والمكسو بعضها بالثلج في حين تجرد البعض اذ ذاب أثناء الصيف ثلجه . وأحاطت بهذه البقعة وهاد وقمم تبدى أمام النظر فينتقل من احداها الى الأخرى

وهو بها وبالثلوج التى تكسوها وبهذا الجو الجبلى المنعش مغتبط أشد اغتباط . وكان الثلج يكســو أقرب الوهاد ومن بقمتنا فتتخذ محبو الرياضة الجبلية طريقهم اليه يسيرون أو ينزلقون فوقه ونحن فوق قمتنا وقوف نرقبهم ونزداد بمشاهدتهم غبطة على غبطتنا ومسرة على مسرتنا . وبقينا كذلك حتى آن للقطار أن يعود فالتمسنا من جديد فوهة النفق ونزلنا على الدرج الى حيث « الاسنسير » والى حيث القطار الذى انحدر بنا خلال النفق حتى انتقلنا منه فى القطار الثانى مالبث أن زج بنا من جديد فى لجة السحاب لاسبيل الى رؤية شىء من خلالها وان هوى بعد ذلك تحت الامطار فوقه حتى اذا كنا من جديد بانترلاكن كانت المدينة غرق بمطر النهار كله وكان أمضاء الأمسية فى الفندق أمراً لامفر منه .

وفى ظهر الغد ركبنا القطار الى لوسرن بعد أن أعد رجال الفندق لنا طعام الغداء نتناوله أثناء الطريق اذ لم يكن بالقطار عربة للطعام . وأعاد القطار فى تلويه بين بحيرة بيين وبين الجبل صورة مصغرة من المنظر الذى رأينا عند مونتريه . وبلغنا لوسرن فى المساء . فلما أصبحنا جعلنا ننعم ببحيرتها البديعة الجمال وبمنظر جبلى الريجى والبيلات من حولها وبالزوارق تخطر فوق لجها . وشاركنا راكبى هذه الزوارق كما شاركناهم من قبل على بحيرة ليمان . فلما كان الغد أرشدنا دليل « بدكر » الى غابة أخذنا القطار الصاعد اليها وجعلنا نجوس خلالها حتى اذا كانت الظهيرة التمسنا مكانا نتناول فيه طعام الغــداء . وبالرغم من أن الدليل ذكر لنا أن بالغابة مطعما جميلا فقد وقفنا عند بناء خلناه هــذا المطعم ولم يكن هو .

ولم نكن نعلم هذا فجعلنا نطوف حوله نلتمس بابه فاذا أبوابه موصدة كلها واذا بنا نعتقد ان لا سبيل لنا الى طعام ما دام المطعم مقفلا. على ان طوافنا هدانا فى جانب منه الى جوسق من خشب وضعت أمامه موائد ومقاعد فحسبناه المطعم وصفقنا فجاءت امرأة سمينة مفتولة الساعد حمراء الوجه تسألنا بالالمانية ما نريد . وعبثاً حاولنا أن نخاطبها بالانكليزية أو الفرنسية فهى لا تعرف غير الالمانية ونحن لا نعرفها ، واذن فلا سبيل الى تفاهم الا بالاشارة . وأشرنا الى أفواهنا علامة انا نريد أن نأكل فجعلت ترطن ونحن لا نفهم ثم انتهينا الى أن قامت زوجى معها لترى ما قد يكون من طعام عندها ثم عادت فذكرت ان غداءنا اليوم بيض ولحم بارد . ومع تفاهة هذا الطعام فقد اغتبطنا به أشد الاغتباط . وفاض بنا السرور اثناء تناوله ومن بعده ونعمنا بهذه السعادة التى أحاطت بنا كل مقامنا بسويسرا والتى لم تكن فى شئ معين بل كانت فى هذا الجو السعيد الصافى الذى يبعث الى النفس نشاطا يزيدها قوة الحياة فيعلو بها على الضعف وينسيها احداث الزمن . وقمنا بعد طعامنا لنطوف الغابة فلم نمض فى السير أكثر من نصف الساعة حتى كنا عند هذا المطعم الجميل الذى أشار الدليل اليه . على أن ذلك زادنا غبطة بطعام الجوسق وسروراً بنزهتنا الجميلة خلال الغابة الفاتنة .

وفى صبح الغد ركبنا الباخرة على سطح بحيرة المديريات الاربع « Lac des Quatre Cantons » الى فلولن لنذهب بالقطار منها الى ميلانو . وجرت الباخرة بنا بين جبال يهز القلب

سحر جمالها ويبعث الى النفس فيضاً من الرضى عن الحياة ينسيها ان فى الحيـاة هماً أو شجناً . ورفعت طرفى الى السماء شاكراً لله أنعمه مودعاً جنته على الارض فى تخشع واعتراف بالجميل لن أنساه ماحييت . وجرى القطار بعد ذلك بنا مخترقا نفق سمبلون منطلقاً فيما بقى من بلاد سويسرا الايطالية حتى يصل الحدود التى تفصل مابين سويسرا وايطاليا . عنـد ذلك انتقلنا من القطار الدولى الى قطار ايطالى ومن بهاء مناطق الجبل الى سهول لومبارديا. وعند ذلك بدأنا نشعر بأنا نقترب من مصر ، ولـكنا نقترب منها بأرواح جديدة ونفوس قوية وبحكمة فى الحياة تسمو بنا فوق كل ضعف أمام الحياة .

في ميلانو

بعد خمسة وعشرين يوماً قضيتها في أحضان الطبيعة البديعة متنقلا بين جبال السافوا العليا وثلوجها الناصعة البياض وجبال سويسرا الخضراء الزاهرة المطلة على البحيرات الناطقة الجمال بآى السحر الفتان ، وبعد أن امتلأ ناظرى وقلبي من هذه العظمة التي يشعر الانسان أمام جمالها البارع وجلالها المهوب بصغره وضعفه — انتقلت في طريقي الى تريستا كي استقل الباخرة حلوان الى مصر ، وحططت أول مراحلي بمدينة ميلانو حيث أقمت يومين وبعض يوم. وما كدت أتركها حتى امتلأ فؤادي وعقلي بشعور آخر غير ذلك الشعور الأول وحتى جمعت ذاكرتي مما رأت عيناى وسمعت أذناى وفكر فيه عقلي وخالج خيالي صورة أخرى ليست أقل من جلال الطبيعة وهيبتها جلالا ولا هيبة ، تلك صورة مجد الانسان . وتقاربت الصورتان واقترنتا فأذكرتاني ان كل ما في الوجود من جمال وجلال انما هو من خلق الانسان ، وان الانسانية كانت ولن تزال صاحبة مجد الحياة في العالم .

بلغنا ميلانو والشمس تكاد تتهيأ للانحدار الى مغيبها . فلما اخترنا فندقنا ونزعنا عنا غبار السفر ونزلنا نرود المدينة كان أول ما أخذ بناظرنا بناء فخم لا تحيط به النظرة ولا تستقر العين عند جزء منه حتى تدعوها سائر أجزائه الى اجتلاء ما تتحدث به من معاني الجمال . واستشرنا الدليل فاذا البناء كاتدرائية ميلانو الباهرة

البارعة التى استنفدت من جهود رجال الفن أجيالا متعاقبة قبل أن تتم ، والتى تبدو أمامك فى عظمتها وفخامتها وكانها جوهرة لم يدع الجوهرى الصنع منها جانباً الا صقله وجله . فلما كان اليوم الثانى مررنا بها كرة أخرى وقد ألقى النهار على تماثيلها الخمسمائة والالفين من نوره ماجلاها لينطق كل منها بما أودعه صائغه من معنى دينى جليل . ثم دخلناها فاذا داخلها أكثر هيبة وأدق صنعا : ركبت فى كل من نوافذها التى تزيد على العشرين ، قطع من زجاج تزيد فى كل واحد على مائتى قطعة ، ونقش على كل قطعة منها صورة تمثل القصص المقدس وحديث المسيحية وأوليائها . وقامت فيها ، على حد قول قسيس من قسسها ، غابة من عمد من المرمر رفيعة ضخمة دقيقة الصنع أيما دقة . وتوسط الكنيسة قبر سان شارل وضع فيه تابوته من الفضة وحلى صدره وأصابعه بما أهدى الملوك لذكرى صاحب الجثة من نفيس الجواهر . وصعدنا الى أعلى الكنيسة فاذا هذه الدرة الثمينة فى جبين الفن ثمينة حتى فى نظر الذين لم يقفوا على دقائق الفن ، واذا هى فى تاريخ الفن الانسانى آية مجد وجلال لا تبلى .

وفى مساء ذلك اليوم ذهبنا الى سكالا ميلانو ولم تكن تمثل فيها أوبرا من الأوبرات لأن أبوابها موصدة للاوبرا من ابريل الى نوفبر . لكنها كانت تصدح موسيقاها بالحان بتهوفن . وفى نفسى لبتهوفن ميل بل حب لا أدرى سببه : أهو لفنه أو لمصابه فى حياته بالصمم أو لاتقته أو لايمانه بواجبه أو لكل ذلك جميعاً . وكانوا يوقعون فى هذا المساء لحن الريف (La Symqhonie Pastorale)

أحب ألحان بتهوفن الى سمعى . وسكالا ميلانو أفسح مسارح أوربا تتسع عند تمثيل الاوبرا لستمائة وثلاثة آلاف سامع . فلما دخلناها ألفينا أهلها وضعوا مكان مسرحها الفسيح مقاعد وألفيناها تضيق بالحاضرين قعوداً ووقوفا حتى ازادوا عن الخمسة الآلاف عداً، وليقدرهم مقدرو الحفلات العامة بعشرة آلاف أو يزيدون . وصدحت الموسيقى فتطاولت الاعناق وخفتت الانفاس ولم يكن بين هذه الألوف الحاشدة نابس أوهامس ... وانتهى القسم الاول من اللحن فاذا هــذه الصحراء الصامتة من بنى دآم تنفجر بالتصفيق انفجاراً ، واذا مدير الجوقة يحيى شاكراً فلا تزيد تحيته الحضور الا امعانا فى التصفيق اعترافا بجميله ان أعاد الى مسامعهم هذا اللحن المقدس من ألحان بتهوفن العظيم ، واذا الرؤوس تهتز اعجاباً والصدور تستنشق فى هوادة وطمأنينة هذا الغذاء الفنى الجميل الذى يسبغ على الحياة نعمتها ويجعل لها من القيمة ماتستحق معــه أن تحب وان تخدم باخلاص وعناية

ولما انتهى اللحن قلت فى نفسى :

« ان هذه الالوف الحاشدة لتنطلق أكفهم بالتصفيق اعجاباً بهذا اللحن الساحر وهو يصــف حكاية الطبيعة والحياة حكاية دقيقة صادقة . فلحن الريف ليس الا أهل القرية فى جذلهم يدهمهم الرعد والــبرق والمطر وتحيط بهم شدة الطبيعة من كل مكان فيــتزوون ويبتهلون . فاذا أمسكت السماء وكفها وأشرقت الشمس من جديد عاد اليهم جذلهم وشكروا أنعم ربهم وزادوه حمداً وتسبيحاً . وما أكثر ما تتكرر هذه الصورة فى الحياة من غــير أن تثــير اعجاب

معجب أو تصفيق مصفق . لكن جمع بتهوفن اياها وسوقه لها فى صورة من الفن دقيقة هو مثار هذا الاعجاب. فأى العنصرين أقوى: بتهوفن أم الطبيعة ؟ واذا كان الانسان هو الاقوى أفليس هـذا مجداً له ليس يعد له مجد ؟ !

« ومن الحاضرين من ليسوا فى الفن ذوى دقة ومع ذلك سرت بهم نغمات أخذت منهم بشغاف القلب ومجامع الفؤاد وأثارت مسرتهم بمثل ما تثير الكلمات القليلة التى يعرف الطفل كيف يقرؤها فى مقال طويل زهوه ومسرته . أليس معنى هذا أننا كلما ازددنا لما فى الحياة ادرا كا ازددنا للحياة حباً وكنا لها أدق تقديراً ؟ فاذا أحاط الانسان بها من جانب الفن أو من جانب العلم خلق فيها جديداً يزيدها حياة ويزيده مجداً »

وأوقع الموسيقيون لحناً آخر من ألحان بتهوفن فيه من حكاية الطبيعة بعض ما فى لحن الريف فأعانني ذلك على متابعة ما أفكر فيه . ودارت بنفسى خواطر، لم تقف عند بتهوفن وألحانه، زادتنى كلها ايماناً بأن الانسان ان كان بعض ما فى الوجود وكان بعضاً قليلا فهو لا شك خالق مجد الحياة ، وان خياله كان فى هذا الخلق أوفر حظاً من عقله، أو أن عقله وخياله تعاونا فى هذا الخلق فكان من تعاونهما نعيم الحياة الذى يزداد كل يوم بما يزيدان خلقاً وايجاداً .

وما جمال الطبيعة وما نعيمها لولم يتغن بها الشعراء ويلحنهما الموسيقيون ويصفهما الكتاب ويقم لها المثالون التماثيل ويفتن العلماء فى بيان دقائقها واستنباط سننها ؟ كيف نرى التجاوب والاتساق

فى الجبال والبحار وفى العاصفة المقوضة وفى المطر الهاتن يفر منه كل الى وكره ، لولم يجتمع ذلك كله فى خيال خصب كخيال بتهوفن فيهضمه ويسيغه ويلحنه فى لحن الريف البديع ، أو كخيال روسو أو بيرون أو رفايل أو غير هؤلاء من رجال امن الخالقين الذين يلبسونه من ثوب الفن ما يصل به الى كل حس وكل قلب فيطبع فيه ما شعر به الفنان من جمال فأنشأه انشاء وخلقه خلقاً !! أو ليس هذا التجاوب والاتساق هو جمال الحياة وزينتها ؟ فالذين خلقوه هم الذين خلقوا جمال الحياة وهم لذلك أصحاب مجد الحياة فى العالم .

بل ان ألحان بتهوفن وقصائد بيرون وكتب روسو وصور رفايل رفلسفة أفلاطون ومخلفات كل فنان وكل عالم لآثار خالدة هى ما للانسان فى الحياة من مجد وجلال . واذا كانت جبال الالب المهوبة الخالدة العظمة والجلال تمتع اللب والخيال بعظمتها وامتدادها واختلاف مظاهرها وصورها ، فان كتدرائية ميلانو وحدها لا تقل عن جبال الالب كلها امتاعاً للعقل والخيال بكل معانى العظمة والقوة والجلال والجمال . بل لعلها أكثر منها امتاعاً وأبقى فى النفس أثراً . فانك كلما وقفت تشهد نقوشها وتماثيلها وعمارتها رأيت فى كل قطعة منها ، بالغاً ما بلغ صغرها ، ما أراد صانعها ان تحمل من أسرار ومعانى . فاذا أنت خلوت الى نفسك وتملت هذه الجوهرة النفيسة من جواهر الفن وأردت استكناه دقائق أسرارها ومعانيها رأيت امام بصرك خلقاً عظيما كثير الاسرار جم المعانى فآمنت بمجد أصحابه وبأنهم هم الذين جعلوا للحياة قيمتها .

وموسيقى بتهوفن وكتدرائيـة ميلانو وأسماء من ذكرنا من الفنانين في الشعر والأدب والتصـوير ، كل ذلك ليس الا قطرة من هذا المجد الذي يبدأ مع الانسان منذ كان الانسان والذي سيظل زينـة الحياة مابقيت الحيـاة . ما بالك بما خلفت حضارة مصر وآشور واليونان والرومان والمسلمين وبما تقيمه حضارة هذا العصر الذي نعيش فيه . وهل ثمافي الوجود شيء لم تصقله هذه الحضارات ولم تخلع عليه الطابع الذي له اليـوم ؟ بل هل في الوجود فكرة ليس الخيال الانساني خالقها ! فاذا كان هذا عمل الانسان فما جلال الطبيعـة وما عظمتها أمام مجده الخالد الذي لايبلى ! وما جلال الطبيعة وما عظمتها الا بعض خلق الانسان فيما خلق من صور الفن وآي العلم .

* * *

وردت هـذه الخواطر الى خيالي وتمكنت من نفسي على أثر ماشهدته في سكالا ميلانو ، ففتحت أمامي عالماً جديداً من عوامل التفكير واسع المدى . وكم كان يسعدني أن أظل في أحضانه أجتلي من آثار هذا المجد الخالد مافيه نعمة الحياة . لـكني رأيت في جانب آخر من ميلانو ما بعث الى نفسي لوناً من التفكير كالذي بعثتـه الـكتدرائية والاسكالا وان يكن من نوع آخر . هذا الجانب الآخر هو مقبرة ميلانو . فهي تصور صورة من مجد الانسان ليست دون مايصوره غيرها من خالد آثاره . لـكن احساسنا فيها كان متأثراً بشعورنا حتى كاد يحرك لاذع الألم في نفوسـنا . وما احسبنا وحدنا الذين تثير المقابر هذا الاحساس عندنا ، بل لعله احساس

الناس جميعا . فهم وايانا جميعا تشتد للمقابر رهبتنا ويشتد اليها هوانا . نرهبها لأنها المثوى الذى نحمل اليه غير مختارين ، ونهوى اليها لأنها مثوى الأعزة وفلذات الأكباد ، ولأنها مستقر تاريخ الانسانية الذى أورثنا من آثاره مازادنا على الحياة سلطانا ولها حبا . لذلك تهوى أفئدتنا الى المقابر فى خشوع ورهبة ، فاذا اشتملنا سكونها المهيب تنازعت نفوسنا عوامل الاجلال والمخافة ، والرجاء واليأس ، مالم تنحدر بنا عواطفنا فى وهاد الحزن والألم فتنسينا ظلماتها الموحشة ماسواها من العواطف والاحساسات .

وللمقابر على الأحياء سحر لايقل عن سحر الحياة اياهم . فهم يؤمونها وان اختلفت طوائفهم وتفاوتت مداركهم وانشعبت فى زيارتها أغراضهم . وليست مقابر أعزتهم هى وحدها التى تسحرهم ، بل هم يهوون اليها جميعاً وكأنما يردد عندها كل منهم فى غور نفسه وقرارة فؤاده قول الشاعر :

وقال أتبكى كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له ان البكا يبعث البكا * فدعنى فهذا كله قبر مالك

وكأنما يجد كل منهم سر الحياة ومعنى الوجود دفينا فى كل قبر . فالمرأة الساذجة الذاهبة تستندى سر الصالحين وتستجدى بركتهم ، والمنحدر فى وادى الملوك الى مقابر الفراعنة يستشف خلال ألوف سنين مضت عظمة الازمان الغابرة ، والسارى فى بانثيون باريس يطوف بقبور الكتاب والشعراء والفلاسفة الذين طواهم البلى فخلدوا برغمه على وجه الزمان ، والضارب فى صحراء القاهرة بين مقابر مجهولة ، أولئك وغيرهم تدعوهم المقابر اليها

فيلبون الدعاء ، وان اختلف ما يصورونه لانفسهم من غاية فى اجابته . فاذا مثلوا فى حضرة الموت رأوا كيف يستجن فى الموت سر الحياة . فالتمست الساذجة من قبر الصالح الصحة والحب والسعادة ، والتمس المنحدر فى وادى الملوك الى قبر الفرعون أسباب العظمة والمجد ، والسارى فى بانتيون باريس الى قبور الفلاسفة والكتاب أسباب الحكمة والخلود . والتمس الضارب بين المقابر المجهولة الى هذه المقابر سر الحياة الدفين فيها .

وأين يلتمس الناس سر الحياة ان لم يلتمسوه فى الموت وهو غاية الحياة ومدى ما يصل اليه علمهم منها ! أو لم ينفق كثير من المفكرين والفلاسفة أعمارهم فى استكناه ما بعد الموت ؟ والمقابر دور الموت كما ان المنازل دور الحياة .

وهذه العواطف المختلفة التى تختلج فى نفوسنا ساعة زيارة المقابر هى التى أدت بالناس منذ ألوف السنين ليجعلوا من كثير منها قصوراً فخمة تتجلى فيها المعانى التى جالت بنفوس الاحياء ممن بنوها . وما تزال أمم كثيرة تجعل من المقابر صلة الحياة بما بعد الحياة وتسعى لتجعل مقابرها زينة للناظرين ، فتجمل لهم الموت كما جملت الحياة . وانك لترى من بدائع الفن فى بعض المقابر ما تقف امامه معجباً به برغم مايمثله من عواطف محزونة وقلوب كسيرة وأفئدة جريحة . والذين زاروا جنوا فى ايطاليا يذكرون أن ليس فيها من آثار الفن غير مقبرتها . ومقبرة ميلانو هى الاخرى متحف من متاحف الفن ، ان لم تبلغ كتدرائيتها فى العظمة ولم تبلغ بعض آثارها الاخرى فى الجلال فهى لاريب أشد ما فى ميلانو من الآثار رهبة وأنفذها الى النفس معنى .

زرناها فى ثامن اكتوبر سنة ١٩٢٦ وكان يوماً قاتماً لم تبزغ منذ صباحه شمس وظل رذاذه يداعب السائرين فى الطرقات حيناً بعد حين . ووصل بنا الترام فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر الى أبواب المقبرة فاذا بائعوا الازهار وباقاتها انتحوا من الطريق جانباً ، واذا رجال وسيدات وفتيات يبتاعون ما تلتعش له نفوس أعزائهم فى وحدة القبر . ونظرت نحو المقبرة فاذا فناء فسيح شيد على جوانبه الثلاثة بناء فخم ويفصل بينه وبين الميدان سياج من عمد الحديد . فتخطينا السياج ووقفنا برهة نحدق فى صدر الفناء بهذه العمد الرفيعة وبالاقواس فوقها ، تحسبها عمد القصور وأقواسها. ومن فوق هذه العمد والاقواس التى تؤدى الى منازل الدار الآخرة شيد طابق ثان فيه عمد واقواس وفيه محاريب وتماثيل وفيه صناديق كبيرة من حجر هى مثوى أصحاب التماثيل القائمة الى جانبه . وأدرنا النظر يسرة فألفينا بواب هذه المقابر واقفاً على باب غرفته عرضت فى زجاجها كتب هى دليل المقبرة وما فيها من تماثيل ونصب . فسرنا اليه نسأله ان كان يتقاضى من زائرى هذه المقابر أجراً غير ثمن الدليل ؟ قال : انما الاجر لمن يزور المقابر وكل ما عليه أن يضرع عند الله لاهلها بدعوة صالحة .

سرنا فى افناء يحاذين هذا الجناح الايسر من سراى المدخل ، فأخذ بنظرنا فيه باب نزلنا عنده خطوة فاذا حولنا صناديق الحجر وتماثيل من احتوت الصناديق جثمانهم صنعت من المرمر صنعاً دقيقاً، ووضعت الى جوانبها شواهد من المرمر كذلك نقش عليها اسم صاحب التمثال ورجاء مغفرة من الله له . ويلى هذه الغرفة

الضيقة دهليز أفقي طويل صفت المقابر عن جانبيه . ويشعر الانسان في هـذا المكان المسقوف الضيق بين هـذه المقابر الكثيرة بشيء أقرب الى الفزع منه الى الرهبة ويخيل اليه كأن ساعة الحشر دانية ، ولا يجتـلي جمال التماثيل ولا حـلاوة الازهار الملقاة على أقدامها وحول الشواهد المستغفرة لها بسبب هذا الفزع الا قليلا .

وعدنا الى الفناء وتخطينا بين العمد وتحت الاقواس الى رحب المقبرة فاذا بنا في ميدان فسيح يزيد على خمسين فداناً ، واذا هذا الميدان حديقـة ناضرة نثرت فيها التماثيـل على اختلاف صورها وأحجامها ، واذا بك يزايلك الفزع مخافة ساعة الحشر الدانيـة وتطمئن نفسك الى هذه الخضرة الباسمة والى الازهار مختلف ألوانها والى النصب الرفيعـة وقفت أو تمطت في حناياها والى جانبها ومن حولها تماثيل آية في الدقة . اذ ذاك تسائل نفسك : أهذه هي المقبرة التي تكن في جوفها رفات أعزة تدمى لذكرهم قلوب وتذوب أكباد وتغوص في لجج الهم نفوس وأفئدة ؟ ياما أعجب نظر هؤلاء الناس للعيش وما أشدهم حرصاً على المتاع بكل لحظة من لحظاته ! هاهم أولاء قد جعلوا من منازل الموت زينة للحياة ومتاعاً لعيون الاحياء . ولعل أولئك الذين يحملون الورود والرياحين الى القبور انما يريدون أن يزيدوا جمال هذا المتحف الذي تفتخر به ميلانو وتجعله في حياتها عنوان عزها ومجدها .

لـكن هذه الخواطر التي مرت بالذهن عند ما تخطينا الى رحب المقبرة لم تلبث الا يسيراً حتى أذابتها حسرات نفـذت الى شغاف النفس مما تنطق به التماثيل في نظراتها المحزونة ، وفي دمعات هامية من عيونها الحجرية على خدودها ، وفي هذا التخشع والانكسار

والاستسلام لجبروت الموت القاسي . وأكثر هذه المعاني المحزونة أثراً في النفس ماجاور قبوراً أغلب الظن ان أصحابها ليسوا أغنياء . لاتعجب ! ان هذه المقابر التي يدور في ظن الناس جميعاً أن أصحابها يرقدون فيها على بساط عدل ومساواة يتفاوت أصحابها أمام أهليهم وأمام الناس في قدر ما كانوا وما صنعوا وما يستحقون من ذكر وأسى . فهذا القبر الذي عن يميننا عطل من كل تمثال واكتفى أهله بشاهد توسطته صورتا العجوزين الراقدين فيه . وهذا القبر الثاني الى جانبه جلس اليه تمثال حسناء مرسل شعرها على ظهرها وصدرها في غير نظام وقد بلغ منها الحزن مدى اليأس فألقت بذراعيها فوق القبر وكأنما كانت تريد أن تنزع منه صاحبه المحبوب لتعيد اليه الحياة فاذا أملها هباء وذراعاها ملقيان في عجز واستلام واذا هي لاتملك غير دمع فياض وقلب متحطم . فأما ذلك النصب العالي الى يسارنا فتوسطه تمثال أبي العائلة المدفونة تحته وأحاطت به تماثيل نسوة ارتسم على وجوههن جمال الألم من غير أن تشوهه لذعات الحسرة

وسرنا في طرق حديقة الموت ومتحفه وما نكاد نخطو حتى تستوقفنا المعاني المختلفة تعبر بها التماثيل عما تكنه نفوس الاحياء من جزع أمام الموت أو ألم لفراق عزيز ذاهب أو فخر برجل عمر وترك وراءه ذكراً يحسبه ذووه باقياً . ثم وقفنا أمام قبر جثا فوقه تمثال طفل يصلي : يارعاك الله ياصبي ! على من تبكي ولمن تستغفر ؟ من ذا أخرجك من براءتك وطهرك ودس الى قلبك الصغير ما في الحياة من هموم الألم وهمومه ! أتصلي لأمك الشابة الصبوح فلت

مطوقة اياك بذراعيها حتى ألثجها الموت وهى الآن تراب طهور يبعث لك فى الحياة من ألم الذكرى مايغسل حوبات الحياة ! أم هو أخ لك طفل مثلك شعرت بالوحشة لفراقه فجئت تدعوه اليك يؤنس وحشتك ويسلى هم وحدتك؟ أم لعلك أنت أيهذا التمثال تمثال الوحيد العزيز الراقد طى الثرى ؟! أدع أيها الحجر الصامت صاحبك وأطل الدعاء ! .. أواه انه لن يجيبك . وانك لن تظفر من دعائك الا بدموع كأنها الحمم تفرى أكباداً جرحى وقلوبا كليمة وتدك عزائم كانت أمام مافى الحياة اطوادا كالجبال ثم اذا الحياة أمامها سراب خادع ليس فيه من حقيقة الا الدمع والا الالم .

واستغفرنا الله عما صنع بالصبى الراقد هناك فى صحراء القاهرة وأسرعنا الى جانب آخر من جوانب المقبرة الفسيحة . وكأنما شعر السحاب بهمنا فبعث من عنـده رذاذاً أطفأ ما التهبت به نفوسنا ودعانا لنحتمى بجدار قريب . وكان على مقربة من الجدار قبر جلس اليـه مثال ينقر فى الصخر موضعا لمصباح وضعه أهل القبر يضيء ظلمته . ثم صعدنا درجا الى جانب الجدار فاذا صناديق من حجر وتماثيل وشـواهد نقشت عليها أسماء أصحابها وكأنها تزدهى بمقامها فى هـذا المقام الاعلى . وسرحنا البصر فى المقبرة فلم نحط بغايتها. وخشينا أن تقع العين على مثل تمثال ذلك الطفل فسرنا فى الطابق الثانى صوب باب المقبرة بين صناديق وتماثيل وشواهد كلها لقوم نعموا من الحياة بحظ يبعث الى النفس الغبطة ولا يحز الفؤاد بلذع الألم

وخرجنا نخفف عن النفس ما أحاط بنا من ضجة الحياة .

***

وذكرت مقبرة ميلانو وتماثيلها ونصبها وشواهدها يوم ١٣ ديسمبر سنة١٩٢٦ اذ كنا نجوب صحراء القاهرة نؤدي للصبي الراقد في مقابرها فرض الذكرى وندع عنده قطعتين من فؤادنا الكليم لعلها أروح لثراه من الورد والزهر . أيهما أبلغ بحديث الموت وعظمته : تلك الجنة في ميلانو ، أم هذه الصحراء المنقطعة تسري فيها الأرواح بعيدة عن معاني الحياة الارضية الوضيعة واذ جسمتها التماثيل ماجسمتها، وان جلت على صفائح الحجر وجنادله من معاني الألم والرهبة والجلال ماجلت ؟ وأيهما أبقى في النفس أثراً : هذا التمثال من الحجر تراه اليوم وتراه غداً وتراه بعد سنين فاذا عواطفه لاتتجدد واذا عينه الدامعة لاتجمد دمعتها وعينه الجامدة لاتجود بدمعة ، أم هذه الدمعة الحية الحارة التي انسكبت بمرأى منك ومشهد ثم دخلت منك في عالم الذكرى المتجدد ماتجددت حياتك ؟ قد تكون الدمعة الحية أبقى في نفسك أثراً . لكنك أنت زائل كما زالت الدمعة التي رأيتها أنت وحدك . أما هذا التمثال من الحجر فقد تجسدت فيه عاطفه من العواطف هو عليها شهيد لكل من رآه . وهو أبقى منك على الحياة وأبقى مما تسطره .

ومرت بمخيلتي اذ ذاك صور من هذه العواطف المحزونة أثارها الألم المبرح زمناً ثم مازالت بها الحياة حتى استترت في قلوب أصحابها وصاحباتها تثيرها الاحداث وتكظمها المظاهر، وحتى انطوت في عالم الذكرى عند من شهدوها ومن شغلوا عنها من بعد بلهو الحياة . مرت في مخيلتي صورة الجدة العجوز فقدت ابنها الوحيد بين بنات سبع ثم فقدت حفيدها الوحيد كذلك من هذا

الابن ، فابيضت عيناها من الحزن حتى لاترى هذه الآلام المكدسة حولها ثم عنها نظرات بناتها وتنطق بها حال حفدتها .
ومرت صورة هذه الشابة الذاهلة المنهدة في سوادها بين قبرين ، قبر أمها الشابة وقبر وحيدها الصغير ، وأعمار الثلاثة ماتزيد على عمر شخص واحد يبكيه الناس ان مايزال في الحياة له مطمع ، وهي في مقامها هذا خرج بها اليأس عن أن تجد حتى في الدمع عزاء . وصورة أم ذات ولدين انفصل عنها ابوها زمنا ثم عاد اليهم وما كاد حتى اختطف الموت الاثنين جميعاً في عشرة أيام ، وصورة ... لكني ما كدت ابدأ استعرض هذه الصور الحية ماتزال ، وأتخيلها مصوغة في نحو تماثيل مقبرة ميلانو حتى هجم على خيال برج هائل من آلام الانسانية مكدسة بعضها فوق بعض وهي تدمى دموعا سخينة وقلوبا حرى وأفئدة مصدوعة وأكباداً مكاومة . وفي كل قطرة من هذه الدماء تمثال ناطق بعمان تتفطر لها النفوس وتتعذب لمشهدها الارواح .

وفزعت لهذا المنظر وجاهدت كي أمحوه من أمامي فعمدت الى نفسي أحتمي بها من هول ما تلاقي الانسانية . وليس كالنفس حصن اليه يفزع العقل والخيال يدرعان به من خطوب الوجود . وتساءلت : أليس في الحياة الى جانب هذه الصور الرهيب منظرها صور ذات بهجة ؟ أو ليس الى جانب الحزن مسرة والى جانب الألم أمل ؟ ان الذين تدهمهم الهموم يجدون عنها في حكمة الحياة وفي لهوها عزاء . والحكمة أبلغ في عزائها . ومن الحكمة أن لانرى في الموت الا طوراً من أطوار الوجود كالحياة سواء . أترانا لم نكن جزءاً

من الوجود قبل أن نكون أناسا مثلما نحن فى الوجود أناس ؟! بلى.
كنا فى الوجود مثلما نحن اليوم فيه . واذا كانت مشاغلنا فى هذا الطور تحول دون تعرف ماسـواه مما مررنا وسنمر به فليس ذلك الا لأنا نتوهم أنفسنا قطب الوجود ودارة مركزه . ولو أنا عدلنا فى النظر الى الكائنات جميعاً لرأينا أنفسنا ذرة منها تستحيل فى شتى الصور وتحسب استحالتها وانتقالها فناء وموتا . والمقابر على ذلك أعدل شاهد . فلو أن مقابر من ماتوا من يوم وجدت الانسانية على الارض ظلت مقابر لما وجد الاحياء لأنفسهم على وجه الارض سكناً . لـكن المقابر استحالت حياة فى صور وألوانـ شتى . ونحن الأحياء على صغر كنا وقدرنا نستحيل كل يوم أحياء جديدة، ونحيل غيرنا الى ألوان من الحياة، أو ان شئت فمن صور الوجود .

مالنا اذن نجزع من الموت ونهابه ؟ أم أنا فى الحق لانجزع منه لانفسنا وانما نجزع لما يحول بيننا وبين مااعتدناه وألفناه . والحياة وكل مافيها عادة . ولعل سائر صور الوجود عادة كالحياة الانسانية . ولعل للنبات وللجماد نوعا من الحس بالحياة ان اختلف عن حسنا بها فهو أوفر عقلا وأسمى حكمة . وهـذه الحيوانات الاخرى التى تتشابه وايانا فى نوع الحس بالوجود لها من سليقتها مايبعد بها عن الألم . فهى لاتشعر به الا اذا أصابها مايسـببه . فاذا انقضى عادت الى مرحها فى الحياة ومتاعها بها ولم تخلق لنفسها مانسميه نحن عالم الذكرى نملؤه بالصور المثيرة للحزن والشجن

ولعل هـذا المعنى هو مادفع أهل الغرب ليجعلوا من مقابرهم جنات ولأسباب آلامهم تماثيل محسوسه حتى اذا اعتادوا رؤيتها

أنسوا لها وارتبط بها خيالهم فلم يخلق لهم كل يوم سبباً للحزن والألم جديداً . فأما الحكيم الذى يؤمن بأنه بعض ذرات الوجود، سواء استوى انساناً أو انشعبت خلاياه فى نواح عدة ، فليس بحاجة الى تمثال يأنس له ، بل تهديه حكمته الى تجنب أسباب الألم ما استطاع ليبقى له فى الحياة المرح والمتاع .

في البندقية

البندقية ! اسم ساحر جذاب لهاته المدينة التي أنبتها الماء كما ينبت الصخر والشجر ، وأنبتها فوق مائة وسبع عشرة جزيرة لا تتصل بغيرها من المدائن ، وليس فيها غير الماء وسيلة للنقل بين بعض جزرها والبعض الآخر مما جعل أهلها في عزلة تميزهم عن غيرهم ؛ وهي مع ذلك مهبط فن جميل يرجع في تاريخه الى عصور قديمة كانت البندقيــة فيها ذات تاريخ مجيــد في التجارة وفي الحضارة وفي السلطان ، وكانت مرفأ من أكبر مرافئ بحر الروم ومن أشدها منعة وقوة .

لذلك كانت البندقيــة وما تزال ساحرة جــذابة تهوي اليها الافئدة وتود أن تستمتع بها الاعين ، وقل أن لم يقصد اليها مسافر في ايطاليا . بل هي وجهة كثيرين يقصدون اليها من أقاصي العالم يشهدون فيها عظمة المـاضي وسلطان الطبيعة وجمال الحاضر ، ويشهدون فيها صناعات بديعة دقيقة ان وجدت في غــيرها فهي لا توجد بهذا الابداع ولا بهذه الدقة .

ولقد قصدت زيارتها عام سنة ١٩١١ اثناء عودتي من باريس الى مصر عن طريق سويسرا وايطاليا . وكنت يومئــذ في آمال الصبا وزهو الحياة أحسب ما في الحياة ملكا لي أصرفه أكثر مما يصرفني وأنال منه أكثر ممـا ينال مني . لذلك كفاني ان علمت وأنا بميلانو أن مياه الشرب مقطوعة عن البندقية وانها قــد تظل

كذلك أياماً حتى عدلت عن زيارة المدينة الظمأى ناسياً أو متناسياً أن فيها قد يجلب اليها من المياه المعدنية وغير المياه المعدنية ما لا يذر انساناً ظمأً . ومالى أزور مدينة ينقصها بعض أدوات الحياة مما قد أكون اليه محاجة ، أو مما قد يعجبنى أن أحتاج اليه . ولم أكن فى هذه السن قدرت مبلغ ضآلة الانسان فى الحياة وخضوعه لها ، ومبلغ قصر الحياة وسرعة مرها . لقد كنت معتزماً العودة الى أوروبا لاتمام دراستى بعد أشهر اقضيها بمصر . وبعد أشهر تكون أنابيب ماء البندقية أصلحت ، فلاعدل اليها فى طريقى يومئذ فى غير خشية أن لا اجد ما قد يعجبنى أن أحتاج اليه .

وعدت فى أواخر سنة ١٩١١ الى باريس ولكن من طريق مارسيليا . وأتممت ما ذهبت اليه وعدت الى مصر فى سنة ١٩١٢ ولكن من طريق مارسيليا كذلك . وغامرت فى ميدان الحياة ثم ما هى الا أشهر معدودة ، ما هى الا سنة ١٩١٤ حتى أعلنت الحرب بين دول أوروبا وحتى صار الذهاب الى أوروبا محفوفاً بالمصاعب . وشهدت البندقية من آثار الحرب ما شهدت غيرها من المدائن أو أشد من بعض المدائن هولا . ثم كانت الهدنة فالصلح فالحركة القومية المصرية فالمشاغل التى تخضع الانسان للحياة غير مختار . فلما قصدت الى أوروبا ألتمس فى ربوعها الجميلة مصحاً استشفى وزوجى فيه من مصابنا زرت المدائن والاماكن التى عرفت شاباً والتى شهدتنى وحيداً سعيداً بوحدتى مملوءاً بقوة الامل فى الحياة والتسلط عليها ، فاذا بها تشهدنى وقد تركت الحياة فى نفسى كلوماً

ان لم تتمضمض من أملي وفوقي فقد خلطته من المرارة بما لم أكن أعرف بدء الصبا وفي ميعة الشباب، الا أن يكون ذلك حباً في أن أستمتع من الحياة بكل ما فيها من حلو يغيب عن الشباب رحيق حلاوته : ومن مر ان ذرف الشباب لون مرارته فقد غاب عنه طعمها .

وكنت في هذه المرة شديد الحرص على أن أرى البندقية ولو انقطعت عنها مياه الشرب وفتك بالناس فيها الظمأ . وفيما يجرى بنا القطار من ميلانو اليها عاودتني في ابتسامة ذكرى سنة ١٩١١ . وهل تعاود الانسان ذكرى الشباب في غير ابتسام . ان فشلاق الشباب تغالبه فتغلبه لاكثر ابتساماً من مجد تنظر من عليائه الى الحياة فلا ترى بعده الا منحدراً . فلما تخطى القطار اليابسة فوق الجسر الذى يفصل القارة عن المدينة الجزيرة انفسحت عن يمننا ويسارنا آفاق الماء المختلط عندها بالسماء وشعرنا بالبندقية تقترب وتصور الذهن « الجندولا » زورق البندقية وعادت اليه ذكريات ما سمع وقرأ عن كنيسة سان مارك وميدانها وعن قصورها الفخمة وعن شوارعها وطرقها المائية كلها ، والتي تخطر فيها الجندلات ذاهبات آيبات .

في أي فندق ننزل ؟ هذا هو السؤال الذى يرد الى خاطر المسافر أول ما يقترب من مدينة يحط فيها رحاله . وذكرت اذ ذاك حديثا جرى بيننا وبعض أصحابنا في لندن ومنهم من كان قنصل مصر في تريستا وزوجه . وقد تناول الحديث البندقية وآثارها . فلما عرفت زوج القنصل أنا قد نزور البندقية أشارت من بين آثارها الى قصر قديم أصبح فندقا باسم دانيلي ووصفت

ما فيه من زخرف العمارة وصفاً مشوقاً. فما لبثنا ان خرجنا من فناء المحطة وأحاط بنا رجال الفنادق حتى نادينا برجل دانيلى ناولناه متاعنا فوضعه فى جوندلته ثم أعاننا حتى نزلنا اليها ودفع بها فى القنال الكبير الذى يقسم المدينة شطرين كما يقسم السين باريس والتمس لندن وكما سيقسم النيل القاهرة عما قريب .

تحل الجندولا فى البندقية محل العربة فى سائر المدائن . وكما جنت الاوتوبيلات والترموايات ووسائل النقل الميكانيكى على العربات بجيادها المطهمة فقد بدأت الزوارق البخارية والسفن البخارية الكبيرة تجنى على الجندلات فى البندقية ، وان كان أهلها ما يزالون حريصين على الاحتفاظ بها احتفاظاً بطابع قومى كان رمزاً لهم كما يرمز لمصر ببعض آلهتها القومية . لكن الحضارة الحاضرة تجنى على الآلهة وتجنى على العربات والجندلات فى غير رحمة باسم التقدم والعلم . لذلك بدأت الجندلات الفاخرة تستتر وتحل الزوارق البخارية الجميلة السريعة محلها، ولم تبق الا الجندلات العادية المعدة للايجار وبعض جندلات احتفظ بها أصحابها أثراً نفيساً من آثار الماضى .

وتمتاز الجوندلات عن غيرها من الزوارق بأنها سوداء اللون طويلة ضيقة ترتفع على مقدمها ومؤخرها عمد من خشب مزخرف ينتهى باستدارة مستعرضة كأنها رأس الافعى الحارس الذى يرسم على قبور قدماء المصريين. ومجاديف الجندولا ليست متصلة بها بل يمسكها السفان بيده ويعتمد فى التجديف بها على جانب الزورق . وأهل البندقية صغاراً وكباراً ذوو مهارة فى تسيير جندلاتهم

وفى تفادى تصادم بعضها ببعض فى أضيق الطرق وفى أحرج المنعرجات.

وسارت بنا الجندولا فى القنال الكبير تقوم على شاطئيه قصور قديمة كما تقوم منازل قديمة هى الاخرى حتى كنا عند جسر ريالتو يتخطى الناس القنال الكبير فوقه . وجسر ريالتو أو كبرى ريالتو واحد من أكبر جسور البندقية الكثيرة التى تعد بالمئات . وجسور البندقية — الا الصغير منها — عقود مقوسة من الحجر مما يضطر الناس الى الصعود فوقها بدرج ثم النزول الى الشاطىء الآخر بدرج كذلك . فأما جسر ريالتو فله من الامتياز على ذلك أنه محاط من جانبيه بعمد مزخرفة عقد فوقها جسر آخر لا يرتفع اليه أحد . ومن بعد هذا الجسر بقليل استدارت بنا الجندولا فى طرقات ضيقة اختصاراً للطريق . وفى هذه الطرق الضيقة يتنادى الجدفون عند كل منعرج بصوت منغم لحرف (هو) كما ينبه سائقو الاوتوبيلات بنفيرهم عند كل انحراف أو تقاطع فى الطرق والشوارع.

ووصلنا دانيلى وارتقينا من الجندولا الى سلمه النازل فى الماء واخترنا غرفتنا . انه حقاً لقصر منيف . وهو قصر من طراز القصور القديمة صنع أكثره من المرمر وزينت نوافذه بزجاج ملون كزجاج الكنائس وبعض المساجد . يقابل الداخل من الباب بهو متسع يفضى الى غرفة استقبال أكثر من البهو سعه وأدق عماره . ولم نطل المكث فيه ساعة وصولنا بل كفانا أن أزلنا غبار السفر حتى خرجنا والنهار فى أخرياته نجتلى منظر الادرياتيك ونرى بعيداً عن كبرى جزائر البندقية جزراً أخرى منثورة تقوم فوق بعضها كنائس تظهر للنظر قبابها وتبدو على البعض الآخر مساكن

لاتستثير طلعة الناظر اليها . واستدرنا الى يميننا وتخطينا جسرين بنيا أمام قصور أمراء البندقيه الاقدمين وانعطفنا يسرة فاذا بنا أمام ميدان سان مارك .

سان مارك !. الكنيسة الفخمة القديمة فخر البندقية وفخر العمارة البيزنطية ! وأمامها ميدانها العظيم تحيط به من جوانبه الثلاثة الأخرى عمارات فخمة كانت قصور الامراء في الماضي ثم أنزلتها الديمقراطية فجعلت منها قهوات وحوانيت بقيت أميرة قهوات البندقية وأميرة حوانيتها. وبازاء الكنيسة عمد ثلاثة من المرمر الاحمر الدقيق وعلى مقربة منها الى يمين الناظر الى الكنيسة برج البندقية (Campanile) والى يسارها برج الساعة . ونسيت أن أذكر العمودين الحارسين واقفين على مقربة من الشاطىء قبل دخولك الى ناحية الكنيسة فالميدان . أليست هذه مجموعة فى فن العمارة والنحت لاتضاهيها حتى مجاميع بيزا وفلورنسا . ووسط هذه المجموعة الفخمة وفى هذا الميدان الفسيح المرصوفة أرضه بالرخام وبين هذه القهاوى والحوانيت يخطر حمام سان مارك أسرابا اسرابا وقف عنده الناس يلقون اليه بالفتات طعاما وهو اليهم مطمئن وطم أليف . أليس حمام سان مارك حراما على كل يد قاسية . وقد كانت الحكومة تطعمه فى الماضي وأيام الأمراء وتنزل بمن يعتدى على أية حمامة منه أشد الجزاء . أما اليوم فقد حل شعب البندقية محل الحكومة وانعقدت بينه وبين حمام سان مارك ألازرق اللون فى شيء من الخضرة التى تكسوه جمالا وبهجة ألفة وصداقة حتى صار الاعتداء على هذا الطير الرقيق الأليف اعتداء على شعب البندقية يدفعه

بما يدفع به العدوان على فرد من أفراده أو جماعة من جماعاته .

الوقت مساء والنهار ولى وليس الى اجتلاء جمال الكنيسة والعمد والابراج سبيل . فلندر اذن فى الميدان دورة قبل أن نعود الى الفندق . وحذار أن تؤثر القدم باحدى حمائم سان مارك أو أن تزعجها . وليس ذلك احتراماً لعواطف شعب البندقية وكفى. ولكن جانب الخير فى النفس الانسانية يتغلب ماوجد مظاهر الخير فى الجماعة بادية . والقسوة والشر لا يملكان الفرد الا اذا اختفى المثل الصالح من أمامه . والقاسي يهيجه الدم مارأى الدم . لكنه ان أحيط بعواطف الخير فقد حق على قسوته أن تنكمش حتى تتلاشى . فاما رجل الخير فيقطب للقسوة جبينه ولا يلجأ اليها الا كارهاً . وهو مارأى الرفق والبر والرحمة مطمئن لها فرح بها مغتبط بالحياة وبالنهل من وردها أشد الاغتباط .

ودرنا فى ميدان سان مارك ثم عدنا اليه بعد طعام العشاء ، ثم عدنا اليه فى الغد وفى الأيام التالية الى حين غادرنا البندقية ونحن نجتلى منه فى كل مرة جديداً . ذلك أن هذا الميدان قلب المدينة . فيه معرض عام لكل صناعتها وتجارتها وفنها ، وفيه معرض لكل ماتستطيع البندقية أن تجلوه للسائح من صناعة ايطاليا وتجارتها وفنها . وأشد مايستلفت النظر فى الجوانب الثلاثة التى تشرف عليها الكنيسة من صدر الميدان دنتلا البندقية والزجاج المصنوع فيها ونقش الجلود نقشاً فنياً . وما أحسب سيدة من السيدات ذهبت الى البندقية الا سحرها هذا الميدان عن أن تشهد شيئاً غيره لولا ما يكلفها ذلك من نفقة باهظة قد تجد فى سائر

كنائس البندقية وجزائرها المختلفة ملجأ للفرار منها . والحق انهم يعرضون الدنتلا فى صدور حوانيتهم عرضاً يهوى اليه لب الرجل مابالك بلب المرأة . ولست فى هذا الصنف خبيراً حتى تستوقفنى دقائقه وان اضطررت للوقوف مع من يعرف هذه الدقائق ، وان وجدت فى ابتسامات الباعة والبائعات وفيما يجرى من الحديث عن هذه الحلى التى تزيد الجميلة جمالا فى كل أجزاء جسمها ماجعلنى أصغى لهذا الحديث ملء سمعى . فأما النقش على الجلد فكان يجذبنى مباشرة ومن غير واسطة . وللكتب وجلودها كموباً وزوايا فضل فى ذلك غير قليل . فكثير مما وقع فى يدى منها أثناء مطالعاتى بالمكاتب المختلفة كان من مخلفات عشاق زخرف وقاء الكتب ، وكان ذلك آية من آيات فن النقش على الجلد . لكن أهل البندقية لايعرضون كتباً فى صدور حوانيتهم بل يعرضون محافظ كبيرة ومحافظ للجيب وشباشب للسيدات كلها ابداع أى ابداع . ولعل السائح أقل ما يكون تفكيره فى كتاب مزخرف التجليد ليهديه لزوجه أو لصديقه أو لصاحبته . ولشبشب مزخرف الجلد تخطر به فاتنة على سجاد عجمى وثير أبعث للوحى وأنفذ الهاماً من كثير من الكتب المتقنة التجليد .

وصناعة الزجاج مزدهرة فى البندقية أى ازدهار . ولقد أتيح لنا أن نرى معارض هذه الصناعة وأن نرى كيف يقومون بها . ويكفى أن تقف الى جانب العاملة التى تصنع الفسيفساء لتعجب لأناتها وصبرها وهى تأخذ قطعاً صغيرة من الزجاج المختلف الالوان وما تزال تضع كل لون فى المكان الواجب ان يوضع فيه حتى تكون

الصورة التي تنتج من ذلك في بهاء الصورة التي يراد رسمها . ألوف وألوف من هذه القطع توضع بعضها الى جانب بعض على لوح أبيض كما يضع النقاش ألوانه . لكن النقاش يستطيع أن يغير وأن يمحو وأن يصلح الخطأ . فأما الخطأ في نقش القسيفساء فيجب أن يزال أولا . وازالته ليست أقل دقة من وضع الصواب من أول الامر ، أو من وضعه مكان الخطأ . ولئن كانت صناعات الزجاج الاخرى لا تحتاج الى ما تحتاج اليه القسيفساء من عناء فهي ليست لذلك أقل منها دقة ولا بهجة .

وفي الحوانيت الفسيحة على جوانب الميدان الثلاثة صفت هذه الصناعات وصفت الى جانبها غيرها مما ترى في ايطاليا كالتماثيل والصور . فاذا دخلت ألفيت معارض واسعة تقع العين فيها على ما تحار اذ كلفتها الاختيار منه . ولعل هذه الحيرة هي التي تنقذ كثيرين من باهظ النفقة اذ يعدون ان يعودوا ثم تشغلهم مناظر البندقية حتى يغادروها .

وفي ضحى وصولنا الى البندقية صحبنا دليل دخلنا واياه الى كنيسة سان مارك . وسان مارك هو القديس الحارس لمدينة البندقية . نقل أهلها رفاته اليها من الاسكندرية في سنة ٨٢٩ بعد الميلاد وبنوا الكنيسة فوق القبر الذي ثوت فيه في سنة ٨٣٠ ثم أعيدت عمارتها بعد ما التهمتها النيران في سنة ٩٧٦ وجددت على الطراز البيزنطي في منتصف القرن الحادي عشر . وهي شرقية العمارة ككثير مما في البندقية ، ولها قباب خمس شبهها بقباب المساجد غير قليل . والقباب الاربع التي تحيط بالقبة الوسطى

تقوم فوق بناء على صورة صليب متساوية أضلاعه . وأرض الكنيسة وسقفها وجدرانها بدائع فنية ليس لها فى غيرها مما رأيت من الكنائس نظير . نقشت الجدران والسقف بالصور المقدسة نقشاً بالفسيفساء والذهب والمرمر فكانت كل صورة بل كل قطعة آية فى جمال الفن ودليلا على الدقة والاناة . واذا كان ما شهدنا من صناعة الفسيفساء وما تحتاج اليه من صبر ودقة قد التجأ اليه الذين زخرفوا سان مارك فما أصبرهم حباً فى الفن وابتغاء لوجه الله . وان ما تشهد به سان مارك وما تشهد به كنائس البندقية الكثيرة ليقوم دليلا على ان الايمان وحده هو القوة التى تسمو فوق الطبيعة وفوق العقل وفوق التصور والتى تتم المعجزات ، وعلى صدق كلمة الانجيل ان لو ملأ الايمان قلبك وقلت لهذا الجبل انتقل من مكانك ينتقل . فهو الايمان بالله وبأوليائه هو الذى دفع أولئك الفنانين ليتموا فى سان مارك وغير سان مارك بدائع فى الفن معجزة . وهو الايمان بالعلم وسلطانه هو الذى استخضع للانسان قوى الطبيعة التى لم تكن تخضع من قبل للانسان ولا لغير الانسان .

وعلى مثال المساجد وغير المساجد من آثار العمارة الشرقية تحيط بالكنيسة من خارجها وتنتشر فى داخلها عمد من الرخام الدقيق الصنم يبلغ عددها خمسمائة . ويعتلى باب الكنيسة المزخرف أجمل الزخرف بالفسيفساء المذهب تماثيل أربعة جياد من البرنز المذهب كذلك ، ذكر الدليل أن أحد دوجات البندقية جاء بها من القسطنطينية فى أواخر القرن الثالث عشر فزين بها هذا المكان المقدس ، كما زعم أن نابليون أخذها أثناء غزوه ايطاليا ثم أعيدت

من بعد ذلك الى حيث هى اليوم مثال حسن ودقة فى الصناعة

الى جانب كنيسة سان مارك يمتد قصر دوجات البندقية مطلا من جانب على مدخل ميدان سان مارك ومن الجانب الآخر على مياه الادرياتيك . ودوجات البندقية هم حكامها أيام كانت جمهورية مستقلة تصل الشرق بالغرب وتتأثر أبدا بالحضارة الغالبة . ولقد ترك الشرق فيها من الآثار الباقيـة أكثر مما ترك الغرب . فكنيسة سان مارك شرقيـة العمارة والزخرف . وأكثر كنائس البندقية وقصورها شرقية مثلها . ومن بين هـذه القصور قصر الدوجات قام به أمراء البندقية ما كانت البندقية جمهورية مستقلة ثم أصبح اليوم متحفاً تعرض فيه النقوش والصور والتماثيل كما تعرض فى غيره من قصور البندقية القديمة ، وكما تعرض فى كثير من القصور فى فلورنسا وفى روما ، فى هـذه القصور التى كانت فى الماضى متاعا لأمير أو لحظية ملك ، ثم جعلتها الحرية متاعاً مشاعاً للشعب كله يجتلى فيه من آثار الفن والعلم ما كان حراما على الشعب أيام الأثرة والاستبداد ، وأيام كان الملوك ورجال الدين قد عقدوا الخناصر لاذلال الشعب واستغلاله . ماأفخم قصر الدوجات هـذا ! يتخطىء الانسان بابه الخارجى الى فناء فسيح يصعد بعده على سلم من الرخام الى ديوان يطل على الفناء ، ثم يدخل الى غرف القصر فيرتقى الى الطابق الاول سلما عريض الدرجات مايكاد ينتهى منه حتى تقابله غرف القصر الفسيحة تغطى جدرانها أبدع النقوش والصور . وان أنس لاأنسى من غرف القصر غرفة مجلس أمير البندقية مستطيلة تزيد على خمسة عشر متراً فى العرض وأربعين فى الطول وقد صفت

فيها المناضد كما تصف فى مجالس الشورى . وفى صدر المكان منضدة رفيعة كانت مجلس زعيم الامراء . دعك من التاريخ وما كان الامراء يصنعون ، وقف محدقاً بهذا الجلال والجمال فى الفن والعمارة حتى يبلغ منك الاعجاب حد الذهول . ويقول صديق كان معنا وهو يحدق معجباً بالصور لتستوقف نظره صورة نقشت فى السقف تمثل البندقية جالسة على عرش العالم تشيع فيه العدل والسلام : « أليس هذا بعض فضل الاستبداد كما أن الكرنك والاهرام وأبا الهول فى مصر بعض فضله . ولئن استمتعت الشعوب بما تستمتع به اليوم من بدائع آثار الفن فهل ذلك الا أن الاستبداد كان خيراً فى عصر من العصور . » ثم يقف برهة يراجع فيها نفسه ويذكر ان روح الجماعة الحرة قد شادت مثل ماشاد المستبدون وان آثار فن اليوم ليست أقل روعة وجلالا من آثار ذن الاقدمين .

وفى جانب القصر المطل على مياه الادرياتيك والذى يجتلى الجزر القريبة بهو تبلغ مساحته ضعف مساحة غرفة المجلس لعله كان ملهى لامراء البندقية وملعباً للكواعب الحسان من بنات المدينة الجزيرة ممن ترك جالهن الرفيق المكسال فى نفس دافنشى وتسيانو وروسو وغيرهم من كبار الكتاب والفنانين أثراً تجتليه اليوم فى مخلفاتهم الخالدة على الزمان .

وهبطنا نريد الخروج فاستوقفنا أحد الحراس ليرينا جانباً مظلما من جوانب القصر المنير . ذلك جانب السجون التى كان يسجن فيها المتهمون السياسيون : غرف ضيقة لاترى شمسا ولا يتجدد فيها هواء ولا يدخل أكثرها النور ، وتدل وحشتها على

سواد نفوس المستبدين الطغاة . وفى احداها نافذة ضيقة تطل على جسر أطلق عليه أهل البندقية اسم جسر الدموع يرى السجين من خلالها نور الشمس وهواء الحياة وموج البحر. فى هذه الغرفة كان يقضى المتهم السياسى الليلة السابقة على اعدامه فتذرف عينه الدمع . وما أحسب الظلمة كانوا يريدون بنقله ليرى بعض آثار الحياة ان يزودوه فى لحظاته الأخيرة بشىء من المتاع ، وانما كانوا يريدون به أن تزيد حسرته فيزداد بذلك عذابا . وقلب المستبد يستمرىء عذاب المظلوم كما يستمرىء القلب الحر البر والرحمة .

وعدنا آخر النهار الى ميدان سانمارك من جديد . ما أشد سحر هذا الميدان . ان الزمن الذى يكفيك لترى البندقية كلها خلا هذا الميدان لاقل من الزمن الذى تحتاج اليه كى تحيط بكل ما احتواه . أليس هو قلب البندقية ومجتمع أهلها والنازلين فيها ؟ أو ليست فيه أبدع آثارها ؟ عدنا اليه آخر النهار اذن معتزمين أن نصعد الى أعلى برج البندقية . وبرج البندقية ليس مستديراً كالبرج المائل فى بيزا ولكنه مربوع كبرج فلورنسا . وهذا البرج أنشىء مكان برج قديم احتلت عمارته فى سنة ١٩١٢ . لذلك ترى فيه من آثار حضارة هذا العصر مصعداً يرتفع بك الى أعلاه دون أن تتجشم ارتقاء مئات درجاته مما يصد عن غيره كثيرين ممن تقدمت بهم السن أو غدر بهم المرض . وتبدت شواطىء ايطاليا أمام نواظرنا ونحن فوق البرج خاشعة متواضعة . وتبدت كذلك أعالى البندقية بعد ان كانت تتيه كبراً بارتفاعها . فهذه قباب سان مارك تلمع أشعة الشمس المتدرجة الى المغيب

فوقها فتـذر رخامها متورداً برهة ، ثم ماتلبث القصور المحيطة بالميدان أن تحول دونها . وهـذا برج الساعة وقف فوقه تمثالان يدقان على جرس هائل عدد ماينقضى من حياةالوجود من ساعات. وهـذه قباب الـكنائس الـكثيرة المنثورة فى البندقية مدينـة الـكنائس . وهذه قصور الامراء والفنادق المصطفة على رصيف سكيفولا . وثم الحديقة العامة هناك فى آخر المدينة . وثم ربوع أهل البندقية ومنازلهم وراء الفنادق متواضعة منحدرة فى الماء .

بدأ الهواء يهب بارداً حين بدأت الشمس تنحدر الى المغيب. وبلغ من برودة الجو ، وما نزال فى منتصف أكتوبر ، أن ذكر الناس زمهرير الشتاء . وظن عامل المصعد ان الناس لابد هابطون اتقاء الهواء اللاذع فصعد الينا وفتح أبواب مصعده على مصراعيه وقصد جماعة أصابتهم الرعشة يريدون الهبوط ، لـكنهم ماكادوا يقتربون من المصعد حتى عاودهم التردد فعادوا يشهدون منظراً جل عن كل وصف : منظر الشمس المنحدرة نشرت حولها أبهى الصور والألوان . وعلى ركن ضيق من المـكان يحميه الزجاج من لذع الزمهرير اجتمع العشرات من الحاضرين يجاهد كل ليسع صاحبه كى يجتلى مشهداً قل أن يتاح له اجتلاء مثله روعةوجلالا وجمالا وسحراً . ونسينا البندقية والبرج وسان مارك ونسـينا كل شىء الا هـذه الشمس التى صبغت الوجود نوراً وناراً ودماً ، ولم نعد نسمع الا آهات الاعجاب تنطلق من صدور الحضور جميعاً بالرغم منهم . وظل عامل المصعد زمناً ينتظر هؤلاء المرتعدين بقارس البرد المأخوذين بروعة المنظر حتى أتاحت الرعشة له بعض أفراد هبطوا

زاياه ، ثم عاد الينا وخرج من مكانه يشاركنا فى عبادة الجمال . فلما آن للبحر أن يبتلع فى جوفه ملك النهار هبطنا الى البندقية والنفوس ذاهلة والوجوه واجمة والقلوب خفاقة بروعة المشهد العظيم .

أرأيت كيف خلق فن الانسان وصنعته من هذا المكان الضيق ، سان مارك ، عالما فسيحاً يستوقفك أياماً ، وهو جدير بأن يستوقفك أسابيع بل شهوراً ؟! على أن بالبندقية غير ميدان سان مارك وقصور الامراء كثيراً من الكنائس والمتاحف وما شادت العمارة مما يجذب السائح اليه .

ولقد زرت من ذلك ما اتسع وقتى لزيارته . والوقت فى البندقية ليس يتسع لكل ما يتسع اليه فى غيرها . وكيف السبيل الى مثل سرعة الاوتوموبيل فى مثل هذه الطرق المائية الكثيرة التعاريج . وليس ذلك وحده مايضيق من الوقت . بل انك لتشعر أحياناً اذ تجوب بعض أحياء البندقية بانقباض يزهدك فى قضاء الوقت بها . فأكثر طرقها ضيقة غاية الضيق ، حتى لتسائل نفسك كيف يعيش أهل هذه المنازل المحرومة من الشمس الغائصة من أجيال وأجيال فى الماء الراكد النتن الرائحة . وأنت مضطر للوصول الى بعض المتاحف والاماكن الفخمة الى اجتياز هذه الطرق . وهى لذلك تصدك عن المضى فى كثير من زياراتك وتضطرك ان تذهب الى بعض الجزر كليدو أوجويدكا تطالب فيها هواء أصح من هواء البندقية .

على أن الاثر الذى يبقى فى نفسك من المدينة الجزيرة هو ميدان سان مارك . هو هذه البدعة الفنية التى جمعت الكنيسة

والقصور والميدان والحمائم والدنتلا والزجاج والجلد المنقوش والتماثيل والتى جعلت من البندقية متحفاً يمتاز على المتاحف كلها برشاقته وظرفه كما تمتاز هى على المدائن كلها بطبيعة موقعها وعجيب تكوينها مما يجعلها ساحرة جذابة تهوى اليها الافئدة وتود أن تستمتع بها الاعين .

ولعل للبندقيــة سحراً آخر لمحته عشية سفرنا منها اذ كنت بالفنــدق على مقربة من سيدة أمريكية تتحدث الى بعض خدمه بلهجة فيها من رفع الـكلفة غير قليــل ، وبصوت كأنه متعب من الحياة ملول لما فيها بعد ان فاض بصاحبته المتاع بها حتى سئمت كل متاع وحتى تضعضعت أعصابها عن أن تطمئن لما اعتاده الناس لوناً للحياة . فهى قد زارت البندقيــة مرات كما زارت غيرها من البلاد والممالك . لكن بها الى ليل البندقية هوى لا تجد فى نفسها مثله لليــل مدينة غيرها . ليل البندقية التى تسبح فيه الجنــدلات والزوارق بأنوارها الضئيلة المستحيية فوق لجة لا هى بالعباب يضطرب موجــه ولا بالراكد المستوى والتى تميــل لذلك بمن فيها ميلا رفيقاً يدع للخيال يذهب فى مسارحه ناسياً ما استطاع الضجر والالم، وتهزهم بحنان كأنها مهد الطفل تترفق فى هزه يد أم رؤوم فتنيم فى نفوسهم أنات مكظومة كانت تنفجر فى الضوء الصارخ وفى الرجة العنيفة . الى هذا الليل تهوى السيدة الامريكية وقد يهوى كثير غيرها . وهــذا الليل الساحر لا يستمتع به الذين يقضون ساعات نهارهم فى التنقل بين المتاحف والكنائس وفى مشاهدة ماخلف ماضى البندقية العظيم من تراث خالد والذين

يقتضيهم الليل نوماً يستعيدون به نشاطهم لجلاد الايام التى تليه .

لم أعرف اذن سحر ليل البندقيـة . ولم أعرف كذلك كثيراً مما فيها . وأنى لطاقة الانسان أن يجتلى فى أيام روح مدينة تضم ألوف أمثاله وتضم الى جانب هذه الالوف حياة ألوف من عصور الماضى ترك كل فى روح المدينة من أثره ماتحتاج معرفته الى انقطاع ودراسة. فليس ميدان سان مارك وحده، وليس ليل البندقية الذى يهز فى رفق ملل من أضنت الحياة أعصابهم ، وليست الكنائس والجزر وما بينها من طرق مائية هى التى تجذب الناس الى البندقية أو الى أية مدينة سواها . وانما يجذبهم اليها روح المدينة القديم الباقى على العصور والذى يجعلنا نشهد فى لحظة ما أتمه أمثالنا فى أجيال وقرون .

بين صيفين

غادرنا البندقية الى تريستا فى الرابع عشر من اكتوبر وأبحرت الباخرة حلوان بنا غداة ذلك اليوم وأرست بنا فى الاسكندرية بعد مسيرة ثلاثة أيام كان البحر خلالها مصقول الصفحة والهواء رخاء وكل شيء على ما نود ونهوى . وانخرطنا من جديد فى حياتنا العادية بنفوس هادئة وقلوب مطمئنة يعاودها الأسى ما بين حين وحين فنرى فى مثل هاته الرحلة لونا من لذة الحياة الا يكن فيه ما يجنب النفس الألم ففيه ما يحبب الى النفس الحياة . وتركت رحلتنا فى نفوسنا أثرا جعلنا دائمي الترداد أنا متوجهون الى أوروبا كل صيف . وتقضت الشهور وأقبل الربيع يحمل فى أردانه حرارة الصيف فبدأنا نفكر فى رحلته . وتشاورنا فى الطريق التى نسلك واستنصحنا بعض أصدقائنا ثم استقر بنا الرأى عند الذهاب الى الاستانة ورومانيا دون ان نضع خطتنا لما بعدها. ذلك بأنى أعتقد أن خير السياحات ما يترك فيه الانسان الخطة للظروف . فلما كنا بعاصمة الامبراطورية العثمانية التى لم تبق عاصمة كما لم يبق لآل عثمان ملك ولا للاتراك أمبراطورية فكرنا فيما عسانا نفعل بعد وصولنا قسطنزه . وتشاورنا وأصدقاءنا الذين لقينا بالاستانة فرسموا لنا طريقنا الى بخارست فبودابست ففينا . قلت اذن فليكن هذا طريقنا الى باريس . ولو انى انفسح الوقت امامى لكان لبرلين نصيب من رحلتى . فلما كنا بفينا ذهبنا بعدها

الى براج فباريس واستغرقت رحلتنا هـذه من ٣٠ أغسطس الى ٢ نوفبر سنة ١٩٢٧ كانت حالنا النفسية أثناءها فى طمأنينة سمحت لى بأن أسجل كثيراً من الملاحظات فى شؤون شتى وقفت عليها . والحق أشهد أن سفرائنا وقناصلنا ورجال السلكين السياسى والقنصلى كانوا جميعا ذوى عون صادق فيما وقفت عليه من ملاحظات سواء بما أبدوه لى من معلومات كنت أسأل عنها ، أو بما مكنوا لى من الاتصال بأهل البلاد التى مررت بها من لم أكن لأتصل بهم لولا حسن وساطة رجالنا المحترمين الذين شعرت لهم فى نفسى بتقدير واعتراف بالجميل لن تنسيه الأيام

وهذه الرحلة وما وقفت عليه خلالها من ملاحظات هى موضوع الكتاب الثانى .

الكتاب الثانى

---

٣٠ اغسطس — ٢ نوفمبر سنة ١٩٢٧

بين مصر والاستانة

الاكروبولس ، الدردنيل ، ظاهر الاستانة

سارت بنا الباخرة رومانيا عصر الثلاثاء ٣٠ أغسطس سنة ١٩٢٧ من الاسكندرية قاصدة الاستانة . وبرغم ما بشر به صحو الجو من سكينة فى البحر فما كادت الباخرة تتخطى باب البوغاز وتشق طريقها خلال الموج حتى تدافع الموج من جانبيها قوياً آخذاً بعضه برقاب بعض تدفعه رومانيا ويدفعها فيعلو بها ويهبط ويميل بها يمنة ويسرة حتى اضطر المسافرون جميعاً الى الهبوط الى مضاجعهم ، ومنهم من وجد فى النوم دواء من دوار البحر المضطرب ، ومنهم من غلب الدوار نومه فصار يتقلب على جنبيه ثم لا يجد من دواره مقيلا الا أن تخلو جوفه من كل ما فيه .

واصبح الاربعاء فاذا البحر هادئ واذا النسيم بليل عذب واذا الموج قد اختفى تحت سطح الماء أو انحدر الى القاع فى انتظار اغارة أخرى . لكن السفر ما زال أكثرهم فى مضجعه خيفة أن يصيبه اليوم ما أصابه بالامس . وعبثاً تحاول اقناع من استطعت منهم أن الهواء فوق سطح الباخرة رقيق منعش يذهب عما قد لا يزال من بقية الدوار . وكيف تقنعهم وهم أناس فى فطرتهم المحافظة والخوف والتردد ، لا يقدمون الا كرهاً أو الا أن يدعوهم ظفر الى ظفر مثله ومغنم الى مغنم جديد . فاذا ردت الحياة ظفرهم هزيمة حسبوا الهزيمة أمراً عادياً وقنعوا من الغنيمة بالاياب . فاذا بدت لهم من جديد بشائر مغنم اندفعوا اليه كاشرة أنيابهم

حاسرين عن أذرعهم بادية مخالبهم حمراً عيونهم ليس ينقصهم من شهوات الحيوان وسلائقه الا خوف الارتكاس فى هزيمة جديدة

واطمأن الكل الى السلامة بعد ما تنصف النهار ودعا الداعى الى طعام الغداء . هنالك رأيت كثيرين يتسللون لواذاً من مضاجعهم الى غرفة الطعام . ولما رأوا غيرهم يأكلون أكلوا . ولما اطمأنوا الى السلامة وأمنوا الدوار ابتسموا واستأسدوا .

وتقضى مساء الاربعاء فى سمر ألذ سمر وفى سماع الالحان الممتعة ينقلها الراديو الى المسافرين من الاستانة تارة ومن فينا طوراً ومن باريس ثالثة. وكذلك سخر لنا العلم كل مافى العالم وكنا من قبل نضيق بعلم أضيق بقاع العالم ذرعاً .

وتكشف نهار الخميس عن اليابسة فما لبثت أن بدت لذهنى يونان القديمة وما خلفت للعالم من شعر وأدب ومن علم وفضل ما يزال العالم حتى اليوم ينهل منها أعذب ورد وسيظل الانسان يجد فيها من بدائع آثار الخيال والذهن خير متاع وخير غذاء .

وأقلنا زورق من الباخرة الى مرفأ بيريه ثم أقلنا ترام الى أثينة فى نحو ربع الساعة وصحبنا دليل طاف واياناً فى أوتوبيل أنحاء العاصمة القديمة الحديثة . فلقد كانت أثينا عدة عصور عاصمة الدنيا ومستقر حضارة العالم ومهبط وحى شعره وحضارته . أما اليوم فهى عاصمة اليونان التى كانت مغلوبة على أمرها خاضعة لحكم غيرها من أقل من ثلث قرن من الزمان ، والتى ما تزال ميداناً للاضطراب وللثورة وللفورات البركانية الانسانية التى تنبئ عن عدم الاستقرار الى حال يطمئن لها الانسان .

والحق ان مظاهر اثينا الحديثة ليست مما يلفت النظر ولا مما يقف عنده الفكر . كل ما فيها من مظاهر الحضارة مجلوب اليها عن غيرها تظهر فيه المحاكاة ولا يبدو فيه شئ من الابداع أو الذاتية. فهذا البرلمان وهذه المكتبة القومية والى جانبها الاكاديمية والكلية لا يأخذ بالنظر من أمرها الا أنها تشرف على ميدان هو أفسح ميادين أثينا وأجلها . فأما الارينا — أو كما تسمى فى اليونانية «الاستاديوم» — والتى كانت مشهد الالعاب الاولمبية فقد استحدثت من ثلاثين سنة ماضية فطمست على آثار الملعب القديم الذى يثير فى الذهن عصوراً كان فيها الجمال العريان خيراً من الجمال الكاسى كما أن الحقيقة العارية خير من الحقيقة الكاسية . وهذه العمائر ليست بعد من العظمة فى مثل عظمة أشباهها فى باريس ولندن والمدائن الكبرى مما أراد اليونان محاكاته . فاذا أنت نظرت بعد ذلك الى طرق المدينة ورصفها والى المصارف والمتاجر عن جانبيها بدأت تدرك السبب الذى من أجله ينظر أهل أوروبا الغربية الى أوروبا الشرقية والى البلقان بنوع خاص نظرهم الى شعوب الشرق ممن يخضعون لحضارتهم ولا يجدون سبيلا الى السعادة والقوة والعظمة الا بمحاكاتهم .

هذه الصورة التى تبعث بها النظرة الاولى لاثينا الى الذهن لا تأخذ به طويلا . فانك ما تكاد ترتفع ببصرك فوق هذه المنشآت الحديثة حتى تأخذ به آثار عالية تعيد الى ذهنك صورة الاقصر ومعبد آمون وبعض ما انتشر وراء ذلك فى صحراء الدر من آثار مصرية . ثم انك ما تكاد تسأل الدليل عنها حتى تنسى

أثينا الحديثة وحتى تنسى البرلمان والمكتبة والاستاديوم وحتى تنسى الحاضر وما فيه وحتى يتعلق بصرك وسمعك وفكرك وكل حس فيك وخيال بهذا الاسم الذى ينطق به الدليل : الاكروبولس

فلنذهب اذن الى الاكروبولس : الى المدينة العالية . وليدر بنا الاوتوبيل متسلقاً خلال الآثار ليقف عند أسفل جدارها . ولنتسلق على القدم سفح هذا التل المشرف على أثينا وعلى مياه البحر وأمواجه . ولنرتق درج هذا السلم المؤدى الى معبد النصر المقصوص الجناح . ولنقف على مقربة من هذا المعبد نرسل الطرف الى حيث حاول الفرس من أكثر من ألفى سنة اقتحام أثينا فاحترقت سفنهم وتم للاثينيين النصر من غير كبير عناء فأقاموا لنصرهم هذا المعبد ولم يجعلوا له أجنحة يطير بها فى عالم الخيال ، خيال الفروسية والاقدام . ثم لنرتق من جديد مع دليلنا اليونانى المحدث عن القدماء كأنه أحدهم . ولنقف واياه معجبين بهيكل تيزيه مستقر الحكمة والعلم وبالعمد البسيطة النقش البديعة تحيط بالهيكل وقد نقشت الاحجار التى تصل بينها من أعلى نقشاً يونانياً قديماً هو الجمال كله . ولندر مع هذا البناء ليقف بنا الدليل مشيراً الى مكان هناك فى انحدار التلال حيث شرب سقراط السم تقديساً للحرية والعلم . والى الناحية الاخرى من هذا القدس الذى شهد موت الحكيم اتحى الحرية آثار ملعب كان اليونانيون الاقدمون يتلهون فيه بمشهد الخيل ولعبها . والى الناحية الاخرى من هيكل الحكمة هيكل ثان اعتمد سقفه على ثلاث نسوة من بنات «كاريات» اللاتى عرفن بالجمال أيام كان الجمال معبوداً وكانت له آلهة

تقدم لها القرابين اعترافاً بقداسته . وهاتيك النسوة الثلاث اجتمع لهن من الرشاقة والقوة ما يلهم النفس معنى من الجمال غير ما ألفت من رقة تكاد لنحولها تطير ، ومن دمامة تكاد لجسامتها تكثف . رشاقة تجعل القوة ليناً وميساً ، وقوة تجعل الرشاقة ممتولة ذات قوام وهمة . ومن بين معبد الحكمة وهيكل الكارياتيد انحدرنا الى متحف اجتمع فيه من آثار الفن القديم ما يلهمك صورة من تطور الفن على ما كنا نفهمه من اكتشاف آثار توت عنخ امون في طيبة . فهذه التماثيل المصرية القديمة جالسة وأيديها على أفخاذها أو واقفة وأيديها الى جانبيها دليل السكينة والطمأنينة وهي عارية أو تكاد . وهذه التماثيل المصرية القديمة هي ما كان يفهم السكون أنه بدء عمل التماثيل في حياة الوجود . ومن هذا السكون المصري تطور النحت الى الحركة في مصر واليونان . لكن الحركة في مصر كانت بسيطة كل البساطة لا تزيد على يد ممدودة أو ساق متقدمة الى الحركة . أما التماثيل اليونانية فبدأت ترتدي من اللباس ما أزال عريها وبدأت ملامحها تدل — من غير حاجة الى تمثيلها في صورة الطير أو الوحش — على ما يدور بخاطر أصحابها من أفكار أو عواطف أو شهوات . وكان الدليل ظريفاً حين كان يشير الى بعض التماثيل الدقيقة الصنع قائلا : وهذا تمثال من خير ما احتفظ به التاريخ لا ينقصه الا أن يتكلم . وربما كان غير مبالغ في تقديره هذا . فمن تلك التماثيل ما أبدع فيه صانعه حتى لتخاله وقد انقضت عليه مئات السنين وكأنه يعبر عن فكرة تمر بخاطر ابن اليوم أو شهوة من شهواته أو عاطفة من عواطفه ، وكأنه ينبئنا بأن كين ما في

النفس الانسانية خالد لا يغيره الزمان وان تغيرت مظاهره بتغير الازمان .

وانتقلنا فى المتحف من غرف تطور الفن الى غرف تطور الفكرة الانسانية فى الوجود وكاله . ووقفنا أمام تمثال يشير فيه كبير الالهة هرقل الى رجل يعبده موجها نظره الى صورة الكمال على أنها اسمى صفات الالوهية داعيا اياه ليعمل كى يصل الى الكمال ليرقى الى مصاف الآلهة . قال الدليل الشيخ يقص ماحفظ عن ظهر قلبه : وكذلك ترى أن معنى الالوهية فى الاساطير اليونانية كان معنى انسانيا صرفا هو الكمال ، فمن بلغ الكمال بلغ مراتب الالهة . ولم يتطور هـذا المعنى ليصبح صوفيا الا بعد أن تدهورت الفكرة اليونانية القديمة السامية . وهـذا هو سر تعدد الالهة فى العصور القديمة . فكل مظهر من مظاهر الكمال صفة من صفات الالوهية ، وكل من سما الى هذا الكمال شارك الالهة فى صفاتهم فكان منهم .

وخرجنا من المتحف وجعلت أدور فى أنحاء أطلال المدينة العالية « الاكروبولس » وأجيل الطرف فى سطوح منازل المدينة الحالية وهى ساكنة تحت الشمس كأنها اطلال هى الاخرى أو كأنها توحى الى النفس بيوم ستصبح فيه اطلالا وستذر فيه لالوف سنين مقبلة آثارا كآثار المدينة القديمة .

واستندت الى بقية جدار أشهد من عنده كثيرا من هـذه الآثار وذكرت ماخلف المصريون فى طيبة وفى غير طيبة ثم ماكان من غزو الرومان لاثينا ومصر ثم ماعقب ذلك من غير التاريخ حتى يومنا الحاضر فاذا أمامى لجة من الزمن غرق فيها كل ما أرى وكل

ما أذكر واذا بي أستعيد مارواه التاريخ عن قدماء المصريين الذين انتقلوا الى اليونان حين كان أهلها مايزالون قبائل غير مستقرة والذين استقروا فهدوا أهل اليونان الى حياة الاستقرار ووجهوهم بما لديهم من فن وعلم الى مابرع اليونان من بعد فيه وما تركوا للعالم من تراث مجيد اهتدى العالم به حتى عصوره الاخيرة وحتى فتح العلم أمامه أبوابا جديدة لم تعرف في الازمان القديمة على نحو مانعرفها نحن وعلى نحو قد يعرفه ابناؤنا من بعد ولا نعرفه نحن .

هذه اذن هي الاكروبولس . هذه الاطلال البالية اليوم والتى تطل من رفعتها على أثينا الجديدة كانت في الماضي مستقر حضارة الماضي ومجده . وكان أهل هذه الحضارة يحكمون العالم ويتحكمون فيه لانهم أصحاب الحضارة الغالبة . ولاهل هذه الاكروبولس كان يدين أهل العصر في الامم الاخرى بالطاعة كما يدين أهل هذا العصر بالطاعة لباريس ولندن . وكان أهل هذه الاكروبولس يسومون لاريب من ألوان العسف مايسوم أهل أوربا الغربية الناس اليوم . وكان أولئك لاريب يقولون كما يقول هؤلاء أن الاقدار قد ألقت على عاتقهم عبء تمدين العالم وتحضير أهله . وها نحن أولاء اليوم قد نسينا ماصنع الاقدمون كله خلا التراث الخالد الذي خلفوه للانسانية تنعم به ويرتع خيالها وذهنها فيه . ولعل أبناءنا اذا أتيح لهم يوما أن يكونوا أصحاب الحضارة الغالبة ويلقى القدر على عاتقهم عبء تمدين العالم وتحضير أهله ينسون ما صنع بنا أهل الغرب ولا يذكرون لهم الا هذا العلم العظيم الذي فتح لنا ولابنائنا من الابواب ما لم يكن يحلم به أهل اليونان القديمة ولا أهل مصر القديمة .

أولا يكون خيراً لو أن أهل المدنيات الغالبة كانوا أقل صلفا ولم يغالوا فى ادعاء تحضير العالم كله، وجعلوا التعاون والتضامن بديلين من العسف والتحكم، وهدوا الكل الى سر الحضارة لتصل الانسانية الى أبعد حدود الكمال فى أقرب زمن ممكن فتبلغ من صفات الالهة مايجعلها معبودا ليس يغلو ان اله نفسه وعبد كماله ؟ أم ان التحكم والعسف سلائق انسانية لن يتغلب عليها متغلب بالغة ما بلغت حكمته، واذن فستظل الانسانية فى بعدها عن الكمال تخلع صفاته على كل ماتريد أن يكون موضع ايمانها وعبادتها ؟

... طال بي الوقوف معتمداً الى بقية الجدار حتى جاء الدليل ينبهنى أن الوقت قصير وأنا مازال مضطرين الى زيارة بعض أنحاء المدينة والطواف فى متحف أثينـا القومى . فانحدرت الى حيث الاوتوموبيل وسرت ومن معى فى طرق المدينة الحديثة وزرنا المتحف وما اجتمع فيه من آثار عثر عليها المنقبون. ورغم مابين تلك الآثار من بدائع نادرة فقد ظلت الاكروبولس آخذة بخيالى وذهنى فلم يستبقيا مما شهدت عيناى فى المتحف كثيراً .

وعدنا الى بيريه فالباخرة رومانيا التى أبحرت بنا فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر قاصدة الاستانة، فلما كنا فى أخريات النهار تحدث الى ربانها عما يتوقع للجو وتقلبه وللبحر وموجه طمأننا ثم أشار علينا بأن نبكر فى اليقظة صباح الجمعة لنشهد الباخرة ساعة دخولها الدردنيل ومرورها بين هذه الجبال التى شهدت من أهوال الحرب الكبرى . قال : فربما لاتتاح لكم فرصة المرور فى هذا المضيق مرة أخرى ، وعلى كل حال فجدير بمن مر بالدردنيل

للمرة الأولى أن يشهده فيذكر ماشهدت جباله القاحلة القاصية .

وفى الساعة الخامسة من صباح الجمعة كنا أيقاظا فارتدينا ملابسنا وزدنا عليها معاطفنا نتقى بها برد البحر فى ساعة البكور وخرجنا الى سطح الباخرة ننتظر مشرق الشمس ومرور الباخرة من خلال الدردنيل . وكنا نحسب من تدفعهم الطلعة الى مثل تبكيرنا كثيرون فاذا الكل فى مضاجعهم الا أشخاصاً معدودين من بينهم سيدة مسافرة وحدها وجدت فى حماية بعض كبار البحارة ما أتاح لها الوقوف عند مقدمة الباخرة والاحتماء من البرد بما يحتمى به الربان وأعوانه .

وتبدى الدردنيل فى هدأة الصباح وسكونه وتبدت الشمس مشرقة من وراء جباله . وخطرت الباخرة بين هذه القمم الجرداء والناس من فوقها فى طمأنينة وسكون . ولو أنا كنا فى مثل هذا الوقت من عشر سنوات ماضية حين كان الدردنيل بقعة جهنمية من ميادين الحرب الكبرى لما خطر لمسافر أن يقترب من الدردنيل الا كارهاً باسم متطوع أو جندياً يريد لامته الظفر والاستعلاء .

فأما اليوم فها نحن نخطو خلاله آمنين ونلقى عليه نظرة اعجاب بالشمس البازغة والمياه المطمئنة وبهذه الجبال الجرداء عن الجانبين لا تميز فيها من آثار الانسان شيئاً حتى يقع نظرك على أثر على الشاطئ الاوروبى هو النصب الذى أقامه الحلفاء تذكاراً لمن استشهد منهم فى هذه البقعة دفاعاً عن مبادئ الحلفاء التى كانت أيام الحرب الحرية وحقوق الشعوب فى تقرير مصيرها والقضاء على المعاهدات السرية وعلى استعباد الشعوب، والتى انقلبت بعد ظفر

الخلفاء عبثاً بمصير الشعوب وبحريتها . وحول هـذا التمثال مقابر أولئك الالوف الذين استشهدوا وأكثرهم مخدوع بما زين الساسة من الالفاظ المعسولة وأكثرهم يحسب أنه يستشهد فى سبيل الحق والحرية .

ومررنا بشناق ومن بعدها بجاليبولى والجبال من الجانبين هى الجبال الجرداء . ثم تخطينا الدردنيل الى مرمرة فانفسحت عن جانبى السفين أرجاؤه وعدنا يحيط بنا الماء كل جانب . ثم ما هى الا سويعات حتى تبـدى البسفور وحتى بدت تباشـير الاستانة وطلائعها .

الاستانة — القسطنطينية — بل ، أستغفر الله ، استامبول ، فذلك هو الاسم الذى قصره الاتراك على هذه المدينة القديمة بعد نفرهم الاخير وبعد نقلهم عاصمة ملكهم الى أنقـرة . استامبول وما حولها هى مدخل البسفور . هذا البوغاز البديع الجمال الفـذ من بين ما أبدعت الطبيعة من أمثاله . الفذ بموقعه ، وبتاريخه ، وبما شهد من تطوراته ، وبالحركة السياسية والاجتماعية التى تدور اليوم حوله . والاستانة مدخل لا يقل عن البوغاز نفسه جمالا ولا عظمة فى الموقع الجغرافى وفى التاريخ وفى التطور السياسى .

تخطت الباخرة مرمرة الى البسـفور والى الاستانة على مهـل كأنما تريد أن تمتع ركابها بكل هـذا الجمـال أو كأنمـا بهرت هى الاخرى رغم مرورها به عشرات المرات . ووقفنا نحن نحدق بظاهر المدينـة القديمة العظيمة التى لم تصبح بعـد عاصمة والتى شهدت حكم الرومان وبيزانطية وعظمة النصرانية ، ثم اقتحمها محمد الفاتح

فأقر فيها حكم المسلمين وجعلها خلفاؤه من بنى عثمان مستقر خلافة المسلمين حتى أجلاهم الاتراك عنها وثلوا عرشهم منها وتركوها اليوم مدينة سقط عنها تاج الخلافة واسم العاصمة ، ثم بقى لها برغم ذلك كله جمال الطبيعة وعظمة التاريخ .

وقفنا نجتلى عروس البسفور تتدرج مبانيها صاعدة من مياهه مرتفعة فوق التلال السبعة التى بناها عليها قسطنطين كى تضارع المدينة الخالدة والتلال السبعة التى بنيت عليها لتكون كما كانت روما عاصمة الدنيا قوة وحضارة . وتتدرج هذه المبانى لتندلع من خلال قباب مساجدها المآذن ذاهبة فى السماء ينادى من فوقها للصلاة كلما آن موعد الصلاة . ومن حول هذه المساجدهابطة نحو البسفور تبدو سقوف وتبدو أبواب هى منازل أهل المدينة ، وتبدو ، خلا السقوف وخلا الابواب ، قصور تشرف كلها على البسفور تلاطم جدر بعضها مياه البوغاز البديع ويرتفع بعضها فوق الجبال كأنه منارة تهدى السفن أو حصن يحمى المدينة من عدوان هذه السفن .

وكان أقرب بناء الينا قصرضلمه بغشه، أم لعله لم يكن أقربها وانما كان أشدها لفتا للنظر والذهن فبدا لذلك منها قريبا. والحق أنه أنسانا ماسواه فلم نعد نحدق بغيره ولا نوجه منظاراً مقربا الا الى بديع صنعه ودقة عمارته؛ فى هذه الاقواس عقدت فوق نوافذه كلها من الدقة حتى لكأنها قطعة من الدنتلا صنعتها لنفسها سيدة صنع محبة لفنها لاتطيق ان ترى فيه الا كمالا . ومن هذه الدقة البالغة فى التفاصيل تجتمع عظمة قل ان تضارعها عظمة . عظمة ليست فى

مجرد تجاوب أركان القصر بعضها مع بعض ، فمنه أقسام لا يتجاوب بعضها مع سائره ، ولكنها عظمة الاتساق فى فن جميل لا نبو فى قطعة من قطعه ولا نشاز فى نغمة من أنغامه . يدعو جمال كل جزء منه جمال سائره كأنها أنغام تزداد عذوبة وحلاوة كلما قلت تشابها وان توافقت جوابا . مدخل القصر كأنه قوس النصر زركشت جوانبه بنقوش عربية وأحاطت به عمد عربية كذلك وعقدت فوقه شواهد وأفاريز عربيـة هى الأخرى دقيقة عظيمة . وعن جانبى المدخل جناحان مما فوقها عقد القوس كأنه رأس النسر المنتصر . وامتد الجناحان فى دقة عمارة وزخرف بينه وبين زخرف المدخل اتفاق وخلاف وتجاذب وتجاوب . وبعد أحد الجناحين مقاصير ذات أعمدة وقباب هى للشكل خير كمال . وهـذا القصر ومدخله واجنحته ومقاصيره وقبابه هو مأخذ ذهن الداخل الى الاستانة فوق موج البسفور حتى ليلنسيه مآذن المساجد وتدرج العمائر فوق التلال وينسيه قصوراً أخرى لا تقل عن ضله بخشه جمالا ولكنها ليست مثله على مياه البسفور ظهوراً وجلالا

واقتربت الباخرة من مرساها واختفى القصر رويداً رويداً وصرنا أمام المينا وأمام الجمرك وأنستنا مشاغل النزول الى المدينـة ما بدا منها على البسـفور وما تدرج فوقه وما تحدث به المصريون ممن معنا عن قصر الوالدة أم المحسنين فى ببك وعن قصر الخديوى فى شـبوكلى . ووقفنا نحدق من فوق السطح بهؤلاء المستقبلين الذين حضروا على رصيف المينا ، وبهؤلاء الحمالين الذين تدافعوا نحو السفين . قالت سيدة مصرية من بين السيدات المسافرات :

لم يبق الآن فى الاستانة طربوش : يرحم الله الاسلام ! وضحك من الاشارة سيدات ورجال. وما أدرى أن كان فى ضحك السيدات شيء من الاشفاق على زوال الشارة الحمراء التى كان يتفق فيها الطربوش مع العلم التركى ويثير بها ذكرى الاسلام والخلافة الماضية ؛ فاما ضحك الرجال فاذكرنى برواية قصها على يوما أحد أصحابنا فى مصر ، ولست كفيلا بصحتها : ذلك أن شيخا من شيوخ المسلمين ذهب يوما فى أنقرة لزيارة الغازى مصطفى كمال . وفيما هم يتحدثون مد الغازى يده فرفع عمامة الشيخ عن رأسه ووضع مكانها قبعته هو ، ورجا الشيخ ان يظل كذلك الى أن ينتهى المجلس . وفى شيخ تركيا كما فى شيوخ الدين جميعا فى مختلف بقاع الارض لين لذوى السلطان وأولى الأمر . فامتثل الشيخ الى أمر الغازى وظل متقبعاً حتى اذا انتهى المجلس استأذن ولبس من جديد عمامته . هنالك سأله الغازى : أرأيت ديننا نقص شيئا بلبسك القبعة ؟ قال الشيخ لا ، فالدين فى القلوب والرؤوس لافى الجبب والعمائم .

وجاء مراقبو جوازات السفر فكانوا أول صلة بيننا وبين الحياة التركية . وعهدى بمراقبة الجوازات فى فرنسا وانكلترا وسويسرا وايطاليا غير بعيد ، ولكن ما أكبر الفرق . يكفى مراقب الجوازات فى هذه البلاد أن يطلع على تأشير قنصل دولته باباحة دخولك ليقنع منك بمعلومات طفيفة تختلف فى مختلف الدول ولكنها لاتزيد عن السؤال عن سبب دخولك البلاد وعن المدة التى تنوى أن تقيم فيها . أما عمال استامبول فامامهم دفاتر قيدت فيها الاسماء وأمام كل اسم مالايقل عن عشرين خانة تستوفى . وأشهد

لقد تضايقت من هـذه الاطالة . لكنى أشهد كذلك أنها كانت بالنسبة لنا على غير طائل . فمنذ دخلنا الاستانة لم يسألنا أحد أمراً ولم نلق الا كل تحية واكرام . ولعل مايحيط بالحياة السياسية التركية فى الوقت الحاضر وما عاناه الاتراك أثناء حروبهم من محن هو الذى يدعوهم الى كل هذا الاحتياط والتدقيق

وأقلتنا الاوتوموبيلات الى الفندق فى طرق صاعدة هابطة أذكرتنا مارسيليا والبلاد الجبلية وأن لم تذكرنا وصف مارسيليا بل أذكرتنا طرق الاسكندرية المؤدية الى الميناء باحجارها التى تضطرب فوقها العربات اضطرابا وتحدث فوقها من العجيج والضجيج مايصم الآذان ، وأنت مع ذلك مضطر ان لم تجد أوتوموبيلا الى مناساة ذلك كله لانك لاتستطيع أن تسير على أقدامك فوق هذه الاحجار التى تحفى الاقدام من خطوات معدودة .

ونزلنا فندق بيرابالاس فى غرف مطلة على قرن الذهب فتبدى لنا ، وأن كنا فى قلب الاستانة ، ظاهر من الاستانة جديد . تبدت مساجد تندلع مآذنها فى السماء ، وقصور تأخذ زينتها بالعيون . والى جانب المساجد والقصور منازل متواضعة يقطنها الفقراء ومتوسطو الحال . وتبدى من خلال ذلك كله أتراك اليوم فى قبعاتهم وسراويلهم الاوربية ، فكان لنا من هذا الظاهر الذى كشفته لنا غرفتنا صورة صحيحة لابداع الطبيعة فى وضع الاستانة ، ولهذا التاريخ القديم الذى تمتاز به على كثير من المدائن ، وللتطور العظيم الذى يهز اليوم احشاءها والذى لم يكن منه مفر لحياة تركيا الاسلامية وان كره كثير من المسلمين .

على أن مايدل عليه ظاهر الاستانة من موقع وتاريخ ونهضة ليس الا صورة فيها كثير من الخداع يتجلى اذا انت تغلغلت في حياة الاستانة أو بحثت في مختلف نواحيها . ولعل الاكثيرين يعرفون عن موقعها الطبيعي وعن تاريخها كثيراً . لكن النهضة الجديدة وعلاقتها بهذا التاريخ وبهذا الموقع ورجاءها في مستقبل قريب يحتاج الى شيء من حدس الباحث حدساً فلا يبعد كثيراً عن الحق ما اعتمد على الملاحظة الصادقة .

الاستانه

موقع ، وتاريخ ، ونهضة

أذكر يوما من صيف سنة ١٩١٠ وكنت بمونتريه من أعمال سويسرا اذ أخذ بنظرى مغرب شمس بديع على بحيرة ليمان الساحرة الجمال . وكنت يومئذ أسيح وحدى ولم يكن لى بد من أن أفضى باعجابى الى أحد . وكان عامل الاسنسير (المصعد) أول من لقيت فى هبوطى من غرفتى الى قاعة الطعام فسألته ان كان رأى الشمس وغروبها، ثم لاحظت له : كيف تكون بلاد بها هـذه المناظر ولا يكون ابناؤها جميعا شعراء . وابتسم الفتى قائلا : أن فى سويسرا شعراء . ولعله كان يستطيع أن يقول لى : ولم لايكون الناس جميعا علماء والعلم فى متناولهم جميعاً والجامعات مفتوحة لهم أبوابها . انما الشعر والعلم والحكمة هبات تخلعها الطبيعة على مختاريها . والذى يفيض احساسه بمنظر مغرب الشمس البديع على بحيرة ليمان وبين جبال الالب فيتغنى بهذا المعنى صادقا فى التعبير عن شعوره لايكون الا أحد الممتازين من أصحاب المواهب .

ولو أنى اليوم كنت فى مثل ما كنت فيه سنة ١٩١٠ من تقدير الانسانية ومواهبها لالقيت على أهل الاستانة السؤال الذى القيته على السويسرى عامل الاسنسير . فكيف تكون بلاد بها هـذا البسفور والجبال المحيطة به والتاريخ الذى يتوجه ولا يكون ابناؤها شعراء جميعا . بل كيف يشدو بالبسفور وجباله وأقماره وتاريخه

أجانب أمثال بيير لوتى وكلود فاريرأ كثر مما يشدوا بها كل تركى . ولكنى اليوم أقل تقديرا لطاقة الانسانية منى بدء الصبا . ولذلك كنت أكثر تفكيرا فى العوامل التى أدت بالاتراك الى أن لايكون من بينهم مئات الشعراء الذين يتغنون بهذا الجمال الساحر بعض ماتغنى العرب بالعيس والبيداء والخيام والاطلال . ولست أدرى أن كنت قد اهتديت الى هذا السبب الذى أحسبه متصلا بعوامل شتى. بعضها براعة جمال البسفور براعة يقصر عنها الوصف، وبعضها تأثر الاتراك بالحياة الدينية من طريق قيامهم بأعباء الخلافة تأثرا أنساهم ماقى هذا العالم الفانى من جمال ، وبعضها طبع الاتراك الحربى، وبعضهاما أحيط بالاتراك من عوامل قاسية أقامتها مقتضيات السياسة التى كانت تنظر الى هـذه الدولة الاسلامية نظرة عدوان وعسف . وبعضها ، ولعله أهمها ، قلة تقدير الرجال لهذا الجمال ، لان المرأة لم تكن تتوجه بتاج الحرية السافرة . وكل جمال لاتتوجه المرأة يقل قدر الرجل له . فالمرأة كمال الرجل ومنبع بقاء الانسان وخلوده . وهل الجمال الا كمال ماوراه الانسان من مظاهر الوجود الباقية بقاء الخلد أو المتجددة تجددا يجعلها باقية . والآن وقد اسفرت المرأة التركية سفور حرية لاسفور ملبس، وقامت بالشعب التركى نهضة مدنية الى جانب سلائقه الحربية وأصبح يأخـذ من الدنيا بنصيب كأنه يعيش أبدا فقد انفسح الامل فى أن يقوم من بين الاتراك ومن بين أهل عروس البسفور أولئك الشعراء الذين يلهمهم خلد الانسانية المتجسد فى المرأة اسمى معانى الشعر فيسبغ خيالهم على هذه البقعة المباركة من بين مابارکت الطبيعة بجمالها

وجلالها ماتثيره هي في نفوسهم الحساسة من صور الجمال والجلال

والحق ان البسفور والاستانة بعض هذه الفلذات من الجنة فر بها آدم وحواء يوم أخرجهما منها ربهما فنثراها في بقاع الارض نثراً . أليس أجمل ما في الحياة دوام تجددها الا أن تستقر الى خلد من السكينة يغنيها عن التجدد ويسمو بها من درجات الحياة الى مراتب الآلهة . والبسفور والاستانة خلعت عليهما الطبيعة من دوام التجدد ما يمسك النظر عندهما أياماً وأياماً فلا يرى الاجديداً. أنظر الى هذه الجبال عن جانبي المضيق تتجدد صورها وألوانها كل لحظة من النهار بتغير الشمس عنها وبالسحب تحجبها ثم تهتك حجبها وبالمطر يهمي ثم يقلع وبالرياح تهز أشجارها وحشائشها أو تذرها مطمئنة ساكنة . وانظر الى هذه الصفحة صفحة مياه البوغاز راكدة مرة متموجة أخرى متلاطمة ثالثة عابثة بالضوء وأشعته عبثها بالقتام ودكنته . وانظر الى هذا القمر يحبو سابحاً في لجة السماء كما تحبو السفن تحته في لجة الماء وكلاهما قرير عين بصاحبه . وانظر الى ما خلف التاريخ من قصور في عظمتها تجهم وفي ابتسامتها رهبة ، ومن مساجد ترتفع فوق مآذنها الدعوة الى الصلاة ينادى اليها اليوم متثيع لا تحجب القبعة ما بينه وبين الله أكثر مما كانت تحجب العمامة أيام كانت تركيا الرجل المريض تتنازع دول أوروبا على اقتسام تركته . ثم انظر الى ما أحدثت مدنية اليوم . انظر الى سيدات تركيا السافرات المتوجات جمال الفن الرفيعة والموج الزاخر كما يتوجن جمال ما في السماء والماء . انظر اليهن ما يزلن في اقدامهن الى الحرية على استحياء من هذه الحرية

التي كانت بالامس تحسب عليهن ذنباً وعاراً ، والتي هي اليوم زينتهن وزينة تركيا رجالا ونساء شعباً وقادة .

انظر الى هـذا كله والى دوام تجـدد صور الجمال فيه يبهرك فيجل عن وصفك اياه . ما بالك اذا أنت أمعنت في ركوبك البسفور صوب البحر الاسود فرأيت نفسك تحبو بك السفين من جمال الى براعة الى بهر الى ذهول لا يردعليك روعك بعدها الا موج هذا البحر الاسود المترامى العباب الداكن السحاب بما أطلق على مياهه التي تعكس صورة سمائه ذلك الاسم الاسود .

على أنك واجد داخل الاستانة وخلال التلال السبعة التي بنيت عليها وديانا وأخاديد لا تقل عن البسفور وجباله شعراً . ذهبت أول ليلة نزلت فيها الاستانة مع أصحاب يقيم بعضهم بعروس البسفور الى ماهى في حدائق « تكسيم » فرأيت فيه ما ترى في القاهرة وفي الاسكندرية من رقص وموسيقى تقوم بها حثالات من طريدى الفن الاوروبيين الذين لم يجدوا في بلادهم مرتزقاً فهبطوا الى حيث يتلقف الناس مظاهر مدنية الغرب الغالبة بحذافيرها فلا تصل أيديهم أغلب الامر منها الا لما يلفظه أهلها احتقاراً واشمئزازاً ، فطلبت الى صديق لى يقيم بتركيا من سنوات أن نذهب في الليلة التالية لنشهد منظراً تركياً بحتاً ، قال صاحبي : اذن فلنشهد منظراً تركياً قديماً . فتركيا الحديثة لما تجدد لهوها المعيد لنشاط الحياة . وذهبنا الى « شفلك بارك » وكان الاتوبيل في طريقنا اليه يسير في طرق ترتفع ثم ترتفع ثم ترتفع حتى اذا كنا عنده التوى الطريق منحدراً ثم وقفت العربة عند باب دخلنا منه

في "التيارك" مقابل أجر لا يزيد على خمس ملليمات ، ونظرت فاذا وحدة مضيئة تنبعث منها أشعة الكهرباء مختلفة الالوان كما تنبعث أنغام موسيقى تركية رقيقة هادئة . وانحدرنا ثم انحدرنا في طرق عتيقة الانحدار والانوار تقترب منا رويداً رويداً أثناء انحدارنا ثم اذا بركة مستديرة من الماء صفت على جوانبها مقاعد جلس الى بعضها رجال والى بعضها سيدات والى البعض سيدات ورجال معاً وكل أولئك من صميم الاتراك . ودرنا حول الماء حتى اقتربنا من مكان الموسيقى ومقعد المغنى وتخيرنا مكاناً جلسنا اليه . وأجلت الطرف فيما حولى من مرتفع ومنخفض ومن بركة مياه ومن آلات طرب ومن سيدات في جمال قيان الرشيد ورقتهن ثم خلتنا في احدى ليالى الخليفة على ما وصفها « ألف ليلة وليلة » لا ينقصها الا الستور من ورائها الجوارى والا السقاة الحور والغلمان كأنهم اللؤلؤ والمرجان ، لا أولئك الشحوط الخفراء المرتدون ثياب أهل الدنيا من الجرسونات .

وشدا المغنى على أنغام الموسيقى وذكر صاحبنا أنه ينشد أهازيج في الحب . وكان غناؤه في الحب حقاً . وكان حباً شرقياً فيه استسلام حلو وعبادة وخضوع . حب لا يعرف الثورة ولا يعرف الانتحار وانما يعرف الضراعة والرجاء ويعرف الشجى والدموع . حب يترقق صاحبه في النداء باسم محبوبته ويرجو الليل أن يحمل على أجنحة الستر اليها رسالته ، فاذا استبطأ الرسالة وحسب أن نداءه ذهب سدى لم يقتحم ستور الليل ولم يهتك حجبه بل ازداد رفقاً فوصل به الرفق الى البكاء ثم اذا خيط ضعيف من الامل يبدو في

سواد الدجنة فاذا البكاء انقلب رجاء باسما في غير ضحك، ثم يزداد الامل فيزداد الرجاء معه، ويضعف الامل فتغرورق العين من جديد . وبين رجاء يبسم وبكاء لذهاب الرجاء انقضى أكثر من دور من أدوار الغناء وانقضى الوقت وقمنا تاركين وراءنا في شغلك بارك قلذة أخرى من سحر الجمال .

***

ماذا فعل الانسان بهذا الموقع الطبيعي البديع من يوم استقر فيه واستعمره ؟ هل حبب اليه هذا الجمال الحياة فشغف بها وهام ؟ أم انه ازور عن الجمال وعن فتنة الطبيعة والدنيا وكان أكثر عكوفاً على العبادة والزهد كلما كانت الدنيا له أكثر فتنة ؟ فأما ظواهر التاريخ فتدل على أن هذه البقعة باركتها الاديان أن جاهدت هي في سبيل رفعة الاديان وانها لذلك كانت في الدنيا وباطل زخرفها زاهدة . ألم يشدها قسطنطين لتضارع روما رافعة لواء المسيحية؟ ألم تبن فيها أياصوفيا كنيسة لا تقل رهبة ومهابة عن كنيسة القديس بطرس في روما وان تخلت لها عن الرشاقة والبهرج . وظلت مدينة قسطنطين تضارع روما كمهد للنصرانية حتى فتحها المسلمون فجعلوا من أياصوفيا مسجداً تقام فيه الصلوات ويؤدي الخليفة فيه فريضة الجمعة . ثم لم يكتفوا بأياصوفيا بل شادوا من المساجد لذكر الله عديداً . ولعلهم شادوها لتشعر اذ تدخل فيها بغير شعورك حين دخول أياصوفيا . فأنت تبهر ، لاريب ، بعظمة عمارتها . وأنت تستشعر فيها الرهبة التي يبعث بها الايمان الى القلوب وتحس حقاً كأنك في حضرة الله ذي الجلال . لكنك لن

تحول بين نفسك والاحساس بأن هذا المعبد كان كنيسة . وكيف تستطيع وكل ما حولك ينادى بأصل أياصوفيا . هى فى دسامة نقشها وفى تكفيت سقفها وجدرانها بالذهب كنيسة . وهى بالصلبان ما تزال بادية الأثر رغم محوها وطلاء مكانها كنيسة . وهى بوضعها الهندسى وبانحراف قبلة الصلاة فيها عن وسط جدارها المقابل للباب كنيسة . وكل ما أضيف اليها من مرافق الوضوء ومن منبر الخطابة ومن مآذن الدعوة الى الصلاة يبدو مضافاً رغم دقة صنعه والعناية باتساقه مع سائر المكان. فوجب أن يشيد المسلمون مساجد لا تقل عنها عظمة وان استبقوها مسجداً شاهداً بفتحهم وغلبهم . ولقد فعلوا وبلغوا مما أرادوا كثيراً . وجامع السليمانية لا يقل عن أياصوفيا عظمة ولا مهابة ولا رهبة ولا جلالا . شاده المعمار سنان بأمر سليمان القانونى فجاء آية لابداع فن المعمار فى عصره . تدخله فاذا أنت يهبط عليك من كل جانب من جوانبه خشوع يمتلىء به قلبك وابتهال لله أن يغفر ذنبك . خشوع تبعث به ظلال كأنها الظلمة المنتشرة فى أرجاء بيت الله ، وتبعث به عظمة عمارة المكان عظمة قليل مثلها فى المعابد . عمد ضخمة النقوش فوقها قبة كبرى تحيط بها قباب أو أنصاف قباب تمسك الكل سائر سقف المكان ، وذلك كله مزخرف بنقوش من القيشانى ومن الذهب فيها عبوس وفيها رهبة . وفى أكثر من ناحية من المكان « مبلغات » وكرسى الكهف وكلها كالقبلة وكالمنبر دقة نقش وصناعة . وأنت اذ تجتلى منها آية ذلك وجلاله وجماله لا تنسى السجاجيد سجاجيد حركة مما يطؤه قدمك باحترام وتقديس لانه فرش المسجد ولانه بديع جميل .

وفيما أنت فى متاعك بهذه العمارة العظيمة اذا رجال ونساء جاءوا اليها لا لمتاع كمتاعك ولكن لعبادة رب هذا البيت فى ضراعة وانابة . جاءوا نخلعوا قبعاتهم وتوضئوا وذهبوا الى مكان الصلاة فنحو القبعات جانبا وصلوا . وكانت السيدة التى تؤدى فريضة ربها أثناء زيارتنا السليمانية متنحية مكانا من المسجد لا أدرى أن كان خصص للسيدات ، ولا أحسبه كذلك بعد اذ أخبرنا الدليل فى أيا صوفيا أن الرجال والسيدات يصلون جنبا الى جنب لان هاتيك وأولاء سواسية أمام الله فيجب أن يكونوا سواسية فى بيت الله

وبين أيا صوفيا والسليمانية جامع السلطان احمد . وهو ان يك أقل منهما رهبة فله جماله . وفى الاستانة غير هذه المساجد الثلاثة مساجد لا يحصيها العد لكل منها رهبة ولكل منها جمال وتشهد كلها بان الاديان باركت هذه البقعة فصدف الناس عن جمالها وزهدوا فى الدنيا وباطل زخرفها .

لكنك ماتكاد تذر المساجد ورهيب جلالها وتخرج الى الدنيا وتطالع البسفور وقرن الذهب من جديد حتى ترى أن ظواهر التاريخ هذه ليست الاظواهر وان هذه القلذة من الفردوس فتنت الناس بجمالها فافتنوا فى ألوان المتاع بها ، وأن الذين شادوا هذه المساجد كانوا أشد أهل الارض تورطا فى متع الحياة ولذاتها وانما كانوا يخدعون بها الشعب يصرفونه عن السمو بنظره اليهم ويخادعون بها الله يلتمسون بها اليه زلفى . بل ربما كان تورط أهل هذه البقعة فى الآثام هو الذى دعاهم الى كثرة التوجه الى الله يستغفرونه عن خطايا لا مناص لانسان من الوقوع فيها وحوله من المغريات بالاثم ماتشتهى الانفس وتلذ الاعين .

انظر الى هذه الدور الفخمة مما خلا المساجد . هى ليست دور علم ، ولا مدارس فن ، ولا هياكل حكمة ، ولا متاحف آثار ، انما هى قصور بناها الملوك والسلاطين والامراء والثراة لمتاعهم ولنعيمهم وما تزال كذلك الى يومنا الحاضر الا الاقل منها . فهذا قصر (تب كابو) كان مقر ملك البيزنطيين فاستولى عليه الغزاة وجعله محمد الفاتح وخلفاؤه الاولون مقراً لهم قد أصبح اليوم متحفاً يزوره الناس جميعاً. ولكن أتدرى ما الذى يعرض فيه ؟ تحف نادرة مما استولى عليه الغزاة أثناء فتحهم : عرش فارسى نفيس مرصع بالاحجار الثمينة ، وعرش آخر مصرى جاء به السلطان سليم لما غزا مصر ، ثم تيجان سلاطين آل عثمان وخلفاء المسلمين . يالجمال ما كان ينعم به خلفاء أبى بكر وعمر . كل تاج مرصع بماسات تخر أمامها كل امرأة ساجدة ولو كانت أشد الناس فى الحياة زهدا والى الله قربى . والى جانب الماس أحجار ثمينة من اللؤلؤ والمرجان والعقيق والفيروز جلت عن الاشباه والنظائر . وهذه التيجان تتتالى واحداً بعد الآخر تحلى عمامات وضعت على رؤوس واجساد من قماش ، وتاج كل خليفة يبز تاج الخليفة الذى سبقه ثراء وسناء . وفى الاجنحة الاخرى من (تب كابو) مقاصير السلاطين ، وكل مقصورة — أو كشك كما يسميه الاتراك — آية فى ثراء التأثيث بالطنافس والمذهبات . ولئن كانت دقة الفن تنقص هذا الأثاث والمقاصير التى تشتمله فان مافيه من تكاثر وبهرج مكسال لينطق بحب أصحابه الجم للنعيم يغرقون فيه الى الاذقان والى الرؤوس . والى ناحية من القصر كشك بغداد يرسم فى نفسك « بكنبه » و « شلته » يضيف اليها خيالك هذه العائم

الكبيرة التي تحمل التيجان — صورة الترف الرخو الغارق في آنيها من خمر وفي عبير المسك تنشره الجوارى الجميلات البضات يتخللهن الغلمان يحملون « الشبكات » المرصعة المقابض بالدر والجوهر . هذا و (تب كابو) أقدم قصور الاستانة واقلها زخرفا وأكثرها حديثا عن ثورات الانكشارية وغير الانكشارية ممن كانوا يعلنون العصيان في فنائه أو في مياه البسفور التي تطل عليها نوافذه .

ولما انقضى لآل عثمان عهد الفتح واكتفوا بامبراطوريتهم المترامية الاطراف في أوربا واسيا وافريقيا فكر خلفاء محمد الفاتح من السلاطين في المتاع الجم بالدنيا ونعيمها، فلم يكفهم (تب كابو) وبنوا قصور شراغان وضلمه بخشه ويلدز وغيرها كما بنى الامراء والوزراء من القصور ماتتزين به شواطىء البسفور وقمم تلال الاستانة . وفي هذه القصور اجتمع من أسباب الترف مالم يعرفه لويس الرابع عشر ولاغيره من أشد الملوك امعانا في الترف واللذة . زرنا قصر يلدز الذى أصبح اليوم ملكا عاما فأجرته بلدية الاستانة ناديا للقمار وفندقا ومطعما فبهرتنا عظمته وجلاله وأن لم يأخذ بالنظر فيه شيء من الفن ودقته . وطفنا أنحاءه وذكرنا قصر فرساى وقصر فونتنبلو بفرنسا وقصر وندسور بانكلترا وأسفنا ان أصبح مقر خلافة المسلمين وسلطان آل عثمان ملهى وملعبا بدل أن يكون متحفا قوميا أو يكون مدارس ومعاهد للعلم والفن. وفي أثناء زيارتنا القصر رأينا (الاغوات) الذين خدموا عبد الحميد ابان ملكه مايزالون يحرصون على أن يظلوا في قصر كان مقر ملكه، ولو كانوا مع ذلك خدما لرعاياه وأتباعه، ولو خدموا سيدات من عامة الشعب بدل

مثات الجوارى الحسان اللائى كن لامام المسلمين وخليفة رسول رب العالمين متاعا ولذة . وكم من قصور كانت كقصر يلدز مباءة شهوات وملعب نسوة يتلهى بهـا أمير المؤمنين ساعة يستريح من حكم المؤمنين ومن السهر على ما نيئة دينهم ودنياهم وأنفسهم وأرواحهم ؟!
وكقصور الخلفاء كانت قصور الامراء والوزراء . وكان مايجبى من هذه الامبراطورية العظيمة الممتدة من الاناضول الى العراق الى عدن الى مصر وطرابلس وتونس ينفق أكثره على مافى هذه القصور الكثيرة من ملاذ وشهوات يحرض عليها جمال هذه البقعة الساحرة من بقاع الجنان . فاما الشعب فى تركيا وفى الامبراطورية جميعا فكان عبدا يستغل لسد حاجات هذه الشهوات ثم تشاد له المساجد ليسمع فيها من الوعظ مايزهده فى الدنيا ومتاعها طمعا فى الآخرة ونعيمها فلا يسمو بنظره الى هؤلاء المختارين لسعادة الدارين بالملك وبالخلافة ولا يسألهم عما يستنزفون ويبعثرون من عرق جبينه حسابا .

على أن الشعب التركى المقيم مع حكامه على ضفاف هذه الفلذة من الفردوس لم يكن يستطيع أن ينسى نصيبه من الدنيا وأن يتخلص من فتنة البسفور وسحره وأن كان هذا النصيب من فتات متاع الخلفاء والعظماء . وان مايقصه الكتاب وما ترويه الاقاصيص عن افتتان طوائف الاتراك جميعاً فى الوان المتاع بل وفى التمتع بمتاع الآخرين ليس الا أثرا محتوما لهذا الجمال الذى خلعته الطبيعة على بقعة الارض التى يعيشون فيهـا . فليست لذة وليس متاعا مما تشتهيه الانفس الا تسمح للترك فيه فنونا لاتجاريهم فى مضمارها أمة من الأمم .

هذا الانهماك فى أسباب اللذة بعد استتباب أمر الممالك المفتوحة للاتراك هو الذى نزل بتركيا من مكان عزتها شيئا فشيئا حتى جعل منها الرجل المريض زمانا طويلا . وهو كذلك الذى أثار من خلاله تركيا الفتاة . وهو الذى أدى آخر الامر الى نهضة تركيا الحديثة نهضة مكنت فيها للديمقراطية وأجلت عنها عوامل الاستبداد والفساد . وهذه النهضة هى التى جعلت من يلدز العاتية ملعباً للشعب ومن شبان العصر الحاضر القوة الحاكمة لتركيا الحديثة . ومظاهر هذه النهضة هى مانرى فى تركيا كلها ومانرى فى الاستانة من انتقال من أحلام ألف ليلة وليلة الى الواقع المحسوس من حكم المدنية الغربية واستعلائها .

***

وتتلخص النهضة التركية فى الاستانة وفى غيرها فى عبارة بسيطة : الفصل بين السلطتين الدينية والزمنية وجعل علاقات الناس بعضهم ببعض زمنية كلها خاضعة لمبادىء الديمقراطية يمتد اليها جميعا سلطان التشريع الذى يقوم به نواب الامة ، وقيام هذه النهضة بالاصلاح المستمد من الحضارة الغربية واقامة ذلك على أمتن أسس ممكنة وتطبيق آثاره بقوة القانون على كل مظاهر الحياة . وكانت أولى مظاهره البادية للعيان هى الملبس . فكان العهد القديم يجعل لكل طائفة لباسها . يجعل لرجال الدين لباسا ولطوائف السراة لباسا وللفقراء لباسا كما كان يقضى بحجب المرأة من الاشتراك فى حياة الجماعة فقضت النهضة الديمقراطية على هذه المظاهر المتباينة وجعلت لباس أهل الحضارة الغربية — القبعة — لباس الناس

جميعا. كما حررت النساء وجعلت القبعة أومافى صورة القبعة لباسهن جميعاهن الاخريات . واذن فقد أصبحت الاستانة متماثلة فى صورة أهلها . حدثنى صديق قال : كان المعممون فى تركيا يحتشدون فى ميدان فسيح فيها فلا تكاد ترى غير بياض العمامة غطاء للرؤوس . وكان هؤلاء يتخذون من لباسهم الذى يشبه المسوح وسيلة لامتيازات تخليهم من التكاليف العامة كالجندية وغيرها ، وكانوا الى جانب ذلك سبب ارتباك مستمر بسبب مايخلقونه فى نظام الحياة وفى سبيل التطور من مشاكل وعقبات . فلما زال هذا اللباس زالت معه الامتيازات والمشاكل وأصبح الحكم للقانون وحده وأيقن الناس أن نظام الطوائف فى منافاته للديمقراطية يعطل كثيراً من صور الحرية فاستراحوا الى هذه المساواة الجديدة أيما راحة . وكان النساء يخرجن فى ملابس مختلفة يدل بعضها على العظمة أو الاستعباد فصرن جميعاً يخرجن سافرات ويلقين الرجال ويتحدثن اليهم ويبعثن الى نفوسهم شعور الحياة والتعلق بها والعمل فيها لأنهن صرن قوى ذات نشاط لامجرد متاع وضيع . وقرى الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية هذا الروح الجديد روح المساواة وبعث الى نفوس الناس جميعاً شعورا بالكرامة الانسانية يتساوى فيها الكل لافارق بين غنى وفقير وعامل وصاحب مال .

ومظاهر الحياة فى الاستانة تشهد كلها بصدق ماقال صاحبى ، وان كانت آثار الماضى ومفاسده مازال تبدو هنا وهناك فى كثير من المظاهر مما لم تمكن الاحوال العامة الدولة من اصلاحه، ومما لم تستطع النفوس التخلص منه فى هذه البرهة الوجيزة التى انقضت

على الاصلاح الوليد منذ اربعة سنوات . فأنت لا ترى اليوم فى الاستانة مالا تزال تراه فى القاهرة من أزياء مختلفة يقصر دون تباينها واختلافها كل ماخلق الخيال عن برج بابل . بل ترى تناسقاً ووحدة يتفق فيها الاتراك وغيرهم من أهل الحضارة السابقة . وبذلك قضى الاتراك على نظام الطوائف الذى كان يشعر بنضالها وعداوتها ، وقضوا كذلك على شعار ليس من الدين ولا من مقوماته فى شىء ، ولكنه كان مظهر حرب دائمة بين أهل الاديان المختلفة قد تتفق مع روح العصور الماضية ولكنها تنافى الروح الزمنية الحاضرة وينكرها المعنى السامى الذى يجعل الايمان صلة روحية بين المرء وربه لا يخضع لقانون ولا يحدده سلطان بينما يحدد القانون صلة الانسان بالانسان تحديداً يختلف وما يقضى به غير هذه الصلات ويتغير بالتغير تقدير الناس للحياة وسعيهم فيها .

ومظهر النهضة التركية فى تحرير المرأة أجلى وأجمل وان كان قد استثار أسف كثيرين من الكتاب الاوربيين الذين كانوا يعجبون بحجابها الرقيق بحيطها بالأسرار كما كانوا يرون فى زيها وفى زى الرجال مايجعل الاستانة متحفاً لعاديات تبدو كأنها من الاحياء . ولها فى نظر هؤلاء الكتاب بهاء الآثار القديمة وجمالها . قضت النهضة على هذه الصورة وجعلت حياة تركيا حياة حاضر لأن الاتراك يريدون — على حد تعبير قوى لتوفيق رشدى بك وزير الخارجية التركية — أن تكون لهم متاحف فى المدن لا أن تكون مدنهم متاحف . فكما تساوى الرجل التركى بالرجل الاوربى فى مظهره تساوت المرأة التركية بالمرأة الاوربية فى حريتها وفى زيها .

فأنت ترى الطرقات مكتظة بالرجال والسيدات على السواء، وترى مساواة فى الحرية قد خلقت بين الجنسين الاحترام، وترى المرأة ازدادت بذلك نشاطا وجمالا. لم تبق الفتاة التركيـة الغضة البضة الـكعوب اللعوب. ولم تبق نؤوم الضحى لم تنطق عن تفضـل. ولم تبق أنوثتها تلك الانوثة المبالغ فيها الى حد لاتبقى معه لها غاية من الحياة غير ارضاء الرجل ومتاعه. بل أصبحت المرأة التركية انسانا كالرجل. تـكاتفه فى الحياة وتعاونه فى القيام بأعباء النهضة. تراها واياه فى الطرقات وفى المنتديات العامة وفى أسباب السعى جنباً الى جنب محتفظة بكل المعانى الانسانية. وأنوثة المرأة احدى هذه المعانى التى يجب أن تكمل من غير أن تجنى على كمال سائر المعانى الانسانية. وبذلك رقت المرأة ورقت. وبذلك صارت قوة فى الحياة وصارت شعراً ذا معنى انسانى. وبذلك استحقت المحبـة الصحيحة والاجلال والاحترام.

الى جانب هـذين المظهرين البارزين من مظاهر النهضـة فى الاستانة ترى نشاطا فى كل نواحى الحياة يؤذن بأن ينقل تركيـا الى الحضارة اذا لم تك فى العناصر الرجعية حياة باقيـة وممحت موارد الدولة باستمراره. والحق ان الاسـتانة بحاجة الى أموال طائلة لتـكون مدينـة كبيرة يتفق مجهود الانسان فيها مع ماحبتها الطبيعة به من جمال. فهـذه القصور وتلك المساجد لاتكفى مظهراً للجمال الذى يخلعه سعى الانسان على مدينة خلعت عليها الطبيعة ماخلعت على الاستانة. بل يجب أن يغمر مايجمل به الانسان مدينة المدينة كلها وكل مافيها ومن فيها، لا أن يكون وقفاً على أفرادهم

أهل الحكم والمتصلون بهم . ولأهل تركيا فى القائمين بأمرها اليوم رجاء يمكن أن يتحقق اذا لم تقم لعناصر الماضي قيامة من جديد

على أن النهضة التركية أبعد مدى وأعمق أثراً مما يتجلى فى هذه المظاهر التى ترى فى الاستانة . وقوتها على العناصر الفاسدة ومقدرتها على النهوض بتركيا يستحقان عناية تجعلنا نفرد لها الفصل الآتى

النهضة التركية

ليست ابنة اليوم ولاخلق مصطفى كمال هذه النهضة الاجتماعية التي تبدو مظاهرها اليوم في الاستانة وفي غير الاستانة من بلاد تركيا. انما يرجع تاريخها الى زمن بعيد لايقف عند سنة ١٩٠٨ حين أعلن الدستور العثماني؛ بل يرجع الى حين تألفت جمعية الاتحاد والترقي والى ماقبل ذلك حين وضع المرحوم مدحت باشا دستور الدولة العثمانية الاول، وحين قام البرنس صباح الدين يدعو الى اللامركزية. من ذلك الزمن القديم في التاريخ فكرت الادمغة الصالحة في تركيا في نهضتها الصحيحة. لكن الخليفة العثماني وما حوله من عوامل الرجعية كانوا يومئذ من القوة والبطش بما أضاع نتائج هذه المجهودات الاولى وان بقى لها من الاثر في نفس الشعب التركي ماجعله على أتم استعداد لتأييد حركات الاصلاح. فلما تألفت جمعية الاتحاد والترقي وأعلنت نهضة تركيا الفتاة ونجحت بتأييد الجيش في الزام الخليفة السلطان عبد الحميد أن يعلن الدستور، كانت تركيا مستعدة للتضحية في سبيل تأييد هذه الحركة وان كانت الامبراطورية العثمانية المترامية الاطراف أقل من تركيا لهذه التضحية استعداداً. ثم أن الاتراك أنفسهم لم يكونوا يومئذ ينظرون للعرب كالنظير للنظير، بل كانوا يشعرون بأنهم غزوا البلاد العربية كلها غزواً وفتحوها بحد الحسام. ونشأ عن ذلك أن لم تلق فكرة اللامركزية ولا فكرة مساواة الممتلكات بتركيا نجاحا يربط دائرة الامبراطورية العثمانية

. المرنة برابطة تجعل كل جزء من أجزائها يذود عن حياضها بنفس الحماسة والغيرة اللتين تذود بهما تركيا، ويدفع كل معتد على أى جزء من الامبراطورية كانه معتدعلى كيانه الخاص وعلى استقلاله وعزته .

وأدى وقوف تركيا هذا الموقف من ممتلكاتها الى نتائجه اللازمة ابان الحرب الكبرى . فعلى الرغم من أن تركيا كانت دولة الخلافة الاسلامية ومن أن هذه الممتلكات كانت اسلامية كلها فان ، ظالم عصر الاستبداد التركى الذى سبق الدستور وعدم الاعتداد بلامركزية هذه الممتلكات بعد الدستور وقفهامن تركيا ابان الحرب غير موقف المدافع عن كيانها . بل ان الحجاز انتقض على تركيا جهرة بزعامة الملك حسين بن على ووقف فى صف الحلفاء . وانتهت الحرب بانحلال تركيا انحلالا أيأس منها المسلمين وأيأس كثيراً من أبنائها وأطمع اليونان لتعلن الحرب كى تصل أو يصل الحلفاء الى اغتنام الاستانة . ثم كانت هذه المعجزة من معجزات التاريخ وكان هذا النصر الباهر الذى احرزه مصطفى كمال فأجلى به اليونان والحلفاء عن بلاده وطهرها من سلاطين آل عثمان الخلفاء وأقرلها صلح لوزان وألغى منها الامتيازات الاجنبية وجعلها دولة فى مصاف الدول العزيزة المحترمة .

لكن هذا النصر لم يرد شيئاً من ممتلكات تركيا ولم يعد اليها امبراطوريتها القديمة المترامية الاطراف بل بقيت حدود تركيا لاتضم بين جوانبها غير الاتراك . على أن هذا الذى أصاب تركيا كان له أحسن الأثر فى نهضتها الاجتماعية . فقد أزال كثيراً من العوائق التى كانت تقف فى سبيل النهضة التركية وآن للاتراك أن

يقيموا حياتهم الاجتماعية على أسس سليمة ثابتة غير متأثرة بمخلفات الماضي وملكه وخلافته ولا بالامبراطورية المشتملة على عناصر شتى غير العنصر التركي الذي كان يعتبر نفسه سيدا لها وحاكما

وأول ما أفادته النهضة التركية من هـذا الوضع الجـديد ومن انتصار مصطفى كمال وانتشاله بلاده من الاضمحلال أن أمكن تطبيق المبادىء الديمقراطية الصحيحة على ما يفهمها أهل هذا العصر الحاضر تطبيقا دقيقا والتخلص بذلك من المساومات في المبادىء مساومات كانت السبب في القضاء على كثير من النهضات . فهـذه المبادىء الديمقراطية هي التي سعى اليها الذين ظفروا بدستور سنة ١٩٠٨ وهي التي أراد رجال تركيا الفتاة وأعضاء الاتحاد والترقي أن تستظل تركيا بلوائها. لكن دستور سنة ١٩٠٨ ما كاد يعلن حتى رحب به سكان الدولة العلية على السواء لان كل طائفة من الطوائف كانت تحسب الاستبداد القديم مقيداً لهـا وكانت ترجو في النظام الجديد محققا لمطامعها الخاصة ولو كانت هذه الطائفة بطبيعة تكوينها خصما لدوداً للديمقراطية لان طبيعة النظام الديمقراطي لا تقر الطوائف . رحب بهذا الدستور رجال الدين كما رحب به رجال المال ورجال الاعمال واجتهد كل أن يخضعه لمطامعه الذاتية — ونشأ عن ذلك أن الذين احدثوا الثورة من اجـل الدستور وخلعوا عبد الحميد في سـبيل توطيد دعائمه انقلبوا هم الآخرون يتلفتون يمنة ويسرة يبحثون عن اعداء النظام الذي أقاموه ليقلموا أظافرهم كما كان عبد الحميد يبحث عن أعداء نظام الملك المطلق والخلافة الاسلامية ليقضى عليهم فيقضى على أعداء الله والملك .

طوعت اذن ظروف تركيا الجديدة لمصطفى كمال واعوانه أن يحطموا قيود الماضي وأن يعمموا النظام الديمقراطي في اصلاحهم على وجه صحيح . وكان أول ماصنعوا من ذلك ان ألغوا أول مظهر من مظاهر نظام الطوائف . الغوا الرتب والنياشين فيما عدا صفوف الجندية ، ثم الغوا طائفة رجال الدين كطائفة وأن جعلوا للتعليم الديني في جامعتهم مقاما محمودا . فلم يبق أولئك الباشاوات ولا أولئك المشايخ الذين يعيشون من لقبهم لا من شيء آخر . والتزم الكل أن يلبسوا لباسا واحداً هو لباس أهل أوربا لم يستثن الاصلاح منهم أحداً الا أفرادا هم الموثقون الشرعيون الذين يحملون ترخيصاً خاصا للبس العمامة واداء وظيفتهم. ولكيلا يكون هذا الاصلاح مظهرا للاصلاح ركني وليكون اصلاحا حقيقيا قامت حوله حركة نشاط كبيرة في مرافق الحياة المختلفة ، قررت الدولة مجانية التعليم بجميع درجاته الابتدائية والثانوية والعالية ، كما قررت اجبارية التعليم الاولى وخصصت من ميزانية قدرها مائة وثمانون مليونا من الجنيهات التركية (حوالى ثمانية عشر مليونا من الجنيهات المصرية) سبعة ملايين ونصف مليون جنيه تركى للتعليم الثانوى والخاص ومليونا جنيه للتعليم العالى ، فأما التعليم الاولى والابتدائى فتتعهده مجالس الولايات (مجالس المديريات) وتنفق عليه وتنفذ القوانين الخاصة به تنفيذاً دقيقاً .

ويقابل هذا النشاط فى التعليم نشاط فى مرافق الدولة الاخرى وان وجب الاعتراف بأن ظروف تركيا المادية من جهة والعقلية التركية المحافظة بطبعها من جهة أخرى وتاريخ التطور التركى فى

العصور الاخيرة وما تأثر به من انكماش عن الاصلاح الواسع المدى من جهة ثالثة ، كل ذلك ما يزال بادى الأثر فى الاصلاح ومظاهره . وانى ليخيل الى أن مدينة كالاستانة جمال موقع وعظمة تاريخ ما كانت لتترك كما هى متروكة اليوم من غير عناية بتجميلها لو أنها كانت فى يد غير يد الاتراك ، ولو أن النهضة الحالية كانت غير النهضة التركية سواء أكانت الاستانة عاصمة الدولة أم لم تكن. ولم يتح لى أن أجوس خلال تركيا الداخلية لأحكم حكماً صادقاً على مبلغ نشاط النهضة فيها . لكن الذين رأوا أنقرة يشهدون بسرعة تقدمها كما أن مظاهر الحياة فى الاستانة نفسها أكثر نشاطاً .

زرت جماعة من رؤساء تحرير الصحف التركية ، وكان مما سألت أحدهم عنه ما قاموا به من جهود ليرقوا بالصحافة الى حيث هى اليوم جمال طباعة وتصوير وورق ، فكان جوابه ان النهضة العامة أدت الى هذا الرقى لانها أدت الى زيادة فى التضامن وفى اشتباك المصالح وفى كثرة تداولها وفى تزايد تداول الافكار والآراء معها فكان لزاماً أن ازدادت مقطوعية الصحف فأقبل أهلها على تحسينها فى حدود مواردهم . وكلما قويت النهضة وتشابكت المصالح وازداد النشاط وجد الكل الدافع الى الرقى والاصلاح .

لكن أمراً يلفت النظر الى هذه النهضة التركية ويدفع الى التساؤل عن مبلغ ثباتها وعدم تعرضها لرد فعل يعود بتركيا الى مثل ما كانت أو الى شىء منه . ذلك أن هذه النهضة تبدو كأنها ليست أثراً محتوماً لتطور طبيعى وأنها مصنوعة على يد مصطفى كمال وأصحابه الذين فرضوها على تركيا فرضاً من طريق التشريع وألزموها

الاخذ بها بقوة القانون وبما وراء القانون من الجندى وسيفه ومدفعه . فالرتب ألغيت بالقانون . والعمائم ألغيت بالقانون . ولبس الرجال القبعة والزى الاوروبى بالقانون . وأسفر النساء وخرجن الى مجتمعات الرجال بالقانون . فاذا حدث ، لسبب من الاسباب ، أن جاءت حكومة غير هذه الحكومة وألغت هذه القوانين ابتهج الناس أيما ابتهاج بالعود الى سيرتهم الاولى . ولم يجد هذا الاصلاح الحاضر من يؤيده وينصره ويقف فى سبيل تداعيه وعودة الحال الاولى .

هجست هذه الخواطر بنفسى وجعلتنى أشفق على هذه النهضة الديموقراطية الجميلة من الرجعية ومن رد الفعل فأفضيت بها الى رؤساء تحرير الصحف الذين زرت وسألتهم رأيهم فيها فاطمأنت نفسى الى جوابهم والى هذه النهضة التى خفت عليها . قال قائل منهم : ان هذه النهضة ليست بنت المصادفة ولا ثمرة شهوة من شهوات مصطفى كمال ولكنها بنت الحاجة ، حاجة ماسة كانت تشعر بها الامة فى أعماق نفسها ولكنها كانت تلقى من بعض الطوائف معارضة باسم الدين ، وكان رجال الحكم الماضى يؤيدون هذه المعارضة حرصاً على نفوذهم الذى يظل قوياً فى رأيهم ما بقيت طوائف كثيرة تعارض بعضها بعضاً وتشغل بعضها بعضاً عن النظر الى الاستبداد ومظالمه : ولأضرب لك مثلا عن حاجة كان يشعر الكل بها وكان الكل يختشى من المطالبة بالاصلاح لسدها . تلك هى المحاكم الشرعية ! لم يكن رجل ولم تكن امرأة ألقت بأيهما المقادير فى براثن هذه المحاكم الا كان يعلو منها ضجيجه وكان

يرى فيها المفاسـد بأنواعها مجسمة . وكان كثيرون يتحدثون عن هذه المفاسد وينعتونها بأقبح النعوت . مع ذلك لم يجترىء أحـد على المطالبة بالغائها مخافة الصيحة باسم الدين . فلمـا سنت الجمعية الوطنية القوانين المدنية وألغت المحاكم الشرعية ويسرت اجراءات الاحوال الشخصية كما تيسر غيرها من قبل ، شعر الـكل كأن كابوساً زال عن صدورهم وفرحوا لهذا الاصلاح أى فرح . ولن يستطيع حاكم بالغة ما بلغت قوته أن يعود بهم الى ذلك النظام العتيق القديم الذى كان موضع شكواهم جميعاً .

وقال آخر وكنت أحدثه عن المرأة الـتركية وسـفورها واختـلاطها بالرجال : لا تصدق أن القـانون هو الذى دفع المرأة للسفر وتتمتع متاعاً صحيحاً بحريتها . فالمرأة كانت تشـعر بالحاجة الى ذلك حاجة ماسة . لـكنها كانت تجد فى سبيلها أوهام العامة ومحافظة رجال الحـكم واستبقاءهم هذه الاوهام . وكل ما فعله القانون الجديد أن أزال من سبيلها هذه الاوهام بأن جعل العامة يشكون فى صحتها وفى اتصالها بالدين . فلما زال العائق اندفعت المـرأة الى السفور والى الحرية كما يندفع المـاء الحبيس فيزول فى اندفاعه أسنه ويروى كذلك الارض لتنبت بهجة وجمالا . والعامة اليوم تنظر الى سفور المرأة والى اختلاطها بالرجال نظرة سرور وطمأنينة لانها رأت كذب ما كان يزينه لهـا الرجعيون وأعداء الحرية وأحست احساساً صادقاً بما فى الحرية من جمـال وبما يترتب على الحرية من تبادل الاحترام .

قال محـدثى : ولو أنك كانت أتيحت لك فرصـة التحدث

السيدات التركيات فى منازلهن لسمعت منهن كثيراً . فهن يذكرن الحرب والنصيب الذى قمن به فيها ويذكرن اشتغالهن حينئذ بكل شؤون الحياة لان الرجال جميعاً كانوا فى خطوط القتال . مدى ثمانى سنوات كاملة ، من سنة ١٩١٤ حين أعلنت الحرب العظمى الى سنة ١٩٢٢ حين ألقى مصطفى كمال بجيوش اليونان وراء أزمير، وهن متوليات أمور الحياة كلها ، وهن لما تولين منها صالحات مدبرات حكيمات . أفتكون المرأة كذلك يوم البأس والشدة فاذا استقر السلم فى نصابه وآن لكل أن يجنى نصيبه يكون نصيبها أن تسجن من جديد فى عقر دارها وأن يسدل على وجهها السواد ؟ كلا ! هى تحتفظ بحريتها وقد كان لها فى تحرير بلادها نصيب ، وهى تحتفظ بالحرية فى كل مظاهرها وتعرف كيف تجعل هذه الحرية موضع الاحترام والاجلال .

وهذا حسن ويدعو الى كثير من الطمأنينة على هذه النهضة التركية الحديثة . لكن استمرارها يحتاج الى جهود عظيمة لا محل للخوف من استمرارها ما دامت الحال فى تركيا كما هى اليوم وما دام التشريع يسرع الى علاج كل نقص يخشى تسربه الى حركة الاصلاح . لكن هذه السبيل فى تمهيد الحركات الاجتماعية استثنائية بحتة . وما لم تجد الحركة فى الشعور العام مؤيداً لها ومن رجال الفكر والقلم أنصاراً وأعواناً فانها تتعرض للخطر متى دب الى النفوس انها حركة صناعية . لهذا لفت نظر بعض الذين حدثتهم وأبديت لهم أن العلماء والكتاب هم عمد النهضات القومية أكثر من التشريع بما يبثونه من ثقة فى النفوس بهذه النهضات وبما يخلقونه من جو

يجعل الرجعة مستحيلة . وسألتهم عن الجامعة والعلماء والكتاب فى تركيا وماينفقون من جهود فى هذا السبيل. قال رئيس تحرير وقت: مازال تأييد النهضة الحاضرة فى بدايته من جانب الجامعة والعلماء لأن هؤلاء مازالون هم الآخرون فى أول العهد بنهضتهم العلمية فهم فى أشد الحاجة لتكريس كل جهودهم لنجاحها . ومتى نجحت فسيكون لها لاريب من الأثر فى دعم النهضة ما لسائر الجامعات فى أنحاء العالم المختلفة. لكن لنا فى تركيا الحاضرة من هذه الدعامة بديلا متيناً ، تلك هى الأندية التركية . هذه الأندية منبثة فى كل ناحية من أنحاء المملكة وتضم بين أعضائها عشرات الالوف من المستنيرين الأتراك الذين أخذوا على عاتقهم تأييد النهضة الحاضرة وبث روحها فى نفوس الشعب بكل الوسائل الناجعة . وهى تعمل الى جانب عمل الحكومة الرسمى عملا معنوياً عظيماً لايقل أثراً فى نتيجته عن التشريع ومن التنفيذ . وهذه الأندية قد بلغت من النجاح فى بث الدعوة وفى تنظيم الحركة الاجتماعية بما تذيعه فى الناس من دروس وتعاليم حتى لقد أرادت بعض ولايات الدول الشرقية المجاورة أن تنظم نوادى تنضم الى النوادى التركية . لكن حركتنا قومية بحتة ، لذلك تركنا لهؤلاء المجاورين أن يؤسسوا نواديهم ان شاؤا من غير أن يكون لنا بهم اتصال حتى لا تبعثر مجهودات تركيا ولا تضل بها المطامع والأوهام . وعمل هذه النوادى لا يقل عن عمل الجامعات والكتاب قيمة لأنه صادر عن اقتناع وإيمان . فليس عضو من أعضائها الا يشعر بأن واجبه فى هذا السبيل ليس يقل عن واجبه فى الدفاع عن الوطن حين كان الوطن فى خطر ، وحين

كان كل تركى يقدم حياته فى الحرب طائعاً فداء لوطنه .

ولقد قرأت فى بعض ما كتب عن تركيا وأنديتها ما أيدأقوال محرر وقت من أن المجهود المعنوى الصادق الذى تحتاج اليه النهضات لنجاحها يبذل فى تركيا على خير وجه وبكل اخلاص وصدق . وهذا باعث جديد من بواعث الاطمئنان على هذه النهضة وعلى استمرارها . لكن ذلك لا يزيل كل المخاوف . فهنالك دعامة أخرى من دعائم النهضات لست أدرى ان كانت تركيا تستطيع الحصول عليها، تلك هى الدعامة المادية . فكل نهضة نفسية تحتاج لتمام تمها بنفسها الى أن ترى آثارها ومظاهرها محققة فى الواقع وأمام العيان . وقد يكون الشعب من الاناة بما يحول دون استعجاله هذه الآثار وبما يدفعه للاناة والتريث . لكن من الشعوب العجل الذى يريد أن تتحقق كل مطامعه فى سنوات قلائل . ولست أستطيع الحكم على النفسية التركية فى الوقت الحاضر . لكن شؤون تركيا المادية لا تدفع الى النفس الاعتقاد بامكان تحقيق كثير من المظاهر المادية للنهضة الحالية فى زمن قصير . فتركيا تنفق قسما كبيراً جداً من ميزانيتها الصغيرة فى شؤون الجيش والدفاع القومى . ومواردها محدودة لا يبدو أنها تسمح بزيادة فى الضرائب وفى ايرادات الميزانية فى زمن قريب . وما تحتاج اليه تركيا من اصلاح تدعو اليه النهضة الحالية كثير جداً . فالاستانة كما رأيت متحف تاريخ قديم أكثر منها دار حضارة هذا العصر الذى نعيش فيه . وهى اليوم ، وأحسبها ستبقى زماناً طويلا ، مرآة تركيا لأبنائها وللنازحين اليها . ولن تستطيع السياسة

وأحداثها أن تسلب مدينة لهـا ما لموقع الاستانة من روعة حق الاولوية والسبق وميزة أن تكون عروساً بين مـدائن العـالم المتمدن . ثم ان ما يقال عن انشاء أنقرة والسير فى ذلك سيراً سريعاً لا يدل على أكثر من نشاط الاتراك نشاطا عظيما فى سدادحاجاتهم السياسية التى يقتضيها موقفهم الحاضر . لـكن مظاهر النهضات من مقتضيات الحضارة . فآثار الفن الجميـل من متاحف وتماثيل ومن نقوش وصور ، ومظاهر العـلم من متاحف فنية وزراعيـة وصناعية ، ومظاهر الحضارة فى نظام المـدن — ذلك كله بحاجة الى موارد مادية عظيمة جداً أخشى أن تكون تركيا الحاضرة عاجزة عن تقديمها وربما ظلت كذلك زماناً طويلا .

فاذا كان الشعب التركى شعباً عجلا يريد أن تحقق النهضات كل آماله فى سنوات كان هذا العجز المادى موضعاً من مواضع الخوف على النهضة الحالية . وأما ان كان له من الاناة والروية والصـبر ما يمكنه من تقدير ظروفه ومن السير فى حدود موارده ومن الاغتباط بالنتائج الـتى يجنيها شيئاً فشيئاً فان النهضة ستؤتى كل ثمرها وان احتاج ذلك الى عشرات السنين . وكل ثمرة جديدة تزيد الموارد المادية وتزيد النهضة ثباتاً وقوة .

وأكبر الرجاء أن تكون جهود الشعب التركى فى العمل السلمى عظيمة كما كانت جهوده فى الحرب . فان أثر هذه النهضة لا يقف عند تركيا ولا تحده حدودها ، بل هى نهضة لشعوب الشرق كلها . هـذه الشعوب التى كان الكثير منها خاضعاً لحـكم تركيا المستبـدة متأثراً بنظمها وبأوهام القائمين بالامر فيها ، حتى لـكأنمـا كانت

تركيا تلك حائلا بين المدنية والتقــدم وبين هــذا الشرق النشيط التواق للمدنية وللتقدم . وهذه الشعوب ناهضة كلها اليوم نهضة جليلة مباركة تمسك مصر منها بالزمام . فــكل نجاح تلقاه النهضــة فى أحــدها هو نجاح للنهضــة فيها جميعاً . وكل تغلب من جانب الاتراك على المطالب التى يمكن ان تقف فى سبيــل نهضتهم تحطيم لهذا السياج القديم الذى حال أجيالا طويلة بين الشعوب التى كانت تشملها الامبراطورية العثمانيــة وبين التقــدم والعمران . وتحطيم هذا السياج يفتح باباً جديداً لسيل المدنية من الغرب الى الشرق ولسريانها من الشرق الادنى لتتصل بمدنيــة الشرق الاقصى الــتى تقدمت فى القرن الاخير تقدماً أدهش العالم كله .

وهذا الرجاء الذى يجيش بنفس كل صادق الاخلاص للانسانية فى تقــدمها لترفع منار الحضارة الى أسمى ذراه يدعونا الى تأييــد هذه النهضة التركية بكل ما لدينا من قوة والى الامل أكبر الامل فى تذليــل المصاعب المــادية التى قد تقف فى سبيلها وقد تجعــل للرجعية باباً تطل منــه مرة أخرى . على أنا ننظر للمستقبل وكلنا ثقة بأن باب الخوف هذا لن يفتح ، وبأن تركيا الناهضة ستجنى من نهضتها الاجتماعية خير ثمراتها وبأن الشرق كله سيجنى مثلها ثمرات نهضاته فتتحطم بذلك قيود الاستعمار وتسير الانسانية الى الامام متكاتفة متضامنة لا يذل فيها شعب لشعب ولا فرد لفرد .

من الاستانة الى بخارست

وداع الاستانة — البسفور والبحر الاسود — بخارست ورومانيا

صباح الخميس ٨ سبتمبر ، جلست الى نافذتى أجيل البصر فى قرن الذهب وفيما وراء قرن الذهب من مبانى الاستانة . بعد سويعات سأركب الباخرة الى كستنزا ثم الى بخارست فى طريقى الى باريس . وبعد سويعات تختفى هــذه المناظر عن عينى ، ومن يدرى هل يتاح لى أن أراها فى حياتى مرة أخرى . هذه القباب والمآذن الذاهبة فى السماء محدثة عن المساجد تحتها أبدع فيها الفنانون ماشاء لهم المهارة ، أو هى قباب ومآذن ليس فيها من الفن شىء أن أقامها من أراد بها العبادة لوجه الله وحده ؛ وهــذه المنازل المتدرجة من شاطىء الماء الى أعالى تلال الاستانة ؛ وهذه الصفحة صفحة الماء المتموج تحت ضياء الشمس الساطعة ؛ وهؤلاء الأتراك الذين يروحون ويجيئون وكلهم فى زى واحد وهندام متسق ؛ هــذا كله وما وراء هذا من سائر مافى الاستانة من جمال البسفور وحديث التاريخ وآثار النهضة مما شهدت عيناى ستة أيام تباعا سيتدثر كله فى حجب الماضى وطيات الغيب ويظل منه عندى ذكر وخبر . أياصوفيا المسجد الذى كان كنيسة وما يزال كل مافيه يحدث عن ماضيه ، وما يزال كل مافيه جمال وروعة بعمده الضخمة وزجاجه الملون السندسى ومنبره البــديع وبسطه الثمينة ؛ والسليمانية المسجد الاسـلامى البحت كله الرهبــة والجلال ؛ وجامع السلطان احمد ؛ وقصور (تب كابو) ويلدز وضامه

بحشه ؛ هـذا كله مما رأيت وما كنت أستطيع أن أرى حتى أمس سيفر مني ويغيب عني الى أجل لا أدري من أمره شيئاً . وكل هذا كان حبباً الى لانه صورة حية لخيالات ذهنية امتلأ بها رأسي منذ زمان طويل . وها أنا ما أكاد أشعر بها بعض حسي وبعض حياتي حتى اذا هي تختفي آخذة معها بعض حسي وبعض حياتي . ما أشد الانسان صلابة وقسوة . ينفصل كل يوم من حياته جزء يبتر منه بتراً ؛ وهو عن ذلك لاه وله أكثر لاص باسم . لكن جمال الطبيعة في هذا الموقع لايسهل على النفس انفصاله منها . ولذلك طال تحديقي من نافذة غرفتي بقرن الذهب وبمساجد الاستانة وبيمها الصاعدة من الماء حتى تلامس الافق ؛ وحتى تكون فيه صورة لا تشبع عين من النظر اليها .

وداعا للاستانة ولكل مافيها اذن . وداعا جيلا لايام قليلة كان فيها كل ما في الاستانة طروبا باسماء ؛ وكان من لقيت من المصريين وغير المصريين باشا رقيقاً . وداعا لهـذا القسم من عمري تحدر في هاوية سحيقة لن يرى النور بعد . ولنستقبل سفرنا راجين آملين .

وذهبنا الى المرفأ واجتزنا الجمرك بعد ما أعددنا لذلك عدتنا من الحصول على أجازة من البوليس بمغادرة الاستانة . فأنت لاتدخل الاستانة الا بجواز ولا تغادرها الا بجواز . ويقال انك كنت لاتستطيع أن تتحرك في انحائها من زمن غير بعيد الا بجواز . ومن جديد راقب عمال الجمرك متاعنا وما أدري ونحن نغادر بلادهم ما شأنهم به . ثم علونا سطح الباخرة التي تقوم بالسياحة ما بين الاستانة وكستنزا . ولم يكن لنا والباخرة مرسية في الميناء أن نرى غير بناء الجمرك ولا جمال

فيه ولاعزاء عن النظر اليه الا لطف اخواننا الذين كلفوا أنفسهم مؤونة توديعنا .

وتناولنا طعام الغداء ولما تتحرك الباخرة . ثم أقلعت حتى اذا توسطت البسفور صفحة مصقولة تحت الشمس تطوقه من الجانبين مناظر صاغتها الطبيعة وحدها في يوم من ستة أيام الخلق كنا لوداع عروس البسفور أكثر أسفاً لما في هذا البوغاز من جمال بل لما فيه من عرائس الاستانة واشقودره من جانبيه ، وجزائر الامراء نائمة في مياهه وكل واحدة منها يتوسطها جبل نثرت على سفوحه المنازل تحدق بها وتحدق بك كأنما تدعوك اليها وهي مطلة على البحر من ناحية وعلى السفح من الاخرى . ومن ذا استطاع أن لا يجيب دعوة جزائر الامراء للتصعيد فيها حتى قمة جبلها ليحدق بالبسفور وماحوله وليتمتع بهواء أنقى هواء وأحلاه . ثم ابتعدت السفين رويداً رويداً مجاوزة بك الى ترابيا تتجلى عندها أنضر السفوح وأبهجها . ووقفت الى جانب مكان الربان أرقب من خلال زجاج نوافذه كيف تتخطى السفين البسفور الى البحر الاسود وانتظر أن أرى حصون البوغاز التي قص على اخواني بالاستانة أنها معاقل تركيا ضد عدوان بواخر روسيا من البحر الاسود على الاستانة . والآن فها هي الجبال تقترب وصرنا ولا ريب قيد خطوة من هذا البحر الاسود ومن حصون البوغاز . لكن لا ! لقد تبدّى أمام النظر جبل جديد يتصل بالجبلين ويقف في طريق السفين . أفتراها تتسرب هي الاخرى خلال الانفاق تحت الجبال ؟ أدرت النظر في كل جانب رجاء تعرف الفرجة التي تنفذ منها فارتد بصري حائراً . عن اليمين فرجة أو شبه فرجة وعن الشمال مثلها ،

والباخرة متقدمة في سيرها لاتتجه يمنة ولايسرة كأنها تريد أن تشق طريقهـا خلال الجبل شقاً أوكانها تريد أن تتسلق سفوحه بين الاعشاب والاشجار . وظللنا على ذلك زمناً خلتـه طويلا . ثم تبينت الاعلام في الماء هادية طريقنا الى اليمين فاستدرنا فيه واذا نحن مانزال بين جبال خضراء السفوح في شيء من ذبول اوليات الخريف ، ثم اذا جبل يقطع علينا الطريق من جديد استدرنا عنده فتبدت منازل على السفوح وتبدت حصون البوغاز وتبدى هناك عند مرمى النظر عباب البحر الاسود المترامى الى ماوراء الافق ، عن قريب ندخله ونجتازه الى قسطنزه فنصلها في الساعة الرابعة صباحا .

وجلست مستدبراً البحر الاسود ، مستقبلا البوغاز الساحر ألقي عليه آخر النظرات وأودعه راجيا في الحياة يوم عودة اليه واجتياز اياه الى حيث لا أدرى الآن . ياعجباً ! ان في هذه البقعة من الارض لجمالا باهراً . فما للانسان الذى جمل جنات من سويسرا ومن السافوا ومن التيرول ومن غيرها من البقاع التي جادت عليها الطبيعة ببعض ماجادت به على البسفور من جمال ، قد ترك هذا البسفور في روعة الوحشة الطبيعية ! أأولاء اناس وأهل البسفور غير هؤلاء الناس ؟ هل عجزت الامبراطورية العثمانية القديمة كلها عن تجميل هذه البقعة الضيقة منها ولم تعجز عن أن تشيد في الاستانة مساجد وقصوراً ؟! ألا لعل تركيا الحاضرة على صغرها تستطيع بمعجزة كالمعجزة التي أظفرتها في الحرب الاخيرة أن تقوم للبسفور بما عجز السلاطين الخلفاء عن القيام به .

وخطرت السفين فوق موج البحر الاسـود تعكس مياهه دكنة

سمائه رغم الشمس البازغة ، وتوارت الشــواطىء بحجاب الأفق وتعطى الناس على مقاعدهم اتقاء دوار بدأ يداعب بعض الرؤوس وظل من لايخافون الدوار يدورون فوق السفين . ثم آن للناس أن يتناولوا طعام العشاء وقد اطمأنت صفحة الماء ولـكي يكون لهم متسع من الوقت يستريحون فيه الى النوم ليقوموا فى الساعة الثالثة استعداداً لنزول

وفى منتصف الساعة الرابعــة تبدى فنار قسطنزه وبعد ذلك بقليل رسونا ومررنا بالجمرك وبمراقبة الجواز ، وفيهما بعض ما فى تركيا من دقة ، ثم انطلق بنا القطار قبيل الساعة السادسة قاصــداً بخارست ماراً فى طريقه بأرض زراعية مسطوحة أشبه شيء بأراضى مصر وفيها الذرة والغلال وغيرها من المزروعات . لذلك لم يأخذ بالنظر خلال الطريق غير الجسور الـكبيرة عبر القطار فوقها الدانوب وعبر بعض متخفضات فيها مياه لم أدر أراكدة هى أم جارية

ونزلنا بخارست والصورة التى لدينا منها فاترة بعض الفتور . لقد سمعت عنها غير مرة ماسمعته عن بروكســل وجنيف وبعض المدائن أنها باريس مصغرة . لكن اخواناً يقيمون بهــا ذكروا أن ليس فيها ما يقف النظر عنده . وقصدنا الى فنــدق أثينا بلاس ثم أخذنا تذاكرنا على الدانوب الى بودابست وخرجنا الى ظاهر المدينة فى طريق (كسلف) فبدا لنا منها أول شبه بباريس . فهذه الطريق تشبه الشانزليزيه فى سعتها وفى الاشجار المغروسة خلالها والمنازل الرشيقة على جانبيها وقوس النصر فى آخرها . وبعــد قوس النصر تستمر طويلا بين المزارع كما يصــل الشانزليزيه الى غاب بولونيــا .

لكن كسلف من الشانزليزيه كالكارت بوستال من صورة بديعة كالجيوكنده أو أية صورة بديعة أخرى : فيها رسم الاصل ولكن ليس فيها شيء من حياته . وأين لطريق فى أية مدينة من مدائن العالم بحياة الشانزليزيه ! أين لطريق أن يبتدئ من اللوفر ومن حدائق التويلرى ومن ميدان الكونكرد لينتهى الى قوس النصر ولترى عن جانبيه «الجرانباليه» «والبتي باليه» ولتطالع من خلال الطرق المتصلة به قبر نابليون فى الانفاليد وليطالعك من خلاله برج ايفل . لكن طريق كسلف رسم على صورة الشانزليزيه ليجعل لبخارست الحق فى أن تكون باريس الصغرى .

وغربت الشمس وأضاءت الانوار بالمدينة وسرت يهديني صاحبي خلالها لأرى فيها من باريس شبهاً جديداً . سرنا قاصدين حدائق « ششمجيو » لنرى فيها بحيرة كبحيرة غاب بولونيا ومطعما كمطاعمه فررنا بطرق متسعة غاصة بالمارة وأكثرهم أوانس جعلن من وجوههن وأنفسهن متاعاً للناظرين . أليست هذه باريس ؟ والحوانيت تعرض المبيعات فى زجاجها المضيء كحوانيت باريس فى الشوارع الكبرى . وهذه أيضاً فى بخارست اسمها الشوارع الكبرى ولها على شوارع باريس الكبرى امتياز . فأنت تمر بها على قهوة بكادلى . واسم بكادلى معروف فى لندن غير معروف فى باريس . ثم تمر بعد ذلك بالطواحين الحمراء Moulins Rouges وبغير الطواحين الحمراء من أسماء ملاهى باريس التى أصبحت اليوم أسماء عالمية كأسماء عظماء الرجال . وحدائق « ششمجيو » تتوسط المدينة كحدائق « هيدبارك » بلندن ، وبها بحيرة

صناعية تخطر فوقها زوارق صغيرة تمسك الاوانس أكثر الاسر تجاديفها . والمطعم على حافة البحيرة أضاءت سماءه الانوار المختلفة الالوان ، فطرحت على صفحة الماء الساجية بكساء الليل ملاعب نور تزيدها الزوارق والاوانس المجدفات نوراً ولعباً .

لهذا كله يسمون بخارست باريس صغرى . وقد يكون فى هذا بعض العزاء لمن لم يعرف باريس . أما صاحبى الذى نعتها بأن ليس فيها ما يقف النظر عنده ، وأما أصحابى الآخرون الذين حملوا صورتها فاترة فى نفسى ، فهؤلاء جميعاً لا يقنعون بباريس صغرى ولا يقنعون بغير باريس الكبرى أو بما يدانيها من كبريات المدائن . وقد يكون لهم من ذلك عذر . فمن عرف العالم صغر العالم فى عينه وصار لا يرضيه الا خير ما فى العالم وأعظمه . كما ان من عرف الناس صغر شأن الناس عنده فأصبح لا يرى الخير منهم الا فى قليل . أما الاكثرون فيرضون من الحياة بكل بريق تجود به الحياة ويجدون فى كل باريس صغرى عزاء عن باريس الكبرى وغيرها من من كبرى المدائن . وهؤلاء فى الحياة أوفر من السعادة حظاً وأعظم من الرضى نصيباً .

ولكن ، أشرقية بخارست أم غربية ؟ أم هى لاشرقية ولا غربية ؟ هى فى مظهرها أقرب الى الغرب ولكنها تتصل بالشرق فى كثير ، وكأنها لاتزال متأثرة بحكم الترك الذى لم يصرفه الاستقلال عنها الامن ستين سنة . وكما تحبو تركيا الآن نحو حضارة الغرب حبت رومانيا منذ استقلت نحو هذه الحضارة فنالت منها نصيباً وبقى لها من ماضيها نصيب .

فليس لأهلها من النشاط فى حركتهم مثل ما لأهل الغرب وان كانوا أكثر من أهل الشرق نشاطا . وما يزال فيها من تراث الشرق بقاء الامية فى بعض أنحائها وبقاء البؤس المستسلم مستحوذاً على أطرافها . ثم أن الطبيعة لم تجد عليها بما يعوضها عن شرقيتها وبجعل المظهر الغربى ظاهراً فيها ظهوراً واضحاً .

ونحن نقصد الغرب نخلط به شرقيتنا . لذلك قصدنا غداة وصولنا بخارست الى مصيف سنايا المرتفع بين الجبال والذى يبعد مسيرة أربع ساعات فى القطار عن عاصمة رومانيا . قصدناها لنقيم بها حتى صباح الاثنين ولنعود منها فنقضى ببخارست ساعات ثم نغادرها الى جيورجيو ونأخذ الباخرة من مرسى رمضان على الدانوب كى تقلنا الى بودابست .

وسار بنا القطار الذاهب الى سنايا بين سهول ومزارع حتى وصلنا الى بلوشتى، ثم عاد أدراجه زمناً ليعدل على طريق سنايا . هانحن انتقلنا حقاً الى طبيعة غير طبيعة بلادنا . طبيعة يألفها من زار فرنسا وانكلترا اوسويسرا ومن اخترق خلال الالب جناتها اليانعة . هاهى الجبال تعلو تنشق أثناءها مسارب الماء المتدفق من الثلوج المتراكمة فوق قللها لتنحدر فى اخاديد الى الغوطات والوديان ولتنبت حولها أحراش الاشجار المختلفة ماتزال زاهية برغم اقتراب الخريف . وها هو القطار يشق الماء والخضرة وتحدق به وجوه حسان استقلت القطار الى سنايا والى مابعد سنايا . وهذا هو الجو بدأ يتغير . بدأ ذلك القيظ الذى ضاق به ذرعنا فى بخارست تنجلى غمته لينعش هواء الجبل الجميل النفوس والقلوب . ثم هذه سنايا

تقترب ، وهذا القطار يقف عندها فننزل منها لنتسلق أول خروجنا من باب المحطة سفوحا ودرجا وسفوحا أخرى كى نصل الى فندق سنايا بلاس فنطل من نوافذه على جبال دائمة الخضرة متجددة الجمال تحت ضياء الشمس كلما اضاءت وتحت الغمام كلما حجب الشمس الغمام .

سينايا مصيف العائلة الملكية . وبها قصران يتحدث عنهما المتحدثون فلا بد لنا من زيارتها . واذ الوقت مساء فلتكن الزيارة صباح غد ولنقض سويعات هذا النهار ومساءه فى الحديقة الجميلة أمامنا وفى طرق سنايا المشقوقة فوق السفوح . ما أكثر زوار سنايا وما أشدهم حرصاً على المتاع بهوائها الطلق وبمناظرها الجميلة! لا ريب سيقصد كثيرون منهم قصر الملك صباح غد مثلنا ولا ريب سيقضون أحدهم فى متاع جميل بعطلة الاسبوع والهواء الجميل .

وقمنا فى الصباح قاصدين القصر فاجتزنا فى الطريق اليه كنيسة القرية متقنة البناء ، فى سقفها وزجاجها ومنارات أجراسها الرفيعة المذهبة شىء من الفن غير قليل ، وفيها من عباد الله الذين جاءوا يرتجون عن آلام العيش سلوة وفى الحياة هذا الخيال الذى يسمى الشكل وراءه ويسميه السعادة خلق كثير . دخلناها برهة ثم صعدنا فوق الجبال نطلب القمة وهبطنا من جديد الى الطريق المؤدى الى قصر الملك ومررنا فيه مع السائرين وعربنا الاتومبيلات قاصدة اليه مسرعة . فلما تكشفت للنظر اعاليه كنا أمام منظر من أبهى مناظر الطبيعة نظمتها يد الانسان ونسقتها ، وكنا أمام قصر تضوع عمارته وحدائقه وفساقيه وتماثيله ومياهه فناً جميلا .

القصر على ربوة عالية تحيط به حدائق نسقت فيها الزهور

مختلفة الالوان متجاوبتها حتى لكأنما هى ليست ألوانها وانما صبغها بها نقاش على مايريد فن الألوان ويهوى . وهى مع ذلك زهور طبيعية ذات شذاً وذات جمال . وفساقى المياه تتخلل الزهر وتقوم فوقها تماثيل تحكى صور الحياة فى مختلف ألوان الحياة . والقصر الفخم مشيد خلال ذلك كله لاتدرى ان كان كبيراً أوصغيراً لأنك فى شغل بدقائق فن العمارة والنحت والتمثيل فيه عن تقدير مساحته . فأبوابه وجدرانه وأبراجه ومناراته فن كلها لذاتها وفن بالنقوش والتماثيل المتصلة بها . كل قطعة فيه تحفة . وهذه التحف مازال مصونة الداخل لايقتضها الجمهور كما اقتض يلدز وفرساى وفتنبلو وغيرها ، لأن رومانيا مازال ملكية وما يزال لها ملك وان كان طفلا . ولكن بحسب الجمهور ظاهر القصر وحدائقه وتماثيله ففيها من روعة الفن وجماله مايأخذك عن نفسك ساعات وأياماً .

فى هذا القصر مات الملك فرديناند . وفى هذا القصر تقيم أحياناً الملكة الكاتبة المحبة للجمال فى كل شىء وفى الانسان مع كل شىء. ولهذا يبقى القصرقدسا لاتطؤه أقدام الجماهير وان كان قد بنى بأموال الجماهير وبالعرق الذى يتصبب من جبينهم وبالدماء التى تجرى فى عروقهم

وقضينا بقيه النهار فى اعجاب بالقصر وفى جولات فى أنحاء سنايا حتى اذا أقبل الليل أقبل البرد معه فأوى الناس الى الفنادق وما بين الجدران. وفى الساعة السابعة من صباح الغد عدنا بالقطار الى بخارست فبلغناها قبيل الظهر ودرنا فى انحائها . وفى الساعة

السادسة من مساء ذلك اليوم ركبنا القطار الى جيورجيو فرمضان واستقلمنا الباخرة قاصدين بودابست.

ومع أنا لم نر الا قليلا من هذه التي يسميها أهلها باريس الصغيرة فقد عرفت أثناء اقامتي القصيرة بها شيئا عن رومانيا غير قليل وقد غادرتها آسفا . وكيف لا يأسف الانسان لمغادرة بلد عرف فيه انسانا ظريفا يوحي اليك بكل معاني المحبة والصداقة لأول ما تعرفه ولا يتركك الا بعد أن يترك في نفسك أجل أثر من رقته ووداعته وجميل عشرته .

شيء عن رومانيا

كان مقامنا في رومانيا قصيراً، فلم أمكث في بخارست أكثر من ثلاثين ساعة. وقضينا في الذهاب الى سنايا وفي المقام بها وفي العودة منها وفي السفر الى مرفأ رمضان . لنركب الدانوب الى بودابست ، ثمانيا واربعين ساعة . لكني صادفني من الحظ في هذه الفترة القصيرة أن قابلت رجال مفوضية مصر في بخارست واتصلت من طريقهم بأحد كبار الصحفيين وعرفت بسببهم شيئاً عن رومانيا قد يعني الوقوف عليه للاحاطة ببعض شأن هذه البلاد ، ولأنه مقدمة صالحة لكثير من الافكار والخواطر التي أثارها عندي ما رأيت حين نزلت بودابست وفينا وحين تبينت فيها وفي براج بعض الآثار السياسية والاقتصادية للحرب الكبرى وللصلح العجيب الذي نشأ عنها .

أول ما يشعر به من ينزل رومانيا ويتصل بأحد الرومانيين هذا الزهو بما كسبت رومانيا في صلح سنة ١٩١٩ والحيرة في السبيل الى الاستفادة من هذا الكسب . فبخارست كانت وما تزال بلداً بلقانيا . لكنها كانت عاصمة سبعة ملايين فأصبحت عاصمة سبعة عشر مليوناً بما اضافت لها معاهدات الصلح من مغانم الحرب التي حكم الحلفاء بأنها من حقهم وحق من انضم اليهم . وكيف السبيل الى هذه الاستفادة ، وكيف يمكن أن تكون بخارست عاصمة كبيرة ؟ في هذا يفكر أهل رومانيا وساستها وان كانوا في شغل بمسائل شخصية شتى تجعل تفكيرهم هذا بطيء النتائج .

والحق أن أمام الساسة الرومانيين مشاغل كثيرة تجعل جهادهم ليقيموا دولة واحدة من رومانيا القديمة ومن الاجزاء التي ضمت اليها من النمسا ومن المجر ومن بعض ولايات الجنوب جهاداً عسيراً شاقاً . وليست تقف شقته عند ما اضطرب ويضطرب به بلاط رومانيا من اهواء وميول ، لجلالة الملكة ماري الكاتبة المقتدرة منها حظ غير قليل . بل ان بين ولايات رومانيا القديمة التي لم تتحرر من الحكم التركي الا منذ ستين سنة ، وهذه الولايات الجديدة التي كانت مع المجر ومع النمسا، بون شاسع في الحضارة وفي الثقافة وفي نظام الحياة. سكان هذه الولايات الجديدة لا يكاد يكون فيهم أميون . وسكان رومانيا القديمة أكثرهم أميون . والمتعلمون من أهل هذه الولايات الجديدة لهم ثقافة قديمة كانوا يشيدون عليها مع أهل النمسا وأهل المجر، ومثل هذه الثقافة ليست للمتعلمين من أهل رومانيا القديمة. ثم ان أهل هذه الولايات الجديدة مازال لهم الى الممالك التي انسلخوا عنها حنين وما زال في نفوسهم عليها عطف في حين أن أهل رومانيا القديمة يعتبرون النمسا ويعتبرون المانيا دولا عدوة ويدينون لفرنسا وللثقافة الفرنسية بإيمان لا يدين به من أخضعهم الصلح لحكمهم

نشأ عن هذا الاختلاف بين العنصرين شقاق في شؤون كثيرة هو بعض هذه المتاعب التي تجدها رومانيا في ايجاد الوحدة بين اجزاء رومانيا الكبرى . وأول مظاهر هذا الشقاق ماتعلق بحكم البلاد . صحيح أن لرومانيا برلمانا مكونا من مجلسين على خلاف غيرها من دول البلقان التي اختارت نظام المجلس الواحد . وصحيح أن الولايات التي ضمت بعد الصلح لاهلها حق الانتخاب كأهل رومانيا

القديمة . لكن أهل رومانيا القديمة ينادون بأنهم أحق من أهل الولايات الجديدة بالحكم وأن أهل هذه الولايات لاحق لهم فى التذمر من هذا الحق ، فهم الذين ضحوا فى الحرب وهم الذين كان لهم الى جانب الحلفاء النصر والظفر . والحكم حق للغالب لا للمغلوب . ثم أن هؤلاء الذين كانوا امس الولايات المعادية لرومانيا فى الحرب لم تبلغ نفوسهم من الصفو مبلغاً يجعل منهم رومانيين بالعاطفة مثلما هم رومانيون بالقانون . والحكم أن لم يقترن بالعاطفة الوطنية كان وبالا على البلاد التى يسودفيها . فالى أن تندثر فى النفوس عواطف المنافسة والبغضاء والى أن تصبح رومانيا الكبرى وطناً للكل متأصلا الاحساس به فى النفوس يكون من الخطر على رومانيا أن يتولى الحكم فيها غير أهلها الاقدمين .

فأما أهل الولايات الجديدة فلا ينكرون على أهل رومانيا القديمة حقهم فى ولاية الحكم ولكنهم ينكرون أن يكون هذا الحق مقصوراً عليهم وألا يتعداهم الى أهل الولايات الجديدة . ولهم حجتهم . فهم قد أصبحوا رومانيين بالقانون فيجب أن يكون لهم ما لكل رومانى من حق لافرق بين قديم وجديد . وهم أرقى عقلية وثقافة وأكثر علماً وبصراً بأمور الحكم ، فاشتراكهم فى تولى شؤون الدولة يصلح من هذه الشؤون . ثم أن العاطفة الوطنية لاتتولد فى نفوسهم وفى نفوس أبنائهم بهذا الحرمان الذى يراد قسرهم عليه . وانما تتولد وتنمو بازدياد المصالح المشتركة بينهم وبين بنى وطنهم أهل رومانيا القديمة . ولا يتم هذا الاشتراك مع اقصائهم عن الحكم ، ولا تنمو العاطفة الوطنية فى نفس من يحس بظلم كان لايحس بمثله قبل أن ينضم الى رومانيا .

والعواطف يرثها الابناء من الآباء . وما دام أهل الولايات الجديدة أكثر عدداً وسيكون أبناؤهم كذلك ، فسيكون لهؤلاء الابناء لاشك نصيب فى الحكم وسيكون هذا النصيب مشوبا فى نفوسهم بعاطفة ليست هى عاطفة الامتزاج التام مع مواطنيهم أهل رومانيا القديمة .

الى جانب هذه المشكلة القائمة بين الاقدمين من أهل رومانيا وبين الولايات الجديدة مشكلة أخرى يتشعب حولها الرأى . تلك أن حالة رومانيا الاقتصادية سيئة كحالة الدول التى اشتركت فى الحرب سواء منها المنتصر والمهزوم . ولرومانيا فى الولايات الجديدة موارد ثروة لا نهاية لها ولكنها تحتاج الى الاستغلال. واذا كانت منابع البترول تستغل اليوم فيها استغلالا صالحاً فان كثيراً جداً من هذه المنابع ما يزال بكراً لما يفترع . فأما الغابات التى تجعل رومانيا من أكثر بلاد العالم ثروة فى الاخشاب فما زال بعضها تأوى اليه الحيوانات الضارية لان يد الانسان لم تعمل فيه عملا . وكالبترول والاخشاب موارد للثروة كثيرة تجعل من رومانيا ميداناً اقتصادياً بالغاً فى الغنى لا عيب فيه الا عجز صاحبه عن استغلاله . وكثيرون من الكتاب وأهل الرأى فى رومانيا ينادون بضرورة الاستعانة برأس المال الاجنبى من طريق القرض لاستخراج ما فى بطن الارض من معادن ، ولادخال أخشاب الغابات ميدان الصناعة . وأصحاب هذا الرأى لا يريدون أن يكون لليد الاجنبية فى الاستغلال مدخل . فهم يعترضون أشد الاعتراض على منح امتيازات للشركات الاجنبية كالامتيازات التى منحت فى

الماضي لشركات انجليزية وغير انجليزية فى استنباط البترول من الارض . لكنهم يرون أن لا سبيل غير الاقتراض وغير الاستفادة بالغنى الاجنبي على أن يكون عاملا لا صاحب مال لكى تدخل هذه الاموال الطائلة المهملة فى عداد المقومات .

غير أن الحكومة تقف فى وجه هذا الرأى وترى الاكتفاء برؤوس الاموال القومية حتى لا يتسرب لحكومة أجنبية خيال بامكان الاستفادة اقتصاديا أو سياسيا من رومانيا بسبب مايكون لاهلها من رؤوس أموال فى القروض الرومانية . ولهذه الحجة ظاهر من الوجاهة يدفعه معارضو الحكومة بأن رؤوس الاموال لم تعط فى أمة مستقلة حقا لامة أخرى تتدخل بموجبه فى شؤونها ، وبأن الحكومة انما تذهب هذا المذهب لان المصارف ورؤوس الاموال التى توظف فى موارد ثروة رومانيا ملك لأنصار الحكومة الذين يخشون اذ دخلت أموال جديدة فى ميدان الاستغلال أن تقل ارباحهم وهم عليها أشد مما هم على المصلحة العامة حرصاً .

ومشكلة ثالثة تجعل جهاد الرومانيين فى سبيل وحدة رومانيا الكبرى عسيراً وتجعل نتائجه بعيدة ، تلك ما حدث فى هذه البلاد أخيراً من توزيع الثروة العقارية توزيعاً قضى على كبار الملاك قضاء مبرماً . فمجاورة روما لروسيا جعلتها مستعدة لعدوى البلشفية أكبر استعداد . وقد بلغ الامر ذلك فى زمن من الازمان أن تعرض العرش للانهيار وان تعرضت البلاد للثورة . فلم تجد الحكومة ولم يجد الملك يومئذ وسيلة لتفادى ما رأوه كارثة مقبلة الا أن سنوا قانوناً وزعت بموجبه أملاك كبار المزارعين على

صغارهم وعلى الفلاحين بثمن صورى ، فأصبح الكل ملاكا ودافع الكل عن الملكية واتقت رومانيا البلشفية اذ تلهى كل مزارع فقير كان مستعداً للثورة بما ناله من طريق القانون بعد أن كان له أمل في نيل مثله من طريق الثورة .

وقد أصابت نتائج هذا القانون أهل الولايات الجديدة كما أصابت رومانيا القديمة . بل ان بعض كبار الملاك في الولايات الجديدة ممن احتفظوا بجنسيتهم القديمة ليضجون اليوم بالشكوى ويرفعون عقائرهم بأن التشريع لا يجوز أن يسرى عليهم . وكبار الملاك من أهل رومانيا القديمة ومن الولايات الجديدة متذمرون بطبيعة الحال من قانون أنتج لهم أن أصبحوا فقراء مسودين بعد أن كانوا سادة أغنياء . وليس ينتظر منهم في مثل هذا الظرف أن يكونوا في الجهاد الجديدلوحدة رومانيا الكبرى أعوانامتحمسين. فاذا ذكرنا أنهم أكثر الطوائف ثقافة وأرقاها ادراكا ، بسبب مركزهم الاجتماعي القديم ، بدا لنا مقدار عظم هذه المشكلة مضافة الى المشاكل الاخرى التي تقف في سبيل الجهاد لتنظيم رومانيا الكبرى .

على أن هذه ليست كل المصاعب التي تقف في سبيل جهود رجال رومانيا . فثم غيرها ليس أقل منها دقة واثارة لعناية الجمهور والساسة جميعاً. وأولى هذه المصاعب مسألة العرش والجالس عليه . فمنذ نزل البرنس كارول عن ولاية عهد أبيه مفضلا أن يتبع الغانية التي أحبها وأحبته ليطوفا أنحاء الارض وليقيما كلما حلت لها الاقامة في أم المدن باريس ، ومنذ آلت ولاية العهد الى البرنس الطفل

ميخائيل الجالس اليوم على عرش جده — من ذلك الحين تكون في رومانيا حزب يطالب ببقاء العرش لكارول . وكان هذا الحزب صغيراً بادئ الامر وكانت الملكة ماري أم كارول من ألد خصوم أعوانه . فلما توفي الملك فردنياند وأقسم نواب الامة يمين الولاء لميخائيل بدأ حزب كارول يزداد ويقوى ، ومع أن المسيو برتيانو رئيس الوزارة الرومانية الحاضرة وأشد أنصار سياسة الملكة ماري أبداً وقوة كان في صف الملك الطفل بادئ الامر فهو قد بدأ يشعر بالحركة لكارول تقوى وتنتشر في حزب الفلاحين بنوع خاص ، وهو قد بدأ لذلك يفكر في التوفيق بين الملكة وابنها وفي دعوة كارول الى عرش أبيه بشروط اتصل بي ان المفاوضة دائرة بشأنها بين رئيس وزارة بخارست وبين البرنس وأعوانه في باريس . غير أن ذلك ليس معناه الثقة في امكان اتفاقهم ، فهذه المفاوضات ما تزال سرية صرفة . ثم ان البرنس كارول ما يزال له خصوم في رومانيا ان قل عددهم فلهم من تأييد الملكة الكاتبة عون وقوة لا يستهان بهما .

ومشكلة غير كل ما تقدم تعوق الجهود التي تبذل لتنظيم رومانيا الكبرى . تلك أن خصوم لوزارة الحاضرة يرون أنها تعتمد في البرلمان على أغلبية زائفة لا تمثل رأي البلاد . فقد استعملت في الانتخابات الاخيرة ألوان من العسف والاضطهاد بل من الغش ومن التزوير مما تحدثت به الصحف وأكدته في حينه من غير أن تجرؤ الحكومة على محاكمة المسؤولين فيها . واذا لجأت الحكومة الى هذه الوسائل في الانتخابات بعد أن فشلت مساع

كان يبذلها المقربون لقلب جلالة الملكة في سبيل التوفيق بين الاحزاب المختلفة على قاعدة تأييد سياستها . وحكومة هذا مبلغ الثقة بها لا تستطيع أن تفرغ للاصلاح ولما تقتضيه مشكلة تنظيم رومانيا الكبرى من جهود جسام .

وهذه المشاكل التي استطعت أن أقف عليها هي قليل من كثير مما تضطرب به سياسة رومانيا، وبسببها تعددت الاحزاب في هذه المملكة الى حد لم يعرف حتى في فرنسا . ويتصل رجال هذه الاحزاب بزعمائهم أكثر من اتصالهم بمبادئهم لان لكل مطامع وكل يتعجل فرصة تحقيقها . والحرب بين هذه الاحزاب حرب عنيفة لا هوادة فيها ولا رحمة ، ووسائلها هي وسائل كل حرب حزبية : الخطابة والصحافة . وشدة هذه الحرب واشتغال كل حزب بتأييد رأيه للوصول الى الحكم أكثر منه للوصول الى نتيجة سريعة في تنظيم المملكة الكبيرة التي آلت للرومانيين بعد الحرب ، يجعل هذه الموارد الاقتصادية العظيمة التي كانت لرومانيا من قبل والتي ضمت اليها مع الولايات الجديدة معطلة دون استغلال على الطريقة التي تقضي بها الحضارة الحديثة .

* * *

الى متى يظل هذا الشلل المقعد رومانيا عن النهضة السريعة ؟ . هذا ما يتعذر التكهن به . ولعل قياسه الى تقدم الصحافة ونهضتها يشوبه شيء من المجازفة . فالصحافة في رومانيا تقدمت في الظروف الاخيرة وتتقدم الآن تقدما سريعاً لانها أصبحت أداة قوية في الحياة العامة . أصبحت سلطة رابعة بل صاحبة جلالة . أصبحت

كذلك بطبيعة الظروف وبطبيعة هذه المشاكل التى أشرنا اليها والتى جعلت من الصحافة قوة كقوة الجيش فى تأييد حكومة أومناهضتها. وليس لغير الصحافة من مرافق رومانيا ظروف كهذه التى دفعت بالصحافة الى الامام . على أن تقدم الصحافة تقدما يشعر به الانسان أنه أكيد ثابت يبعث الى النفس الاعتقاد بأن الصحافة ستكون أداة نهضة لسائر المرافق ، وبأن هذا التشعب فى الحزبية وفى المصالح سينتهى فى زمن غير بعيد الى تغلب بعض الآراء وبعض المصالح تغلباً صحيحاً سببه الاقتناع والايمان القائمين على تقدير سليم ،فنهضةالمرافق كلها نهضةأكيدة ثابتة كنهضةالصحافة نفسها .

والحق انى رأيت من نهضة الصحافة ومن أفراد هذه النهضة فى بخارست ما أدهشنى . فقد زرت ادارة جريدتين تصدر احداهما فى الصباح جريدة اخبارية ، وتصدر الثانية فى المساء حزبية مؤيدة لرأى المعارضين للحكومة ، واسم الاولى الصباح واسم الثانية « الحقيقة »، وكلاهما تقوم بأمرهما ادارة واحدة وتحرير متصل وان كان لكل منهما نظامه الخاص وحجمه ومطابعه وورقه . وكان أول ما استوقف نظرى انتشار كل من الجريدتين فى دولة لايزيد سكانها عن سكان مصر الا قليلا . فكل منهما تطبع مائة وأربعين الف نسخة ، وتطبعها باللغة الرومانية التى لاتقرأ الا فى رومانيا . ولم تنتشر هاتان الصحيفتان ولا غيرهما من صحف رومانيا هذا الانتشار الا بعد الحرب وبعدانضمام الولايات المتعلمة من المجر ومن النمسا الى رومانيا .

ولذلك بدأ ارباب هذه الصحف يعنون بأمرها عناية كبرى. أليس

انتشارها يزيد فى ايرادها ! فاذا أصلحت احداها شيئاً من أمرها سبقت غيرها . فلتتسابق جميعاً فى مضمار الاصلاح ولتقم جميعاً بالنهضة الصحفية . وهى تقوم بهذه النهضة مطمئنة واثقة . ورأيت فى ادارة هاتين الصحيفتين — الصباح والحقيقة — أحدث آلات الطباعة وأسرعها وأدقها . ورأيت أصحاب الجريدتين وقد وضعوا برنامجاً لاصلاحهما كى يقفا الى جانب أحسن الصحف فى أكثر الامم تمدنا وحددوا لتنفيذه عشر سنوات مضى منها خمس . من هذا الاصلاح ان أضافوا الى دار الجريدتين داراً أخرى وجعلوا من الدارين عمارة شائقة تدور فى أدوارها جميعاً فلا ترى الامعدات الطباعة والتصوير خلا غرف الاخبار والتحرير . وترى من هذه المعدات جديداً جىء به لزيادة الاتقان والدقة . ولو أن القارىء كان صحفياً متصلا بطباعة الصحف لقصصت عليه من أمر ذلك الاصلاح فى فن الطباعة مايشركه واياى فى الدهشة والاعجاب .

وليست تقف ادارة الصباح والحقيقة عند اصدار الجريدتين . بل يتولى رئيس تحريرها المستر بتسارى بمعونة زملائه اصدار عدة نشرات أخرى بعضها للاطفال وبعضها لسواد الجمهور وبعضها للخاصة يقرب لكل طائفة من هذه الطوائف أسباب النهضة العالمية بالطريقة التى تقربها الى ادراكها والى سلامة حكمها . وتلك أسباب جديدة تعجل نهضة رومانيا برغم الحوائل والمشاكل السياسية التى أوردت . ولاريب فى أن لغير هاتين الصحيفتين من الجهد المحمود مثل مالها .

***

على أن الجهد للنهضــة العامة يجب أن يكون عنيفاً . فان فى بعض المرافق ركوداً يقابل هذا التقدم فى أمر الصحافة أو يزيد عليه . واذا كان ماقصصت من أمر الغابات والمناجم وآبار البترول انما وقفت عليه من طريق الرواية والاطلاع فان ما رأيت فى المزارع أثناء سياحتى من قسطنزه الى بخارست برغم خصب أرض رومانيا خصبا عجيباً هو بعض مظاهر هــذا الركود . ومظهر آخر هو سكة الحديد . فعربات الدرجة الاولى فى رومانيا دون عربات الدرجة الثانية فى مصر . ركبنا القطار من بخارست الى جيورجيو قاصدين صرفاً رمضان لتأخذ الباخرة الى بودابست . والقطار يقوم الساعة السادسة ويصل الساعة التاسعة مساء . دعك من فرش الديوان وعدم العناية به ، ويكفيك معى أن تنظر الى هــذا المصباح الذى يقال انه يضيئه. مصباح ضئيل يضاء بالزيت ولا يكاد يضيء . كنا ثلاثة فى الديوان لايرى واحد منا وجه صاحبه ولا يتبين من كل شخصه الا شبحاً يتحرك أو يسكن . والمحطات تضيئها مصابيح البترول من طراز نمرة ٥ الذى بطل استعماله بمصر أو كاد حتى فى القرى والارياف. والقطار يقطع هذه المسافة التى لاتزيد على ستين كيلو متراً فى أكثر من ثلاث ساعات . هذا مع أن الطريق من بخارست الى جيورجيو وصرفها من الطرق التى تصل بين رومانيا وغيرها من دول البلقان

وكم كنا سعداء بالخلاص من هذا القطار وبالنزول الى السفينة النهرية (ساترنس) التى تقلنا الى بودابست . وكم كنا نود أن ننتقل الى أوربا التى نعرف بعد اسبوعين من مغادرتنا مصر. لكنا وجدنا عقبة أخيرة . تلك هى جمرك الخروج من رومانيا . نعم جمرك

الخروج !! وكان أثقل من جمرك الخروج من تركيا . فقد سألنا عماله عن النقود التى معنا. ولما أخبرناهم أنا لم يبق معنا من النقود الرومانية الا القليل لم يكفهم هذا بل سألوا عن غير النقود الرمانية . واضطررت أن أبرز لهم تذكرة شخصيتى كرئيس تحرير السياسة ليعفونى من اسئلتهم الكثيرة ، وليعتذر أحدهم بأن قوانين الدولة تقضى بأن لايخرج منها نقد بغير اذن من وزارة المالية وبانه تجاوز عن عدم حصولى على هـذا الاذن لوجود موظف المالية الى جانبه ولتسامحه . وشكرت ونزلنا قاصـدين السفين معتقدين أنا انتهينا فاذا بنا يجب أن ننتظر حتى نمر أمام عامل مراقبة الجوزات . وانتظرنا ثم مررنا وأقلعت بنا الباخرة وأنا أقول فى نفسى : أوليس خيراً لهؤلاء الناس أن يحسنوا معاملة الأجانب الذين يزورون بلادهم ساعة مغادرتهم اياها :

ثم صرفنى عن التفكير فى رومانيا وفى جمركها هـذا البدر المكتمل تكبد السماء وألقى على موج ماء الدانوب كساء من لجين . وقديما كان البـدر لى صديقا وكان لى عن كثير من مشاغل الحياة خير عزاء .

في بودابست
بعد أربعة أيام على الدانوب

لما اعتزمت اجتياز أوربا عن طريق الاستانة فروما فالمجر والنمسا روى لي صديق عن أحد أصحابه ركب قطار أكسبريس الشرق من الاستانة الى باريس فظل يشعر بأنه لما يصل أوربا حتى اذا اجتاز القطار البلقان اذا هذا القطار عينه قد صار أنظف مما كان لأن الوسط الذي أحاط به خلع عليه من معاني البهجة ما نبه النفس الى جمال فيه لم تكن لتعنى به في غير وسط أوربا الراقي . ولست أستطيع أن أقول ماقاله صاحب صديقي. فاني لم أركب اكسبريس الشرق وانما ركبت السفينة النهرية على الدانوب. وأشهد لقد شعرت ساعة نزلنا اليها في مرفأ جيورجيو بعبء ينزاح عن عاتقي وبغبطة تحتل كل نفسي . ألم نقطع في القطار من بخارست الى السفينة ثلاث ساعات لم نر فيها ضياء الكهرباء ولم نتبين فيها مظهراً للحضارة ؟ ألم نجتز جمرك المرفأ بعد عناء أي عناء ؟

وها نحن تحيط بنا الأنوار من كل جانب . وهذا البدر يعين الكهرباء ويمد على صفحة الماء من ضيائه مايذيب فيه فضة ونوراً. لكن هذا الاحساس بالطمأنينة لم يحل لما كنت أرجو من اعجاب بشواطىء الدانوب . فقد ظللنا بين رومانيا من جانب ، وبلغاريا ويوجوسلافيا من الجانب الآخر يوما وليلتين لانرى على الشاطىء الا مزارع مسطوحة لايحدها سوى الافق ولايحدث شيء مما عليها

عن جمال . وكادت النفس تمل هذا المنظر المتشابه الذى لا يبعث اليها بجديد لولا أن اسمدتنا جبال (بوابات الحديد) باحساس جديد . ما أشبه هذه الجبال بجبال البسفورو ما أشبه الدانوب بينها بالبوغاز هنالك! ننظر فاذا الاجبال عن ايمان الركب وشمائلهم وأمامهم ومن خلفهم واذا الدانوب بحيرة ضيقة تحصرها السفوح القاسية القليلة الشجر والخضرة ، ثم اذا السفينة كأنها وسط هذه البحيرة حيرى أوقف ربانها حركتها ومال بها الى أحد الشاطئين حتى يتميز الطريق . وما هى الا سويعة حتى تدور السفينة وتتقدم ، ثم اذا هى من جديد تحصرها وسط بحيرة ضيقة جبال تسد عليها الجهات الاربع . وعلى سفوح هذه الجبال ضياع منتثرة وقرى صغيرة وعليها طرق تمر من فوقها العربات والدواب والناس ولكنها خالية أكثر الوقت من كل مار . وركب السفينة فرحون بهذا المنظر الذى يحدث لهم فى كل أونة جديداً يبعث فى نفوسهم شوقاً لجديد غيره ويذرها حية متجددة لا يتطرق اليها السأم ولا الملال ولا شئ مما اليها من ملائم الجمود والموت .

لست أدرى ان كنت أغلو فى نسبة هذا الاحساس الى ركب السفينة . لكن ذلك هو ما بدالى منهم ، أوهو ما لاحظت منهم ، وهو احساسى أنا بأن جمال الحياة انما هو فى تجدد مظاهر الحياة . فجمال سكينة الخلد يبهر ولا يسحر . وهو أثر ترتجيه بعد الحياة وان تجبنا أن تتخيل صورة جماله قبل بلوغه . ولعل شعورى هذا هو الذى يجعل الجبل أحب الى من البحر . فلئن كان فى البحر وموجه وزوابعه وعواصفه من التجدد ما يجعل راكبه دائم

اليقظة ، الا أن البحر ماصفامتشابه . وهو ان ابتعث الخيال الى تصوير ما وراء الافق من غيب عجيب فانه لا يحرك المشاعر فى كل لحظة بجديد . فأما الجبل فأوى المباغتات فى كل خطوة من خطواته . أنظر الى هذا السحاب المترا كم فوق الارض يحجب الشمس ويحيل النهار ليلا والناس فى كل لحظة يتوقعون الودق يخرج من خلاله الماء ينهمر مطراً هتوناً ! ها أنت ذا تصعد الجبل فتخترق هذا السحاب فتعلو فوقه فتراه بين سفوح الجبال لججاً من دخان ، وترى الشمس ساطعة والسماء صفواً ، وترى الثلوج على قيد النظر منك . وحذار من الثلج ففيه فرجات للاقدام فيها مزالق . بل ما لنا ولهذه المراقى المنيفة الرفيعة فى الجبال نلتمس عندها دوام الجدة ! ان فى أقل الجبال ارتفاعاً مفاجآت تتكرر ولا يأمنها أشد الناس بالجبل معرفة . وفى المفاجآت جمال وحياة . فان أنت لم تكلف نفسك مؤونة التعرض لها واكتفيت من الجبل بصخرة تجلس فوقها رأيت حولك من تعدد مناظر الجبل ما يقل مثيله فى البحر برغم ما للبحر من هيبة وجلال .

وانحدرت الشمس وراء جبال أبواب الحديد وانتشرت الظلمة فى السماء رويداً رويداً حتى اكتسى بها كل الوجود . ثم أصبحنا فاذا نحن فوق السفين على الماء تحيط بشاطئيه سهول لا يقف النظر فيها سوى الافق . هنالك بدأ الملال يساودنا . ملال لم أجد سبيلا الى التغلب عليه الا أن بدأت أكتب الرسائل الاولى من هذه السلسلة الثانية . فلما كنا عصر الجمعة تبدت على الدانوب بشائر بودابست . تبدت جسور تتلوها جسور وبدت على قيد النظر جبال ومبانى

شاهقة . اذن نجونا من الملال وآن لنا أن ننزل منازل الحضارة . وأنستنا النجاة من الملال سخطنا على من أشار علينا بسياحة يجل الانسان فيها الطمأنينة وتجهده أثناءها الراحة حتى ليود أن ليس فى الحياة راحة ولا طمأنينة .

ونزلنا بودابست وقصدنا فندق سانجلير . وللفنادق فى المدن أثر فى النفس كبير . هى التى تدفع اليك بالفكرة الاولى والاثر المادى المباشر من المدينـة . وفندق سانجلير كخير الفنادق التى زرت فى مصر وفى مختلف عواصم أوروبا . فاذا أضفت الى ماتركه نزولنا به من حسن الاثر ، هـذا العناء الذى أضجرنا من الراحة وهذه الايام التى قضيناها فى بلاد البلقان ، سهل عليك أن تدرك جميل الاثر لما استقبلنا به بودابست

على أن هذا الاثر الجميل جعل يزداد بعد ذلك . والاسبوع الذى قضيناه فى عاصمة المجر هو لا ريب من خير أسابيع هـذه السياحة برغم جهلنا باللغة وعدم وجود أى مصرى نستطيع التفاهم معـه أو نعرف البلد من سبيله . واذا كنت لا أستطيع أن أقول أن مغادرة السفينة لبلاد البلقان قد جعل السفينة خيراً ممـا كانت فان الذى شعرت به أثناء مقامى فى بودابست انى انتقلت حقاً الى أوروبا حيث جمل الانسان الطبيعة بما أوحى له به ذوقه الجمال ، فجعل منها لنفسه متاعاً صحيحاً ، وحيث انشأ مظاهر الفن الجميـل فى خير صورها، وحيث أطلق الفكر الانسانى حراً فى الاعراب عما يجول به، حراً فى تنفيذه، لاتقيده الجماعة بأوهامها ولا تكرهه على الخضوع لاعباء خرافاتها .

ثمانية عشر يوماً منذ غادرت مصر لم أشهد فيها من مظاهر الفن الغربي شيئاً يقف عنده النظر . فسألت حاجب (بواب) الفندق لأول ما وصلنا وبعد ما أزلنا غبار السفر عن ملهى أستمع فيه الموسيقى والغناء ونشهد فيه مختلف المناظر . ودلنا الحاجب على الاورفيوم (L'orpheum) فذهبنا اليه وسمعنا موسيقى وغناء وشهدنا مناظر ورقصاً . ما أكبر الفرق بين الذى رأينا وبين ما يعرض علينا فى ملاهى مصر . فيما رأينا ببودابست فن ان يك من الفن الخفيف فهو فن تشعر بجماله وبراعة أصحابه . فن يقصد منه الى ارضاء النفس الانسانية لا الى اثارة مشاعر الانسان الدنيا ، فن تبتهج له تارة وتضحك أخرى وتخرج آخر الليل محدثاً نفسك عما شاهدته من جمال مكتفياً به غير باحث بعده الا عن راحتك وطمأنينتك الى عمل الصباح . وهذا شعرت أنا به برغم عدم معرفة اللغة . ما بالك لو أنى كنت أعرفها فأضيف الى شعر الموسيقى والغناء شعر اللفظ الجميل الترتيل .

وكنا نود أن نرى غير هذا الفن الخفيف فى الموسيقى شيئاً من الجد نسمعه فى الاوبرا . لكن أوبرا بودابست لم تكن لتفتح أبوابها الا فى أول اكتوبر أى بعد الموعد الذى حددناه لمغادرتنا اياها . فذهبنا الى ملعب للأوبرت شهدنا فيه رواية الكسندرا . رواية ظريفة فيها كثير من الكلام وكثير من الغناء ، والموسيقى تساير الكلام كما تساير الغناء . وخلاصة الرواية أن يحب فتى فى الجيش الكسندرا الجميلة وتحبه ، ثم يراها القائد فيغرم بها ويكره الفتى الضابط على تركها أو تجريده من سلاحه . ثم يقيم القائد

حراماً من الجند على الفتاة . فاذا جاء دور الضابط الذى يحبها كى يحرسها ألبسها ملابسه فخرجت ساعة استبدال الحارس . فرأس القائد فى تعريض كل من المحبين نفسها للهلاك دليلا على اخلاصها لحبها واقدامها على التضحية فى سبيله ، فنزل عن شهوته احتراما لهذه العاطفة الشريفة وتركهما يقترنان .

وكانت الممثلة التى قامت بدور الكسندرا بارعة الجمال براعة عاونت على حسن التمثيل وأتمها جمال الصوت ، فاجتمع لها من ذلك كله ماشد اليها أنظار الجمهور وقلوبه وعواطفه ، حتى لم يكن فصل من فصول الرواية يتم حتى تدمى الايدى بالتصفيق وحتى يهرع الكثيرون الى ناحية المسرح يمتعون عيونهم عن قرب بجمال هذه الفنانة الفتانة . رشيقة القوام نحيفته حلوة النظرة والابتسامة يزين قوامها ملابسها ويضيف الى رقتها جمالا ورشاقة ورقة . فهى قطعة فنية أبدعهـا الخالق لتكون للفن كمالا وزينة ولتكون على المسرح زهرة بجمالها وبلبلا بصوتهـا وروحا ملائكياً برشاقتها وخفتهـا وبوجودها البسام كله . لم نكن بحاجة لنفهم اللغة المجرية لتسرى الى نفوسـنا كل المعانى وكل العواطف التى كانت تعبر عنها هـذه الفتاة التى ينطق وجودها كله بأرق المعانى واجلها من غير حاجة الى أن تعرف اللغة التى تتكلم بها . ولولا ضيق وقتنا وكثرة مشاغلنـا لترددت لأرى الكسندرا وسحرها الجمهور سحراً يجذبه اليهـا ويقفه عند أقدامها .

هذا الفن الجميل فى الموسيقى وفى الغناء والتمثيل يزين مدينة من أجمل المدن موقعا على ضفاف نهر الطونة . ولئن لم يكن للدانوب

جمال البسفور فان الجبال الصغيرة التي تتخلل المدينة والتي جعل المجريون منها حدائق لنزهتهم تضيف الى الدانوب جمالا . ثم أن يد الانسان لم تترك هذا النهر من غير أن تجعل من الجسور التي يعبر الناس عليها فوقه ومن القصور القائمة على ضفتيه ومن التماثيل المطلة على مياهه مايكسوه بهجة وجمالا . صعدنا غداة وصولنا في جبل سان جلير المجاور لفندقنا . وكنا نحسب أنا سنصل من سفحه الى ارتفاع غير بعيد ثم نعود أدراجنا ، فاذا بنا نسير في طريق معبد تحيط به حدائق وأشجار حتى يصل الى حصن قديم أقيم في الماضي للدفاع عن المدينة . ثم ينحدر الطريق الى الناحية الاخرى من الجبل تحيط به الحدائق والاشجار حتى يصل الى تمثال سان جلير يطل من فوقه كهف تنحدر عنده المياه على جسر الزابت المعلق ويبارك بالصليب في يده عاصمة المجر منذ القدم . وذهبنا يوما على شواطىء النهر المنظمة ابدع نظام حتى وصلنا الى جزيرة سانت مارجريت . جزيرة صغيرة لو أنها تركت وشأنها لما كان لها شأن ولا كان فيها جمال. لكن يد الانسان جعلت منها جنة صغيرة بما غرست فيها من حدائق ومن أشجار باسقة وبما عطرت به جوها من ألوف أشجار الورد التي غرست على حافتها عند ملتقاها بمياه النهر . ولست استطيع أن أصف جمال جسر فرانس جوزيف الذي كنا نطل عليه من نوافذ فندق سان جلير . فن وجمال في عمارته يكاد ينسيك جمال جسر الاسكندر في باريس . فاذا أنت نظرت اليه والى البقعة المحيطة به ليلا بهرتك الانوار وكان نظامها أكثر لك بهراً من لألائها . وكم من سويعات قضيتها محدقا بهذا الجسر وأنواره مأخوذاً بها عن كل ماسواها ناسيا نفسي

وناسيا برد الايل وماقد يجره من مذهبات الصفو . على أن هـذه
الجسور وجزيرة سانت مرجريت والتماثيل البديعة المطلة على الدانوب،
ليست شيئاً الى جانب المبانى الضخمة البديعة القائمة على ضفتيه .
ولو لم يكن من هـذه المبانى الا البرلمان المجرى وقصر الهابسبور
لـكفى بهما لشاطىء الطونة جمالا . لـكن القصور المشيدة تتتالى
على الجانبين ، ومنها الفنادق الضخمة ، ومنها المتاحف البديعة العمارة ،
ومنها القصور القديمة ، ومنها مبانى الحـكومة ذات الرهبة والهيبة
والجلال . وفوق مياه الطونة وتحت جسوره وحول جزيرة سانت
مارجريت وبين هذه العمائر المشيدة كلها الجمال الفنى البارع تحبو
الزوارق وتمخر السفن وتتهادى المراكب ، فتضيف الى روعة الفن
حياة والى جمال تناسقه روحا ونشاطا

وداخل هذه المبانى أجمل وأروع من ظاهرها . دخلنا البرلمان
ودخلنا قصر الهابسبور . وبرلمـان المجر من أفخم برلمانات العـالم
عمارة ومن أحسن مافى عمارة العالم كله عظمة ودقة واتقانا . مايكاد
يواجهك سلمه الـكبير حتى تقف عند أول درجة من درجاته مأخوذاً
مبهوراً . يالعظمة ويالروعة ويالجمال ! كلا ! ليس هذا درجا يرتقى عليه
الى طابق أعلى وانما هو معرض فسيح لأكثر آيات الفن الجميل بهاء
ودقة ! ماهذه العمد وماهذه التماثيل وما هذه الصور ! ثم ماهـذا
السقف ! قف بربك أيها الدليل ولاتسرع ! ذرلنا من الوقت مايروى
ظمأ العين والنفس والروح من هذه الفتنة فى العمارة ! عرض كل درجة
من درجات هذا السلم ثلاثون مترا أو تزيد . وعلى الجدران الى جانب
الدرج صور ونقوش وتماثيل وعمد اقتعدت على تيجانهـا ثريات

الكهرباء جل جمالها عن وصف الكاتب. ونقش السقف وصوره ! أن القلم ليقصر عن وصف هذا كله في رسالة بل في كتاب، وأشك في أن تستطيع ريشة الرسام استظهاره . بل يجب أن يتعاون قلم الكاتب وريشة الرسام وشدو المغني ونغم الموسيقى ليعبر عن هذا التجاوب والاتساق في جمال نادر المثال . فليعذرني القارىء اذا لم يجده وفقني عند اولى درجات السلم الكبير غناء، وليصعد معي الى منتهاه ثم ليقف مرة أخرى باهتا مذهولا . أي شيء هذا الذي يؤدي اليه السلم الكبير ؟! هو القبة La Coupole قبة برلمان بودابست . ويحسب القارىء أن أخبره أني حسبتها قاعة العرش أول مادخلتها ليقدر جمالها الملوكي. دع البسط النفيسة التي تفرشها . فالبسط يمكن في كل وقت أن تبدل . ولكن أنظر الى عظمة المعمار ودقة الفن فيها وفي زخرفتها . هذه القبة الرفيعة التي تتسع مساحتها لبناء كامل كسيت جدرانها بالخشب الثمين ، وزخرف هذا الخشب بنقوش كلها الدقة ، وكفتت بوارزه بالذهب لاترى فيه تظاهرا بالغنى وانما ترى فيه جمالا فنيا باهرا . وليست هذه القبة قاعة عرش وانما هي صلة مابين قاعة الشيوخ وقاعة النواب والسلم الكبير ، بينها وبين كل من القاعتين صالة تدخين واستراحة فيها تماثيل ونصب يأخذ جمالها بالذهن فيريحه من عناء الفكر . فأما القاعتان فآيتان ليس لي الى الحديث عنهما من سبيل أو أجيد ألفاظ السحر والبهر والذهول ! ثم أين لي ألفاظ فن العمارة والزخرفة لأصف انتظام القباب والنوافذ المتصلة بها والعمد التي تقوم القباب فوقها وما على الجدران من ألوان النقش البديع . ومن حول القبة والصالات وقاعات الانعقاد

غرف لاعدد لها للوزراء ولمكتب كل من المجلسين وسكرتاريته وادارته . ومن وراء ذلك كله منظر بديع على الدانوب وجسوره وسانت مارجريت وزهرها وعبقه .

فأما قصر الهابسبورج فيرجع تاريخ عمارته الى ماقبل وصول الاتراك المجر فى القرن الخامس عشر . ولعله ترك فى نفس الاتراك أثرا عميقا . ففى عمارته وفى أخشابه وتذهيبها مثل لما ترى فى يلدز الكبير فى الاستانة . لكن فيه الى جانب ذلك عظمة وفنا لم نشهدهما فى شىء مما شهدنا فى الاستانة . هو يقع من شاطىء الدانوب المقابل للبرلمان على ربوة عالية . وفى ظاهره من الوجاهة ومن العظمة مايقفك عنده ولو لم تعرف أى شىء هو . يصعد من أسفل سفح الربوة الى أبواب القصر سلم فسيح من الرخام — أستغفر الله بل سلمان من الرخام يقابل كل واحد منهما الثانى ، وينعرجان فيقتربان ثم ينعرجان فينفسحان ، وهما اثناء اقترابها وانفساحهما يحيطان بحدائق نسقت من الحزون والزهر أبدع تنسيق . على أن الباب الذى يؤدى الى هذين السلمين مغلق الآن . وللقصر طريق آخر . فأنت ترتفع الى الربوة فى فنكلير (مصعد الجبل) لا يقتضيك أثناء الصعود دقيقة كاملة ، فاذا خرجت منه كنت بحذاء باب القصر المؤدى الى حدائقه . دخلنا اليه ووقفنا بين الخضرة والازهار نشاهد جمال عمارته البارع من ناحية ونشهد الدانوب يجرى خاضعا تحته من ناحية أخرى . ثم تقدمنا نسائل عن الوسيلة الى دخوله فلم يكن من يجيبنا حتى اعتزمنا الخروج معتقدين أن ليس الى زيارة داخله من سبيل . وفى انصرافنا لقينا رجلا داخلا اليه فسألناه فأجابنا بانكليزية

ضعيفة كى نتبعه . وأخذنا نتذاكر زيارة القصر وانتظرنا ذلك الرجل برهة ثم تبعناه الى غرف القصر وأبهائه . ما أشبه سلمه بسلم ماشهدنا فى بودابست من متاحف . بل أن الفكرة فيه هى الفكرة فى سلم البرلمان . تتصل كل درجة من درجاته بما بين الجدارين ويصعد السقف مع الدرج كلما صعد . لكن هذا السلم على عظمته وسعته بسيط لا يقفك عنده . وهذه الغرف الاولى الشبيهة بغرف يلدز لاتقفك هى الاخرى الايمايقص الدليل من تاريخ الملوك والملكات الذين أقاموا بها . وفى آخر هذه الغرف غرفة أقامت بها « بلا كون » زعيمة الشيوعيين الذين داهموا المجر فى سنة ١٩٢٠ أقام بها الرفقاء أعضاء الدولية الثالثة فدمروا وأفسدوا فيها كثيرا أعادته الحكومة الحاضرة الى سابق حاله . لكن فى القصر بعد هذه الغرف الاولى عجباً . تخطينا وراء الدليل الى دهليز أضاءه الدليل بنور الكهرباء الذى أضاء كذلك غرفة بعيدة، وماكاد حتى اذا بنا فى متحف للجمال نادر المثال . كسيت كل جدران الغرفة بأثمن الاخشاب نقشت أدق النقش وحفرت فيها اطارات صور زيتية بديعة لبعض آل الهابسبورج . وأستار النوافذ ! يالجمال النسيج والصناعة والنقش . والمدفأ بدعة وحده . والمناضد المرصع ظاهرها بطلاء من الميناصور على مايريد جمال الفن أن يصور ! وما أنس لا أنسى نقش الخزانات المستندة الى الجدران . خزانات لباس الملكة وخزائن عطرها . ألا ليست هذه الغرفة بحاجة الى ضوء النهار مخافة أن يكسف نوره بعض ساطع هذا الجمال . لكن انظر ! لقد أزاح الدليل أستار منافذه وأطفأ ضياء الكهرباء فاذا الغرفة تتبدى فى صورة جديدة من

الجمال ليس أقل من الصورة الاولى بهاء وروعة . وكذلك الجمال الصحيح لايجنى عليه وضح النهار جنايته على الجمال المصنوع الذى يحتاج الى ضوء مصنوع مثله لتألفه العين . ثم انظر ! ان هــذه النافذة لتطل على حديقة تستريح العين والنفس والفؤاد بالنظر اليها أى راحة . ومن وراء ذلك الدانوب لايكاد يبدو اذ يحجبه جناح من أجنحة القصر فلا تراه العين الا بعيداً بعيدا .

وانتقل بنا الدليل من هذه التحفة الفنية مقر أسرار الملكات من أبهاء الملك ذات الفخامة والمهابة والعظمة . فهذه الصالة الاولى بهو استقبال السفراء ورجال الدولة . تزين جدرانها تماثيل وصور وتزين سقفها الفسيح صــورة واحدة عظيمة وتطل نوافذها على الدانوب . وهى غرفة قديمة بنيت من عصــور الملوك الاولين . أما هذه الصالة الثانية فحديثة لايرجع تاريخ عمارتها الى أكثر من مائة وخمسين سنة . تصل اليها من الصالة الاولى بعد مرورك بصالة أخرى جعلت موضعاً ينتظر فيه ضيوف الملك سيدات ورجالا معاطفهم وفراءهم ثم ينزلون الى الصالة الثانيــة صالة الرقص المتصلة من ناحية أخرى بالمقصف . وصالة الرقص هذه يحار فيها الوصف وهى خالية . مابالك ساعة كانت تزين بالازهار والرياحين وتعبق بعطور السيدات يفوح شــذاها من أكتافهن وأذرعهن ومن ملابسهن ومن بسماتهن وتترنم بأنغام الموسيقى يوقعها فنانو الملك من مقاصيرهن العالية القريبة من السقف البعيدة عن الراقصين والراقصات فكأنما تتنزل اليهم واليهن من سموات الوحى ! وهذه الصالة الثانية من الرخام كلها . جدرانها وتماثيلها ونصبها وكل مافيها

رخام مجزع بديع اللون يضيف الى الرقص والموسيقى والى ملابس السيدات وعطرهن جمالا ورقة . وصور سقفها زينة أخرى تضاف لذلك كله . فاذا آن للرقص أن ينتهى انصرف الـكل الى المقصف. ذكر الدليل أنه كان يحتاج الى أكثر من أربعمائة كيلو من الحلوى وحدها لـكفاية هؤلاء الزائرين الى جانب مايتناولون من مرطبات ومفرحات .

هذا القصر القديم القائم على ضفة الدانوب اليمنى من أكثر من خمسمائة سنة يمثل الملك وعظمة الاستبداد وبطشه وجبروته . والبرلمان القائم على الضفة اليسرى من أقل من خمسين سـنة يمثل سلطة الأمة ونظام الديمقراطية . فكرتان خصيمتان شبت فى سبيل خصومتهما ثورات وأعلنت حروب وأزهقت أنفس وأريقت دماء. لم تهدأ العداوة بينهما يوماً من الأيام الا أن تذل احدى الفكرتين للاخرى وتحتمى فى كنفها . وقصر الملك يحتمى اليوم فى كنف قصر الشعب بعد أن أكره الشعب الملك على أن يقام له قصر يكون أعلى من قصر الملك مناراً وأروع جمالا وأبعد سلطاناً . والقصران مع ذلك هما بجمالهما زينة الدانوب فى مروره ببودابست . وربما ظل صاحبا القصرين زينة نظام الحـكم لو أنهما تعاونا فى سبيل جمال الحياة ماتعاون القصران فى بعث معانى الجمال الى البقعة التى يقومان عليها .

هذان القصران وما يتصل بهما من مبانى فخيمة أخرى ومايصل بين هذه المبانى من جسور بديعة وما تزدان به شواطىء النهر من طرق وحدائق وما يجرى فوق مياهه من زوارق وسفن ومراكب،

كل ذلك يجعل لبودابست رونقاً ليس للقاهرة حيث يشقها النيل شيء من مثله . على أن ذلك ليس كل ما فى بودابست من جمال . فهى فى امتدادها عن يمين النهر ويساره تتسع فى طرق جميلة تزيدها بلدية المدينة اليوم جمالا بحسن رصفها كما أنها جميلة بالمبانى العظيمة المطلة عليها . والحق أن بودابست من خير المدائن التى تضارعها عمارة وسكانا فى مبانيها ونظامها . وان بها لطريقاً يمتد فى آخرها باسم طريق اندرياسى ويصل الى غاب يشبه غاب بولونيا هو فى جماله يذكرك حقاً بطريق غاب بولونيا أضعاف مايذكرك به طريق كسلف فى بخارست . وفى غابة بودابست يقع المتحف الزراعى الذى زرناه صباح اعتزمنا السفر الى فينا بالقطار الذى يغادر عاصمة المجر فى الساعة الاولى بعد الظهر فكاد لجماله ودقته الفنية والعلمية وأبداع ما فيه يفوت علينا قطارنا . لكنى سأختم هذا الفصل بالحديث عن المتحف . ويجب أن أتحدث قبل ذلك عن غابة يتوج أعلاها برج اليزابث هى خير من تلك الغابة التى تشبه غاب بولونيا بل هى قطعة من سويسرا نقلت على ضفاف الدانوب .

فقد أخبرنى مجرى تعرفت اليه فى رومانيا وعلم أنى ذاهب الى بودابست أن جبل القديس حنا ومن فوقه برج اليزابيت يستحق الزيارة . وتفضل فكتب لى العنوان باللغة المجرية . فأرينا هذا العنوان لسائق أوتوبيل وركبنا وما ندرى ما جبل القديس حنا ولا ما برج اليزابيث . فسار الاوتوموبيل بادىء الامر فى طرق لا يلفت النظر فيها كثير حتى خيل الينا أن السائق لم يفهم مقصدنا . واستوقفناه ومر رجل فلما رأى عنوان صاحبنا المجرى

أشار الينا أنا فى الطريق . ولم تك بعد ذلك الا دقائق حتى اذا بنا قصد سفح جبل بين أشجار غابة بالغة غاية الجمال . ومع انا على أبواب الخريف فما تزال أوراق الشجر خضراء . وكان السحاب قد حجب الشمس وتساقط رذاذ زاد المنظر بهجة . وجعلت السيارة تدور على سفح الجبل صاعدة صاعدة حتى اذا بلغت من مسيرتها ارتفاعاً غير قليل رأينا أشجار الغابة تقل كثافتها ورأينا الدانوب وبودابست يتبديان فى هوة سحيقة بعيدة القرار يملؤها ضباب السحاب فلا نرى من منازل بودابست ومن النهر وسفنه وجسوره الا أشباحاً . وتابعت السيارة صعودها ثم وقفت بنا عند قهوة واضطررنا الى الصعود بقية الطريق على الاقدام . ولم نحتج الى كبير عناء لنبلغ البرج الذى يتوج قمة الجبل ونطل من فوقه على السفوح تكسوها الاشجار وعلى النهر وعلى المدينة . هنالك وقفنا نقدس هذا الجمال الرائع أنبتته الطبيعة فنظمه الانسان على ما أراد له فنه وذوقه الجمال . وظللنا فى اعجابنا زمناً ثم عدنا أدراجنا مملوءة نفوسنا طمأنينة بما رأينا مما زادنا حباً لبودابست وأسفاً على جهلى لغتها وعلى أنها ليست اللغة الفرنسيه لتكون عاصمة المجر هى باريس الصغيرة حقاً .

أما المتحف الزراعى فآية لم أر مثلها فيما شهدت من متاحف المدن المختلفة . دخلناه وما تزال أمامنا على مغادرة بودابست ساعات فدخلنا قصراً فخماً واجهنا أمام بابه سلم فى عمارة سلم البرلمان وسلم قصر الهابسبور . لكن حبلا مكسواً بالقماش الاحمر دلنا على أنه مقفل . فدرنا فاذا الابواب كلها مقفلة عدا باب صالة واحدة

وجدنا بها تماثيل وصوراً دقيقة الصنع غاية الدقة لمختلف الحيوانات: للخيل والبقر والكلاب والفيلة حتى لقد بلغ من دقة بعضها أن جعله حياً تلمح فيه ذكاء ونشاطاً. فلما درنا فى أنحائها وخرجنا منها ورأينا أنفسنا أمام أبواب مدت الحبال دلالة على اغلاقها شعرنا بشىء من ضيعة الرجاء فى متحف طالما حدثنا عنه فى رحلتنا المحدثون. ثم ألفينا رجلا هابطاً على السلم فأقدمنا وصعدنا ودرنا فى صالة فيها تماثيل أبدع الخيل وأصائلها، وفى أخرى فيها تماثيل الطيور الداجنة فى مختلف أدوار حياتها منذ البيضة الى الجنين فيها الى الفرخ الى الطائر فى كمال قوته. وفيما نحن هناك اذا حاجب أقبل يشرح لنا بالمجرية بعض ما نرى. ثم أشار الينا ان كنا استأذنا مدير المتحف فى زيارته. ولما أجبناه سلباً سار بنا الى غرفة المدير فحدثناه بالانجليزية طالبين هذه الزيارة. وكلف المدير الحاجب أن يدور بنا فى المتحف فشكرنا وخرجنا. ساعتان كاملتان ونحن ندور فى هذا القصر مسرعين مخافة أن يفلت موعد القطار ومخافة أن يفوتنا شىء من هذا الجمال والعلم والفن مما اجتمع فى المتحف. ليس صنف من أصناف الزراعة المعروفة فى المجر ولا حيوان من الحيوانات الزراعية ولا صناعة مما يتصل بالزراعة الا مثل هنا تمثيلا علمياً دقيقاً كاملا. فالحرير منذ شرنقته الى أن يصير حريراً ومختلف مايصنع منه ممثل كمال التمثيل لان دود القز يتغذى على التوت فهو اذن متصل بالزراعة. والاخشاب كلها منذ كانت شجرة الى أن صارت صالحة لصناعة الموبيليات. والنحل والعسل، والقمح والخبز على مختلف أنواعه. والآلات الزراعية.

وكل شيء زراعي على أحدث ما ادى اليه العلم . وهذا كله في نظام جميل كله الفن . وهذا كله يسحرك عن نفسك وعن وقتك الا أن تكون مثل ما كنا على سفر

وهـذا المتحف الزراعي الفذ بجماله العلمي ودقته الفنية مقفل الابواب دون الـكثيرين ، لان العلماء الذين يحتاج أمر العناية به اليهم ليسوا فيه لعجز ميزانية المجر عن أداء ما يحتاجون اليه من مرتبات !

أليس هذا محزنا ؟

***

ونسيت أن أذكر زيارتنا لمتحف الفن الجميل في بودابست وزيارات غيرها . لـكن بحسبي ماذكرت لتترك بودابست في نفسنا من جميل الأثر مالم تتركه مدائن غيرها . وربما كان مرورنا بها قبل مرورنا بما سواها من كبار مدائن أوربا له من هـذا الأثر فضل . لـكنا تركناها بعد زيارة المتحف الزراعي ونحن نود لوأن لدينا من الوقت مايسمح بمقام فيها أطول مما أقمنا . وما نزال الى اليوم كلما ذكرناها ننعم بتلك الذكرى ونتمثل ما اجتمع أمامنا من جمال الطبيعة وجمال الفن فنسعد به بمقدار ما تحتمل النفس في الحياة من سعادة .

المجر ضحية الحرب وبعيثها

أشرت فى الفصل السابق الى المجرى الذى لقينا أثناء سفرنا من بخارست الى سنايا وأشار علينا بزيارة جبل سان جان وبرج البزابث . واذ كان هذا المجرى عضوا فى السلك السياسى فقد تفضل فأعطانى بطاقة قدمنى بها الى الكونت شاكى عامل الاتصال فى وزارة خارجية المجر برجال الصحافة ، وذكر لى أنه أو سكرتيره يستطيع أن يرشدنى الى ما أرى فى المجر وفى عاصمتها . وذهبت غداة وصولى بودابست الى وزارة الخارجية وطلبت مقابلة الكونت شاكى فأخبرنى سكرتيره بعد أن حمل اليه بطاقتى أنه مشتغل فى لجنة وأنه على استعداد لمقابلتى فى وقت آخر اذا كان لدى ما أريد أن أحدثه فيه ، كما أنه كلفه أن يقوم بما يستطيع القيام به من خدمتى . وسكرتير الكونت شاكى شاب ظريف يتقن الفرنسية . فلما أخبرته أنى أريد زيارة بودابست والمجر قدم لى كتابا عن بودابست ودلنى على شركة السياحة المجرية أقف منها على كل ما أريد معرفته ثم أشار الى خريطة المجر المعلقة على الجدار مبينا لى الاماكن التى تلفت نظر السائح . وخريطة المجر هذه ليست خريطة المجر الحديثة على نحو ما وضعت معاهدات الحرب حدودها . بل خريطة المجر القديمة وضع على حدودها الجديدة خط أحمر ظاهر تمام الظهور

واذ استطرد بنا الحديث عن المجر أشار المجرى موظف الخارجية الى ما وراء الخط الاحمر قائلا : كانت هذه الاراضى كلها

ضمن المجر قبل الحرب . أما الآن فقد أخذت هذا القسم الشرقى رومانيا . وأخذت هذا القسم الجنوبى يوجوسلافيا وايطاليا . وأخذت هذا القسم الشمالى تشيكوسلوفاكيا . أنظر الى هذا القسم الشمالى ، هو على صورة الغول Dragon . وكذلك كانت المجر ضحية الحرب وان لم يك لها فى اعلانها يد ولا كانت عليها فى آثامها تبعة .

كذلك قال سكرتير الكونت شاكى . وقاله فى لهجة تدل على الاسف وفى لغة واضحة صريحة . لكنه لم يكن بليغاً فى أسفه على ما أصاب المجر من نكبة الحرب بلاغة جماعة من عامة المجر لا يعرفون الفرنسية ولا يدلون على عواطف الحزن بأكثر من اشارات لم تكن أقل أثراً فى نفوسنا من عبارة ذلك الشاب المهذب المتعلم . بينا كنا نزور المتحف الزراعى فى صحبة العامل الذى كلفه مدير المتحف بمصاحبتنا وقفنا بازاء خريطة للمجر كخريطة وزارة الخارجية وأشار الرجل بيده الى المجر القديمة والى حدود المجر الجديدة وكاد الدمع يذرف من عينه ، ثم فهمنا منه مبلغ أساه على أن صارت المجر صغيرة كما أكرهها الظافرون فى الحرب أن تكون . وأشهد لقد كان حزن هذا الرجل البسيط ناطقاً فى نبرات صوته وفى نظراته وفى حركاته العصبية . رحم الله أياماً كنا نشهد فيها الفرنسيين يجللون بالسواد تمثال ستراسبور القائم فى ميدان الكونكورد بباريس حزناً على الالزاس واللورين . وبقى هذا الشعور بالالم لضياع فلذة غالية من الوطن ينتقل فى أفئدة الفرنسيين من جيل الى جيل حتى كان هو الحافز الاقوى لفرنسا كى تثابر فى الحرب

العظمى وتلتهي الى الموز ولتظفر من جديد بالالزاس واللورين . وهؤلاء هم المجريون يبكون على ما ضاع منهم ويبكى مثلهم أهل النمسا . ويبكى الالمان — ولكن فى اباء وبدموع متمنعة فى محاجر العيون — على الالزاس واللورين وعلى بولونيا وعلى دانتزج . ترى ماذا يكون من أثر ذلك كله فى مستقبل أوروبا ؟ وهل هى الحرب أم هى الثورات تتنفس عنها هذه الافئدة المكلومة .

وكان يسيراً أمر هذا الاحساس الذى يغذيه المجريون فى نفوس أبنائهم لو أنه وقف فى حدود بودابست . لكنا رأيناه متجلياً كذلك فى ربوع المجر اذ زرنا منها غير قليل مما أشار علينا سكرتير الكونت شاكى بزيارته . وفى هذه الربوع المجرية جمال ولها روعة رغم سهولة أراضيها الزراعية سهولة تجعلها عظيمة الشبهة بوادى النيل . تناولنا طعام الغداء فى قرية مازا كوفتش عند صاحب فندق ، أستغفر الله بل مطعم ، أستغفر الله بل حانة ، بل محل عطارة كالذى نرى فى الريف ، وكان صاحب هذا المكان يعرف بعض الانجليزية فاذا به يحدثنا حديث موظف الخارجية وعامل المتحف الزراعى ، واذا به يخفق فؤاده لوعة وأسى لهذا الذى سلخه الحلفاء من وطنه كرهاً واعتسافاً .

***

ومازا كوفتش هذه قرية ظريفة يقصد اليها كثير من السائحين أيام الاحد . وهم يقصدونها يجذبهم اليها اعلان عما يرتديه أهلها فى ذلك اليوم من ملابس قومية ، وما تطرزه بناتها بالحرير المختلف الالوان . قصدنا اليها صباح الاحد الثامن عشر من سبتمبر فقضينا

أكثر من ساعتين فى قطار سكة الحديد يقطع بنا مزارع وحقولا وبعض أحراش قليلة . فلما وقف فى محطتها اذا سرب من بناتها فى هذه الملابس القومية يستقبلن النازلين فيها وملابسهن مزركشة بتطريز الحرير ناصعة الالوان الحمراء والصفراء . ووقف السرب باسمات بناته يحيين النازلين قرية مازاكوفتش ولا يأبين على من يريد أن يأخذ صورتهن الشمسية بالوقوف أمامه ما أراده أن يقفن . وجاء معهن رجال ارتدوا الزى القومى هم الآخرون . وبمقدار ما يلفت زى البنات النظر تزور العين عن زى الرجال ازوراراً . فهو جلابية عليها جاكتة وبرنيطة سوداء عالية يطوقها نطاق أخضر وتزينها ريشة فى بعض الاحايين . أما أحذية هؤلاء الرجال فضخمة تتفق وأعمال الزراعة

وما هو الا أن انحدر السائحون الى طرق القرية حتى ركب هؤلاء الفتيات عربة وعدن بها من حيث أتين ، ولم نر لهن بعد ذلك من أثر ، فدلنا ذلك على انهن مجرد اعلان عن قريتهن . فأما سائر أهل البلد فيلبسون لباساً قومياً حقاً ، ولكن فى زخرف أقل بكثير من زخرف هاتيك الفتيات . فأما الرجال فرأينا فى طرق القرية من زخرفهم غير ما يرتدى الذين صحبوا البنات الى المحطة ، يتدلى على سيقانهم سرط مزركش بالحرير زركشة أردية الفتيات أو هى أثمن ، وصدرياتهم مزركشة كذلك بالحرير وكلهم فى لباس العيد القومى . أما البنات والاولاد فالأقلون منهم يرتدون هذا الرداء المجرى الخاص بينما يحتفظ الاكثرون برداء كل يوم مما يدل

على أن الحياة الاوروبية العامة تجنى على هـذه الآثار القوميـة وتنذر بأن تقضى عليها عما قريب

كانت زيارتنا هذه لمازا كوفنتش أول زيارات هذا العام للقرى الاوروبية . لذلك أذكرتني زيارات قمت بها من ست عشرة سنة مضت فى قرى التورين بأواسط فرنسا . وزادنى لتلك الزيارات القديمة تذكراً ما بين التورين والمجر من شبه فى سهولة الارض واعتدال المناخ . وأذكرتنى أكثر من هذا ما بين عيش القرويين الاوربيين وعيش القرويين فى مصر من فرق شاسع وبون بعيد . فى مازا كوفنتش مدرسة واسبتالية وكلتاهما جميلة العمارة يبعث تناسقها الى نفوس أهل هذه الارياف معانى التجاوب والجمال ويشعرهم بما فى العيش من لممة ما أراد الانسان أن يجعل العيش ناعماً وماعاون الطبيعة وهذبها لتجيب نداء النفس الطامحة الى صور الجمال . ذلك الى جانب المدرسة والاسبتالية من كنيسة ومن حديقة عامة ومن مظاهر أخرى ترضى مطامع نداء النفس الانسانية .

ووقفنا عنـد بعض نوافذ منازل القرويين فعجبنا . لا تزيد مساحة المنزل على مساحة منزل الفلاح المصرى . لـكن للمنزل نوافذ. ومن نافذة غرفته الواحدة يتبدى السرير ومنضدة عليها كتب قد يتعـذر عليك أن تدقق فى استشفافها لما يحول بينك وبينها من ستار على النافذة من الدنتـلا أحيانا ومن تطريز ربة البيت أحيانا أخرى ، تطريزاً جمع الى الدقة والجمال . فى موقفى هـذا تذكرت الفلاح المصرى وتذكرت الـكلمة الـكاذبة التى يقولها الاكثرون على أنها حقيقة مقررة : مصر بلاد غنية ! نعم. قد تكون هذه

الكلمة صادقة اذا أخذنا بأقوال النساك : « القناعة كنز لا يفنى ، والغنى غنى النفس ، وأنت أكثر الناس غنى ، ما كنت أكثر فى الدنيا زهداً فأغناك زهدك عن الناس » . لكنها كلمة كاذبة بالمعنى الذى يقولها أصحابها به ، وبالمعنى الاقتصادى الذى يقدر الغنى فى كل الأمم على موجبه . هذا الفلاح المصرى الذى تصبب ثروة مصر من عرق جبينه لا يعرف منزله سريراً ولا كتاباً ولا شيئاً من معانى النعمة الانسانية . بل هو بالوجار أشبه منه بالبيت وللحيوان فيه من أسباب الحياة مثل ما للانسان أو خيراً مما للانسان . وهو مع ذلك بعض رأس ماله كما أن بيت الفلاح المجرى ، وبيت الفلاح الاوربى ، بعض رأس ماله . فأما فرق أسباب المعيشة بين الفلاح المصرى وغيره من فلاحى أوربا فيثير فى النفس من عواطف الاشفاق عليه ما لو عرفه لما رضى عن حاله ولا صبر عليها . وأحسب أن ليس له عن هذا الشظف عزاء يمسكه فى سكينته الاماترى من عيش الموسرين الى جانبه وعظيم شبهه بعيشه . فهؤلاء الموسرون من المصريين يؤثرون الآخرة على الاولى أو هم بالاحرى يؤثرون اكتناز المال فيكونون عبيده على انفاقه ليكون لهم متاعاً ونعيما . وهم فى عبوديتهم للمال يحسبون أنهم سادة غيرهم لان هذه العبودية تنجيهم بعض الشىء من تحكم الغير فيهم .

* * *

وما رأينا وما سمعنا فى مازا كوفيش هو ما رأينا وما سمعنا فى بلاتون فيرد وأن تكن الطبيعة عند بلاتون غيرها عند مازكوفتش . فهذه القرية لا تزيد على غيرها من القرى فى موقعها وفى نظامها

الا هذا الزى الذى وصفنا . أما بلاتون فتقع على بحيرة تبعث فى النفس خيالا وان ضئيلا من بحيرات سويسرا . وصلنا الى تشفهوفى سكة حديد الحكومة وانحدرنا وسط طرق القرية قاصدين الى مرسى سفينة البحيرة . طرق كطرق مازاكوفلتش وسائر قرى المجر مما شهدنا فى أسفارنا كطرق القاهرة نظاماو رصفا واتساعا . بل أن فى بلاتون من الجمال ماندر أن تجد فى القاهرة مثله . فيها فندق يطل على البحيرة كأنه فندق سميراميس اذ يطل على النيل ولا يقل عنه وجاهة ولا نظاما . وبين الفندق والبحيرة ومبانى القرية ميدان فسيح غرست فيه الحدائق ونسقت فيه الأزهار خير تنسيق . وبازاء هذه الحدائق أقيمت حمامات على البحيرة كحمامات سان استفانو نظاماً وعناية . وفى طرق القرية متاجر وحوانيت قل أن تجد مثلها متاجر وحوانيت فى رمل الاسكندرية جميعاً .

على الجانب الثانى من بحيرة بلاتون تقوم قرية شيوفك يصل الانسان من بلاتون فيرد اليها على ظهر باخرة صغيرة تقطع الطريق فى ساعة من الزمان . وتقع مساكن شيوفك بين غابات واحراش تذهب مع النظر الى غاية الأفق . وقد كانت فى ذلك اليوم — ولم يكن يوم أحد — ساكنة لا يرى الانسان فيها من المارة الا بعض العجائز والخادمات ولا يرى من الناس الا بعض عمال يشتغلون على مقربة من البحيرة . على أن بها رغم سكينتها وهدوئها مطعما ظريفا عند مرسى الباخرة يجد فيه الانسان طعامه وشرابه بسيطا نظيفا يطمئن اليه كل الطمأنينة كما يطمئن الى خدمة زوج صاحبه السمينة حتى لتحسبها سيدة مصرية من أهل الجيل الماضى .

شيوفك وبلاتون فيرد وغيرها من القرى الواقعة على شواطىء بحيرة بلاتون مصايف ظريفة يؤمها أهل المجر وغير أهل المجر من السائحين . وهى لذلك كأكثر المصايف الاوروبية ، بلاد رشيقة خفيفة الروح قصدبها أهلها الى أن ينسى السائحون بين أشجارها وأزهارها ومياهها المتألقة تحت ضوء الشمس وأشعة القمر ماينوءون به عامهم من متاعب ومشاغل . بل ان أهل هذه المصايف لم يكتفوا بما حبت الطبيعة به بلادهم من صور الجمال فزادوها جمالا بما شادوا من عمائر ظريفة وبما جلبوا من الوان التسلية كالموسيقى والرقص والتمثيل وغيرها . والحق أن المصطافين فى هذه البلاد ينسون مشاغل الحياة ومتاعبها نسيانا تاما ويتمتعون أنفسهم بهذه المشاهد والملاهى متاعا صحيحا يريحهم ويعيد اليهم قوتهم ونشاطهم ليعودوا الى عمل الحياة بقوة مضاعفة .

مع هـذا فقد سمعنا من صاحب مطعم شيوفك تلك النغمة المحزونة نغمة الاسى على ماضاع من المجر الكبرى وما آل اليه هذا الوطن العزيز فى حدوده الضيقة الجديدة التى أكرهه عليها المنتصرون فى الحرب بينما لم تكن للمجر فى الحرب يدولا عليها فى اعلانها تبعة .

***

على ان أهل المجر لاينسون الى جانب مصابهم هذا ما تقدمتهم عصبة الامم من انقاذ هددهم بالبلشفية شر مهدد حتى لقـد فتح أمامها أبواب بودابست وطوع للثائرة الشيوعية بلاكون أن تجلس فى قصر الهابسبورج . فقد أصاب المجر ما أصاب النمسا من مجاعة بسبب

تدهور أسعار قطع الكورون فتداخلت عصبة الامم وأنشأت لهذه الدولة عملة جديدة هي البنجو وثبتت سعرها بأن أعفت المجر من دفع أقساط ديون الحرب عشر سنوات كاملة فكان من أثر ذلك أن صرت تلمح الرخاء في انحاء المجر رخاء سببه خصب أرض هذه البلاد واقدام أهلها على العمل والسعي لاستنقاذ وطنهم المحبوب من مخالب العسر والفاقة .

ثم ان أهل المجر ليذكرون الى جانب هذه الحسنة حسنة أخرى ان لم يكن لهم فيها كل العزاء عن مصابهم فلهم من الاعتزاز بها مايهون بعض الشيء من وقع المصاب ، تلك الحسنة هي استقلال المجر استقلالا صحيحا يمكنها من أن تفكر في شؤونها غير خاضعة الالما توحيه مصلحتها . فقد كانت أيام اندماجها في أمبراطورية النمسا والمجر خاضعة لحكم النمسا بل كانت معتبرة مستغل النمسا ومخزن طعامها . ولئن كان غلوا تشبيه ما كان بينها وبين النمسا بما بين الهند وانكلترا فانها كانت دائمة الاحساس بأنها في مقام دون مايتفق ومطامعها القومية والجنسية . أما اليوم وقد استقلت وبعثتها الحرب أمة لها وحدتها بعد أن كانت هي ضحية الحرب فأمامها من الظروف الاقتصادية مايمكنها من أن تستعيد مكانتها في زمن قصير أو طويل .

وأنك لتلمح من مظاهر هذا الاعتزاز في أنحاء المجر جميعا الشيء الكثير : تلمحه في القرى كما تلمحه في بودابست . فالى جانب الاسى على ما أصاب الوطن العزيز من انتقاص أطرافه تهتز النفس المجرية بذكريات المجر القديمة وبما سلف للاجداد من تاريخ مجيد ، كما تهتز

بالامل الكبير فى مستقبل زاهر وبالرجاء فى علاقات دولية صالحة .
كان معنا فى ديوان سكة الحديد بين بودابست وماز اكوفتش سيدتان وثلاثة رجال ظلوا يتحدثون معظم الطريق . وخرجت الى ممر العربة وخرج بعد ذلك أحد هؤلاء الرجال ووقف الى جانبي يسألني الاسئلة العادية التي توجه للسائح عن جنسيته وعما فى بلاده، ثم استطرد بنا الحديث الى المجر فتحدث عما أصابها بسبب الحرب وانطلق بعد ذلك يتحدث عن الترك وغزوتهم المجر وصدهم بعد ذلك ، وعما للمجلس المجرى من صلابة على العمل وقوة فى الارادة وما يرتجيه المجريون بعد استقلالهم من أمل واسع فى مستقبل مجيد . وعجيب أنك تقرأ الشيء الكثير عن الدعوة لانضمام النمسا الى المانيا وعن رغبة النمسا فى هذا الانضمام وعن تخوف الحلفاء من آثاره . فأما المجريون فلا يبتغون باستقلالهم بديلا . ولعلك ان امتحنت نفوسهم وتسمعت على خفايا ضمائرهم اذن لرأيت فيها مثلما كان فى نفوس الفرنسيين قبل استرداد الالزاس واللورين . وكيف يكون أمرهم غير هذا وهم يستبقون خريطتهم كما كانت قبل الحرب يرتجون فى حادث جديد أن ينصفهم من ظلم الحرب.

وفى انتظار هذا الحادث ترى المجر التى كانت ضحية الحرب والتى بعثها الحرب تجد وتعمل لتكون قوة اقتصادية فى المستقبل ، واذا كانت بعيدة اليوم غاية البعد عن حدود هذا الميدان فهى تعمل بكل ما أوتيت من قوة لبلوغه . وقد لايتعذر عليك أن تتصور مايكون من أثر ذلك فى سياسة أوربا المستقبلة وما يكون من تأثيره فى سلام العالم .

مغرب شمس
بين بودابست وفينا

يقوم قطار الاكسبريس الذي يغادر بودابست الى فينا في الساعة الواحدة بعد الظهر ، أو في الساعة الثالثة عشرة كما يقول دليل السكة الحديد . وكانت الساعة الثانية عشرة والنصف حين كنا مانزال مأخوذين بجمال العلم والفن فيما نرى من معروضات متحف بودابست الزراعي . وخرجنا بعد دقائق الى الغابة وجعلنا ندور نلتمس أوتموبيلا يقلنا الى الفنـدق ، وما فيء لدينا بعض الرجاء في اللحاق بالقطار . لـكن كل دقيقة بل كل ثانية كانت تمر كانت تضعف عندنا هذا الرجاء. وما أشد اذ ذاك حنقنا كلما مر بنا أوتموبيل مشغول براكبيه . ويزيد بنا الحنق والغيظ كلما مرت برهة ونحن نسرع مهرولين الى أبواب الغابة . ومع أنا سررنا كل السرور بمقامنا في عاصمة المجر ولم يكن لينتقص من سرورنا أن نقضي فيها يوماً آخر . فان اعتزامنا مغادرتها واخطارنا الفندق بهذا جعلنا نرى في مقاومة الظروف لعزمنا تحديا لارادتنا فاستثارة لغريزة نضال الظروف وحرصاً على التغلب عليها حتى لاتطأطأ الانفة الانسانية فينا لاحكام المقادير اذا كانت قدرة على أن تظل حاكمة للمقادير مصرفة للظروف . لذلك فرحنا وزاد بنا الفرح حين استوقفنا أوتموبيلا يقلنا وان ظل فرحنا ممزوجا بالخوف أن لايتحقق عزمنا . وطلبنا الى السائق أن يسرع الى الفنـدق وجعلنا ننظر الى عقارب الساعة

فى كل دقيقة عدة مرات . وصرفنا شغلنا هـذا عن التفكير فى الاستمتاع بجمال الوقت وبالشمس البازغة فى سماء صفو وبالهواء الرقيق المنعش لكل ما فى المدينة والباعث لها مختلف صور النشاط المرح الجميل .

وبلغنا الفندق ولم يبق على موعد القطار غير ربع الساعة . ودفعنا حسابنا وطلبنا الى رجال الفندق انزال متاعنا . على أن فكرة مرت بخاطر السائق وأفضى بها الينا عن طريق مترجم الفندق جعلتنا أكثر اطمئناناً لادراك القطار . ذلك أن يذهب بنا الى محطة (بودابست كلانفرد) بدل الذهاب الى المحطة العامة . واذ كانت (كلانفرد) ضاحية والطريق اليها خلواً فيمكن للعربة أن تنهب الطريق المختزل اليها فنستفيد بضع دقائق تكفل لنا ادراك القطار .

ووصلنا المحطة وتولى الحمالون العناية بمتاعنا بعد ما اطمأنت نفوسنا الى أنا انتصرنا على الظروف واحتفظنا بأنفتنا الانسانية عزيزة أنوفة . وبقينا ننعم بهذا الانتصار فى انتظار القطار وننعم معه بما شغلنا قبل ذلك عنه من جمال الوقت وصفو السماء ورقة الهواء . ولما أوينا الى ديواننا فى القطار وأوى اليه معنا متاعنا كان لنا فى ابتسامنا للانتصار شغل عن التفكير فى مغادرة بودابست وفى انحدار أيام جميلة من حياتنا فى غيابات الماضى وما يثيره احساس كهذا من بعض الوجوم وفى قرارة النفس . وذهب القطار ينهب بنا سهول المجر يلقى الضوء الساطع على خضرتها البادية الذبول لمقتبل الخريف ما جعل هذه الخضرة تبسم وتنتعش وتشرق

بريح كأنه ريح الربيع . وتبدت من هذه الخضرة الذاهبة مع سهول المجر الى غاية حدود الافق ألوان ضاحكة وأخرى باسمة تتعاقب مع سير القطار مبتهجة كلها بضياء الشمس وبنفحة ربيعية ضعف فيها أملها منذ توالت عليها رياح الخريف . وظللنا كذلك ساعتين متعاقبتين اقتربنا أثناءهما من حدود ما بين المجر والنمسا . وفيما نحن كذلك مبتهجين مع الزرع والشجر بلألاء الضياء اذا غمام بدأ يعترض صفو السماء واذا سحب بدأت تنضم للغمام وتتراكم ثم تتراكم حتى أذهبت الامل الربيعي الضاحك وأعادت الى الخضرة الباسمة قتاماً ورعدة . وأعان السحاب ريح بدأت بليلة رقيقة ثم تزايدت حتى صارت صرصراً عاتية . وتلاطمت السحب فاذا البرق يخطف الابصار واذا الرعد تصطك له المسامع ثم اذا المطر ينهمر انهمار السيل فلا يمنع انهماره خطف البرق ولا قصف الرعد ولا تزايد دكنة السحاب وقتام الجو . على أن عزيمة القطار المستمدة من عزيمة الانسان لم تهن ولم تفتر . بل ظل مواصلا طريقه يشق الرياح والمطر ويهزأ بالبروق والرعود . واحتمينا نحن في دوائنا بأن أحكمنا اقفال نوافذه وكنا قبل ذلك قد فتحناها لنتصل من نفحة الربيع بأمل لم يلبث ان ولى وذهب . ويخطف البرق ويقصف الرعد وتضرب أمواه المطر زجاج النوافذ كأنها أسواط من نقمة السماء وننظر نحن الى ذلك كله مبتهجين به ابتهاجنا بالشمس والضوء والهواء الرقيق من قبل ، واجدين فيه جديداً تطرب له النفس طربها لكل جديد لا يصيبها بالذات منه مكروه .

ووقف القطار في محطة الحدود بين الدولتين اللتين كانتا قبل

الحرب دولة واحدة ذات كلمة رهيبة . ونظرنا فاذا مراقبو الجواز ورجال الجرك قد التحف كل واحد منهم معطفاً من جلد يسبح به فى لجة الجو . ويصعدون الى القطار لاداء واجبهم فيتركون معاطفهم المطيرة عنــد أبواب العربات ويمرون يحيون السفر فى رقة وأدب ويؤشرون على جوازاتهم ويسألونهم عن متاعهم فى رقة وأدب كذلك . والمطر أثناء ذلك دائم الانهار والجو قتام والسحب متراكمة والظلمة شملت الجو حتى ماتكاد ترجو فى شعاعة من الشمس تبعث الى هــذا المأتم المكروب عزاء أو أملا . وظللنا كذلك بعد ما انطلق القطار فى أرض النمسا. ظللنا ساعة أو أكثر من ساعة نستمع الى نقر المطر على الزجاج ونرقب تسرب بعضه بين أخشاب النوافذ . فلما آن لهذه الثورة أن تهدأ وللسماء أن تمسك ماءها وللسحب أن يتوارى بعضها بعد ما أضناه الانهمار كنا على ساعة من فينا وكنا قبيل الغروب .

وحانت منا التفاتة الى ناحية الغرب فاذا صيحة تدفعها الغريزة اعجاباً واكباراً، واذا أنفاسنا تمسكها الصدور أمام جلال المغرب الرائع . بقيت فى هذا الجانب من السماء سحب منثورة اختباً وراءها قرص الشمس ليرسل فى أثير الهواء المشبع بذرات الماء من أشعته الدامية ماتخشع أمامه القلوب تقديساً لجماله الباهر . وتحيط أطواق من عسجد ومن لجين بالسحب البعيدة عن القرص فتجعل منها فى لجة السماء بحيرات سبكت شواطئها من فضة ومن ذهب . ثم اذا هذه الاطواق تستحيل فى مختلف ألوان قوس قزح حللتها كرات الماء الباقية معلقة فى الهواء . ثم اذا الغرب كله التهب بنار وبنور يسرع تتابع ألوانه

كأنما تتلاعب بها بلورات الماء منعكسة عليها أشعة ضياء الشمس المسرعة الادبار . وازدادت حمرة السماء كأنما اختلط فيها باللهيب دم جعل ينهمر انهمار المطر من قبل أثراً لمعركة حامية أعلنها الملائكة والشياطين بين السحاب والسماء . وكلما توالت هذه الصور الآخذة باللب والفؤاد ازددنا تقديسا للطبيعة المحسنة الجزاء بعد غضبها وثورتها . وأذكرني هذا المنظر وملائكته وشياطينه حديث عكرمة اذ قال : « والذى نفسى بيده ماطلعت الشمس قط حتى ينخسها سبعون الف ملك يقولون لها اطلعى ، فتقول أأطلع على قوم يعبدونى من دون الله ، فيأتيها شيطان حتى يستقبل الضياء يريد أن يصدها عن الطلوع فتطلع على قرنيه فيحرقه الله تحتها. وماغربت قط الاخرت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن السجود فتغرب على قرنيه فيحرقه الله تحتها . وذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « تطلع بين قرنى شيطان وتغرب بين قرنى شيطان » .

ذكرت بازاء منظر الغروب الرائع حديث عكرمة هذا وسألت نفسى أكل هذا اللهب وكل هذه الدماء التى اصطبغت بها السماء لهب شيطان واحد ودماؤه ، أم انها لهب المعركة الحامية بين الملائكة والشياطين ودماء عديد منهم لايحصيه علم الانسان .

ظلت المعركة السماوية حامية الوطيس زمنا لم نرقبه المتحاربين ولم نر غير آثارها الدائمة التغير يتغالب فيها الدم واللهب والفضة والذهب . وكأنما كان هؤلاء الملائكة والجن فنانين فى قتالهم فلا يرضون أن يتناثر من دمهم ولهبهم ومن فضتهم وذهبهم الاالمقادير التى تبدع فى السماء أبهى الصور وأكثرها أخذاً باللب ولعباً بالفؤاد.

فهذا الشفق الملتهب بالحمرة القانية شق طريقه من خلاله شعاع متورد كأنما الشمس تعود أدراجها كي تعيد الى النهار المحتضر حياة ونشاطاً . ثم لايلبث الشعاع أن يخبو لتندلع فى نواحى السماء الداكنة الزرقة ألسنة كأنها فى حمرتها ألسن الثعابين الضخمة المخوفة. ويبدو فى الجانب الآخر قوس قزح بألوانه السبعة ثم يختفى ثم يبدو من جديد . ثم اذا اللهب القانى قد غمر ألسنة الثعابين وامتد حتى أحاط سحبا مجاورة بأطواق من نار . ثم اذا هدنة فى المعركة السماوية يشعرك بها بدء انحلال الدماء واستحالة لون السماء الى شيء من الزرقة . ثم مانلبث أن نرى صورة أخرى للمعركة بدت فى الجانب الشرقى من السماء حتى لكأنما لهذه الحرب ميادين مختلفة مثلما كان للحرب العظمى . ولقد كان هذا المغيب حقا مغيبا أعظم ، وكان هذا الشفق مما يتضاءل أمام جلاله كل شفق .

وشدت أنظارنا الى السماء أثناء هذه الحالات جميعا ونحن ذهول شرد لبنا وعبادة هذا الابدع مفتونون به عن كل مايتخطاه القطار من سهل أوجبل ناسون أن ثم ارضاً وأنا نقطع أبعاد هذه الارض الى غاية نقصدها . ولم نتبادل اثناء ذلك الاعبارات الاعجاب ، اجد فى السماء جديد يهز الفؤاد لروعة جماله . ولم يوقظنا من ذهولنا الا أن تبدت عمائر فينا تحجب بعضها بعض السماء . هنالك أدركنا أن فى الحياة شيئاً غير ما كنا نشهد ، وأسفنا لهذا الذى أفسد علينا بهرنا وذهولنا والذى نبهنا الى الزمن وفراره ، وأن كانت الطبيعة قد عنيت بأن تهون علينا من أسفنا فلم تقم عمائر فينا الاساعة آذن المغيب بالانحدار فى غيابات الليل وظلماته .

وذكرت خلال الدقائق الباقية على دخول القطار المحطة مغارب الشمس التي بقيت مرتسمة صورتها في نفسي فصارت بذلك جزءاً من حياتي . ذكرت مغرب شمس سنة ١٩١١ وأنا على بحيرة ليمان صحبها مطلع قمر ما رأيت وما أحسبني أرى مثله شعراً وجمالا . وذكرت مغرب شمس شهدته في الرفييرا وراء جبال فل فرانش وآثاره الفاتنة على البحر المتوسط . وذكرت مغارب شمس مصر الساحرة ومن بينها ما شهدت بين طهطا وسوهاج في سنة ١٩٢٢ . لكني لم أذكر في هذه كلها ولا في غيرها واحداً في روعة هذا المغيب الباقية آثاره الذاهبة تتبدى بين عمائر عاصمة النمسا .

أم أنها كانت ما كان هذا المغيب روعة وجلالا ولكننا معشر الانسان نمتع بنا في الحاضر من مسرة أو ألم ، ومن حزن أو فرح ، حتى يهون النسيان علينا أمره ليكون ابداً متاعنا بجمال الحاضر ونعيمه دائم التجدد لاتفسده الذكريات الحية لما ابتلعه جوف الماضي من مشاهد ومشاعر ? لاأدري . ولكني ماأزال أذكر مغيب الشمس بين بودابست وفينا وقد مضى عليه أكثر من شهرين . وأحسبني ماأرأيت مثله مغيب الشمس ولا مشرقها ولا مطلع قمر ولا مغيبه .

* * *

ووقف القطار وشغلنا بالنزول منه وبتعهد متاعنا حين حمله الى أوتوموبيل يقلنا الى فندق اختاره رجال فندق بودابست . وكان جو فينا في هذه الساعة ممطراً بما خلف المطر في السماء من صفو وفي الجو من رقة وفي الطرق من نظافة . وجعلت العربة تدور بنا

فى شوارع خالية الامن قليل من المارة وقليل من العربات حتى وصلنا الى « الزمج » أكبر شوارع العاصمة وأجلها . وهناك استدارت العربة حتى وقفت عند فندق أستوريا فآوينا الى الغرفة التى أخترناها فيه وظللنا برهة ننتظر أن يصعد عماله لنا بالمتاع .

أتدرى فيم كان حديثنا حين نزلنا الى المدينة من جديد ؟ كان هذا المغرب البديع الذى اتشحت به السماء فأحييت صورتها فى النفس أساطير النيران المقدسة وآلهتها والقرابين التى تقدم اليها عن عقيدة وايمان . ومازال حتى اليوم كلما ذكرنا هذا المغرب نعود بنفوسنا الى الساعة التى شهدته فيها فنحياها من جديد وننسى حين نحياها حياة الحاضر ومشاهده ومحسوساته .

وكم يحيا الانسان فى حاضره ساعات ماضية تجدد فى نفسه ذكريات مقدسة كلها حتى مايبعث منها للنفس أعمق الالم . وهذه الساعات هى حياة الانسان لانها كل ما كسبه الانسان من الحياة . هى وحدها التى عشناها عيشاً انسانيا صحيحاً . لم نكن اثناءها صورة متجددة من كل الخلائق ينسخ الحاضر منها الذاهب . بل كنا نحن . فيها بلغت نفسنا أسمى ماتستطيع النفس بلوغه فى هذا العالم فاحتوت العالم وسمت بمعناه الى أسمى مايستطيع ادراكه من المعانى . هذا هو العيش . وهذه الساعات دون غيرها هى الحياة .

فى فينا

قاتل الله الحرب. لقد جنت على كل شيء فى أوربا بل فى العالم كما جنت على أرواح الذين اشتشهدوا فيها وعلى قلوب الذين اكتووا بنارها.

كانت فينا تعتبر قبل الحرب عروس مدائن أوروبا وكانت تنافس باريس وتجد كثيرين يحكمون لها بالتفوق عليها . وهـذه هى اليوم أشبه ماتكون بعزيز قوم ذل. ما تزال آثار الماضى بادية فى قصورها الفخمة ، وفى دار الاوبرا البديعة التى كانت أبهى معاهد الموسيقى فى أوروبا ، وفى طرقها الفسيحة الجميلة وفى ضواحيها النضرة. وهاكل هـذه الآثار تشهد اليوم فى خضوع وانكسار مصير عاصمة أمبراطورية النمسا والمجر الحسيرة. تشهد عاصمة لم يبق لها من ملكها عشر معشار ما كان لهـا فعلتها غبرة ترهقها قترة ، وأصبحت تجد بيديها لكسب العيش وكانت أسباب العيش والنعمة تأتيها طائعة من كل مكان . ويزيد عدد سكانها على مليونين وكان قبيل الحرب يقارب الثلاثة الملايين وكانت تعتمد فى عيشها يومئذ على أمبراطورية تعدادها ستون مليوناً أو يزيدون وهى اليوم تعتمد على جمهورية لاتكاد تبلغ الستة الملايين . لذلك تكثر فيها الفورات والاضطرابات لأن أهلها فى حيرة كيف ينظمون حياتهم، وكيف يصلون من العيش الى ما يتفق ومكانتهم من الحضارة وان بعد كل البعد عن ان يشابه فى شيء ماعرفوا قبل نكبة الحرب وسان جرمان. ذهبنا الى دار الاوبرا نشهد فيها تمثيل رواية « مدام بترفلاى » فأخذتنا روعة عمارتهـا

لكننا أخذنا أكثر من ذلك بحال أثاثها الذي أصبح لا يتفق وروعة هذه العمارة . ومن عادة دور الاوبرا في عواصم أوروبا جميعاً ان يلبس الناس فيها ملابس السهرة . وكانت دار فينا في مقدمة الكل في هذا الشأن . وكانت نساء فينا في شعورهن تفرقهن في الجمال على سائر نساء أهل أوروبا يتغالين في التزين بكاثرن به أوفر النازلات في عاصمة النمسا غنى وجاهاً . لكن نساء النمسا ، وان بقى لهن جمالهن المشرق في اعتدال القامة وصفاء اللون ووسامة القسمات اعتدالا وصفاء ووسامة لا ينافسهن فيها أحد ، فقد أزالت الحرب عنهن أسباب البهرج والزينة وانتزعت منهن الحلى وثمين الجواهر فلم يبق لدار الاوبرا أن تقتضي أحداً لباس السهرة . لذلك ذهبنا كما يذهب الناس جميعاً اليها في ثياب النهار . على أن ماجنت الحرب على ثروة فينا لم ينل فنها . فقد غنى الممثلون رواية بترفلاى بالالمانية وكنا لا نفهم منها حرفاً وصدحت موسيقى هذه الرواية الساحرة فتتبعنا كثيراً منها وتذوقنا الغناء والموسيقى والتمثيل مما بعث أمامنا برهة من حياة فينا الجميلة عاصمة الامبراطورية التي لم تعرف الشظف ولم تعرف الذلة . فازددنا بذلك أسفاً على ما أصارتها الحرب اليوم اليه .

أدت هذه الحال الاقتصادية السيئة الى أن المتاجر الكبرى صار أكثرها يأخذ بنظام الممارسة في البيع والشراء حتى لا يكاد يكون لشيء ثمن محدود . ولئن كان هذا النكوص في الخلق التجاري مما يلاحظ في بلاد كثيرة غير فينا ، بل مما يلاحظ في باريس . فانه لم يصل الى ما وصل اليه في فينا مما يشعرك سوء الحال برغم وجود

كفايات علمية وصناعية وتجارية عظيمة فى المملكة . وصل هذا الخلق فى فينا الى أن البلدية تحدد الاجور لكل غرفة من غرف الفنادق تحديداً يعلن على جدار الغرفة مما يبعث على الظن بأن لا سبيل لرجال الفندق الى التلاعب بهذه الاجور . ومع ذلك فانك واصل من غير كبير عناء الى تخفيض هذا الاجر لسبب أولآخر يتقدم به اصحاب الفندق على أنه أدى بهم لاكرامك . ودخلنا غداة وصولنا فينا متجراً من متاجر ازياء السيدات وأعجبت زوجى قبعة فيه لكنها استكثرت الثمن . وكم عجبنا ساعة خروجنا حين نادتنا البائعة تسألنا كم نريد أن ندفع وتناقشنا فى شيء من الضراعة . ودخلنا يوماً آخر متجراً من تلك المتاجر أيضاً فى ميدان الاپرا ، أكبر الميادين شأناً وأكثرها فى اتصاله « بالرنج » تجارة، فاشترينا تطريحة بما يقرب من نصف الثمن الذى عرض علينا بادىء الرأى . ومن ذلك كثير يسوءنى ذكره وما تزال فينا فى نكبتها . وقد يتساءل انسان : ولم اذن نلوم تجارنا فى خان الخليلى وتراجمتنا الذين يبيعون السائحين مايسمونه الاشياء الخاصة بمصر بينا هو أتفه مابها ويعارسونهم فى ذلك على الصورة التى يصفها السائحون الاوربيون بأتعس الألوان ويرتبون بعد ذلك عليها ماشاءت لهم أهواؤهم فى تصوير مصر والشرق ومقدرة أهلها على الاضطلاع بعبء الحضارة . وليس جوابنا على هذا أن تجار فينا هم كتجار خان الخليلى ولا أن كتاب أوربا على حق فيما يصورون به مصر والشرق صورة منتزعة من القروش أو الجنيهات التى يدفعونها للتراجمة ولتجار السجاجيد والنحاس وغيرها ويلذعهم اتفاقها . فالسائحون الاوربيون

الذين ينزلون مصر وينزلون الشرق يجيئون الينا أكثر الاحايين وهم لا يعرفون من أمرنا ولا من لغتنا ولا من تاريخنا اكثر مما تهديهم اليه كتب السفر الموجزة التي يقرأونها في قطار سكة الحديد. وهم يزدادون أعجاباً بما تذكرها هذه الكتب أنهم سيرونه بمقدار بعدهذا الذي سيرون عن الحقيقة وعن المعقول. وطائفة من الكتاب الاوربيين هم مع الشيء الكثير من الأسف وسائر السائحين في هذا المعنى سواء . ثم هم يجيئون ممتلئين غروراً بأنفسهم واحتقاراً لهذه البلاد «الشرقية» التي يزورونها على أنها مصح مفيد بصفو هوائه ومتحف جميل بقديم آثاره . فأما أن في هذا المتحف المصح شعبا له حياة وله مميزات وله نشاط وله أثر في حياة العالم فذلك ماقد تعلموا منذ صغرهم أن يضعوا من أمره على عيونهم غشاوة . فاذا ذهبوا الى متجر ذهبوا مع مترجم ثم طلبوا أنفس الاشياء فبالغ لهم التاجر بعض الشيء في ثمنها لانه يتحدث الى قوم لا يفهمهم ولا يفهمونه فحسبوا هم أنه يغلو أضعافا مضاعفة لأنهم رأوا مثل هذا الذي يعرض عليهم بربع الثمن الذي يذكر لهم . لكنه من صناعة أخرى ومن خامات أخرى : كذلك يقول لهم التاجر . وما شأنهم بالصناعات والخامات مادام المنظر هو هو، والمظهر هو هو. ثم ان عظيم التفاوت في ادراك مختلف معاني الحياة، وفي تقدير آثار الفن بنوع خاص ، قد باعد مابين الشرق والغرب في تقدير هذه الآثار التي يوجد في بلادنا منها كثير . تاجر يعرض على سائح قطعة من خشب المشربيات (الارابسك) فيطلب التاجر فيها عشرة قروش فيدفع السائح مندهشا لتفاهة الثمن . ويطلب التاجر في مثلها خمسين قرشا فيدفع السائح مندهشا لقلة الثمن. ويطلب جنيها فتدهش السائح

قلة الثمن. المسألة اذن ليس فيها شيء من الاشتراك فى التقدير . كل هذا ولادخل مطلقا لحال مصر الاقتصادية فى الموضوع . أما تاجر فينا فيمارسك لأن سوء حال النمسا الاقتصادية تدفعه الى ذلك ، أو الى اكثره ، بالرغم منه . تدفعه الى ذلك وهو يعلم أنك تفهمه وتقدر بلاده كشعب قبل أن تقدرها كمصح وكحياة ناشطة عاملة قبل أن تكون متحفا لروائع الفن ولعاديات الماضى .

على أن هـذه الحالة الاقتصادية السيئة وما نجمت عنه من حال سياسية ابدعتها الحرب والصلح جميعا جعلتك فى حل من أن ترى من فينا متحفا لآثار حياة انقرضت شهدنا نحن جميعا انقراضها ولما تقم بهـذه الآثار حياة جديدة تجعلها وان حدثت عن ماض عتيد ليست أقل بلاغة فى حديثها عن حاضر مجيد. تذهب الى اللوفر والى فرساى والى فونتنبلو فتحدثك فى عظمة من ملوك فرنسا حتى الثورة حين كان اللوفر مقرهم جميعا وحين كانت التويلرى متاع نزهتهم ونزهة متاعهم وحين كان فرساى المحدث الأكبر عن لويس الرابع عشر وهو تتنبلو عن نابليون . لكنها الى جانب حديثها هـذا عن الماضى القريب أو البعيد تحدثنا عن حاضر مجيد ليس أقل من ذلك الماضى عظمة وجلالا. لقد انتقل تراث اولئك الملوك فصار ملكا مطمئنا للشعب ننظمه فى هالة العصور التى آلت اليه هى الأخرى كما شاء له ذوقه الجمال، ووضع الفكرة الملوكية التى بادت فى المكان الذى يريد خياله أن يكون لها من بين المعروضات الحية فى نظام الفن الديمقراطى. أنت تشعر باستقرار هذا الملك للشعب بمقدار ماترى من عنايته وتنسيقه. أما فى قصر الامبراطرة بفينا وأما مصيفهم بضاحية شنبرون فتشعر

اذ تدحلها بأنها كانت مأهولة الى قريب بملاكها وأنهم هددوا فيها وأزعجوا عنها فولوا منها فراراً ولم يتركوا لغيرهم من حياتهم فيها أثراً مذكوراً . يصل الانسان من فندق استريا الذي نزلنا به الى قصر الامبراطرةفى بضع دقائق يقطعها سيراًعلى الاقدام فى طريق غير فسيح . فاذا آن له ان يمر بظاهر القصر وان يقترب من أبوابه رأى على يمينه عمارة من نوع عمارة القصر الواقع على يساره مقفلة الابواب لا يحدث شيء حولها عما هي . سألنا فاذا هي اسطبلات الامبراطور . ولكن أين العربات وأين الجياد المطهمة وأين ماترى من ذلك فى « البتي تريانون » حين تزور فرساى ؟ المالك الجديد ، الشعب ، لما يعرف كيف يكون نظامها ، ولعله لما يستلمها من الحراس الذين قديردونها كاملة وقد يردون نصفها أو ما دون النصف . وجزنا هذه العمارة المقفلة فدعتنا تماثيل فخيمة لنستدير عندها هذا تلك بوابة القصروادا له بابان عن اليمين وعن الشمال عقدفوقهما قباء بمقدار عرض العمارة يمتد النظر بعده فى فضاء ثم تقف عمارة ثانية دون امتداده . وآثرنا قبل دخول القصر ان نرى ما وراء القباء مما بين العمارتين فدلفنا فاذا بنا فى فناء هائل هائل يحيط بفسحته أجنحة القصر الاربعة ويقوم فى وسطه تمثال الامبراطور فردريك ويحدث خلال التفكير فى فسحته عما يمكن ان يكون ذلك القصروما يمكن ان يحتوي . ولاحظتي أيقنت ان مجرد المرور بغرفه من غير وقوف بأيها يحتاج الى ساعات عدة . مابالك اذا أردت أن تنال من كل غرفة خطفة عين . وعدنا الى الابواب فصعدنا سلماً . فيما من سلم قصر الفانسبور ببوتسدا بست شبهغير قليل.نشهد آثار الملكية

الساقطة عن عرشها سقطة ما يزال دويها فى الآذان ، من نسع سنوات فقط ، فى سنة ١٩١٨ ، كان يقيم فى هذا القصر أمبراطور النمسا والمجر وخليفة الامبراطور الهرم فرنسوا جوزيف الذى شهد القصر من آثار بذخه وترفه قبل الحرب ما يصبح حديث خرافة الى جانب ألف ليلة وليلة فى هـذه العشرات بل المئات بل أكثر من ذلك من الابهاء والصالات والغرف والمقاصير والحجرات وملحقاتها من المتزينات والحمامات. كان الترف يسيل أنهاراً وكان الملك وحاشيته وبلاطه وخدمه وحشمه يجدون فى النعمة بهذا كله ما يمكنهم من حسن القيام على سياسة المملـكة والقضاء على دسائس أعداء الملك. وهذا كله كان يستنزف من أموال ودماء وفدى وقرابين وأعطيات ورشى كل ما يمكن ان يصل اليه ، لأن أضعاف ما يمكن ان يصل اليه هو فى رأى الملك ورجاله بأشد الحاجة اليه لحسن سياسة الدولة واقيام النمسا مقام العظمة الذى كانت تقفه بين الامم . وهاهم أولاء الذين كانوا يحسنون سياسة النمسا والمجر ويستميتون على حسن سياستها بهذا المتاع كله قد فروا فرار الآبق وتركوا النمسا كليمة محطمة تئن أنين الجريح فى حياته ، والجريح أكثر من ذلك فى كرامته وعزته ان تدوس النمسا أقدام من كانوا يطأطأون رؤوسهم أمام عظمة النمسا ويخشعون أمامها ضراعة واسترحاماً .

ومصيف شونبرن أبلغ من قصر فينا حديثاً بهذه المعانى عن الملوكية الساقطة . وشونبرن ضاحية جميلة تقع على نحو ساعة من فينا ويصل اليها المسافر بالقطار وبالاوتوبيس وبالاوتوموبيل . والطريق اليها جميل لا يمله النظر فى أى جزء من أجزائه .

وبالضاحية الى جانب القصر مساكن ومقاه لم أسأل ان كانت قد استحدثت بعد الصلح وبعد ان آل القصر الى الشعب فأصبح من حقه ان تكون ملاهيه الى جانب مصيف الامبراطور بعد ان انهار صرح الامبراطورية، أم أنها كانت هناك من قبل بتسامح القصر وجاله عنها . على أن شيئاً مما بالضاحية لا يجذب الناس اليها لو لم يكن القصر بها . وما تقول فى أبدع عمارة وأروع نقوش للجدران وأبهى صور زيتية وأثمن تصوير فى القماش من طراز الجوبلان ! بل ما تقول فى أكثر من ذلك كله : فى حدائق هى الآية الكبرى فى فن الحدائق . نعم ! يتحدث هذا القصر المصيف حديث الترف المستغرق كل ما يتسع خيال أهل الفن جميعاً له من صور الترف وما يستنزف من أموال الدولة ودماء الامة ما لا غنى عنه لقيام الامبراطورية ولظهار زينة الامبراطور وبلاطه . ولست أريد أن ألجأ خيال القارئ فأذكر له ان احدى غرف القصر يطلق عليها اسم غرفة الملايين لما أنفق فى تزيين جدرانها بالذهب من ملايين الكورونات الذهب ، بل من ملايين الجنيهات الذهب . ولست أريد أن أذكر أن بالقصر غرفة لمارى انتوانت وأخرى لنابليون أيام حكم النمسا وأخرى لمارى لويز التى صارت من بعد زوجا لنابليون ، وان هذا القصر يحتوى كل ذكر من ابنهما ملك روما الطفل الذى أصبح من بعد ذلك دوق ريخشتدات والذى مات بشنبرون من مائة سنة مضت . كلا ! فليس من قصدى أن أقص حديث التاريخ . وانما أذكر أن هذه الغرف والابهاء والحجرات حوت فى شونبرن من النفائس والطنافس واحتوت من بديع المناضد

والموائد وكسيت جدرانها بالذهب تارة وبالجبلان أخرى مما لو أراد مؤرخ أو رجل فن أن يقف عنـده لاستنفد منه كتابا ذا أجزاء عدة . هذه كلها والحدائق البديعة من ورائها وبركة المياه الجارية يصعد الانسان درجات اليها في طريق الاقواس العالية أقواس الجلوريت (Gloriette) المطلة على فينا والتي كان يستريح نابليون لتناول طعام الافطار عندها — ذلك كله أكبر شهيد بما كان للامبراطورية من الفضل على فن يجتمع في قصر اعد أن تذاب في سبيله افئدة وتستنزف دماء وتراق في سبيل الـكد والـكدح له مهج وأرواح ، وهو اليوم باق يشهد بانهيار هذا النظام الذي أقامه والذي لم يبد في النمسا ما يقوم مقامه .

على أنك ترى في قصر شونبرن ما لا تراه في قصر الامبراطرة بفينا . فناحية من قصر شونبرن تـكاد تكون كقصور فرساى واللوفر ، أو بالأحرى كقصر وندسور احتفاظا بروعته الامبراطورية وتنسيق أثاثه ومعرفة الناس مواقعه . أما قصر فينا فهو على ما حدثتك كأنما فر منه بالأمس أهله فما يدرى نظامه بعد من وضعوا يدهم عليه . ذلك بأن الامبراطور كان يسمح للشعب ، أو بكلمة أدق للرعية ، بأن يزوروا شونبرن في أيام معينة وكان يعتبر ذلك تفضلا منه عليهم . وكان رجال القصر في تلك الأيام يجمعون أثاث القصر في ناحية ويحمونه بالحواجز من حبال وغيرها يقيمونها بين الشعب الداهل اجلالا لعظمة أمبراطوره وبين هذه الطنافس والنفائس المقدسة مما لا يجوز أن تقع عليه عين من غير أن تختلط في نظرتها آى الاعجاب والاكبار بآى التقديس والاجلال . فلما ذهبت الامبراطورية وآل القصر للشعب لم يكن الشعب بحاجة الى أكثر من الاحتفاظ بالقصر كما كان

أيام تفضل الامبراطور عليه بزيارته ؛ ومن ان ينزع من نفسه ومن خياله المضطرب بالتقديس والعبادة هذا الاضطراب المذل المخجل. أما قصر فينا فلم يكن الشعب يعرفه ولم يكن يتاح له أكثر من أن يمر بفنائه الفسيح الهائل . لذلك ظل كل مافيه سراً من الأسرار الا على رجال البلاط الذين فروا مع الامبراطورية في فرارها. أما من بقي منهم فلم تبق لأحد به ثقة مما جعل الشعب بنفسه يفكر في أن يعيد النظام الى قصر الامبراطور . وما أكبر الهوة بين الرعية وقصر الراعي . لذلك ظل نظام القصر غير مكتمل لأن المالك الجديد بحاجة الى زمن والى مجهود لا كماله ، ولأن لديه من سائر نواحي حياته الاقتصادية والاجتماعيـة والسياسية مما خلفت الحرب مايشغله عن هذا اللون من ألوان الـكمال لاحاجة تمس اليه ولا ضرورة تلجأ للاسراع فيه .

* * *

وهذا الشعب النسوي في فينا والذي يعدل ثلث سكان النمسا كلها ماذا تراه يفعل لحياته؟ ان بين ماضيه القريب و بين حاضره هوة سحيقة اكبر من كل مايتصور الخيال. هوة ليس سببها سقوط الامبراطورية كما سقطت الملكية في فرنسا أيام الثورة الكبرى . ولو أن الأمر كان كذلك لهان الخطب ولتمخض النظام القديم عن النظام الجديد في ظاهر من الثورة ولكن في تطور يستبقي من القديم صالحه ويقضي فيه على مادعا الى الثورة عليه ويشيد في أناة ورفق تلك المدينة الفاضلة الجديدة التي سعت الثورة اليها، والتي لاتزيد في اكثر الاحايين فضلا على ماثار الناس به وان كانت دونه سوءاً وشراً . لكن ماأصاب النمسا بفعل الحرب قد

حطم النمسا نفسها ولم يكتف بتحطيم نظامها . لم تبق امبراطورية النمسا والمجر ولم تبق مملكة النمسا وحدها، بل فصلت المجر وقامت كما قدمنا ثم قامت النمسا بشرمما أصاب المجر، فهبط تعدادها من أكثر من خمس وثلاثين مليونا الى ستة ملايين، وانتزعت منها أكثر اجزائها قدرة وأعظمها خصبا وأوفرها انتاجا، والقيت تلك العاصمة المجيدة القديمة، فينا، وماحولها من ملايين اربعة على خريطة اوربا كما تمسك الرجل فتجز سيقانه وأذرعه وتحطم رأسه وتدق صدره ولا تبقى فيه الا جزءا يحيى ولا يعرف من الحياة غير الألم . فماذا يصنع هذا الشعب وهذا ما أصابه، وهو شعب مجيد ذو تاريخ يحدث عن أنه كان الى يوم أعلنت الحرب صاحب كلمة مسموعة فى سياسة أوربا كلها ؟ بل لعل النمسا لو وقفت من مقتل ولى عهدها فى سيراجيفو غيرما وقفت ولم تندفع فى السياسة التى دفعها اليها المانيا وجنحت الى السلم لما نشبت الحرب كما نشبت ولما القى على النمسا ما القى عليها فى شأنها من تبعات يعلم الله والتاريخ أن تلك الأمم الاستعمارية جميعا متساوية فيها ازاء الحرب وأن ماتنتحله بعضها من اعذار لالقاء التبعة على البعض ليس يدفع اليه الا فزعها المرعب من اشباح ملايين الموتى والمدن المخربة والقلوب المفجوعة والنفوس الكليمة بالأيم واليتم وبكل أسباب الرزيئة والفجيعة .

نعم ! ماذا يصنع هـذا الشعب الذى رزأه الصلح أكثر مما رزأته الحرب ؟ هو يجاهد ليعيش كما يجاهد المريض ليبرأ؛ وهو يأمل فى العيش أمل المريض فى البرء . لكنه يحس بفداحة عبء العيش ويضعف فى كثير من الاحيان أمله فيه حتى ليتنفس فى تلك الاحيان

عن الاستغاثة مصوغة فى طلب الانضمام الى ألمانيا . وماهذا الطلب الا استغاثة مؤلمة قاسية ؟ أليس معناه أن لا تبقى النمسا دولة وأن لا تبقى فينا عاصمة دولة وأن لا يبقى الشعب النمسوى شعبا له كلمة مسموعة فى الحياة الدولية وأن يفنى هـذا كله فى جمهرة الولايات الالمانية المتحدة ليكون ولاية منها قد يصعب ان يكون له مالها وعليه ما عليها . ولعل الشعب النمسوى اذ يرسل صيحة الاستغاثة هـذه يريد ان يقول انه لم يندفع الى الحرب الا بتحريض ألمـانيا فيجب ان تحمل وزر ما أصابه فتعينه عليه ، وأن لا تذر ما مزقه الحلفاء به يجنى عليه حتى يكاد يأتى على حياته . فان يك للصيحة هذا المعنى أفحق ان الحلفاء مزقوا النمسا جزاء لها عن اعلانها الحرب على صربيا وروسيا ؟ لكن ألمانيا لم تمزق ما مزقت النمسا وقد تضامنت معها وكانت المحرك الاول لها فى كل تصرفاتها ازاء حادث سيراجيفو ؟! وانما وقف الحلفاء ازاء ألمـانيا موقف المتهيب الى حد غير قليـل لأنهم رأوا فيها قوة شباب ليس يسيراً ان تذعن . وللقوة أيا كانت احترام وتقدير . والقوى يهاب القوى وان انتصر عليـه . لكنه لا يرأف بالمهزوم اذا كان ضعيفاً الا أن يكون رجل شرف وعاطفة . والامم لا تعرف العواطف . وأمم أوروبا بنوع خاص قد أثبتت ان الشرف الدولى مرن تمكن ان يتشكل مع الحوادث على ما تريده الحوادث ان يكون .

هذه الصيحة بطلب الانضمام الى ألمانيا غير مرجوة الثمرة القريبة ، لأن النمسا تعلم كما تعلم ألمـانيا ان الحلفاء يقفون فى وجهها ويعترضونها بكل ما أوتوا من قوة وهم اذا كانوا قد أقاموا

التحالف الصغير من بولونيا وتشكوسلوفاكيا ولتوانيا ويوجوسلافيا سداً بينهم وبين البلشفية فهم لا يريدون ان تزداد المانيا قوة على قوتها بانضمام النمسا اليها ليتجدد أمامها شبح الحرب ولتكون المانيا والنمسا منضمتين قديرة كدولة واحدة ان تسحق هذا الحلف الصغير بمعاونة روسيا فى أيام لتدور رحى حرب كبرى من جديد . لذلك يقاوم النمسويون ما هم فيه من ضيق بكل ما أوتو من وسائل ويجدون من حكمة الحلفاء ما يكفل الوقت بعد الوقت امدادهم بمدد يستبق أملهم وان لم يدفع الى نفوسهم رجاء فى سيادة أو رفعة. والظاهر من هذا ومما تراه فى المجر وفى غيرها من البلاد التى تعانى متاعب الحرب الاقتصادية ان سياسة الحلفاء قد انقلبت بعد الحرب من النقيض الى النقيض . فهى لم تبق ما كانت سياسة تنافس وتكاثر فى سبيل الاستملاء والظفر باغراق الاسواق . بل أصبحت سياسة تجويع يعقبه تفريج لا يزيد على ازالة أثر الجوع . وقد سلكوا هذه السياسة مع ألمانيا نفسها حتى اقتنعوا بفسادها وبأن رخاء كل أمة من أمم العالم رهن برخاء العالم جميعاً. أما مع غير ألمانيا فما يزالون يلجأون الى تجارب غايتها ابعاد شبح الحرب مع استبقاء سائر الدول فى مكان الانحناء أمام ارادتهم .

هذه الحال النفسية ظاهرة الأثر فى كل ما تراه فى فينا . فى هذه الطرق الفسيحة التى تدل على عز الماضى المهملة اليوم أو تكاد محدثة بنكبة الحاضر . وفى هذه القصور التى كانت آهلة فأقفرت ، وفى المتاجر التى صارت الى حال لا تحسد عليه ، وفى هذا المرح المتكلف الذى يشعر الانسان ان النمسويين انما يلجأون اليه كما يندفع

المصاب لنسيان همه فى الشراب أو فى الميسر أو فى واحدة من هذه الشهوات الدنيا التى لا يلجأ اليها الانسان عادة الا كارهاً . ولقد التمسنا يوماً مع أصحاب عرفنا فى فينا حانة من حانات اللهو يدعونها «الماورجه» ، فانطلقت الاوتوبيلات بنا الى خارج فينا أو مايكاد ثم وقفت عند باب تخطينا منه الى فناء معظم البلاط ثم الى غرفة فسيحة شبه مظلمة مدت فيها الموائد وجلس من حولها الرجال والسيدات وكلهم يتناولون نبيذ العام . نبيذ طفل لم يحبس فى دن ولم يفكر أحد فى تعتيقه وهو لذلك لا يصعد الى موضع الاسرار ولا يزيد على ان يبعث الى الناس سروراً طفلا هو الآخر ينسيهم هم الحياة زمناً . وهذا النبيذ نبيذ العام رخيص قليل الكلفة تقدم معه ألوان من الطعام رخيصة قليلة الكلفة هى الاخرى يتناولها قاصدو « الماورجه » فى مرح وغبطة ينسون أثناءها ما يثقل كواهلهم من هم . وما أشد اقبال هؤلاء التسويين على أى سبب من أسباب المسرة أو اللهو يجدونها فى هذا المكان تدعو دكنته الى الانقباض لولا النبيذ ولولا قصد السرور الذى يجيء الناس به يريدون ان يحققوا بالنبيذ أسبابه . فلما تنصف الليل تركنا الحانة وعدنا الى فندقنا لنهيء متاعنا كى نغادر فينا فى الصباح .

وكأنما طافت بنا من فينا ريح كآبة وهم جعلتنا ونحن بالقطار فى طريقنا الى براج نفكر فيما عسانا نفعل وأيان عسانا نذهب . ولعل هذا سبب هيام النفس بالاسراع الى منزل سرور وغبطة ينسيها مابعثت اليها أوروبا الوسطى من كآبة وهم تألماً مع أممها لما نكبها به الحلفاء فى معاهدات الصلح بغياً بغير حق

براج — باريس — مصر

ترددنا آخر أيامنا بفينا بين السفر منهـا تواً الى باريس بقطار الشرق والسفر الى براج نزور فيها كارلسباد ونذهب منها الى برلين ثم الى باريس . وكان لنا ببراج صديق لا معدى لنا عن زيارته فيها وبيننا وبينها ساعات . فكتبنا اليه نذكر انا قادمون له وأخـذنا تذاكرنا الى عاصمة المملـكة الجديدة التي خلقتها الحلفاء بمعاهدات الصلح لغاياتهم السياسية — تشيكوسلوفاكيا . وهبطناها فاستقبلنا بلد جميـل تطل محطة سكة الحديد أول مغادرتك اياها على حدائق ذات بهجة وتجد فى جوارها فندق ولسن فيـه كل أسباب الطمأنينة والراحة . وما لبثت بعـد ما آويت الى الفنـدق واستعدت أمام ذاكرتى خريطة أوروبا التى كنت أعرف قبل الحرب والتى لم يكن فيها شئ اسمه تشيكوسلوفاكيا حتى عاد هـذا الاسم القديم الكثير الذكريات مرتسما امام خيالى — بوهيميا — يمثل هذه القطعة من أوربا وتمثل براج كورته . بوهيميا ، نعم ! بلد غجر أوربا . ولـكن غجر بغير هذا المعنى الوضيع الذى أعاره الناس هذه الـكلمة عندنا فى مصر ، بل بالمعنى الذى يحبه رجال الفن ويعززونه . غجرى أى رجـل لا يحب الاستقرار ولا يطمئن الى الحيـاة المطمئنة ولا يرضى عن العيش الساكن المتشابه مما تكره الناس عليـه حياة الاستقرار والصناعة. وأحيا ذلك فى ذاكرتى قصة هنرى ميرجيه . « مناظر من حياة الغجر » : أولئك الذين لا يعرفون أين ولا

كيف يقضون ليلهم فاذا قضوه لم يعرفوا أين ولا كيف يقضون نهارهم . وليس ذلك لعجز منهم عن تدبير ليلهم ونهارهم وانما هو ازورار عن الحياة المنتظمة وعن ذلك العيش الناعم الذى يتوهمه البعض غاية النعمة والسعادة وحب لمفاجآت الحياة والعبث بها والاستمتاع بما يسميه الناس شرها كالاستمتاع بما يتوهمونه خيرها. ذلك مذهب فى الابيقورية يعشقه الفن ويحسبه نوعاً من الترف لا يتذوقه الا من أوتوا فى الفن موهبة عليا . استعادت ذاكرتى قصة ميرجيه وجعلت أسائل نفسى ماذا عسى تكون عاصمة بلاد الغجر ، وأى ألوان من الفن أبدعت فيها مواهب هؤلاء الذين لا يعترفون لغير رجال مذهبهم بموهبة فى الفن . ؟

ونزلنا المدينة القديمة التى أصارتها الحرب عاصمة من بعد الحرب . هى لاريب مبنية على تلال لا يمكن ان يعزى لغيرها ذهاب بعض شوارعها مرتفعة أكثر من الاخرى وان لم تك فى شىء من الارتفاعات العنيفة التى تعرفها شوارع البلاد الجبلية. والنهر يجرى خلالها وان لم يشطرها. وللمدينة على جانبيه بهجة ليست فى شىء من بهجة بودابست ولا من بهجة أكثر البلاد النهرية التى رأينا . على أن بشوارعها ومتاجرها وفى ظاهر أهلها روحاً من المرح لعله هو هذا الاستخفاف بالحياة مما عرف عن البوهيميين . مرح يبدو أثره فى كثير من فنونهم وألوان العيش عندهم . ففى كثير من المتاجر يرى الانسان صناعة الزجاج المزخرف بالغة من التأنق والدقة مبلغاً الا يكن فيه من البهرج ما فى زجاج البندقية ففيه من معنى الفن مايسمو فى نظر البعض على زجاج البندقية . وهنا رأيت

لأول مرة انتشار المطاعم «الاوتوماتيك» انتشاراً يجعلك تعتقدها بعض مكونات الحياة فى براج . ففى شارع واحـد من شوارع المدينة الرئيسية أربعة من هاته المطاعم يكفيك ان تدخل اليها لتجد فى زجاجه ألوان الطعام والشراب مما تحب . فاذا أعجبك صنف من هذه الاصناف فما عليك الا أن تضع مبلغاً مكتوباً على الزجاج فى ثقب بجواره فاذا هذا الطعام أو الشراب تقدم بنفسه من الزجاج اليك دون ان تمتد يد أو تحتاج فى تناوله الى خدمة أحد . وعلى هذه المطاعم يقبـل كثيرون ساعة الظهيرة بنوع خاص حين يخرجون لتناول طعام غدائهم يريدونه قليل الثمن قليل الكلفة فيهرعون الى هناك يتناولون الساندوتش أو البيض أو السمك أو أى نوع شاءوا من أنواع الطعام أو الخضار مما تراه وراء الزجاج . وقـد لا يطيق أحدهم صبراً على أن يتم تناول هذا الطعام الخفيف فى هذا المكان فما يكاد يجيء على الشطر الاكبر منه حتى يأخذ سائره بين يديه وييمم شطر الباب ليتم هناك تناوله وليتم فى الطريق مضغه . وهذا النوع من العيش وتلك الدقة فى الفن مما أشرنا اليه عن الزجاج وعن كثير من صناعات بوهيميا الخاصة تبرز لك فكرة خاصة عن حياة هذه المدينة .

الى جانب هذا الفن وهـذا المرح فى عاصمة تشكوسلوفاكيا ففيها من الآثار مايشهد بأنها بلد قديم بين بلاد أوروبا قل من كبرياتها من تعرف مايعرف من الآثار القديمة. فيها ساعة فى ميدان ضيق يشير اليها أهل المدينة على أنها من أقدم الساعات المعروفة وتتصل ببوابة تذكرك اذ تراها ببوابة المتولى بالقاهرة. وهى على ضيقها يرمن

تحتها الترام فيوقف ساعة مروره حركة الجهة كلها وقوفاً تاماً . وفيها سراى رئيس الجمهورية يقيم فيها مسيو مازاريك مطلا على النهر ومتصلا بمتحف جميل يزوره الناس ليروا فيه بعض الآثار البوهيمية فى الفن الجميل وصورة من تاريخ بوهيميا . ولقد كان من شأن هـذا كله ان يستبقينا ببراج أسبوعاً على الاقل . لكنا لم نقم بها غير أيام اذ كانت حالتنا النفسية قد بدأت تهوى الى السآمة والملل وبدأت نفوسنا تشعر بحنين الى باريس عجيب . حنين لذاع فيه معنى تأنيب النفس كيف نمضى كل هـذا الوقت بعيدين عنها وهى هى صاحبة الفضل علينا وهى هى التى حلت من قلب زوجى وحلت من قبل ذلك بسنين كثيرة من قلبى أنا محل اعزاز واكرام حتى لأعتبرها وطنى من ناحية الثقافة والتهذيب . لكن برلين على مقربة منا فهلا نذهب اليها ؟ كلا كلا ! لم تبق بالنفس طاقة على السفر الى بلد غير باريس ولم تبق بها طاقة المقام بعيداً عنها بل لم تبق بها طاقة لنشاهد ماحولها فى براج ولنقف مأخوذة معجبة به كما وقفت فى الاستانة ورومانيا وبودابست . والطريق بين براج وباريس يستغرق ثمانياً وعشرين ساعة . فليكن ! ولتكن مشقة الطريق بعض ما نكفر به عن التباطؤ على باريس كما ان شقة الحج الى بيوت الله المقدسة بعض ما يزيد الحاج أجراً . وعبثا حاول صديقنا ان يستبقينا واياه ببراج زمناً أطول لنزور معاً كارلسباد فقد نفد كل ما فى النفس على اللحاق بباريس من صبر . ودلفت وزوجى يوماً مطيراً فى الطريق الموازى الى طريق فندقنا حتى بلغنا محلات كوك أخذنا منها تذاكرنا وحجزنا للغداة أما كنناوأخطرنا

صديقنا وكنا فى الساعة العاشرة من صباح الغد نودعه وأهله ويودعوننا .

وانطلق بنا القطار وانكشف من حولنا السهل وانفسح الهواء. وليس قطار براج — باريس من نوع السهم الذهبي الذى يصل بين لندن وباريس فلا يقف بينهما الا ريثما ينتقل المسافرون على الباخرة فوق المانش . كلا . بل هو يقف فى محطات شتى كانت بلسن فى مقدمتها . ولبلسن فى البيرة شهرة عالية . لذلك ما كاد القطار يقف بها حتى رأينا باعة البيرة يجرون بعرباتها ورأينا المسافرين يتسابقون الى شربها وكأنها جرعة من ماء زمزم يتبركون بها . وهؤلاء الباعة يحمل الواحد منهم فى يده عشر كوبات فاذا وزعها طار الى عربة يجيء منها بكوبات أخرى. وعاود القطار انطلاقه بعد ما ترك للمسافرين الفترة الكافية للمتاع ببيرة بلسن وبقينا تحيط بنا الطبيعة الاوروبية السهلة فى هذه الجوانب من بوهيميا والمانيا حتى اذا كان الصباح كنا عند الحدود الفرنسية وكنا قد بدأنا نشعر بأن السفر حقاً قطعة من العذاب . لكن وجهتنا باريس . وقد قطعنا أكثر من عشرين ساعة فلم يبق الا أقل من ثماني ساعات . فلنصبر ولنمد الاعناق تجاه مدينة النور . فاذا بلغناها فى الساعة الاولى من بعد الظهر كان لنا ان نسرع الى مخادعنا وان ننال فيها قسطاً من الراحة يعوضنا عن هذا الجهد المضني وهذه الشقة التى هدت الجسم ورضته .

لكننا ما كدنا نصل باريس حتى شعرنا بحياة جديدة ونشاط جديد يسريان الى أعصابنا والى قلوبنا والى أرواحنا شأنك حين

تلق أعزة لم نرهم من زمان، فاذا رأيتهم بعثت الغبطة بهم الى نفسك انتعاشاً يعفى على كل ماقد ينتابها من سآمة أو ملل . وبلغنا من ذلك حتى لم تطرف لنا بغفوة عين، بل قمنا بعد أن نظمنا متاعنا فى غرفة الفندق ونزلنا نطوف أنحاء باريس نتنسم ريحها ونحس روحها ونضم الى صدورنا مافى كل نسمة من نسماتها من عطف ومحبة وفن وحياة . ونحن الذين اجهدنا السفر لم نطق صبراً عن مسارح باريس لانؤمها . فأخذنا تذاكرنا فى مثل انتوان وقضينا الى منتصف الليل يغالبنا التعب ونغالبه ويعيننا التمثيل الجميل المملوء بالنكتة الظريفة والحكمة السامية والحياة القوية على التغلب عليه . وانخرطنا فى حياة باريس فرحين بها مستبشرين بكل شيء فيها ميممين التويلرى والكونكرد والشانزليزيه تارة، مستمتعين بغاب بولونيا طوراً، منتقلين الى الشاطىء الأيسر حيناً مسافرين الى ضواحى العاصمة الكبيرة حيناً آخر، مقرين دائماً اقراراً خالصاً بالجميل الذى غمرتنا به مدينة النور منذ ردت الى زوجى طعم الحياة .

على أن ظرفاً خاصاً كشف لنا من باريس عن ناحية ما كنا لولاه لنراها . ذلك ما كان من زيارة جلالة ملك مصر لعاصمة الجمهورية الفرنسية واستقباله بها رسمياً فى اليوم التذكارى لموقعة نافارين فيها حطم حلفاء ذلك العهد ومن بينهم فرنسا أسطول مصر حين صولتها وسطوتها أيام حكم محمد على حتى لاتكون دولة قوية على البحر الابيض تنازع دول أوربا السيادة فيه . وكان ذلك فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢٧ . وأكتوبر فى باريس شهر ساحر تعود فيه لباريس كل حياتها اذ يعود اليها كل أهلها فينشط كل شيء

فيها ويزداد نشاطاً بجو الخريف الساحر تتضوع به كل أرجائها . وقد زاد ذلك في غبطتنا بالزيارة الملكية لعاصمة الجمهورية كما زاد فيها أن وزارة الخارجية الفرنسية والجمعيات والهيئات الفرنسية التي حفلت لجلالة الملك فؤاد دعت زوار باريس من المصريين جميعاً الى جميع حفلاتها . بهذا أتيح لنا أن نحضر حفلة المسيو دومرج رئيس الجمهورية في قصر الاليزيه وأن نشهد في بهوها الفسيح الجميل تمثيل قطع من روايات مختلفة يقوم بها ممثلو الكوميدى فرانسيز والاوبرا كوميك والاوبرا وموسيقاروها ، وأن نشهد كذلك حفلات في الجمعية الجغرافية وفي متحف اللوفر وفي أماكن شتى ، وأن نستمع الى أكابر العلماء والوزراء الفرنسيين يرحبون بجلالة الملك ويوضحون بين يدى جلالته مايعرضونه أمامه مما يقع عليه نظره . وكم كان ظريفاً مظهر بعض البارزين في الحياة السياسية منهم والمعروفين بالتطرف في الرأى الجمهورى وهم يقومون بواجب الضيافة والاكرام في ظرف ورقة . كان مسيو هريو الزعيم الاشتراكى والجمهورى المتطرف وزيراً للمعارف فللفنون الجميلة بطبيعة الحال . وكان عليه لذلك أن يستقبل الزائر الكريم في صالة بمتحف اللوفر نظم فيها معرض لصور تتصل بمصر وتاريخها ومن بينها صورة لمحمد على الكبير . فلما دخل جلالته صالة ذلك المعرض خطب مسيو هريو بين يديه مشيداً بأعماله وأعمال أبيه وجده مستريحاً الى أن الخلاف في العقيدة السياسية لايغير شيئاً من واجبات اللباقة كما لايجب أن يغير شيئاً من أسباب المودة أو الصداقة .

وآن لنا أن نعود الى مصر فأقلتنا اليها الباخرة اكسفردشير وأرتنا أثناء سفرها على البحر منظراً عجباً . فقد كان المسافرون أصيل يوم سادرين فى مرحهم ولهوهم اذا سحب تحجب الشمس واذا موج يهز السفين . ثم اذا المطر ينهمر هتونا فيحيل الوجود كله ، سماءه وموجه وبحره وسفينه ، ماء يجعلنا فى آن سوابح غرقى ويبعث الى نفوسنا من أسباب الرهبة مايزيدها انكماشاً كلما برز الوجود أمامها بما يشعرها عظمته وصغرها أمامه . وظل تهتان المطر سويعة ثم أمسكت السماء وان بقيت الشمس فى حجاب من السحب . على أن هذه السويعة أدنت ساعة مغيب بديع ردتنا سوابح غرقى فى لجة عسجدية مما أفاضت السماء على السحب وعلى السماء وما سكبت فى الماء من ذوب أشعتها القانية الحمرة حتى لكأنها تهمى دماً يصبغ الجو كله مدى ساعة كاملة تجيء بعدها ظلمة الليل تبتلع كل أثر للمغيب .

وبلغنا مصر وانخرطنا فى حياة العمل حتى اذا كنا فى أول يونيو سنة ١٩٢٨ فى عطلة عيد الاضحى بافتنى اوتوبيل فاضطررت لوضع ساق فى الجبس ولزوم منزلى ستة أسابيع كاملة خرجت بعدها متعب الاعصاب محتاجا أشد الحاجة الى الراحة والسكينة . ففكرت من جديد فى أن أفى بالنذر الذى نذرته لنقضين الصيف فى أوربا ، واخترت جنوا مرفأ البداية لرحلتى وغادرت القاهرة فى ١٧ يوليو لأستقل الباخرة اوزارامو من مينا بور سعيد . غادرتها وجو مصر السياسى مستقل باحتمالات ما كنت لاستطيع وأنا فيما أنا فيه من جهد — القيام على وجه يرضى بواجبى الصحفى .

وكأنما أراد القدر أن يجعل نصيبي من الاستشفاء في هذه الرحلة أوفر من نصيب زوجي . فقد أشار الطبيب على بأن أذهب الى بارجستين أعالج بمياهها ماأصاب كتفي اليمنى أثناء مقامي بالدار سجين ساق . ولم أكن أدري أن القدر المحسن قد كتب لنا في لوحه أن يكون هذا الصيف آخر صيف لاستشفائنا ، وأن سيعود لنا أكبر الرجاء في العوض عما أصابنا قبل صيف العام المقبل فتكون مغادرتنا مصر لاوربا في مهمة سياسية بدل أن تكون مهمة استشفاء وانتظار ورجاء .

الكتاب الثالث

---

١٧ يوليو — ٥ اكتوبر سنة ١٩٢٨

بين بورسعيد وجنوا

أترانى أتحدث مرة أخرى عن الطريق بين مصرا وأوربا ؟ وأى جديد أقول فى الماء والسماء ورفاق السفر وما قد يتخلل ذلك من صحو فى الجو أو هياج فى البحر أو دوار يصيب الراكبين أو مرح يلهو به كل ليقطع أيام البطالة والكسل ؟ على أنى شعرت فى سفرى هذا الاخير بين بورسعيد وجنوا بحالات نفسية لم يكن لى من قبل بها عهد . ولست أدرى الى أى سبب أردها . فلقد كان البحر هادئاً والجو صفواً طول الطريق . والباخرة الالمانية « اوزارامو » باخرة عادية فى كل شىء فيها ، وفى ركابها أكثر من كل شىء فيها . فماذا عسى تكون المؤثرات التى دفعت الى نفسى تفكيراتها فى هذا السفر ؟ أهى الموسيقى الالمانية التى كان يلعبها موسيقارو الباخرة طول الطريق ، أم هى قراءتى ما كتبه جول لمتر عن لامارتين وما كتبه ادوار شوريه عن موسى ؟ أم هى حاجتى الى التفكير فى شىء غير المضطرب السياسى الذى خلفته ورائى فى مصر ، أم هو هذا الضعف الثائر الذى يملأ النفس أثر المرض وأثر الحوادث ؟ لست أدرى أى هذه العوامل أكبر أثراً فى نفس كانت فى حاجة أشد الحاجة الى الراحة من التفكير ومن الحركة ومن كل صور النشاط العصبى كى تستعيد بالراحة قسطاً من نشاط فتر فيها قبيل مغادرة مصر ومغادرة العمل . ولعل الموسيقى كانت أكبر العوامل أثراً . فما عرفت فى

كل البواخر التى سافرت عليها واحدة كهذه الباخرة الالمانية تسمع فرقة من الموسيقيين المتقنين على ظهرها فى الصباح وبعد طعام الغداء وساعة الشاى وبعد العشاء توقع أحسن الالحان لأكبر المنشئين فتملأ نفسك كل يوم مدى ثلاث ساعات أو تزيد بأحلى الانغام وأبدعها وبأكثرها سمواً بك فوق المطامع الدنيا الى عالم روحانى تنهل عواطفك العليا منه أعذب ورد ويتهادى فؤادك فيه فوق موج هادئ حيناً مضطرب آخر ساكن تالتاً سابح بروحك وبنفسك فى لجة من عذب النغم .

ما عرفت مثل هذه الفرقة فوق كل البواخر التى سافرت عليها . وكل ما أذكر انى سمعت هناك من موسيقى ، فتلك أنغام الرقص الحديث يوقعها خدم الباخرة ليتسلى بها الركب سويعة وليساعدوا بها معداتهم على هضم طعام العشاء . ولست أنكر رغبتى عن موسيقى الرقص الحديث هذه وما تشنف به المسامع من أنغام الجازبند والشارلستون وغيرها مما لا أذكر له مثيلا قبل الحرب ومما أنشأته الحرب ارضاء لشهوات الجماهير ثمناً لفضلها فى القتل والقتال دفاعاً عن الوطن . فهذه الجماهير لم تكن لتسيغ الموسيقى « الكلاسيك » ولم يكن يحلو لها تجاوب نغم الاجسام فى رقص الفالس وغيره . ولم يكن المؤلفون يعنون يومئذ بارضاء هذه الجماهير التى كانت قانعة بالعيش فى بقعة الارض التى ولدت فيها سعيدة بهذا العيش أكبر السعادة زاهدة فى الموسيقى وفى الرقص وفى كل ألوان الترف ناظرة اليها جميعاً كبعض آثار البطالة مما يتسلى به الأغنياء العاطلون على ملال الوقت . فلما آن لهذه الجماهير أن

تخرج من أوكارها الى ساحات القتال وأن تبدى من البطولة فى الدفاع عن أوطانها ما أبدت فى الحرب الكبرى لم يكن بد من أن تملو الانغام التى تلذ الجماهير ولو الى حين ينسى الناس الحرب وما تطلعت له العينان من شهوات الانسان الدنيا الى حد التلذذ بالسفك واراقة الدماء . يومئذ تعود الموسيقى الانسانية الى مكانتها من النفوس الراقية . ولست أنكر ان من حق الملايين التى استماتت فى الدفاع عن أوطانها والتى استهانت لذلك بالموت ان تنعم بما يرضى شهواتها على عجل خيفة أن يجيئها الموت ولم ترض هذه الشهوات . لكن ذلك لا يمنعنى من أن أرغب عن تلك الموسيقى .

أنا أرغب عنها وان كنت أرى الجماهير تتحرك لها وتطير اليها لا بالنفوس والاسماع فكلفى بل بالاجسام والارجل أيضاً . واذا طارت الجماهير الى شئ لم يستطع كثيرون الوقوف دون مجاراتها والاعجاب بها . أليست الجماهير هى قوة الحياة البريئة السليمة من أمراض التفكير والرفاهية والتسامى بالنفس أو بالروح أو بالعاطفة أو بغير هذه من المشاعر التى أحس بها المتعلمون والمترفون أو ادعوا — فى نظر البعض — انهم أحسوا بها ؟ ومن ذا يستطيع أن يقف أمام تيار قوة الحياة البريئة من هذه الامراض ؟ بل من ذا يستطيع تجنبها والازورار عنها وعدم متابعتها الا رجل ما يزال يقدر للتفكير وللروح وللعاطفة قيمتها ويراها فوق المستوى العادى فليس يليق بصاحبها أن ينزل الى هذا المستوى من غير أن ينكر نفسه .

على أن فرقة (الاوزارامو) لم تضن على السفر بليلة تحييها رقصا من هذا الرقص الحديث . وفى هذه الليلة وقفت أشهد الراقصين

وأسمع لانغام الموسيقى . ماأكبر الفرق بين هؤلاء الاشخاص الذين أرى الان يرقصون وبين هؤلاء الاشخاص أنفسهم اذ يستمعون الى الانغام السماوية يحيي بها الموقعون أسماء كبار الموسيقيين من أهل القرن الماضي! بل ما أكبر الفرق بين نفسي وأنا اراهم وبين نفسي وأنا أسمع لتلك الموسيقى السماوية ! هاهم امامي يرقصون وها أنا أشهدهم وأسمع الى موسيقى تعيد الى نفسي ذكر دلوكة أبي الودع في قرى الريف . أنظر الى شفاههم تبسم طربا للساعة التي هم فيها بسمة لاتخلو من معنى قوى فيه رغبة وفيه وحشية . وانظر الى حدق عيونهم ليس فيه معنى من معاني الامل ولاهو يرنو نديا الى بعيد في عالم الاماني، بل يضحك هو الآخر سعيدا باللحظة الحاضرة ناسيا فيها كل ماسواها شأن الحيوان جميعا لايعرف الماضي ولا المستقبل لانه لايذكر ولا يرجو ولا يتمنى . ثم انظر الى هذه الحركات حركات الاجسام والارجل وما أظنك الا شاركتني في أنها لاتعبر عن أنغام الاجسام في صورة تغتبط لها المعاني السامية . انظر الى هذا كله وانظر الى أنا أيضاً . فأنا أضحك ملء اشداقي ولا أعرفه من كل ماحولي غير هذا المنظر الساذج في براءته الحيوانية والذي يجذبني اليه لانه يثير من نفسي ميلها الى الراحة . وهل أدعى الى الراحة من أن يقف العقل فلا يفكر والنفس فلا تحلم وأن نستسلم بكلنا لحواسنا المشغولة عما أمامها من لهو الحاضر

وها أنا الآن استمع من جديد مع هؤلاء الاشخاص الذين كنت اشهدهم يرقصون الى الموسيقى بالمعنى الذي تفهمها به الانسانية السامية . انظر الى حدق العيون وبسمات الشفاه ترى الماضي

وذكرياته وترى المستقبل وآماله وترى المعانى الانسانية مرتسمة على كل جبين . هنا مسارح الامل ولواذع الالم وهنا يتصل الانسان بالوجود اتصالا روحيا خالصا .

أنت هنا لاترى غرائز تحركها الانغام الوحشية ولكنك ترى أرواحا تستحيل انغاما وتطير مع الأنغام الى حيث يريد مؤلفها أن تذهب . ثم أن هذه الموسيقى لاتنسيك نفسك ولاتنسيك الماضى والمستقبل لتقيدك باللحظة الحاضرة . كلا ! انها توقع من نفسك على أوتارها التى تكونت فى الماضى والتى ترجو المستقبل فتستثير من هذه الاوتار معانى كم تشعر أنت بالحاجة الى التعبير عنها فتعجز الكلمات وتعجز الاصوات عن ادائها بغير صوت الموسيقى الشجى الحنون.

أترى ؟ ! لقد أنستنى الموسيقى نفسى وانستنى ماقصدت الى كتابته . وهذا الذى اشرت اليه مما شهدت فى ليلة الرقص التى أحيتها فرقة (الاوزارامو) لما يأت موضعه . فليلة الرقص هذه كانت ليلة السبت ونحن ركبنا الباخرة ليلة الاربعاء. ومابين الاربعاء والسبت قرأت وفكرت واطمأنت نفسى الى أن أكتب شيئاً عن هذا السفر . والمقارنة بين موسيقى الرقص الحديث والموسيقى الانسانية وأن الاولى بعض نتائج الحرب لم تكن بنت ليلة السبت بل كانت سابقة لها . لكن الموسيقى هى اول مالقينى فى تلك الباخرة الالمانية ساعة صعدت اليها فى ساعة الشاى . وساعة عدت اليها فى المساء بعد وقت قضيته ببورسعيد فى صحبة خير صحبة . والموسيقى ساحرة فليعذرنى القارىء اذا أنا سحرت ونسيت نفسى فى حديثها وفى المقارنة بين ماقارنت بينه منها

ثم لعل على الموسيقى بعض التبعة فى تأثرى بما تأثرت به من بعد . فلست أعهد نفسى سريعة الى الطيرة ولا الى التفاؤل . وليس يسيغ عقلى أن يكون لحادث يقع نبوءة بحادث بعده لا صلة له به . مع هـذا فقد تحطم زجاج احدى نوافذ الباخرة فى يوم الاربعاء فاذا أعصابى تهتز واذا بى أتطير . ولماذا ؟ ما علاقة نافذة تحطم زجاجها بالحوادث التى تقع بعد ذلك ؟ اريد أن اعزو هذا الى شحذ الموسيقى لنفسى . ولعلى أجد فى ذلك عذرا خيرا من العذر الصحيح . خيرا من أن أعصابى كانت جهيدة ساعة تركت مصر الى حد هبطت فيه الى مستوى من لم تهذب أعصابهم فهبطت الى التأثر بما به يتأثرون والايمان بما به يؤمنون .

ولقد أضحك الآن من نفسى اذ أذكر جهادها لتصل بين هذا الحادث وحادث آخر وقع فى يوم الخميس . فى الساعة السادسة من مساء ذلك اليـوم بينما الجو صحو والبحر زيت والشمس تنعكس أشعتها على صفحة الماء اذا ضباب يهبط دفعة واحدة حتى حجب الشمس وملأ الجو بريح كريح الدخان ، ثم اذا بنا فى ظلمة لا يبصر الانسان معها شيئا حتى لقـد اضطر ربان السفينة الى أن يطلق فى الجو صفارته حتى تسمع البواخر التى يمكن أن تكون على مقربة منا فلا ترتطم بنا ولا تذهب أرواحنا وأرواح سفرها الى قاع البحر . هنالك تصورت الموت جاثما خلال هذا الضباب الـكثيف وذكرت زجاج النافذة المحطم وأيقنت بأنا مصيبنا لاشك مكروه وأسلمت أمرى لله ، اليه تصير الأمور . والمسافرون غيرى فى مرح كأن لا ضباب يجثم الموت خلاله وكأنهم لا يذكرون النافذة التى

تحطمت فاعجب لهم وما يصنعون . واستمر قتام الجو ساعة كاملة كان صفير الباخرة ، أو نحيبها ان شئت ، يعلو بين فترة وفترة اتقاء الخطر ، أو كأنها تستمطر الرحمات على هذا الجدث السابح سيبتلعه الموج عما قريب . فلما تكشف الجو عاودتنى سكينة مشوبة بالخوف . من يدرى ؟ أليس الانسان يسير فى الطريق فيدهمه أوتوموبيل قد يقضى على حياته وقد يصيبه بمكروه ؟ وقد تصطدم الباخرة وسط هذا الضباب فلا ندرى أينا ينجو وأينا تبتلعه رحمة الله

اضحك الآن ، بعد يومين اثنين ، من تفكيرى فى تلك الساعة . ولا عجب من ذلك التفكير ولا من هذا الضحك . فاربعة أيام فى جو كهذا الجو البديع الذى تخطر الباخرة فوقه قمينة بان تعيد النشاط والقوة الى أضعف الاعصاب ، والى أعصابى التى كانت مضناة ساعة غادرت مصر . على أن هذه اليقظة العصبية بعد ذلك الحادث اصطحبت بقراءة من شعر لارماتين وبأخرى عن حياة موسى فجعلنى ذلك كله أفكر فيما حولى من لانهايات لاتحدها الآفاق تفكيراً أشرك القارىء فيه وأترك له حرية تقديره معتذراً له دائما بأنى ربما كنت مازال فى حالة فكرية كتلك الحال العصبية التى ضحكت منها .

يعرف القراء مقدمة كتاب الرحالة الكبير احمد بك حسنين عن رحلته خلال صحراء ليبيا . وكل من يعرف هذه المقدمة لايستطيع أن ينسى هذه الصحف البديعة الخالدة التى دبجها يراع حسنين عن الايمان كسند للنفس وسط الصحراء . هذا الايمان الذى يستمد اليه راكب الصحراء أكثر من اعتماده على ابله لان الابل قد تنفق ،

وأكثر من اعتماده على دليله لأن الدليل قد يضل ، والذى يحبب اليه الموت فيها لانه موت فى أحضان الرحمن الرحيم — هذا الايمان هو الذى كنت أفكر فيه بينا كنت أقرأ شعر لامارتين ، وحياة موسى ، وبينا كانت تهبط كسف الضباب تملأ الجو وتحجب عن عيوننا ذلك الحيز الضيق المتصل بيننا وبين الأفق وتعرضنا بذلك للخطر وللهبوط الى قاع البحرين الاعماك . ولكن ما أكبر الفرق بين ايمان وايمان . ما أكبر الفرق بين ايمان بالحب العطوف الرفيق يصل بين الخلائق بعضها والبعض ويصل مابين الحاضر والماضى والمستقبل، وايمان بالعدم يبتلع الاشياء فى جوفه الاسود فلا يبقى منها ولا يذر ولا يصل بين شىء منها والشىء الآخر بصلة ، وايمان عبوس بالقدر القاسى فيه العذاب وفيه الألم وفيه الا نتقام تمتد أيديها الملتهبة لتحرق مافى الارض ومافى السماء فتذرها هشيما تذروه الرياح. دعك من هذا الايمان بالعلم ايمانا خلاصته أنا لا نعرف من العالم الا قليلا وانا يجب أن نحتاط فلا نقامر بعقولنا ولا بنفوسنا فى مجاهل مالا نعلم

وبين هذه الصورة من الايمان ذكرت تاجور شاعر الهند وذكرت شخصه المهيب المحترم وصوته العذب الملائكى الذى يسيل محبة ورحمة . الايمان والعلم خصيمان ؟! ولماذا ؟ الانسان والوجود خصيمان ؟ ! ولماذا ؟ الحياة والموت خصيمان ؟ ولماذا ؟ أليس ذلك كله بعض مافى الوجود ؟ وكيف يكون البعض خصيما لكل هو منه ولا حياة له الا به ؟ وهل كان للناس أن يصلوا الى العلم الذى وصلوا اليه لولم يسبق العلم ايمان ؟ فاذا هم جعلوا علمهم اليوم ايمانا

أوسع مدى وأمحى قابة من ايمان أسلافهم فقد يصبح بعض هـذا الايمان علما فى المستقبل، وقد يرتفع بهم وبإيمانهم درجات جديدة . ولم لا ! أليس للوجود وحدة كما أن لـكل ذرة من ذرات الوجود وحدة ؟ وكيف نأبى على الـكل صفة نعترف بها الجزء منه؟ واذا نحن لم نكن قد بلغنا من العلم الى معرفة دقائق وحدة الوجود هـذه فنحن نستطيع أن نحسها وأن نقدرها وأن نؤمن لذلك بها كما آمن آباؤنا من قبل بأشياء أصبحت بعض مايحيط به علمنا احاطة تامة نعرف معه كل سننه وقوانينه . فليكن من عمل المفكرين منا أن يفكروا فى الوجود كوحدة وفى صلة هذه الوحدة بأجزائها صلة نظام ورفق كالذى نراه فى صلات الموجودات جميعا وهم لاريب مهتدون فى مستقبل قريب أو بعيد الى شيء من سنن وحدة الوجود على صورة علمية ان لم يتح لهم الاهتداء على هذه الصورة العلمية اليها جميعا .

***

كذلك كنت أفكر صباح الجمعة . فلما كانت الظهيرة وتناولنا طعام الغداء وسمعنا الى الموسيقى وفـكر البعض فى الهبوط الى مضاجعهم اذا رجال الباخرة يوزعون على الناس قبعات من ورق صنعت على أشكال مختلفـة بعضها صينى وبعضها هنـدى وبعضها تركى وبعضها تيجان للسيدات تلمع فيها أحجار كما يلمع الماس . ماهذا ؟ ذلك مالم أعرفه لساعتى لأنى ركبت الباخرة من بورسعيد. فأما الذين استقلوها من قبل ذلك بأسابيع فيعرفون ان ليلة السبت ليلة راقصة هى التى حدثتك من قبل عن موسيقاها . وهى ليـلة راقصة فى ملابس الخفية .

وأنت تعرف كيف يفتن الاوروبيون فى ملابس الخفية . لذلك اتخذ كل من القبعات التى أشرت اليها ما يتفق وما عنده من لباس واستعدوا بذلك لحفلة المساء . فلما كنا ساعة الطعام اذا كل قد استبدل ملابس السهرة بملابس عجيبة . فشيخ عرب و « قبضاية » وصينى وآخرون اكتفوا بالقبعات التى اختاروا ساعة القاهر . فأما السيدات فأفتنت كل ما استطاعت وبلغ بعضهن من ذلك حداً بدا على غرابته جميلا وبلغت أخريات من التستر حداً ظريفاً. واجتمع الرجال والنسوة من الدرجتين الاولى والثانية بعد ان متعوا بعشاء خاص فى هـذه الليلة الخاصة . ودقت الموسيقى ودار الرقص ونسى الناس أنفسهم فى هذه اللحظة التى لا تعود الا كل اسبوع مرة . ولهم عن هذا النسيان العذر . أليس بعضهم قد قضى على سطح الباخرة ستة أسابيع بينما قضى آخرون ثمانية وغيرهم عشرة! فماذا تراهم يصنعون؟! الا لو أنهم كانوا فلاسفة لوجدوا فى تشابه الحياة حولهم مايزهد فى الحياة وفى الفلسفة بعد هذا الزمن الطويل . ما بالك واكثرهم من رجال المستعمرات الانكليز والالمان والبلجيكيين ممن يعودون الى بلادهم ممتلئة نفوسهم اليها حنينا وشوقاً . هم اذن فى حاجتهم الى اللهو مفعمون بالليلة الراقصة سروراً، وهم اذن فى هـذه الحال الساذجة التى وصفت لك .

وفى صباح السبت عدت أسائل نفسى : ما مكان هؤلاء الراقصين فى نظرية وحدة الوجود ؟ واذا فى هـذه النظرية مكان أمتع مكان . أليسوا هم الانسانية مصغرة وحدتها الكبرى . فهم لا يعرف أحدهم الآخر من قبل الا على انه انسان لا يعنيه من امره ان كان غنيا أو

فقيرا معلما أو حقيرا كما لا يعنيه من أى جنس هو. بينهم الانكليزى الحاكم فى جنوب افريقيا والبلجيكى المستعمر فى الكونجو والالمانى المقيم فى افريقيا مالكا لقطعة ارض ضيقة أو واسعة بعد أن كان قبل الحرب سيدا للمستعمرات الالمانية الافريقية حتى انتزعها الحلفاء قسرا من المانيا. والى جانب هؤلاء جميعا جماعة من الذين استوطنوا افريقيا فهم انما يغادرونها الى اوربا كما نغادر نحن مصر طلبا للراحة أو الاستشفاء وحرصا على الوقوف على احدث صور حضارة الانسان. هؤلاء جميعا وغيرهم معهم اجتمعوا فى ملابس الحفلة يحيون ليلة راقصة، وهم يرقصون على انغام الموسيقى وسيان أكانت هذه الموسيقى دلوكة العبيد أو أرق صور القالس فان الانغام تتصل بنفوسهم وهى التى تحركهم. تتصل بنفوسهم وتصبح جزءا من مجموعهم ومن هذه الوحدة التى تمثل الانسانية مصغرة. وقد لا تعدو الحق فى كثير اذا ذكرت ان هذه الوحدة من الموسيقى والكهرباء والناس ما كانت لتكون لولا السفر على الباخرة وفوق سطح البحر. واذن فالباخرة والبحر بعض هذه الوحدة. وبين هذه المكونات للوحدة جميعا رابطة تربطهم هى الجاذبية اذا اخترت تعبير علماء الطبيعة، وهى التقارب Des Affinites اذا اخترت تعبير علماء النفس، وهى الحب اذا سموت بهذه الكلمة الى معناها الروحانى تعبر به عن سر الحياة الذى يربط الكائنات جميعا انسانا وجنا وملائكة، أرضا وسماء وأثيرا، صراطا وجنة وسعيرا. برابطة القربى والمودة والوحدة التى تبعث فيها الروح وتبعث فيها الحياة.

وأصبحنا يوم الاحد وللسفر جميعا حديث واحد. اليوم سنرى

فى طريقنا جزيرة « البا » حيث نفى نابليون لأول مرة ومن حيث عاد ليرتقى عرشه ثانية فى فرنسا حتى يهوى نجمه فينهزم فى واترلو وينفى أخيراً الى جزيرة القديسة هيلانه . واليوم نستعيض بمرأى جزيرة « البا » عن مرآى جزيرة كورسكا مسقط رأس نابليون . وكذلك اتصلت النفوس فى هذا الجو المطمئن الساكن بروح قوية عاصفة سخرت العالم لشهواتها منذ أكثر من قرن من الزمان، وتختلف هذه الفترة عن غيرها من فترات التاريخ لا لشىء الا لذكرها هذه الجزر التى شهدت من مثل هذا الدور من أدوار التاريخ . وظللنا كذلك طيلة النهار تبتدى لنا بين وقت ووقت شبهات من الارض يذكر الربان ان بعضها مصب التبر حيث تقوم المدينـة الخالدة روما العظيمة، وأن آخر نتوء من ايطاليا وسط البحر، حتى اذا قاربت الساعة الثامنة من المساء وآن للشمس أن تنحدر فى مغيبها كانت «البا» قد تكشفت لنا وما كدنا نتم تناول طعام العشاء

أنظر الى الشمس تنحدر فى مغيبها وتخلف بعدها ألواناً مختلفة من برتقالى وبنفسجى ! وانظر الى هـذا الهـلال الوليد يحبو على استحياء فى لجة السماء ويرقب « البا » وايطاليا وأضواءها الـتى بدأت تظهر فى جوف الليل الساجى ما تزال موليات الضياء تغالب سواده ! ثم انظر الى مياه البحر ! لقـد كان البحر فى اثناء سياحتنا كلها جميلا رفيق الموج حلو النسيم . لـكنه الليلة ملائكى وأكثر من ملائـكى . يسرى النسيم منه فوق صفحة مصقولة صقال المرآة أو هى أصفى تنعكس عليها تلك الاشعة المتعاقبة الالوان مما خلفت الشمس ساعة مغيبها وتندمج فيها الشعاعات القليلة التى يحاول الهلال

أن يبعث بها من سمائه . والليل يطارد النور ويطرده فتبدو أنوار « إلبا » مبعثرة كأنها النجوم ألقى بها فى الماء . أنوار يقف عندها نظرك وانتباهك وسمعك وقلبك وكل حواسك وتنسيك نابليون والتفكير فيه والتاريخ وصفحاته والماضى والمستقبل وكأنما هى والماء والنسيم والهلال وكل ذلك المنظر الساحر ينسكب فى نفسك انسكاباً ويجرى فى روحك عذباً سلسبيلا . ويدور الناس الى الجانب الثانى من الباخرة ليروا شاطئ ايطاليا وفناره وأنواره ثم اذا « إلبا » تجذبهم اليها من جديد كأن النسيم الى ناحيتها غير النسيم الى الجانب الثانى أو كأن روحها التى حسبنا أنا نسيناها فى جمال الوقت ، هذه الروح التى قويت بقوة نابليون واشتدت جاذبيتها بشدة جاذبيته ، لها على كل ما يحيط من بحر وقمر ونسيم وناس سلطان ليس لأحد دون الولاء له سبيل .

ما بال البحر فى الليلة الاخيرة من ليالى سياحتنا يلبس كل زخرفه ويزدان كأنما يريد ان يكفر عن هياج منه سلف وما كان خلال رفقته ايانا الا أرق صاحب وألطف عشير ! أم ان مثله فى ابتسامته هذه الساحرة كمثل الفاتنة تودعك بابتسامة أشد فى نفسك فعلا من ابتسامة اللقاء لتكون بهذه الابتسامة أسيرها فلا تبرح طول بعدك عنها عن التفكير فيها واللهفة على ساعة لقائها .

وكلما فكرنا فى مغادرة « إلبا » لنستريح خفنا ان تتخطى الباخرة الجزيرة الساحرة وقد فتنا من سحرها كثير أو قليل . فلما بدأت تبعد عنا جعلت أنوارها تتدثر فى جوف الليل رويداً رويداً حتى أصبحت شبحاً تخيالا فوهماً ماضياً نذكره مغتبطين

بذكره . هنالك أخذنا مجالسنا الى جانب زوجين بلجيكيين لهما على الباخرة ثلاثة وعشرون يوماً قصا علينا عن سياحتهما وعن الكنجو البلجيكية شيئاً غير قليل . ثم قمنا جميعاً الى مخادعنا نعد متاعنا للنزول به فى الصباح الباكر الى جنوا

ودخلت الباخرة الميناوالسفر نيام مايزالون . فلما علونا سطحها قابلتنا البواخر الكثيرة متراصة متزاحمة وفاجأت نظرنا مبانى الميناء فاخرجنا ذلك من طمأنينة السكينة الى جلبة ماكان أحلى الفرار منها والبعد عنها . ورست السفينة فاذا المستقبلون من أجناس مختلفة يتحدثون بلهجات ولغات مختلفة ويقصون من أخبار تجارة الحياة ماينسى التفكير فى وحدة الوجود ويعيد الذهن الى نطاق ضيق من التفكير فى الانسانية كأمم وكأفراد تتنافس وتتباغض ويفنى بعضها بعضا . ثم انحدرنا الى جنوا وأقمنا بها يومين لقينا فيهما من لهيب القيظ ماوددنا معه لو أنا أقمنا على ظهر الباخرة حتى سوذامبتن اوروتردام أو هامبور . لكنا لقينا فى جنوا أنيساً أنسانا ظرفه قيظها حتى حين حديثه عن قيظها . ولقينا فيها صورة أخرى من صور وحدة الوجود أشد بالنفس أخذاً من كل ماجاله البحر فى ذهنى من خواطر . واذ انقطع رجاؤنا فى أن نجد بايطاليا غير القيظ المحرق فقد تركناها بعد هذين اليومين الى سويسرا آملين أن نجد فى جوها وفى جبالها وفى جمالها مايعيد الى النفس السكينة التى عرفت أيام سفر البحر والتى نسيت فى جنوا من شدة القيظ الذى زاد فى رطوبته وثقله على قيظ مصر .

جنوا — برن
وحدة الوجود أيضاً

هذه جنوا وشوارعها المرصوفة بالبلاط المتصاعدة من شاطىء البحر رويداً رويداً أحياناً، المتمردة أحياناً أخرى حتى لترتقى أسبابها بسلم . وهـذه العربة تجرى بنا وبمتاعنا وسط طرق المدينة القديمة الضيقة حتى ما تكاد تتسع لعربتين ومع ذلك تقوم عن جانبيها أفخم المبانى وأكثرها عظمة وجمالا . وتجتاز العربة هذه الطرق الى ميدان واسع كبير فيه بناء اوبرا المدينة ومتحفها الاكبر ومنه شقت الطرق الحديثة المتسعة . ثم هـذه هى تقف بنا أمام فندق برستول فى شارع ٢٠ سبتمبر فيصعد رجاله الى احـدى الغرف بمتاعنا ومنه نتحدث الى القنصلية المصرية لنجد فى القنصل خير عون لنا فى مدى اليومين اللذين اقمناها بالثغر الايطالى القديم .

أتدرى لماذا جعلت جنوا فاتحة طريقى الى أوربا هـذا العام . لقد اذكر لك سـببا له قيمته على بساطته ولكنه فى الحقيقة ليس كل السبب . ذلك انى رأيت ان أغير ما استطعت الثغور التى أصل عن طريقها أو أغادر منها أوربا لكى أرى من هذه الثغور وأقف من الطرق التى تتصل بها على مايزيدنى باوربا معرفة وبصور بلادها علما . ذلك هو القصد الظاهر — على حد تعبير القانونيين — من تصرفى . لكن سبباً آخر أقوى بكثير من هـذا هو الذى جذبنى الى ذلك الثغر . سبب جعلنى ألزم تقسى السفر عن طريقه أو العودة منه هذا

العام . ذلك أنى منذ زرت مقبرة ميلانو من سنتين مضتا ورأيت فيها تلك التماثيل الحزينة الناطقة بآلام الانسان افقد أعزائه والتى يسيل فيها الحجر عبرات ودموعا سخينة حتى لكأنما تسرى الى جموده أشجان القلوب الكايمة ، من ذلك اليوم نذرت زيارة جنوا لزيارة مقبرتها . أليس الذين رأوها يتحدثون بعظمتها ويذكرون أنها أكبر المقابر وأن تماثيلها أفصح التماثيل نطقا وأبلغها عبارة عن آلام النفس عند فراق الاعزة . فكيف لى أن لا أزورها وأن لا أجدد فيها عهودا مضت وأن لا اذكر فيها من جديد قول الشاعر :

وقال أتبكى كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له ان البكا يبعث البكا * فدعنى فهذا كله قبر مالك

لذلك مالبثت أن أقمت بالفندق سويعات حتى سألت عن (الكامبوساتنو) وحتى ذهبنا اليها نذكر فيها غيرها من المقابر ونذكر فى تماثيلها تماثيل مقبرة ميلانو . وليس فى جنوا الامن يدلك على « الكامبوساتنو » أين هى . وهل بين الاحياء من لايعرف مقره الاخير والمقر الاخير لاحبته وأعزائه من قبله ؟ وهل بينهم من لم يذرف الدمع المرير على قبر من القبور ؟

ووقفنا على باب المقبرة العظيمة خشعا تملأ قلوبنا الرهبة . وقفنا ونحن لم نر بعد قبرا ولا تمثالا ولا شيئا يدل عليها . فهى ليست كمقبرة ميلانو ترى الداخل من أبوابها الاولى ماوراء هذه الابواب وأن كانت أكثر من مقبرة ميلانو ظهورا من الخارج لانها تقع على سفوح مرتفعة بعضها فوق بعض درجات ، فانت ترى أعاليها قبل أن تصل اليها كما أنك تراها كلها كلما ارتفعت فوق السفوح الصاعدة

أهلي منها ذاهبة الى قة «الريجى» المطل على جنوا كلها . وقفنا خشما تملأ قلوبنا الرهبة ثم تخطينا الباب خطوات فاذا عن يميننا وعن شمالنا دهاليز تمتد الى عشرات الامتار وقد حجبت بين جدارين وضع فى كل جدار منهما توابيت الموتى أصبحت كأنها بعض الجدار ونقش على كل منها اسم صاحبه وتاريخا مولده ووفاته وطلب الغفران والرحمة له فلخصت بذلك حياته الانسانية جميعا عظيما كان أو حقيرا كبيرا أو صغيرا . وهذه التوابيت يكاد يخطئها العدهى توابيت الذاهبين من أهل جنوا وتوابيت أغراب اختاروا جنوا واختارتهم جنوا لمثواهم الاخير ومقرا لرقاتهم فنقش ذووهم على توابيتهم مايدل على مكان مولدهم . ومن بعد هذه الدهاليز دهاليز أخرى تمتد مثلها عشرات الامتار وهى أكثر منها عرضا بعض الشيء ، فعلى جانبيها مكان التوابيت مقابر وعلى المقابر تماثيل تحكى لجيعة قوم فى عائلهم ومن حول القوم ملائك الرحمة يعزونهم ان كان عن فقد الاعزة عزاء . ومثل هذه الدهاليز دهاليز أخرى فى أماكن كثيرة من المقبرة المتسعة التى تضم بين الجدران والدهاليز ألوفا وألوفا من قبور الفقراء لاتماثيل عليها . وترتفع الدهاليز درجات على سفح المقبرة الفسيحة فلا تضيق بالصور المختلفة ممن يغادرون هذه الدنيا فيبكيهم أهلهم ويجسدون بكاءهم فى الحجر الصامت المحزون . ياما أخصب خيال الانسان فى التعبير عن الألم . فهذه سيدة ترفع الغطاء عن وجه فقيدها وتنظر اليه مرة أخرى لعل دبيب الحياة يدب اليه من جديد ، وهى خلال هذا الوهم من الامل الكاذب قد رسم الحزن اليائس على ملامحها صورة الالم المجسد . وهذه اسرة تندب ربها ومنهم الطفل لايعرف الهم ولا الالم

وهو مع ذلك يبكى لبكاء أهله . وهذا ملاك يطير بجناحيه نحو تمثال الرجل الذاهب المدرب بعد حياة قضاها فى المحاماة والملاك يمسك بين يديه لوح المحامى خطت عليه كلمتان هما فخر حياة المحامى : الامانة والحقيقة . وهذا نبيل يأبى أهله بعد موته الا أن يكون قبره نبيلا وان كانوا لا يذكرون عنه هو شيئا . وبين الدهاليز تقوم قباب رفيعة بعضها كنائس وبعضها قبور وكلها تأخذك بعظمة عمارتها وجمال مايحيط بها من عمد ونقوش كما تأخذك قبور الفقراء المؤلفة الذين ذكرت بهيبة بساطتها وقد افترشت كلها ثرى المقبرة العظيمة يذهب النظر لدرك غايتها فاذا النظر يرتد وهو أقصر من أن يدرك لقبر غاية

وعدنا ادراجنا الى باب المقبرة فقابلتنا عند مدخلها عربة تحمل ميتا وأهله يسيرون وراءه حافين من حوله رجالا ونساء وأطفالا اخشعا أبصارهم منكسة رؤوسهم بطيئة خطاهم الى المقر الاخير يواورن فيه جثمان عزيزهم ، أوهم يذهبون به الى الاتون يحرقون فيه هذا الجثمان لتبقى منه حفنة من تراب يودعونها هى الاخرى قبرا يزورونه بعد ذلك . أولا يستحيل كل جثمان هو الآخر ترابا فيزوره الناس؟ وقد تزور هذا التراب أجيال بعد أجيال اذا كان صاحبه عظيما . والحق أن الناس لا يزورون التراب ولكنهم يزورون الذكرى لانهم يكرمونه أشد لها تمثلا كلما كانوا أكثر من بعض آثارها قربا . وأى أثر أقدس عندهم من هذا التراب الذى كان يوما من الايام انسانا مثلهم ذا حركة وارادة وحياة والذى لم يروه حين استحالته ترابا فهم يتصورونه كما كان انسانا أيام حياته وفى نفوسهم اليوم منه ذكرى أقدس مما كانت حياته الف مرة :

وأخذنا الطريق الى مقر الاحياء من جـديد فعادت بى مقبرة جنوا الى التفكير فى وحـدة الوجود وأرتنى صورة أكثر أخـذا بالنفس من الصور التى أحيت هذه الفكرة فى نفسى وأنا على الباخرة. فتلك الالوف المؤلفة من قبور العظماء والبسطاء انما تحوى خلالها فترة من حياة الانسانية هى التى نسميها الماضى، وهى صاحبة الأثر الاكبر على الحاضر وعلى المستقبل. وهذه المبانى الضخمة مما رأينا ونرى فى جنوا وهذه الاشجار المغروسة على سفوح الربى وهذه الصور من آثار الحياة ومما نتمتع نحن ويتمتع غيرنا من الاجانب ويتمتع أهل جنوا به هى من عمل هذه الاجيال المتعاقبة الثاوية فى تلك البقعة الضيقة الى جانب سعة جنوا وفسحتها.

وهـذه الاجيال لم تكن تفكر فينا يوم أقامت تلك المبانى ورصفت تلك الطرق وغرست تلك الاشجار وانما كانت تفكر فى حاضرها مأخوذة به عن الماضى وعن المستقبل كما أنا لا نفكر فى هذه الاجيال التى سبقتنا حين نرى آثارها وأنا نفكر فى متاعنا نحن بهذه الآثار. ومتاعنا بعض حياتنا بل هو قوام حياتنا. واذن فقوام حياتنا هذا هو فى كل ذرة من ذراته أثر من عمل تلك الاجيال التى سبقتنا وأثر من الكائنات المحيطة بنا يابسة كانت أو بحرا أو سماء، مادة كانت أو قوة. واذن فليس ثمة ماض أو حاضر أو مستقبل وليس ثمة زمان ولا مكان الا بمقدار ما يحتاج اليه عرف حياتنا القصيرة أداة للتفاهم كى نزداد بما فى الوجود متاعا، أى لنزداد به اتصالا وفيه اندماجا. وانما الكائن الحقيقى هو هذه الوحدة للوجود ليس ما فيه من مختلف الصور الا بعض مظاهره الدائمة التشكل والتلون فى مختلف

الاجرام التي نسميها الكواكب ، وفي مختلف الصور الصغرى التي نسميها كائنات كل كوكب . وأقل الكائنات احساسا بوجوده الخاص أكثرها سلامة اندماج في وحدة الوجود وأكثرها لذلك طمأنينة وسعادة . ألست ترى أنك لا تفكر في معدتك وفي قلبك وفي أي عضو من أعضائك مادام هذا العضو سليما قائما بأداء وظيفته في وحدة وجودك الخاص مطمئنا الى ذلك غير مستشعر له ألما . فاذا أصاب هذا العضو ما تألم له وأفقده طمأنينته بدأت تشعر له بوجود خاص وتفكر فيه تفكيراً خاصا ليس هو الطمأنينة ولا السعادة التي تبتغي والتي لا تعرفها كاملة الا في نسيانك نفسك كل النسيان وفي أدائك واجبك للوجود داداء تحس أنت أنه طبيعي كأداء القلب أو أي عضو من أعضائك ماله من وظيفة في مجموع وجودك . وهذه الطمأنينة الساجية الى الاندماج في الوجود هي أسمى صور حكمة الوجود لانها مظهر وحدته ، وهي لذلك قوام السعادة لكل من أسبغها عليه الوجود .

وبلغنا الفندق وقد أجهدنا القيظ فاوينا اليه زمناً نستريح . وأقبل المساء فخرجنا الى أنحاء المدينة طمعاً في جو أجمل . لكنا لم نجد من ذلك الا ما نجده في ليالي الاسكندرية الساكنة الهواء الرطب المبلل . فلما كان الصباح أخذنا تذاكرنا تواً الى برن عاصمة سويسرا . وحدثتنا النفس بالسفر لوقتها لولا موعد الشاي الذي دعينا اليه . وتناولناه وخرجنا نبتغي عند قمة الريجي هواء ألطف وأصفى . وصعد بنا الاوتوبيل متعرجا في طرق اذكرتنا طرق لبنان يحاذي الطريق الجبل عن جانب والهاوية عن الجانب الآخر ونطل من ناحية الهاوية على سفوح قليلة الشجر أو قاحلة ونطل في قاع

الهاوية على مبانى جنوا وعلى الكامبو سانتو وترتفع والاوتوموبيل تجرى مستديرة مع السفح حتى تبلغ بنا فنادق الريجى . وفى أحدها جلسنا نطل على المدينة كلها ونستمتع فملا بهواء رقيق ونسيم خفيف تمنينا معه لو أنا نزلنا فى هذا الفندق من ساعة جئنا الى جنوا. والمساء يقبل فى بطء ، والنسيم يزداد صفواً ، ومبانى جنوا فى قاع الهاوية تتدثر رويداً رويداً بالظلام. فلما انتصفت الساعة التاسعة نزلنا الى المدينة من جديد لنقيم بها ليلتنا ولنغادرها ظهر اليوم التالى .

* * *

وقام القطار بعد الزوال بخمس دقائق وبلغ بنا ميلانو فى الساعة الثانية والربع . وفيها انتقلنا الى قطار آخر قام الساعة الثالثة والثلث . وفى هذه الساعات الثلاث كان الحر أشد ما يلهب الانفس وتضيق به الانفاس . ولقد ظل كذلك طول مسيرة القطار من ميلانو الى أن وصل شواطئ لوجانو احدى البحيرات الايطالية الكبرى . هنالك تلطف بعض الشئ ، وهنالك بدأت تباشير الالب . هذه الجبال البديعة التى تحيل الصيف شتاء والماء ثلجاً . على أن لطف الجو لم يقترن بجمال المنظر حتى تخطينا نفق سمبلون وصرنا فى أرض سويسرا ، فى هذه الفلذة الاخرى من فلذات الجنان هوت الى أرضنا لتكون للعالم متاعاً وسحراً . ولست أدرى كيف صنع بالجبال فى هذه البقعة من بقاع الارض لتبلغ من الجمال هذا المبلغ الذى ينسيك كل متاعب جسمك وهموم نفسك والذى يقصر معه خيالك عن أن يجد لوصفه ما يضارعه روعة وبهراً ، والذى يشد اليه بصرك وأنفاسك وأعصابك وكل وجودك فما تكاد تعود الى

نفسك أو الى رفيقك لتحدثه عن هذا الجمال برهة حتى اذا صورة أخرى من صوره قد قطعت عليك حديثك وجرتك الى نافذة القطار يجرى يشق النفق بعد النفق ويريك بعد كل نفق جمالا جديداً . جمال يجمع الى العظمة الروعة والى السحر البهر . جبال تحجب الشمس قد كست الخضرة كل سفوحها وتوج الثلج هاماتها وجرت المياه فى أخاديدها فأسمعك خريرها أنغاماً عذاباً ورأيت من اجتماعها نهراً يجرى ماؤه صافياً سلسبيلا. وتنفسح الجبال عن غوطة كست الزروع أرضها من الخضرة ألواناً متفاوتة وكست الزهور خضرتها بالبنفسج وبالاصفر وبالاحمر كل واحد منها مختلفاً ألوانه . ويتعاقب ذلك بعضه فى أثر بعض كأنك تشهده فى السنما. ولكن أى سنما ؟ ! سنما الخالق العظيم . سنما الوجود الحى بعظمته وجلاله . ويزداد الجلال وتتعاظمك العظمة كلما انحدرت الشمس وراء سلاسل الاجبال فلا تكاد تصدق أخيالا ما ترى أم حقيقة . وفى الغوطات الخضر تقوم منازل قليلة كما تقوم على السفوح أكواخ منعزلة كأنما قصد بها أربابها لتكون صوامع للعبادة . وكلما هبطت الظلم رأيت هذه المنازل تضئ بالكهرباء حتى لتصبح وقد حجبها الضوء فلم يبق منها الا ضياؤها وكأنما هى ثريات منثورة فى الوادى بين زروعه التى اكتست ظلمة هى الاخرى . ويرتفع القمر وما يزال فى العاشرة من ليالى ميلاده فوق هذه الكائنات جميعاً فيغمرها بضياء رقيق رطب لا يقشع ظلمة الوادى ولكنه ينير السماء فيحيل سواد الليل فيها زرقة لا تخلو من سواد . ويجرى القمر مع القطار الذاهب بنا الى برن ثم يقف فى احدى المحطات ليريها منظراً فذاً

من مناظر الطبيعة الساحرة . فقد ارتفع الى يمينا جبل جلل الثلج قمته ثم ألقى القمر على هذه القمة بشعاعه فعكس الثلج ضياءه وتبلج بنوره فشف حتى صار بلوراً منيراً وخيل الى في بهرى بهذا المنظر كأنما القمة قمر ندف ثلجاً أو هي قمة نسجت أقماراً ، أو كأنما تضام الثلج والقمر فجعلا من هذا الضياء فجوة من نور الفجر البشير بالحياة والنور تبعث الى ركن من الخليقة مطمئن الى الليل الساجي حياة ونوراً . ونسينا القطار ونسينا السفر ونسينا كل ما حولنا سوى طاقة القدر هذه هي وحدها منية المتمني وجعلنا نلتمس لها صورة في كل ما يدور بالخاطر من صور الخيال فاذا كل خيال دونها جمالا واذا كل خيال يستطيع أن يستمد منها له خيالا .

وفيما نحن في بهرنا مأخوذون اذا القطار تحرك واذا هـذا المنظر القذ يتوارى عن أعيننا لتشهده أعين غيرنا واذا الظلمة تحجب عنا ما حولنا الا أضواء المساكن المنعزلة على السفوح والقرى المبعثرة في بطون الوادي . وبقينا زمناً نتحدث عن فجوة الفجر وطاقة القدر . ثم أغمضت عيني فذكرت جان جاك روسو . هذا الكاتب الفيلسوف الذي عاد بالناس الى عبادة جمال الطبيعة والذي جعل من وطنه سويسرا معبد هـذا الجمال . ذكرته وذكرت كيف اختص بحيرة ليمان بالحظ الاكبر من وصفه ومن عبادة جمال الطبيعة لان ليمان بحيرة جنيف ، وجنيف مسقط رأس روسو ، فعجبت كيف يكتفي عابد جمال الطبيعة بركن من الارض ضيق يقصر عليه عبادته كما يكتفي عابد جمال المرأة باحدى بنات حواء يجعل منها قدس عبادته جميعاً . واذا كانت واحدة من النساء تمسك رجلا بأمره مستعينة

عليه فى ذلك بغريزة بقاء الجنس فى خير ظروف الحياة فأية غريزة تمسك رجلا كذلك بأسره فى حدود بقعة من الارض . أليس ذلك لان الوطنية غريزة هى الاخرى وأنت ترى فى بقعة الارض المحبوبة كما ترى فى المرأة المحبوبة صورة الوجود كاملة فى ظنك فأنت لذلك ترى فيها كل وحدة الوجود .

ثم أحسب لو أن روسو حاول أن يصف جمال الطبيعة فى سويسرا كلها بدل أن يقتصر على ليمان لضاق بذلك ذرعاً ثم لوقف من وصفه عند هذه الصور التى تراها جماعة المسافرين فلا نستطيع أكثر من تسجيل أثرها فى نفسنا . وليست هذه عبادة الجمال عبادة حقيقية . فالعبادة استغراق العابد فى المعبود . هى نوع من الفناء يرضاه الانسان طائعاً مختاراً لانه يشعر فيه بلذة كبرى هى لذة انضمام الجزء لصورة من الكل الاعظم الذى يصوره من الوجود لنفسه . وهؤلاء الذين يعبدون ويفنون فى عبادتهم هم الشعراء حقاً وهم الذين يتركون على الحياة أثراً باقياً مادام لمعبودهم على القلوب سلطان يبهر القلوب .

وفيما كنت أفكر مأخوذاً بما رأيت مرت بخاطرى صورة ماضى الشرق وعظمته . يومئذ كانت سويسرا وكانت جبال الالب وكان القمر يلمع على الثلج ويخلف منه ليلة القدر . فما لهذا الجمال لم يخلق فى نفوس أهله من العظمة مثلما كان لأهل الشرق ؟! وهل كانت هذه الصحارى الفسيحة الممتدة على جانبى النيل أيام الفراعنة امتدادها اليوم والصحراء الممتدة حول بيت المقدس مبعث الديانتين الموسوية والمسيحية وصحراء العرب المحيطة بمهبط الرسالة على محمد عليه السلام — هل كانت هذه الصحارى يومئذ أفعل أثراً من تلك

الجبال البديعة ؟ ثم ما لها اليوم تبعث الى من تحيط بهم خمولا واستسلاماً بعد ان كانت تبعث اليهم بالنشاط والقوة؟ ألعلها كانت فى الماضى مبعث القوة الروحية صاحبة الأثر الاكبر على الجماهير بينا كانت القوى المادية الكمينة فى جبال الالب ما تزال لم تفترع ولم تلد للناس هذه الكهرباء وما قلبت الكهرباء والقوى المحركة الاخرى من نظام العالم . فلما بدت هذه القوى الكمينة فى المادة أشعلت أرواح المحيطين بها من الناس بأقوى مما كانت الصحارى تشعل أرواح من تحيط بهم فتمدهم بالخيال والشعر ؟ وهل لنا ان صح هذا ان نيأس وان نستسلم لليأس ؟ أم لعل فى خيال الصحارى وفى سرابها قوى كمينة لم تفترع هى الاخرى فاذا آن لها ان تفيض على الناس ما عندها غاضت الالب وقواها ورأيت روح الشرق باذغة من جديد ، أم الحق ان لا شرق ولا غرب ، ولكنها وحدة لا تعرف زماناً ولا مكاناً ، تنتقل مظاهر القوة فيها لأعيننا نحن الذين نرى من كل ما فى الحياة فترات قصيرة فنحسبها فى ناحية طوراً وفى أخرى تارة بينا هى قوة الكل أيان بدت مظاهرها فهى ملك الكل بل هى من هذا الكل جزء لا يتجزأ ؟ ...

وفيما أنا فى تفكيرى فى روسو وفى وحدة الوجود وفى جمال الطبيعة وفى الشرق والغرب اذا أنوار تبدو هى أنوار العاصمة السويسرية ، واذا نحن يجب ان نرى من أمر متاعنا عند وقوف القطار . ووقف ونزلنا وآوينا الى فندقنا بعد يوم قائظ قضيناه نقطع أراضى ايطاليا ، وبعد مساء استقبلتنا به سويسرا فأنسانا القيظ وما يجهد وأنسانا بجماله الفتان كل ماسوى سويسرا وطبيعتها البارعة الفتنة .

أعياد سويسرا

ليست طبيعة البلاد المحيطة بالعاصمة السويسرية (برن) من الجمال بمثل ماترى محيطا ببحيرة ليمان ولاعندانترلا كن أولوسرن . فانت تقطع الطريق بينها و بين بازل و بينها و بين زوريخ وشافوزن فلا ترى من شاهقات الجبال المغطاة بالثلج ومن الوديان المتخفضة تجرى خلالها المياه مثلما ترى حول ليمان وحول البحيرات السويسرية الاخرى . لكنك مع ذلك واجد حول برن من صسور الجمال ماامتازت به سويسرا جميعا : يجرى خلال المدينة نهر الآر متعرجا ملتويا وترتفع على جانبيه منازل ومروج محيطة بتلك المنازل وسفوح ترتفع حتى تصل لتكون طرق المدينة ومبانيها الكبرى . وفى برن من المبانى الكبرى عدد غير قليل يأخذ بالنظر لعظمته وجماله . فقر حكومة الولايات السويسرية والبنك السويسرى وبنك المقاطعة تقع كلها فى ميدان واحد وتقع معها أفخم فنادق المدينـة ، وتطل كلها من ظاهرها على الآر وجبال الجورتون فتستهوى اليها أهل برن والسائحين فيها يجلسون على مقاعد كثيرة مدت خلال الحدائق الخضراء زانتها أزهار ألوانها ذات بهجة تتوسط خضرة الحدائق وتملق العين روائها وجمال منظرها الضاحك العـذب الابتسام . والى الجانب الثانى من المدينة تقوم جبال متصلة بجبال الجورتون وهى مثلها ليست شاهقة ولا مهوبة . وفى هـذا الجانب الثانى مستشفيات بديعة الموقع تخيمه المهارة . لـكن برن مع هـذا كله

مدينة وليس فيها ماق البلاد الصغرى من بهجة الجبل والبحيرات . ثم ان الجو فيها كان أول يوم نزولنا اياها حارا يذكر أهلها أنهم لم يروا مثله منذ سنة ١٩١١ مضرب المثل فى حرارة الجو بسويسرا. لذلك فضلنا بعد يومين أن نقيم بأعلى قمة الجورتون فتكون على ربع ساعة من وسط برن وتتمتع فى الوقت نفسه بجمال الجبل وغاباته وبمناظر الجبال الشاهقة الاخرى المنثورة فى أنحاء سويسرا المختلفة .

يصل بين برن والجورتون ترام صاعد (فنكلير) . وعلى دقيقة أو دقيقتين من أعلى الفنكلير فندق الجورتون . نزلناه وأقمنا به أربعة أيام، وأكبر غايتنا أن نشهد من فوقه ثلوج اليونج فراو والبيلات وغيرهما من شاهقات سويسرا منظر الشمس الغاربة والقمر الطالع متورداً ثم فضيا ناصعا . ولقد شهدنا هذا المنظر فى آخر ليالى مقامنا بالجورتون ونحن من عدم شهوده فى وجل أى وجل . ففى اللحظة التى بلغنا فيها الجورتون تلبد الجو بالسحاب ثم بدأ المطر يهتن تتبعه بروق ورعود ذكر لنا صاحب الفندق أنه كان فى انتظارها بعد أربعة أسابيع جافة من كل مطر صافية السماء لضوء الشمس ولشعاع القمر . وانتظرنا أن تقلع السماء وأن يغيض الماء وأن يطلع القمر وأن تتبدى القمم وثلوجها ساعة طلوعه ومغيب الشمس بما يشفى ظمأ نفوسنا المشوقة لهذا المنظر الساحر . لكن المطر ظل يهتن طول الليل الا قليلا . على أنا استعضنا يومئذ بمنظر قل من مثله نظيره . ذلك منظر قوس قزح فى ساعة المغيب . فمن خلال الركام وجدت الشمس الغاربة فرجة نفذ منها شعاعها متخللا بلورات الماء المتساقط مطراً فاذا قوس الشمس بألوانه السبعة ينتشر فى السماء

يشطرها شطرين : مظلم ومضيء ، مظلم ناحيه الغرب القريبة من الشمس ، ومضيء ناحية الشرق البعيدة عنها . ولكم رأيت قوس قزح في أرياف مصر وفي غابات أوروبا . لكن أقواس قزح تتفاوت على ما يظهر في جمالها كما يتفاوت جمال منظر عن منظر وصورة عن صورة وامرأة عن امرأة . ولعلي لا أذكر أني شهدت قوس السماء في مثل بهر قوسها اذ شهدته من الجورتون سواء في صفاء ألوانه أو جمال المنظر الذي كشف عنه . فلقد كان هذا القوس نظمت وراءه الاجبال والغابات والثلوج بيد ماهرة ، أو كأنما رفع الستار عن مسرح ينظمه الانسان بما لا يدع لصورة من الجمال في الخلق أن تبذه . وكلما ازدادت الشمس نحو المغيب انحداراً ازدادت ألوان القوس سطوعا وازداد ما وراءه ضياء . ولم يستطع أحد ممن كانوا معنا ساعتئذ في صالة الطعام دون ترك طعامه والذهاب الى جانب النافذة يقدس من خلالها هذا السحر الذي اندمج في نفوسنا واندمجت فيه نفوسنا فما نطيق له تركا أو للطعام عودة . وبين المأخوذين ببهر هذه الساعة التي تجلى فيها جمال الخلق في أبهى صوره شيخ جاوز السبعين طويل اللحية البيضاء ومن حوله ابنته وأحفاده وهم جميعاً معجبون بالمنظر وهو من بينهم أشدهم اعجاباً ، وكأنه وهو في سنه المتقدمة أقربهم الى سمو الفناء في وحدة الوجود وأدناهم لهذه الوحدة وأكثرهم بها كلفاً . وبقي هذا القوس الساحر يأخذ اليه القلوب حتى آن لمبعثه ذات البهاء أن تتوارى وأن تترك عالمنا لليل يبتلعه في جوفه الاسود الداكن .

على أن قوس قزح جدد في أنفسنا الأمل أن تنقشع السحب

وأن يطلع القمر وأن نخف الى المنظر الذى شد مايشوقنا مرآه : منظر القمر يتوج هام الجبال وثلوجها . فلما تناولنا طعامنا خففنا الى ناحية باب الفندق لنأخذ طريقنا الى أعلى مكان من قمة الجورتون المطلة على سائر قمم الالب الرفيعة . لكنا ما كدنا نبلغه حتى ألفينا السماء عادت تهمى فيذهب تهتانها بأملنا الذى كان تجدد . وفيما نحن واقفون أقبل صاحب الفندق يجرى بلله المطر فرأى ماتنم عنه وجوهنا من شكاية : اذ ذاك هز كتفيه وضحك وقال : « وماذا تريدون ؟ ان لنا لاربعة أسابيع جافة من كل مطر حتى يبس الزرع وجف الضرع وصرنا ننتظر مثل هذا اليوم بصبر ذاهب . ألستم ترون الى الارض كيف جدبت والى المرعى كيف جف والى الشجر كيف عراه الذبول ؟ فاذا جادت السماء يومين أو ثلاثة أيام بمطرها الحسن عادت الى الارض بهجتها وأخذت من جديد زخرفها ولم يكن لانسان الا أن يزداد لذلك بهجة . ثم عادت المواشى ترعى ويدر ضرعها وتعطى من خيراتها ، وعادت الخضر الينا بعد أن كدنا نكون منها فى يأس مقيم . وانكم لواجدون فى بهاء الصباح غدا مايعوضكم من هذه الليلة المطيرة » .

وصدق الرجل . فكان الصباح صفو السماء ، جميل الشمس ، رقيق الجو مما سمح لنا بالتجول فى الغابات ما شئنا ، حتى اذا أخذنا الجهد جلسنا الى مقعد بين الاشجار الرفيعة تحجب شعاع الشمس وان عنى أهل المنطقة بأن يقصوا أمام النظر أغصان الاشجار ليستطيع الاستمتاع بالسفوح الهابطة الى برن وبنهر الآرو بعاصمة سويسرا ومبانيها المختلفة . لكن النهار ما كادت تجىء موليا ته والشمس ما

كادت تنحدر الى ناحية الغرب لترسل حولها من لهيبها المطمئن ما يصبغ السماء ورداً ودماً ، حتى اذا السحب تراكمت من جديد وحتى نزل المطر فأذهب أملنا فى رؤية القمم الشماء المجللة بالثلوج تحت أشعة مغيب الغزالة ومطلع البدر . وظللنا كذلك ثلاثة أيام تباعاً نتمتع طوال النهار بصحو حتى اذا جاءت الساعة المرجوة — ساعة المغيب — التهمتها منا السحب والتهمها المطر التهاماً . وكاد يتولانا اليأس من الاستمتاع بهذا المنظر ، حتى اذا كانت آخر ليالى مقامنا بالجورتون — وكانت ليلة تمام القمر بدراً — اذا كل أملنا يتحقق واذا نحن نشهد من أعلى قمة الجورتون عيداً من أبهى أعياد الطبيعة كان مقدمة لنشهد بعد يومين فى زوريخ عيد استقلال سويسرا ولنشهد بعد يوم ثالث عيداً علمياً ظريفاً فى شافوزن .

كانت الساعة السابعة من مساء هذا اليوم الاخير من مقامنا بالجورتون حين عدنا من وسط الغابات قاصدين أعلى قمة الجبل . لكن الشمس كانت عالية فى السماء ما تزال . ففضلنا البقاء على مقعد نطل منه على برن حتى تقرب ساعة المغيب . وقبيل الساعة الثامنة حانت منا التفاتة نبهتنا الى أن الشمس بدأت تنحدر فيجب أن نذهب الى أعلى القمة . وذهبنا فألفينا عندها جمعاً عظيماً جاءوا كلهم لمثل ما جئنا اليه من استمتاع بعيد الطبيعة . واتجهت الانظار الى ناحية الالب الشماء وحدقت العيون بالثلوج الناصعة تحت ضياء الشمس لما يلهبه المغيب ، وكنت لا تسمع الا همساً يتخلل الوقت بعد الوقت صمتاً مطلقاً . ومن بين هذا الجمع عجائز جئن يمتعن أنظارهن وأفئدتهن ونفوسهن بمتاع طالما شهدنه حين الصبا وهن

اليوم له أشد شوقاً . ومن بين هاتيك العجائز واحدة ما تكاد تمسك نفسها جالسة ، فهي تعتمد الى كتف ممرضة تلزمها جلست الى جانبها . والى جانب العجائز صبية وأطفال غير السيدات والرجال جاءوا جميعاً يحققون بمجيئهم وحدة الحياة الانسانية ويحققون بفنائهم في المنظر الذي ينتظرونه وحدة الوجود .

وتدركت الشمس نحو الغرب واحمر نورها. أنظر الآن الى قمم الثلج . يالبهاء الجمال الباهر !! ما أشد هذا العيد سحراً ، استحال الثلج ورداً ، فالورد عسجداً ، فالعسجد دماً ، فدكن الدم حتى أظلم . ويستحيل الثلج في هذه الالوان مبطئاً متمهلا والانظار اليه مشدودة حتى لا يفوتها منه منظر . والقمر يحبو من وراء الثلوج متورداً ليستحيل هو الآخر رويداً رويداً الى لون الذهب . والسماء من وراء ذلك تضرب فيها أشعة الشمس وتطوق ما بها من سحب بمثل ما تصبغ به الثلج من ألوان . وأنت بين هذه المناظر كلها تائه اللب مشرد النفس مسحور تتردد بين الخوف أن ينتهي العيد وبين الرجاء أن ترى استحالات أخرى في لون الثلج وفي ضياء القمر . وتضيء أنوار الكهرباء في برن فلا تطلع اليها عين وكانت ترى لها في الليالى السابقة ، وهي سترى لها بعد سويعات، روعة وجمالا . ثم أظلم الثلج كله وبدأ بعض الحاضرين يقومون ، وقامت هذه العجوز المتهدمة تتداعى فما تكاد الممرضة الشابة تمسك أعضاءها المحطمة . لكن هذا القتام في الثلج لم تمض عليه فترة حتى اذا به عكس لون السماء الذي استحال كله لهباً ودماً ، أنظر الآن من جديد واستمع الى آهات الاعجاب تصدرها الصدور وتنفثها القلوب . لكن وا أسفاً ،

لقد كانت هذه الفتنة فى السماء محو الاحتضار . فما هى الا دقائق حتى اذا كل شىء اختفى فلم يبق لشعاع الشمس أثر ، وان أضاءت السماء جميعاً بنور القمر . ولم يكن شعاعه لينعكس على الثلوج وراءه فلم نكن لنرى منها لجوة الفجر أو ليلة القدر لحمدنا الطبيعة على ان لم تضاعف عيدها بسحر جديد حتى لا تمسكنا طيلة الليل الى جانب منظر ما أشك فى انه كان ينسينا طعام العشاء ونوم الليل . وعدنا أدراجنا الى الفندق ملأ أفئدتنا البهر وقلوبنا السحر وتلهج ألسنتنا بالحديث عن متاع بالجمال قل ان يكون مثله متاع .

***

وغادرنا الجورتون ضحى اليوم التالى الى برن وغادرناها بعد الظهر الى زوريخ أمضينا بها ليلتنا ثم قمنا أول يوم من اغسطس نسير نبتغى أن نرى مافيها . لكننا مالبثنا أن غادرنا الفندق حتى سارت أقدامنا الى البحيرة وسألنا عن موعد قيام الباخرة التى تطوف أنحاءها . وعلمنا أن الباخرة التى تقوم صباحا قد أقلعت من ربع ساعة وأن الأخرى تقوم فى الساعة الثانية بعد الظهر . فاتجهنا مع شاطىء البحيرة لحظة وركبنا الترام نبتغى ظاهر المدينة ودلتنا أعلام الطريق على أن صاعد الجبل على مقربة منا وأنه يرتفع بنا الى غابات ولدر . وفيما نحن فى طريقنا الى محطة الصاعد قابلتنا فتيات تبيع شارات لم نعرف ماهى ولذلك لم نشترها . وصعدنا الى ولدر وقضينا بين الغابات البديعة الى ساعة الظهر ثم عدنا فتناولنا طعام الغداء فى الفندق . ماذا ترى تكون هذه الشارات التى أرادت الفتيات بيعها لنا ؟ أن كثيرين من النازلين فى الفندق كما أن رجاله جميعا ليحملونها . لعلها شارة جمعية من

الجمعيات الخيرية . ولدى لها أمرا لابد أن نقف من بعد عليه . لكن الوقت الباقي على موعد قيام الباخرة قليل . لذلك أسرعنا في تناول الطعام وقمنا الى الباخرة التي دارت بنا في انحاء البحيرة جميعا . والبحيرة زوريخ ما لسائر بحيرات سويسرا من روعة وسحر . وتتشكل مياهها مع ألوان السماء تارة وخضرة الشجر أخرى ما يأخذ بالنظر ويسحر اللب . وكنا بهذا الجمال في سحر أي سحر . لكن الناس على ظهر الباخرة كثيرون جدا حتى لتستوقف كثرتهم النظر . ومنهم كثيرون يحملون هذه الشارة التي أرادت الفتيات بيعها لنا . فماذا ترى عساها تكون ؟ وأي داع دعا هؤلاء الكثيرين ، رجالا ونساء ، لترك أعمالهم ؟ وكنا على وشك التساؤل عن هذا وعن غيره من مثله لولا أن عاد فأنسانا اياه جمال البحيرة وجمال شواطئها فلم يبق في أذهاننا موضع للالتفات الى غير هذا الجمال وتلك الفتنة صورت خضرة ، وماء ، وسماء . فلما أتمت الباخرة سياحتها وعادت في الساعة السابعة مساء الى زوريخ وعدنا الى الفندق رأينا عددا من هذه الشارات عند بواب الفندق فسارعت اليه وسألته عنها . فاذا بهذا اليوم عيد حرية سويسرا ! واذا هذه الشارات شارات عيد الحرية ، طبعت لذكراه في يوم أول اغسطس سنة ١٩٢٨ .

عيد الحرية في سويسرا ! بلاد الحرية والمثل الاعلى فيها ! أليس هذا جميلا ؟ أليس جميلا أن يذكر الغني المفرط الغنى يوم فقره والرجل العظيم أول أيام عظمته ؟ أوليس أجمل من هذا أن تذكر الاجيال التي تستمتع بالحرية من يوم مولدها تضحيات الاسلاف الذين أراقوا دماءهم وأهدروا منافعهم في سبيل حرية غيرهم من غير أن تكون لهم

مطامع خاصة وغايات عاجلة ؟ واذ يذكر الناس ما فعل أسلافهم لهم يشعرون بهذا الدين الكبير عليهم يجب أن يؤدوا مثله لا خلافهم كما يطالب الانسان بأداء دين حياته لابنه لا لابيه .

وشاركنا السويسريين فى عيدهم فحملت على صدرى شارة من شارات عيدهم ونزلنا نطوف فى المدينة علنا نجد فيها ما يدلنا على ميول أهلها . لكن الحوانيت مقفلة جميعا والطرقات خالية أو تكاد والناس فى مرحهم بعيدهم قد خرجوا الى ظاهر المدينة نهارهم كما خرجنا نحن الآخرين . ومنهم من آب ومنهم من لا يزال فى مرحه . والذين آبوا ينتظرون فى منازلهم الساعة العاشرة من المساء — ساعة العيد الكبرى .

وعدنا الى الفندق ولبسنا كما لبس القوم ملابس العيد وشاركناهم فى الاحتفال به . وكيف لا نشاركهم والفندق الذى نقيم به يكاد يكون مستقر العيد . فلقد ازدانت حدائقه بالكهرباء تخللت أشجارها جميعا وازدانت حشائش الحدائق بالشموع صفت على حوافها بعد أن وضعت فى أكواب ملونة تحمى ضوءها من عبث النسيم . وازدانت البحيرة أمامه بأبدع الزينة اذ اتشحت بواخرها جميعا بالانوار المختلفة الالوان ووسم فى مقدمتها بالانوار كذلك علم سويسرا يتوسطه فيه الصليب الابيض رمز السلام رقعة حمراء هى الدماء التى ما فتئت الامم تريقها آنا بعد آن باسم حرية الشعوب تارة وباسم سلامها طورا .

وكانت الساعة العاشرة حين بدأت الالعاب النارية تقذفها مياه البحيرة فتعلو وتعلو ثم تنفجر فى جوف السماء وفى لجة ضوء القمر

وتهبط بعد ذلك شهبا ساطعه الى الماء من جديد . وما كاد الناس يسمعون فرقعة الالعاب حتى حفوا الى ناحيتها . ما أعظم عيد الحرية وما أروعه ! أنظر الى هذا الشعب السويسرى من أهل زوريخ اجتمع كله فى بقعة ضيقة فوق جسر البحيرة حتى ليخاف الانسان على الجسر أن يميد به ! اجتمع فى هذه البقعة ليحيى الحرية فى يوم عيدها وليشهد كل واحد صاحبه على أنه وصحته وماله وحياته فداء هذه الحرية . ثم ليبتهج حتى يبلغ ابتهاجه حد اللهو أن بقيت هذه الحرية مصونة لا يفكر أحد فى الاعتداء عليها ، وأن بقى الشعب السويسرى اليوم كما كان من قبل مضرب المثل فى الحرية الكاملة والديمقراطية الصحيحة .

وكانت الالعاب النارية مدى الساعة التى استمر اطلاقها فيها من أماكن مختلفة فى البحيرة جميلة جميلة حقا . فلما أطلق آخر سهم من سهامها فارتسم العلم السويسرى خلاله بدأ القوم ينصرفون عائدين لاستكمال لهوهم بعيدهم أو للاستجمام فى منازلهم استعدادا لعمل الصباح . واقلعت باخرة بأنوارها ذاهبة من زوريخ الى البلاد الواقعة على جانب البحيرة والتى جاء اهلها يشاركون أهل عاصمة المديرية فى العيد الاكبر وبدأت الانوار كلها تخبو رويدا رويدا والليل يستعيد حكمه . ثم كانت الهجعة انتظارا ليوم باكر .

***

وأصبحنا ندور فى شوارع زوريخ ونرى فيها النظام الجذاب الذى برع أهالى سويسرا فيه تجميلا لبلادهم ليجذبوا السائح اليها . فهى جميلة فى طبيعتها ، جميلة فى مدنها ، جميلة فى حوانيتها ، جميلة فى

طريقة عرض بضائعها، جميلة فى كل مايلتفت اليه النظر من صور الجمال مما يستطيع الانسان توفيره للانسان. وغادرنا المدينة بعد الظهر قاصدين شافوزن لنرى مساقط الرين ثم لنتخطى الغابة السوداء ولنصل الى مايفس فنركب الرين منها الى كولونيا كى نرى معرض الصحافة فيها ونحضر مؤتمرها .

ولست احدث الآن عن مساقط الرين وروعة جمالها فلهذا الحديث موضع من بعد . ولست أتحدث عن شافوزن فهى قرية أو تكاد. وانما احدث عن عيد محلى ظريف فى شافوزن ساقته المصادفة لنشهده فى الليلة الوحيدة التى اقمناها بها كما ساقت لنا المصادفة عيد الجمهورية فى زوريخ وعيد الطبيعة فى الجورتون وكما ساقت لنا قبل ذلك عيد الليلة الاخيرة من ليالى سفرنا على البحر قبيل ارساء الباخرة بنا فى جنوا .

فلشافوزن كما لكل كورة سويسرية موسيقاها . وقد طلبت الجالية السويسرية فى باريس الى بلدية شافوزن أن ترسل لها بموسيقاها كى تحيى بها عيد الحرية السويسرية فى قلب العاصمة الفرنسية . وأجابت بلدية شافوزن الطلب مغتبطة مبتهجة . وأحيت الموسيقى العيد فدعاها عمدة باريس ودعتها بلدية العاصمة الكبرى . ثم آن لها أن تعود الى شافوزن وكان ذلك حين وجودنا بها ووقوفنا على مقربة من محطة سكة الحديد فيها. وكما اجتمع أهل زوريخ فى الليلة السابقة على جسر البحيرة يحيون عيدهم اجتمع أهل شافوزن فى مجاورات المحطة يستقبلون موسيقاهم ويحيونها بالاعلام والازاهير . فلما أقبل القطار اهتزت الاعلام فى المحطة فقابلتها اعلام الموسيقى تهتز فى وسط

القطار، ثم صدحت الموسيقى بنشيد اهتزت له الافئدة والقلوب . ما أجمل الشعور القومى العام صادرا من أعماق النفوس تحركه عاطفة بريئة من كل غاية، منزهة الامن حب الوطن ! واصطف الناس فى الطريق وأفسحوا لرجال موسيقى بلدتهم ممرا يسيرون فيه . ونزل هؤلاء الموسيقيون الى الطريق ثم صدحوا فحركوا القلوب والاشجان من جديد . وانفرط عقد القوم حين توارت الموسيقى عن أنظارهم فى ظلمة الليل وذهب كل الى ناحية .

ولم ندر نحن كيف انقضى برهة من الزمن حتى دلنا رب الفندق على (الكونسرت) تصدح فيه الموسيقى . فلما استقر بنا المقام فيه وطابت لسماع موسيقاه نفوسنا اذا ضجة كبيرة تعلو حلاله واذا رجال موسيقى البلدة يتخللونه وعلى وجوههم البشر بعد أوبتهم من أم العواصم واذا الناس من أهل شافوزن يصافحون أولئك القادمين ويقبلونهم ، واذا أحدهم يقبل على مائدة اصطف الى جانبيها بعض الفتيات فيقبل احداهن ويجلس الى جانبها، واذ مرح عام يسود المكان ويغطى على صوت موسيقاه وعلى أحاديث المحدثين على مسرحه واذا هذه الضجة تستمر حتى قيامنا الى فندقنا نأوى اليه .

وفى الصباح الباكر أخذنا القطار الذاهب الى كولونيا بعد أن يقطع الغابة السوداء ويحاذى الرين . لكننا فضلنا أن نغادره عند ماينس لنقيم بها يومين ثم لنذهب منها الى كولونيا على الرين نرى بدائع ضفافه . وكم سعدنا لهـذا التدبير وابتهجنا بما أتاح لنا أثناء مقامنا بماينس أن نذهب الى فرنكفورت وأن نرى بيت الشاعر الفيلسوف الالمانى العظيم جيتى .

بيت جيني

الرين والغابة السوداء

قضينا فى شافوزن ليلة واحدة . بلغناها عصر اليوم الثانى من أغسطس وغادرناها بكرة الصباح من اليوم الثالث منه . ولم نكن نتوقع أن نرى عيدها المحلى الذى أشرت فى الفصل السابق اليه، فلم يكن هذا العيد داعية سفرنا اليها . انما دعا الى هـذا السفر ان بها مساقط الرين ، وأنها على أبواب الغابة الســوداء . وفرض على عشاق الرين أن يروا مساقطه ، وعلى الذين يقصدون الرين أن يمروا بالغابة السوداء .

ومساقط الرين تقع عند بلدة نوهاوزن المتصلة بالترام مع شافوزن . ولايستغرق الترام فى سيرته بين البلدين أكثر من عشر دقائق . ولقد ركبناه بعد وصولنا شافوزن وتركنا متاعنا فى احد فنادقها القروية البهجة . فلما نزلنا منـه دلتنا أعلام الطريق على اتجاه المساقط فتبعناها حتى كنا عند الجسر الذى يتخطى الناس ويتخطى القطار الرين من فوقه ونحن نحسب أنا سنرى عنده كل مناظر المساقط التى اسمعتنا طول طريقنا اليها دوى انحدارها وأطمعتنا بذلك فى جمال لم تكذبنا اياه . لـكنا لم نر من فوق الجسر الاجمالا عاديا : مياه تنحدر هابطة نحو صخور تتلقاها فترغى وتثير حولها زبدا له كما للانحدار جماله . لـكنه ليس هذا الجمال الذى وصف لنا الواصفون والذى تتحدث عنه الـكتب كأنه من عمل الجن أو كأنه بعض مناظر السحر

هذا جمال كم رأينا من مثله فى مختلف المنحدرات فى سويسرا وفى فرنسا بل فى لبنان ذاتها . وان فى منحدر مساقط ديوزا على مقربه من سان جرفيه وفى دوى مياهها المهوب وفى تجهم قطع الجبل التى تنحدر المياه منها ، لما يلفت النظر أكثر من هذا المنظر .
كذلك قلنا ونحن نتخطى الجسر الى الناحية الثانية من النهر. فلما كنا فى الناحية الثانيـة قابلنا لوح مكتوب عليه : « ان شئت أن ترى المساقط فى كل روعتها فسر ثلاث دقائق أخرى » . وكان لزاما أن نسير . انا لم نجىء الى هنا الا لرؤيتها . فلنسر ، ثم لنصعد ، ثم لنأخذ تذاكر دخول ، ثم لنصعد من جديد لنرى من المساقط منظراً جديداً ، منظراً غير ماشهدنا من قبل فى سويسرا وفى لبنان وفى فرنسا ؛ ثم لنهبط من جديد لنكون أقرب من المساقط ولنراها أشد روعة ، ثم لنهبط ثالثة ولنهبط رابعة لننسى فى كل مرة كل ماشهدنا من صـور الجمال غيرا هـذا الجمال ، ولنستغفر الى الزين ما كفرنا بجماله قبل أن نقف على حقيقة جماله، ولنعترف أمامه أن الـكفر بالشىء أثر من آثار الجهل به

سرنا اذن بعدما تخطينا الجسر وصعدنا فى طريق كثير الالتواء غير معبد . ثم قابلنا مدخل بناء قديم كتب عليه انه قصر لاوفن وطلب منا أن ندفع فرنكا مقابل دخول عن كل شخص . ودفعنا مترددين . وتقدمتنا سيدة تهدينا السبيل وتخطت بنا وسط غرف فيها أشغال من الخشب معروضة للبيع وجعلت تحدثنا كى نشترى منها تذكاراً لزيارتنا . فازداد أسفنا لما أضعنا من جهد وخيل الينا أن هذا المكان ليس الا شباكا نصبت لبيع مابه باسم الفرجة على

مساقط الرين . فلما بلغنا الشرفتين المطلتين على المساقط من أعلى القصر القديم تركتنا السيدة وقالت : أمامكم أربعة مناظر متعاقبة للمساقط فاهبطوا اليها بسلام .

وكان لهذا المنظر الاول جمال وكانت له روعة : تبدت الصخور الثلاث الجاثمة خلال مجرى النهر ولكل واحدة منها صورة غير صورة الصخرة الاخرى ، وتبدى التواء النهر عند هذه الصخور التواء يزيد في انحدار مياهه قوة وفي مضارب زبدها بشاطئه الايسر روعة وحشية تأخذ بالفؤاد كما تأخذ به كل مناظر القوة والوحشية . وبدا الجسر بعيداً وراء الصخور لم نلتفت اليه الا ريثما نعرف منها موقعه . ثم ثبت نظرنا على الصخور قامت احداها ضخمة مرتفعة فوق الماء يضربها فيرتد عنها هائجاً طار رشاشه حولها سخطاً واستسلاماً . أما الثانية فخالية من وسطها لا يدري أحد كيف نقرت ، والماء يدور من حولها مرغياً مزبداً ثم ينحدر بينها وبين الصخرة الاولى الى هاوية لم نقدر مدى عمقها من مكاننا العالي الرفيع . أما الثالثة فصغرى الصخرات الثلاث ، وهي أشبه ما تكون في تواضعها بصخور شلال حلفا ، وهي مثلها جاثمة جثم الفيل الضخم العظيم . والماء يرطم الصخرات والصخرات ترطمه ويستحيل زبداً ينحدر الى القاع العميق تحته . وسحب السماء فوق ذلك تحول دون شعاع الشمس أن يصل الى الماء والى الصخور .

وانحدرنا الى غرفة فيها زجاج ملون يحيل لون الزبد الى مختلف ألوانه الحمراء والصفراء والزرقاء لترى فيه العين أمثال مناظره ساعة الغروب وساعة مطلع الفجر وفي ضحوة النهار حتى لا يبقى لزائر

أن يأسف ان لم يزره فى هذه الساعات جميعاً . ثم انحدرنا بعد ذلك الى مكان صفت حوله مناضد هو أقرب الى المساقط وأشد تجلية لروعة جمالها . وعلى هذه المقاعد يجلس الناس يمتعون أنظارهم بفتنة هذا العمل الجميل من أعمال الطبيعة لا قبل للانسان بمثله . فجلسنا مع الجالسين . وأخذنا الاعجاب فأنسانا الجسر وما رأيناعنده وأنسانا الصعود الى هذا القصر بل أنسانا من حولنا من أمثالنا المعجبين وطال بنا المجلس أن حسبنا أن ليس بعده مزيد من جمال . وأصرت زوجى على أن تظل فى مكان الاعجاب هذا لا تبرحه . وانحدرت أنا نحو المنظر الثالث الذى يلى هذا الموقع فهبطت طريقاً ضيقاً استدار فى طريق آخر ثم اذا بى أمام صخرة لا يرى الانسان معها من مساقط الرين شيئاً . ولكنى ما لبثت أن رأيت رجلا خارجاً من جوف الصخرة خلال نقر فيها ، فدخلت من حيث خرج واستدرت مع الصخرة فاذا بالمنظرين السابقين من مناظر المساقط دون هذا المنظر الثالث روعة بمراحل واذا بى أعود أدراجى صائحاً بزوجى أن تنزل لترى . ويضيع صوتى فى خوار الهدير فلا تسمعه ، وأصعد فأصعد حتى صرت الى جانبها وأنا أكرر الصياح : تعالى تعالى ! ان ماترين هنا ليس شيئاً ، أن الجمال كل الجمال فى المنظر الثالث ! وهبطنا معاً واجتزنا الصخرة ووقفنا تتحرك فى صدورنا آهات الاعجاب والتقديس . لم يبق جسر ولم تبق صخور ولم يبق ماء وانما هو زبد ورغاء يندفعان بقوة أشد قوة فى هذا الالتواء فيخال للانسان ان الصخر سيميد وأن الارض ستنشق وستسقط السماء وتنهد الجبال هداً . وهذا الزبد والرغاء ينبعث من قوة انحدارها

رشاش كأنه البخار امتلأ به الجو كله أمام النظر فكأنما النهر كله بخار لا ماء فيه . والدوى الهائل يزلزل السمع ويزلزل النفس ويزلزل الوجود كله زلزالا عظيما . والشمس فى السماء تحاول أن تخرق السحب لتبعث بشعاع الى هذا المنظر فيستحيل الشعاع رشاشاً وبخاراً كأنه بعض هذا الماء الهائج فى انحداره وكان له ما للماء من دوى وزئير . ونحن والذين يجيئون يشهدون هذا المنظر وقوف نقدس القوة الهائلة تقديس اعجاب بل عبادة . وكيف لا نقدسها ولم يبق لنا عاصم منها غير هذه الصخرة قد تتحطم تحت سلطانها فاذا نحن هباء، ويصيبنا الوقت بعد الوقت منها رشاش فنستريح له كأنه ماء زمزم أو ماء بعض البقع المباركة . أليس هو أثر هذه القوة الطبيعية الكبرى ؟ . أليس مظهر عظمة الوجود فى بعض أركانه ؟ او ليس كلها مظهر للعظمة مقدساً ؟ ورشاش العظمة مقدس كالعظمة ذاتها ، او له على الاقل قداستها .

وأطلنا الانتظار أمام هذه الصورة البديعه من صور المساقط حتى كادت موليات النهار تنذرنا بضرورة الاسراع بالاوبة . لكن منظراً رابعاً مازال، ويجب أن نهبط اليه . فهبطنا . أترانى مستطيعا وصف كل شيء من هذا الذى نرى : لقد أصبحنا لانرى من المساقط الارشاشاً يندفع اندفاع القذيفة يكاد يحطم ماأمامه تحطيما . على أن هذا الرشاش انتثر أمامنا فأصبح طللا استغرق كل حواسنا وكل حديثنا وكل تفكيرنا واستبقانا أمامه زمناً جاء خلاله جماعة تقدموا على سلم من الحديد الى ناحية فاذا بهم امتدت اليهم منه ألسنة أرجعتهم القهقرى فى خيفة واعجاب . وفى هذه اللحظة

تكشف بعض السحب فاذا الشمس قد انحدرت وراء الجبال وأرسلت من أشعتها ما ألهب الأفق . لكن الوقاء والرشاش لم يعبأ بهذا اللهب وبقيا في ناصع بياضهما وكأنهما يقذفان الى لجة النهر ثلجا مندوفا مايكاد يصل الى اللجة حتى يستحيل ماء مثلها له زرقة كزرقتها . ولما آن للنفس أن تستجم لتبتعث هذه المناظر البديعة النادرة في أطواء نفسها، عدنا أدراجنا وقد تولانا من البهر ما ألقى علينا من وجوم الصمت بمالا مستطاع معه لأكثر من ألفاظ الاعجاب بقدس الجمال في أحد مناظر الطبيعة البديعة . وارتقينا طريقنا حتى كنا عند المقاعد فاذا الناس قد بدأوا ينصرفون أن كانت لجة الليل قد بدأت تدعوهم الى الانصراف وأن كان مطلع القمر متأخراً تلك الليلة . وانصرفنا نحن الاخرين نحدث أنفسنا ويتحدث كل الى صاحبه بما تكنه نفسه ويفاحش مايدعو اليه حكم النظرة الاولى من خطأ.

وعاد بنا الترام الى شافوزن فرأينا فيها عيد موسيقى البلدية ثم غادرناها بكرة الغد قاصدين اختراق الغابة السوداء . ترى أنكتفي بالمرور منها أم ننزل بها ؟ لكنا يجب أن نكون بكولونيا بعد غد كي نستعد لمؤتمرها ، والذهاب من ماينس الى كولونيا بطريق الرين الذي اعتزمنا ركوبه يقتضي يوماً كاملا ، اذن فلنذهب مباشرة الى ماينس ، ولنخترق هذه الغابة في القطار ، وكثيراً ما كان طريق القطار في أجل المواقع . ولعله كذلك كان في هذه الغابة . فلقد كان يجري بنا بين أشجار كثيفة قاتم لون ورقها مما أحسبه دعا لتسميتها السوداء . فلما كنا على مقربة من تريبرج اذا بنا أمام جبال شاهقة ليست دون جبال سويسرا رفعة ، واذا الوديان والغوطات

عند سفوح الجبال منحدرة انحدارها فى سويسرا ، واذا القطار يشق النفق اثر النفق حتى اجتاز أربعة عشر نفقاً ، واذا للذين يغرمون بجمال هذه الشابة السوداء الحق كل الحق فيما هم به مغرمون .

وظللنا بين الاشجار بعد ذلك حتى بلغ القطار بادن بادن وحتى اقترب بذلك من محاذاة الرين ، لكن مجرى النهر ظل بعيداً منا ، وظللنا نمر بسهول فى أثر سهول تقوم عليها المزروعات المختلفة ، وبين حين وحين ترتفع فى الجو مداخن المصانع معلنة ان هذه المنطقة الغنية التى استهوت أفئدة الحلفاء فى أعقاب الحرب بما فيها من فحم ومعادن الى جانب ما يكسو أرضها من شجر ونبات هى منطقة صناعية بقدار ما هى منطقة زراعية . وفيما نحن نشهد هذه المناظر فى روعة تعاقبها وننتظر السويعة الباقية على بلوغ ماينس اذا بلد كامل زرعت أرضه كروماً لعلها من الكروم التى جعلت لنبيذ الرين شهرته . ثم نبدى النهر محاذياً القطار وظل كذلك حتى دخلنا ماينس نقضى بها ليلتين ثم نغادرها توآ الى كولونيا لنشهد معرض الصحافة ولنحضر مؤتمرها .

وقصدنا أحد فنادق ماينس فقيل لنا ان ليس به مكان . فقصدنا آخر فقوبلنا بهذه العبارة . وقصدنا ثالثاً ورابعاً وجعلنا ندور ومعنا فى العربة متاعنا حتى انتهينا الى فندق اضطررنا للاقامة به اضطراراً . ومع أن ماينس مدينة جوتنبرج ومع وقوعها على الرين ومع ما بها من أشياء تستحق الوقوف عندها فقد كانت هذه الصعوبة التى قابلتنا فى الفنادق مما صرف نفسنا عنها الى حد كبير .

ولقد لاحظنا فى أسفارنا جميعاً ان أول أثر يتركه بلد من البلاد فى نفس النازل به يتعلق بالفندق الذى يأوى اليه وبمقدار ما يجد فيه من راحة وطمأنينة ، فهو عنوان المدينة عند الانسان ، وفضلا عن هذا فان لطمأنينة الحياة المادية أثره فى الحياة النفسية . ألست تراك اذا نزل بك هم أو مرض رغبت عن كثير من ألوان التفكير والاحساس والشعر مما كنت ترغب من قبل فيه ؟ ولذلك كان توفير الطمأنينة المادية للناس من كل الطبقات مما يزيدهم اقبالا على الحياة ويزيدهم انتاجاً فيها . بذلك قال الاقتصاديون بعد ان رآه أرباب الاعمال رأى العين . وعلى أساسه طلبوا للناس مزيداً من العلم بالحياة وكل ما فيها ليزدادوا بها استمتاعاً وعليها حرصاً وفيها انتاجا . على أن هذا الذى لقينا فى ماينس وصرفنا الى حد كبير عن زيارة أما كنها المختلفة كان له من ناحية أخرى أثر حسن . ذلك أنا اعتزمنا أن نقضى اليوم الذى كان مقدراً أن نقيمه بها فى فرانكفورت التى تبعد عنها فى القطار السريع نصف ساعة . وفرانكفورت مدينة كبيرة فيها ضعف ما فى ماينس من متاع . ثم ان فى فرانكفورت بيت الشاعر الفيلسوف الالمانى الكبير جيتى . ومهما يكن فى ماينس مما يجذب النظر ويلفت الحواس فهو ليس ببالغ شيئاً الى جانب ما تبلغه من النفس زيارة بيت جيتى . اذن فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً .

وذهبنا فى اليوم التالى الى فرانكفورت . ما هذه المحطات الضخمة التى تقابلك فى كل مكان فى ألمانيا ؟ فقد تركنا شافوزن ودخلنا الغابة السوداء ونحن لا نفتأ نرى بين حين وحين محطات

دونها محطة عاصمتنا ، على حين ان هذه البلاد ليست عواصم ، وما كان منها عاصمة فهو عاصمة مقاطعة نعتبرها نحن مديرية . ومحطة ماينس ومحطة فرنكفورت هي من أكبر هذه المحطات وأفخمها. فاذا أنت خرجت منها قابلتك فرانكفورت بعظمة وفخامة وجلال . وتسير فاذا طرق متسعة جميلة الرصف بالاسفلت متسعة الارصفة تظلها على الجانبين أشجار لا أدرى أى حاجة لأهل هذه البلاد الشمالية بظلالها ، وفى القاهرة العظيمة لا نرى فى الشوارع شجرة تظل المارة فى أشد أيام الهجير . وتنتقل من ميدان المحطة الفسيح فاذا بك بعد زمن قصير فى ميدان ليس أقل منه سعة وهو بعد محاط بالحدائق والتماثيل وفى أحد جوانبه تمثال بسمرك العظيم . وعلى مقربة من هذا الميدان ميدان آخر فيه من ناحية تمثال لجوتنبرج تحف به من حول القاعدة تماثيل نسوة تمسك كل واحدة بيدها أثراً من آثار الطباعة أول عهد الناس بها . وفيه من الناحية الاخرى تمثال لجيتى يطل على الحدائق البديعة نسقت من حوله . وكذلك تراك تجتاز طريقاً فسيحاً الى ميدان فسيح ، الى طريق الى ميدان كالأولين أو أعظم منهما . وكذلك تظل حتى تصل الى فرانكفورت القديمة التى لم تكن قد عرفت الاوتوبيلات والاوتوبيسات والتراموايات ، والتى كانت كذلك فى غنى عن هذه السعة فى الشوارع ، فاذا بك ترى طرقاً ضيقة ومنازل قديمة ، واذا فى احدى هذه الطرق بيت جيتى .

وأخذنا تذاكر الدخول ودخلنا وفى النفس للمكان اجلال ومنه هيبة . هنا ولد وتربى شاعر ألمانيا وفيلسوفها العظيم . وعلى هذا السل

الذى ترتقى للادوار العليا ثم تهبط — ومن يدرى فلعلنا لا نعود اليه بعد أبدا — وطئت قدماه مئات المرات بل ألوفها . وفى تلك الحديقة الصغيرة التى تراها فى فناء الدار جلس يفكر ويستوحى آلهة الشعر والحكمة . وبوحى هـذه الآلهة كتب اياته فى فوست وفى فرتر وفى غيرها من كتبه الخالدة التى جعلته رجـل العالم كله بدل أن يكون رجل المانيا وحدها . نعم هنا ولد جيتى وتربى ونشأ وكتب . والى هنا قصدنا ويقصد الناس لتمتلىء نفوسهم هيبة بذكر جيتى وما خلد على العالم من أثر عظيم ، سيان عندهم كانت دار جيتى كوخا أو قصرا ، وكان أثاثها مخملا أو صوفا ، فليس ذلك يعنيهم الا لأن فيه تجلت آثار هذه الروح الكبيرة التى وجهت تفكير العالم وشعوره وجهة أسمى وجعلت للحياة شعرا أغزر مادة وأقوى الهاما وهدت الناس السبيل الى متاع بحياة العاطفة أعمق وأبعد أثرا .

وهذه الدار التى نشأ فيها جيتى هى دار أبويه . وهى تدل على أنهما كانا على جانب من السعة غير قليل وأن أباه كان رجل علم ودراسـة فنشأ هو بين الـكتب والموسوعات فتذوق منها خياله وتذوق عقله ، كما نشأ على ضفاف نهر المين وعلى مقربة من الرين وبدائع جماله ، فاحب الحـكمة والجمال جميعا وعرف الفلسفة والشعر معاً وأولع بالعلم وما يقتضيه من منطق ، كما هام بالخيال الفسيح تمد بدائع الرين فيه وتزيده سعة وفسحة . ترتقى الى الطابق الاول على سلم خشبى متسع فتقابلك عند وصولك الى هذا الطابق صالة فسيحة وضع فيها تمثال لجيتى حين كان فى الثانية والثلاثين من عمره ، كما ترى به مكتبة أبيه وفيها من الكتب الفرنسية والكتب الالمانية ما يغطى أكثر جدرانها .

أما مكتبته هو ففي الطابق الثاني ، وهي لا تزيد على رفوف قليلة من صنع يده حين كان صبيا ، وبها بعض كتب هي كتبه المختارة . أما المكتب الذي كتب عليه فوست وفرتر والدواة والريشة اللتان خطت هذين الكتابين العالميين فكلها بسيطة أشبه ماتكون بادوات تلاميذ المدارس الثانوية . وليس حول المنزل مما كان قائماً أثناء حياة الشاعر الفيلسوف مايوحي بمعاني الجمال أو الحكمة . فحكمة جيتي وصور الجمال التي صورها إنما كانت قائمة في نفسه وكانت أثراً من آثار دراساته وجولاته بين مختلف صور الطبيعة يختزنها ثم يقلبها ثم يتمثلها ثم تصبح بعضا منه ثم تفيض عنه فلا يرى مفراً من تسطيرها على الورق لتكون هذه الآيات البينات التي أورثنا . وغير مكتبة الاب ومكتب الابن ترى مخلفات جيتي في هذا المنزل بالغة كلها غاية البساطة . فاذا عدت الى الطابق الارضي ودخلت الى مطبخ البيت وجدت من عناية أم الشاعر به مايدلك على أن القوم كان لهم بالطعام ولع ، ولفن الطعام اكرام وتقدير . فليس شيء من معدات طهي المشويات والحلوى وغيرها الا تجده كاملا . والى جانب المطبخ غرفة الطعام بها غير المائدة والمقاعد عدة تطريز لأم جيتي مايزال باقيا عليها أثر من آثار يدها . ولعلها كانت تظل في هذه الغرفة أثناء طهي الطعام لتباشره ولتشرف عليه ولتستوثق من أنها وزوجها وابنها سينالون من شهي الغذاء ماتطمئن له بطونهم وقلوبهم وتستريح له نفوسهم وأعصابهم .

على أنك واجد الى جانب حديقة الفناء متحفا صغيرا يدلك على أن الشاعر الكبير كان يعنى بالجمال لذاته عناية معناها أن الجمال كان

بعض جوانب نفسه ، أو انه كان ضياء هذه النفس فأضاءت به على الوجود كله . فهـذه الصور والمناظر البديعة النقش والتلوين تدل على دقة فى الاختيار وعلى ذوق للجمال يقدرحقاًمعنى الجمال . وهذه الموضوعات التى تمثلها الصور من مظاهر العواطف المختلفة تحدث عن نفس دقيقة الحس هى نفس الشاعر بمعنى كلمة الشاعر فى كماله . فاذا أضفت هذه الناحية من نواحى نفس جيتى الى الناحية التى يدل عليهـا ولعه بالكتب ، ناحية الحكمة والفلسفة ، والى الناحية التى تكونت من عناية أمه بطعام الاسرة جميعا ، عرفت كيف كان لهذه المواهب الممتازة أن تؤتى كل تلك الثمرات الشهية الخالدة .

وغادرت هذا البيت البسيط القديم و نفسى تحدثنى كيف يترك من الأثر فيها أبلغ مما تركت آثار الملوك وذوى التاج بالغة مابلغت عظمتهم ، وكيف يكون له من الاجلال والاحترام أكثر مما كان للقصور التى رأيت فى الآستانة وفى بودابست وفى فينا وفى فرساى وفى وندسور ! ولم يكن جواب نفسى على سؤالها عسيرا . فتلك القصور الفخمة الضخمة كانت تأخذ العين عمارتها والنفس عظمتها . وعمارتها البديعـة وعظمتها الفخمة ليست من صنع الملوك الذين أقاموا بها والذين جعلوا أنفسهم أربابا فيها ، وانما هى من صنع موهوبين فى الفن وفى العمارة كما كان جيتى موهوبا فى الشعر وفى الحـكمة . فنحن اذن لانذكر الملوك الذين نزور قصورهم وانما نذكر بديع صـنع الصانعين فيها . واذا كان لهؤلاء الملوك أنفسهم من ذكر فقلما يخلو مما تنقص به النفس ويألم له العقل . أما هذا البيت البسيط القديم فعظمته ليست فى عمارته ولا فى أثاثه ولا فى نقوشه ، وانما عظمته فى عظمة

ذكرى الروح العظيم الذى أفاض ويفيض على الانسانية جميعاً حناناً
وشعراً وجمالا .

* * *

وعدنا آخر النهار الى ماينس ، حتى اذا كان الصباح بكرنا
باليقظة ، وذهبنا الى الباخرة النهرية التى تقلنا على ظهر الرين الى
كولونيا. وكما تقع فرانكفورت مسقط رأس جيتى على أحد روافد
الرين، كذلك تقع على الرين بون مسقط رأس الموسيقى النابغة المطلق
بتهوفن . والرين وشواطئه بين كولونيا وبون قصيدة جديرة بعبقرية
جيتى وأنشودة جديرة بنبوغ بتهوفن . تقع العين من هذه المضاب
الخضراء على شعر وعلى أنغام تشيع فى النفس البهجة والطرب وتستثير
فى جوانب الفؤاد لحن المسرة الذى اقتضى بتهوفن كل حياته
الموسيقية ليضعه وليطرب له . ولقد كنت أعجب لكاتب كبير مثل
« لوتى » كيف تتكرر فى كتاباته عبارات الاعجاب والهيام والبهر
والجمال والروعة فى وصف المناظر المختلفة التى تقع عليها عينه ،
وكيف يقف فنه البديع عند هذه الالفاظ العامة ، وكيف لا تترجم
له المناظر التى يراها عن أفكار مختلفة . أما اليوم وأنا أتخطى من
سويسرا الى الغابة السوداء الى شواطىء الرين، فأرى للوقت أبلغ العذر
ان أغنى اللغات لاتعجز من أن تعبر عن هذه الصور المتتالية من
الجمال الساحر بأكثر من هذه الالفاظ . ولست أدرى ان كانت الموسيقى
التى تتحدث الى النفس من غير حاجة لغير أنغامها تستطيع أنغامها
أن تعوضنا عن هذا الجمال ألحانا . وأنا الآن اذا حاولت ان أصف
ضفاف الرين بين كولونيا وبون فلن أجد من العبارات الا ماسبق

لى ذكره . فهى جبال قليلة الارتفاع تغطيها الخضرة المختلفة الالوان فتضحك أوهى بالاحرى تبتسم أمام النظر ابتسامة الغبطة والنعيم وتبعث الى النفس بهذه المشاعر . والنهر خلال هـذه الجبال يتلوى يمنـة تارة ويسرة أخرى ، ويتجلى أمام عينك على سفوح هـذه الجبال الزاهية بخضرتها المزهرة منازل وقرى ومدائن وقصورا . وبينا أنت بالمنظر الذى أمامك مأخوذ الى حد البهر واذا النهر استدار من جديد واذا منظر آخر هو الجبـل والخضرة كذلك ، ولـكنه جبل غير الجبـل وخضرة غير الخضرة وجمال غير الجمال فبهر غير البهر وغبطة غير الغبطة ونعيم غير النعيم . وهذه الحصون القديمة تمر بك فتحدثك عن تاريخ قديم ماتـكاد تذكره حتى تنسيك اياه الخضرة المتجددة الحياة مع كل يوم جديد . وتحسب نفسك كلما تلوى النهر حبيساً فى بحيرة من بحيرات سويسرا أسيراً لفتنـة جمالها لولا أن الجبال دون الجبال ارتفاعا وان كانت الاشجار وخضرتها لاتقل عن الخضرة والاشجار رواء وروعة . ويبلغ منك هذا الجمال حتى تود لوترى جبلا أجرد السفح أوسهلا يمرح النظر فى امتداده فلا ينيلك الرين ولا شواطئه من مبتغاك شيئا . وتذكر من تلوى الرين تلوى البسفور وتلوى الدانوب عند أبواب الحديد . والبسفور لاريب أروع مياهه البديعة الزرقة وبجباله المختلفة الالوان ، لـكن خضرة سفوح جبال الرين أكثر نضرة وأبهى غضارة وأدعى للاعجاب بالانسان ومعونتـه الطبيعة لتزداد على جمالها جمالا . وأبواب الحديد على الدانوب أكثر مهابة بعظيم ارتفاعها ، فالانسان بينها فى شعور دائم بالرهبة والجلال ، لـكن

ابتسامة الرين العذبة لاريب أشهى وأحلى . ويزيدها عذوبة انها ليست ابتسامة متكررة فى صورة واحدة، بل هى تختلف كما تختلف ابتسامة المرأة الجميلة بين ابتسامة السرور وابتسامة الرضى وابتسامة الاعجاب وما شئت من ابتسامات هى للنفس نعيم وغبطة ومسرة وتقف الباخرة عند كوبلنز وعند بون ويتغير اثناء ذلك لون السماء ويهتن المطر فلا يزيد هذا التغير فى الجو تغيير المناظر الابهاء وروعة وتخطر الباخرة الضخمة بعد بون والناس مطمئنون لما يجدونه فيها من كل صنوف المتاع حتى تصل الى كولونيا بعد الساعة الخامسة أو بعد الساعة السابعة عشرة كما يقول الاوربيون .

وكذلك وصلنا كولونيا وكذلك كنا فى المدينة التى أقيم فيها أول معرض عالمى للصحافة ، والتى يعقد فيها أول مؤتمر عالمى للصحافة كذلك ، وهى كذلك المدينة التى تقوم فيها أبدع كنائس المانيا القديمة . فلنقم بها حتى نشهد المعرض والمؤتمر وحتى نرى مايهيىء لنا المعرض والمؤتمر فرصة رؤيته من مشاهد وآثار .

معرض الصحافة فى كولونيا

تقع كولونيا على ضفة الرين اليسرى وتتصل مع ضفته اليمنى بجسرين وبجسر ثالث كان قائما من القوارب المتصل بعضها ببعض من شاطىء الى شاطىء، وقد زال الآن ليحل محله جسر آخر. وعلى هذه الضفة اليسرى تقوم نواح ضمت الى كولونيا منذ سنة ١٩١١ وان كانت مبعثرة على الضفة هنا وهناك بحيث ترى بين كل واحدة منها والاخرى منبطحات فسيحة مغطاة بالحشائش الخضراء. ويقوم أحد هذه المنبطحات على الرين مقابلا لكولونيا وكانت تقوم على بعض أجزائه فى الماضى معسكرات المانية من معسكرات عاصمة الرين التى كانت من أمنع الحصون. ولم تكن منعتها ترجع الى حاجات الدفاع عن المانيا وكفى، بل كانت ترجع كذلك الى أن كولونيا حصن الكاثوليكية فى المانيا البروتستانتية. فكان من رأى الحكومة المركزية أن تحتفظ فيها بقوى كثيرة حتى لا تقاجأ فيها بثورة أو بانتقاض.

على المنبطح المقابل لكولونيا أقيم معرض الصحافه، أو بالاحرى أقيمت مدينة الصحافة. وهذا الحصن القديم الذى جرد منذ زمن من قواته قلب نظامه فأصبح قسما من هذا المعرض نظم فيه تاريخ الصحافة فى العالم على وجه علمى له حديث بعد. وبنى بعد هذا الحصن قسم فسيح عرضت فيه الصحافة الحديثة وحاجاتها المتعددة وصلاتها بكل أسباب المعرفة والاذاعة فى العالم.

ومن بعد هذا القسم أقامت بعض الصحف الالمانية وبعض مصانع المطابع الروتاتيف الالمانية دوراً لها . ثم أقيم بعد ذلك، فى نصف دائرة ، معرض صحافة الدول المختلفة خصص فيه لكل دولة مكان بمقدار ماطلبت منذ بداية المعرض . وأمام هذا القسم نافورة مياه بديعة تقع وراءها وعن جوانبها مقاه ومطاعم . ثم تمتد الخضرة بعد ذلك فسيحة ذات نضرة الى مرمى النظر . وفى منتهاها وعند حدود المعرض تقوم أماكن اللهو «غير الخلق» على حد تعبير القائم باعمال القسم المصرى . وفى هذا القسم قسم الملاهى تعلن المتاجر والمصانع المختلفة عن تجارتها وعن مصانعها فى صور من الاعلان شتى .

ويكاد يستحيل على العين أن تحيط بجوانب المعرض ولو وقف الناظر فى نقطة الوسط منه . على انه لاريب يؤخذ فى موقفه هذا بحدائق المعرض وبفروش الحشائش فيه قبل أن يؤخذ بدوره ومبانيه . وليس ذلك لان عمارة هذه الدور لاتلفت النظر ، كلا ! فهى ببنائها جميعا بالطوب الاحمر وببرجها العالى وباستدارة قسم معارض الدول تأخذ بالعين وتستوقف الالتفات . لكن حدائق المعرض ونافوراته ومبانى المقاهى والمطاعم المبعثرة فيه ذات بهجة . وأبهجها هو هذا القسم الفاصل بين مبانى المعرض ومفارش الحشيش . فهو حديقة جميلة تزينها الزهور وترتفع فيها مياه نافورة، بينما فسقية أخرى تنعقد فوقها قبة المياه المندفعة من جوانبها يداعبها شعاع الشمس أثناء النهار كما تنعكس عليها فى الليل مختلف ألوان ضوء الكهرباء المنبعث هو الآخر من بين منابع المياه .

ولقد عنيت مدينة كولونيا الى جانب هذا التجميل للمعرض واقامة أسباب الراحة والسرور به بتجميل ما جاور المعرض من أجزاء المدينة وتمهيد أسباب الراحة لزائريها الذين يقصدون المعرض . فني كل ليلة تنير جسر هو هنزلون وتنير لجة مجاوراته بما يضيء صفحة النهر بضياء مسجد يكاد يكسف أنوار البواخر النهرية التي ما تفتأ على النهر في ذهاب وأوبة . وفي أماكن مختلفين على شواطيء النهر ينزل زوار المعرض الى فلائك بخارية تنقلهم من المعرض واليه طيلة النهار والى الساعة الثانية بعد منتصف الليـل . أليست تبقى المقاهي والملاعب مفتوحة الى الساعة الثالثة صباحا ؟ فليتوفر لقاصديها أكبر قسط من الراحة كما توفر المدينة لهم في أنوار الجسر من بهجة العين ما يسرها وكما تزيدهم سروراً بين آن وآن حين تضيء قبة الكنيسة التاريخية الكبرى .

وحسنا يفعل الذين يقيمون المعارض اذ يجمعون فيهـا اللهو الى جانب مايعرضون . فني اللهو مايغري كثيرين بالذهاب اليهـا وبمشاهدة المعروضـات والاستفادة من هـذه المشاهدة استفادة يتأبون بها رغم أنوفهم . ثم أن الذين يقصـدون المعارض للدراسة والبحث بحاجة الى الراحة كلما أجهدتهم الدراسة وأتعبهم البحث وبحاجة كذلك الى التسلية واللهو . ومثل معرض الصحافة أحوج لهـذا الجمع من سواه من المعارض . فهو معرض عقلي وعلمي وهو لذلك أشد للباحث اجهاداً وأقل لغير الخبير استلفاتا . فاذا لم يكن الى جانبه مايسلي المجهود ومايستبقي غير الخبير تثاقل قاصدوه ومل زائروه وفاتت بذلك الفائدة الكبيرة المرجوة منه .

وهـذا المعرض الدولي بكولونيا من أشد المعارض استنفاداً لجهود الخبيرين وأقلها لفتاً لغيرهم فيما عدا بعض أجزاء منها كانت الدعاية فيها مقصودة أكثر من الصحافة ومن العلم . وهو لذلك أشد احتياجا لوجود مايجذب اليه . فهذه الحدائق والمقاهي والملاهي هي بعض الضرورات التي لامفر منها فيه . وهذا القطار الصغير ، أو القطار القزم كما أسمته ادارة المعرض ، يدور بالزائرين في مختلف جوانبه ويروح عنهم بعض الشيء من تعبهم . ثم ان المعرض بحاجة لذلك كله لأنه متسع مناحي البحث لايكفيك لزيارته زيارة مفيدة يوماً أو أياماً . ولعلي لا أبالغ اذا قلت أن الذي يقصـد الى دراسة المعرض دراسة علمية صحيحة بحاجة الى أسابيع يكرسها لهذه الغاية وينتهي منها الى الاحاطة بالصحافة كعلم احاطة جمة الفائدة .

ومع هـذا التوسع في عرض تاريخ الصحافة والطباعة توسعاً يكفي للاحاطة العلميـة بهما ، فقد توجه أكثر من واحد من الكتاب والصحفيين في الامم المختلفة باعتراض على المعرض وعلى وصفه بالدوليـة لان ألمـانيا وحدها استقلت بعرض تاريخ الصحافة والطباعة، ولانها استأثرت في الصحافة الحالية بوضع مارأت عرضه من أسبابها وأدواتها، ولانها لم تترك للدول الاخرى أكثر من عرض ماعندهم في دورهم المختلفة . وزاد بعضهم على هـذا الاعتراض اعتراضـاً آخر هو أن لوحات المعـرض كتبت جميعـا بالالمانيـة . والالمـانية ليست من جهة اللغة الدوليـة المعترف بها ، ولم يكن من الجهة الاخرى مايحول دون كتابة هذه اللوحات بعدة لغات . وقد يكون لـكل من هذين الاعتراضين

وجاهته وان كان الانصاف لايبرئ كلا من الاعتراضين من التطرف في معنى الدولية تطرفاً دعا اليه اعتزاز كل بقوميته فكان يريد لها نصيباً من الاشتراك في المعرض وادارته ، ومن التطرف في مطالبة الالمان بأن يعترفوا بأن لغتهم ليست لغة دولية . وكل اعتراف من هذا القبيل في الظروف الحاضرة يجرح عزتهم القومية ويعيد لهم ذكرى مؤلمة لما أصابهم في الحرب الكبرى .

وكان للالمان بالقسم التاريخي الذي نظموه اعتزاز أي اعتزاز . سألني مدير المعرض بعد أربعة أيام من مقامي بكولونيا ومن مقابلتي الاولى له ان كنت زرت المعرض وكان أعجبني . فلما أجبته أني طفت به جميعاً ولم يبق الا القسم التاريخي، كان جوابه : لكن القسم التاريخي أهم أقسام المعرض وأدعاها للاعجاب . ولقد صدق الرجل الى حد كبير ، وتجلى لي صدقه في اليوم التالي لحديثنا هذا برغم أن زيارتي لذلك القسم التاريخي كانت زيارة عجلى حتى لقد فاتني أن أمر ببعض غرفه العليا،وبرغم ان سكرتير المعرض الذي تفضل فصحبني اثناء هذه الزيارة لم يكن لديه من فسحة الوقت أكثر من ساعتين يدلني فيهما على ما لم أتمكن من معرفته بهاته اللوحات المكتوبة بالالمانية وحدها .

فهذا القسم التاريخي يستعرض الطباعة ، ويستعرض صناعة الورق ، ويستعرض الصحافة من أول نشأتها ، ويستعرض كذلك الادوات التي استعانت بها الصحافة لاستقاء أخبارها من رجالة وفرسان وحمام زاجل ومركبات تجرها الخيل وبريد وبرق ولاسلكي في عصورها المختلفة . ويستعرض ذلك كله استعراضاً علمياً دقيقاً

ويبين لك الكثير منه، ويبينه لك كله كما كان فى مختلف عصوره.
فطبعة جوتنبرج موجودة شبيهتها وموجود الى جانبها من العمال
من يرتدون ملابس عصر جوتنبرج. وصناعة الورق فى أيامها الاولى
كذلك. أما طرق الاخبار فصورة بالرسوم أحيانا وبالتماثيل الصغيرة
أحيانا أخرى. ولعل الكثيرين يضحكون مما كان يصنع آباؤنا فى
عصورهم الماضية وان كان آباؤنا فى تلك العصور كانوا يزهون بما عندهم
زهونا نحن اليوم بما عندنا. على انك اذا انتقلت من هذا القسم الذى
يعتبر قديما ويعتبر فاتحة عهد الطباعة والصناعة الى ماتلاه حتى يومنا
الحاضر رأيت تطورات مدهشة فى فكرة الصحافة نفسها وفى طريقة
عرضها للاشياء والآراء. فصحافة الثورة الفرنسية غير صحافة
نابليون وغير صحافة سنة ١٨٤٨ وغير صحافة الاجيال التى تلت ذلك
حتى جيلنا الحاضر. ولعلك مستطيع أن تستخرج من هذه
التطورات التاريخية مذاهب فى الصحافة لا تقل شيئا فى تأثيرها فى
الحياة العالمية عن المذاهب الاقتصادية والمذاهب الدينية. وليس
ريب فى انه اذا كانت المذاهب الاقتصادية قد تركت فى حياة
الانسانية أثرا كالذى تركته المذاهب الاجتماعية والمذاهب الدينية
والمذاهب العلمية فان المذاهب الصحفية قد تركت مثل هذا الاثر
أو أكثر منه. وتدل معروضات القسم التاريخى على ذلك فيما تدل
عليه من أن الصحافة حظيت بنصيب من الحرية فى مختلف العصور
أكثر مما حظيت المذاهب الاقتصادية والدينية. وقد أباحت هذه
الحرية الصحفية لمذاهب الصحافة المختلفة — صحافة الرأى وصحافة
الاخبار وصحافة التهكم بالكلام أو بالتصوير — أن تتجاور فى غير

عداوة كالعداوة التي توجد بين مذاهب الاقتصاد أو الدين المختلفة مما يتداخل القانون لقمعه . ثم انى ما أحسب قوة اجتماعية كالصحافة استطاعت أن تستفيد من كل مبدعات العقل البشرى فى الاكتشاف أو الاختراع استفادتها من كل ما أنتجه الخيال والشعر والفنون جميعاً . وقوة هذا شأنها جديرة بالبحث العلمى الصحيح .

وأنت تستطيع أن تستكمل صورة تطور الصحافة اذا انتقلت من القسم التاريخى الذى لم يترك صورة من صور الصحافة فى مذاهبها المختلفة ، ومن بينها الصحف العلمية والصحف الادبية والصحف النسوية والصحف الفنية وصحف الالعاب الرياضية وتطورات كل من هذه الصحف فى مختلف العصور ، الى القسم المجاور له فى المعرض والذى يعرض تفاصيل صحافة العصر الحاضر والادوات المتصلة بها . ولئن كان طابع هذا القسم ألمانياً صرفاً الا أن الصحافة فى ألمانيا اليوم لا تختلف عن الصحافة فى غيرها من أمم العالم . فاذا أنت وقفت من هذا القسم عند الصورة التى وضعت لتبين كيفية اتصال العالم التلغرافى واللاسلكى ورأيت المحطات المختلفة مصورة اثناء اشتغالها بما يتصل بها ويصدر عنها من حركات الكهرباء لم تكن أمام صورة للصحافة الالمانية وحدها بل للصحافة فى كل أمم العالم فى الوقت الحاضر . واذا أنت انتقلت الى قسم البريد ونظامه كنت كذلك امام نظام البريد فى مختلف أمم العالم . على ان الصحفى المصرى يشعر أمام ما يرى بالاسف ان كانت كل هذه الاختراعات وكل هذا التقدم العلمى وليس لمصر من شىء منها نصيب . ثم هو يشعر كذلك بأسف خاص حين يقف أمام ما كينات كثيرة تستفيد

منها الصحافة فى أمم أوروبا ولا تستطيع الصحافة العربية الاستفادة منها بسبب عدم اتقان أشياء كثيرة خاصة بالحروف العربية . من ذلك (اللينوتيب) فى صوره المختلفة . فهو يسمح للصحف الغربيـة أن تطبع كل يوم بحروف جديدة يراها القارئ لطيفة واضحة سهلة على حين تبقى صحفنا فى استعمالهـا للحروف الموزعة فى الصناديق تطبع شهوراً متعاقبة بهذه الحروف عينها حتى تراها فى زمن من الازمان متآكلة يكاد يغيب عنك منها الشئ الكثير ويكاد يضيع لذلك عليك ما يقصده الكاتب . كذلك ما كينات الكتابة المتصـلة اتصالا كهربائياً والتى تسمح لك أن تكتب على احداها فى بلد من البلاد فاذا ما كتبته قد خطته الماكينة الاخرى فى بلد آخر كما تحدث أنت شخصاً بالتليفون من بلد لبلد . وربما كان لدى الصحفى المصرى مايقلل دواعى الاسف أن لا تتمتع الصحافة العربية بهذه الاختراعات الجديدة باستعارة ما فى أوروبا لولا صعوبة هذه الاستعارة لحاجتها الى من يجهـد للعربية ما تفيده من هـذه الاختراعات ، ولحاجتها بجـانب ذلك الى رءوس أموال طائلة ما تزال الصحافـة وما تزال الطباعة العربية على العموم قاصرة دون الحصول عليها .

ومن اضاعة الوقت وصف هذه الآلات والادوات التى تشغل طابقين كبيرين فى المعرض . فلن يستطيع الواصف تصوير الاشياء تصويراً يجعل القارئ بحيث يراها أو يدرك من أمرها الا بمقدار ما يسمع عن المخترعات الكثيرة فى التلغراف اللاسلكى والتليفون اللاسلكى والراديو ، وما يقرأ عن المطابع التى تطبع أربعين ألفاً فى الساعة وأكثر . ثم ان هو حاول هذا التصوير فلن تكفى لوصف

كل ماكينة رسالة طويلة ينتهى الشعر والخيال بالتغلب فيها على الوصف الفنى الدقيق الذى لا يعنى به الا الفنيون ، وقليل هم بين القراء ، وقليلة حاجتهم الى الوصف لانهم يريدون أن يروا رأى العين وأن يفهموا . فاذا أنا أشرت الى التلغراف والى البريد فى القسم الحديث من أقسام المعرض وأشرت الى تطور الطباعة وتاريخ الصحافة فى القسم التاريخى فما ذلك الا لتكون أمام القارئ فكرة عن كل من هذين القسمين اللذين يعرضان لتطور الصحافة عرضاً مستوفى دقيقاً .

يبقى بعد القسمين السابقين قسم ثالث اصطلحت ادارة المعرض على تسميته بأقسام الدول أو بمعارض الدول . وفى هذا القسم عرضت كل دولة ما رأت عرضه من أمر صحافتها وتاريخها وحاضرها عدا المانيا . ذلك بأنها كما رأيت العامل المهم فى المعرض كله وبأنها تريد ان تكون للمعرض الى جانب صبغته الدولية صبغة المانية معناها أن لالمانيا برغم الاحداث الاخيرة من العظمة ما لا تزعزعه الاحداث . لذلك تركت المانيا لكل صحيفة المانية شاءت أن تقيم لنفسها معرضاً خاصاً مستقلا تعرض فيه مطبعتها وتعرض فيه مطبوعاتها .

وأقسام الدول أو معارض الدول تستثير من عنايتك الشيء الكثير . ذلك بأن أكثرها لا يقف عند عرض الصحافة وتاريخها وأطوارها وأدواتها عند هذه الامم ، بل يتعدى ذلك الى شيء من نشر الدعوة لما ترى هذه الامم ضرورة نشر الدعوة له مما فى بلادها . فروسيا التى تشغل قسمين كاملين من أقسام المعرض تبهر الانظار بشيء لا علاقة له بالصحافة البتة . فأنت ترى حركة دائمة فى اسطوانات تدور

وعجلات تدير شرائط طويلة كتبت عليها عبارات مختلفة وأنوار تضىء وتنطفىء وضجة تقفك عندها بالرغم منك . هذه الضجة هى الدعاية للبلشفية ومايزعم الروسيون أنها أجدت على روسيا من خيرات وجرت لها من مغانم دفعت الكل للتلذذ بالعمل والسعادة فى الحياة . وكم يقع نظرك على أرقام يزعمون أنهم يؤيدون بها أقوالهم هذه . وليس من يدرى مبلغ صحتها ولا مبلغ امعانها فى الكذب .

كما تنشر روسيا الدعوة للبلشفية تعرض السويد فى صورة رقيقة ظريفة مصنوعاتها المختلفة وما امتازت به من ثروة وما فى البلاد من جمال تتيسر رؤيته لمن شاء بسبب سهولة المواصلات . فاما سويسرا فشطر من معرضها مخصص للدعوة الى السياحة فيها . والسياحة فى سويسرا هى فى الحق شطر كامل من حياة سويسرا . وأما أسبانيا فدلت عما بالغت فى تجميل معرضها بانها لاتزال يجرى فى عروق أبنائها مقدار غير قليل من دم العرب الاندلسيين .

لم ينل القارىء فيما سلف شيئاً من الصحافة فى معارض الدول . ولى عن تقديم ماقدمت مما فى هذه المعارض عذرى . فهو أكثر فيها ظهوراً من الصحافة وأمرها . وهو الذى يستوقف النظر للوهلة الاولى، ثم هو كل شىء فى بعض المعارض . فليس فى معرض تركيا الا بضع سجاجيد عرضها محل من محلات السجاجيد . وليس فى معرض رومانيا الا بعض ملابس للسيدات تباع وتشترى . فاما الصحافة فى هذين المعرضين فلا تزيد على مجموعة جرائد ملقاة على منضدة كتلك المجموعات التى تراها فى الفنادق والقهاوى معدة ليسلى القراء بها وقتهم فلا يشعروا خلاله بالملال . لكن ذلك ليس معناه أن الصحافة

لم تعرض فى المعارض كلها على الصورة الواجبة . فلقد عنيت بعض الدول بأمرها العناية التى تجعلها حقاً فى المحل الاول من مرافقها جميعا . عنيت بعض الدول بأمرها من الجهة التاريخية ومن الجهة الاحصائية ومن ناحية الطباعة والتوزيع عناية بالغة غاية الجمال قريبة كل القرب من تصوير الحالة العلمية للامور الصحفية فى كل واحدة من تلك الدول . ولنأخذ سويسرا مثلا ، فانت ترى على جدرانها خرائط احصائية بالصحف التى كانت تظهر فيها منذ مائة سنة أو أكثر وبتطور هذه الصحافة مع الزمن الى وقتنا الحاضر . وليست تقف تلك الاحصائية عند الارقام العامة عن مجموع الصحف ، بل هى تتناول من التقسيم ما يدلك على تطور مختلف أنواع الصحف من سياسية واجتماعية وعلمية وغيرها . والى جانب هذه الخرائط الاحصائية احصائية بالصحف السويسرية الحاضرة وأخرى بتقسيم هذه الصحف الى جرائد رأى وجرائد أخبار . ونسبة جرائد الرأى الى جرائد الاخبار فى سويسرا هى ٩٨ فى المائة لجرائد الرأى و ٢ فى المائة لجرائد الاخبار . ويدهش الناظر لهذه النسبة المئوية فى زمننا هذا الذى تتزايد فيه الجرائد الاخبارية حتى تكاد تطغى على جرائد الرأى وتضطرها لتجعل القسم الاخبارى منها ذا أهمية كبيرة . لكن دهشته تزول حين يرى الى جانب هذه النسبة السبب الذى أدى اليها . فسويسرا هى المثل الاعلى للبلد الدمقراطى . كل مديرية من مديرياتها «canton» مستقلة بشؤونها الداخلية . وكل واحدة من هذه المديريات تحكم نفسها ، لا بطريق الانتخاب المباشر ، ولكن بطريق التصويت المباشر . فكلما أريد اعتماد مبلغ من المبالغ أو سن قانون من القوانين

وجب أخذ رأى الشعب . ولكى يستنير الشعب يجب أن تؤيد أمامه أوجه النظر المختلفة لقبول الاعتماد أو لرفضه . والصحافة هى الوسيلة لهذا التأييد . لهذا كانت صحافة سويسرا صحافة رأى . ولتعدد المديريات كانت صحف سويسرا كثيرة العدد جدا بالنسبة لمجموع السكان والمساحة ، ثم كان السويسريون لهذين السببين من أكثر أهل الامم قراءة للجرائد ، وكان لابد لذلك من استنباط الوسائل لسهولة توزيعها . ووسائل التوزيع وغيرها مما يتصل بالصحافة فى سويسرا معروض هو الآخر على صورة جذابة أخاذة بالنظر .

وبمثل هذه العناية عرضت السويد وعرضت بولونيا وغيرهما شؤون صحافتها على صورة تختلف عن الصورة التى عرضتها بها سويسرا لأنها تتفق مع الحياة العامة لكل واحدة من هذه الامم وقد يعجب الانسان اذ يعلم أن فرنسا وانكلترا وأمريكا أقل الدول عناية بعرض شؤون صحافتها فى هذا المعرض الالمانى الدولى . وقسم فرنسا معروضة فيه شؤون الصحافة الفرنساوية وتتف من تاريخها عرضا أنيقا ولكنه لا يدل على كثير مما يريد المدقق أن يقف عليه من شؤون صحافة بلاد الثورة الكبرى والثورات التى تلتها .

وقد يود القارىء أن يقف على الطريقة التى عرضت بها شؤون الصحافة المصرية . والحق أن المجهود الذى بذل فى عرضها غير قليل . فهى حديثة العهد بالوجود لا يرجع تاريخها الى أكثر من خمسين أو ستين سنة مضت . والى أواخر القرن الماضى كانت الصحافة المصرية ضعيفة ضعفا ظاهرا . وصحافة اليوم لا سبيل الى عرضها بأكثر من وضع مجموعاتها لمن شاء أن يتصفحها . لذلك عرضت نماذج الصحف

المنقرضة كما عرضت نماذج من الصحف الحديثة . لكن ذلك لم يتقفع بشيء من الاحصاء ولم ينل حظا من التقسيم العلمي الذي تحتاج اليه المعارض .

* * *

أمام نصف دائرة أقسام الدول حدائق تتلوها نافورات المياه وبركها ثم الحدائق والمطاعم واماكن اللهو مما سبقنا الى الكلام عنه . ومن هذه المجموعة كلها يتكون معرض الصحافة ، وقد أثار هـذا المعرض عند طائفة من علماء الالمان وأساتذتهم البحث في الصحافة والعلوم الصحفية ، وهل تكون الصحافة علما يدرس أو لا تكون . وللقيام بهذا البحث عقدوا في أبنية المعرض مؤتمر الصحافة الدولي الذي اجتمع في يوم ٨ اغسطس واختتم في يوم ١٠ أغسطس والذي تداول بحث هـذا الموضوع بما لا يدخل في نطاق هذا الكتاب .

فى الطيارة

من كولونيا الى برلين

كان برنامج سفرى أن أذهب من كرلونيا الى برلين بعد انتهاء مؤتمر كولونيا لأشهد للمرة الاولى العاصمة الالمانية الكبيرة ولأرى مجهود هذه الامة الممتلئة حياة ماثلا فى أم القرى الالمانية. وقد يدهش القارىء لشخص قضى فى أوربا أيام الدراسة سنوات وزارها بعد ذلك غير مرة كيف لم يزر برلين من قبل ، وبرلين جديرة بكل اعجاب . وقد يجوز لى أن أعتذر بعدم معرفة اللغة الالمانية وعدم استطاعتى لذلك أن أتصل بأهلها وأدرك من أسرارها ما لاسبيل الى ادراكه لغير عارف لغة البلاد التى ينزلها . ولهذا العذر لاشك وزنه وأثره . لكن سبباً آخر قد يضحك القارىء منه كما أضحك أنا اليوم كان أقوى أثراً . ذلك أن دراستى فى فرنسا كانت ما بين سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩١٢ . وفى هذه السنوات كانت الخصومة بين فرنسا وألمانيا مستحرة وكانت كل واحدة منهما تروج الدعاية ضد الأخرى بكل ما أوتيت من قوة . ومن بين ما كانت تذيعه فرنسا عن جارتها أن فى أخلاق أهلها غطرسة وجفاء ، وأنهم ثقال الظل غلاظ الكبد ، وان عسكريتهم قد جعلت منهم آلات لاتعرف شيئاً اسمه التفكير ولا الفن ولا الحرية وانما يقف علمها عند أن تؤمر فتطيع .

وقد بالغ بعض الكتاب الفرنسيين فى تجسيم هذه الصورة عن

المانيا حتى ليحسب الانسان أنه معرض ساعة ينزل بين الالمان الى أن يقبض عليه لأنه سبب وأن تساء معاملته لغير موجب . ويكفيك أن تطلع على ما كتبه جي دموباسان فى هذه الناحية حتى يقشعر بدنك لقسوة هؤلاء الالمان الوحوش . فكيف يتسنى لمن يدرس فى فرنسا ومن يعجب بالظرف والرقة فيها أن يغامر بنفسه فيذهب الى بلاد الغطرسة والقسوة والتوحش . فلى اذن العذر ان أنا لم أزر برلين ولم أر من الالمان أحداً .

وتقضت السنون بعد ذلك وكانت الحرب وبدا الانسان فى كل قسوته وتوحشه لا فرق بين المانى، وغير المانى، وفترت فى النفس أوهام الصبا وتكشفت عن الحياة أستار الأمانى البراقة فظهر الناس جميعاً أمام البصر تصرفهم غرائزهم فتسخر عقولهم كما تسخر خيالهم وفهم وتسخر من منطقهم الذى يسمونه منطق العقل وهو ليس الا منطق الغريزة الحيوية المشتركة بين الانسان وغير الانسان تدفعهم جميعاً للبحث عن أسباب الطمأنينة والسعادة . فاذا كان للالمان فى هذه الاسباب رأى غير رأى الفرنسيين أو الانكليز فلا لوم فى ذلك عليهم سواء أكان رأيهم أدنى الى الصواب أو أدنى الى الخطأ .

فلنذهب اذن الى برلين . قال صاحب : ولم لا تذهبون اليها بالطيارة وهى تقطع المسافة بين كولونيا والعاصمة فى ثلاث ساعات بينما تقطعها القطارات السريعة فى عشر . وفى كل يوم بين كولونيا وبرلين طيارة يسافر الناس عليها . والكل متفق على أن السفر بالهواء مريح أكثر من

سفر القطار ومن سفر البواخر . وهى بعد تريكم مناظر الارض فى صورة لم تروها من قبل على حين أنكم رأيتم صور هذه المناظر بالقطار حتى ما يكاد يبقى لكم فى شئ منها جديد . وما أحسبكم من أولئك الذين يخشون السفر الجوى لما يتوهمونه من أخطاره وأنتم تعلمون أننا من مأمنه يؤتى الحذر ، وان الخطر كمين فى كل خطوة من خطى الانسان ، فلو انه حاول أبداً ان يحاذره لما تحرك حركة ولا خطا خطوة ... وظل هذا الصاحب بنا يحاول اقناعنا . وأعانه فى ذلك ان جماعة ممن عرفت فى المعرض المانا وغير المان سمعوا منه اقتراحه فوافقوه عليه وقص بعضهم أنه امتطى الهواء مرات وأنه يجد فيه من الراحة ما لا يجده على الارض ولا على البحار .

مع ذلك بقينا مترددين . السفر بالطيارة جميل . وقد حدثنى كثيرون من قبل عنه وأخبرونى أن ليس به ما يتعب الا دوى أجنحة الطيارة دوياً يصم الآذان . مع ذلك ففى ركوب الهواء مجازفة مادامت الطيارات ما تزال معرضة للاحتراق . ولقد جاهدت بعد وصولى برلين أن أقنع جماعة ممن رأيت من المصريين أن يسافروا فى الطيارة فكان من عدم اقتناعهم ما برر أمامى ترددنا الاول .

على أن هذا التردد لم يطل . فلقد ذهبت الى كوك فى كولونيا وطلبت اليه تذكرتين للطيران يوم الاثنين الثالث عشر من أغسطس . وفى صباح ذلك اليوم شحنت ما حسبت الطيارة لا تتسع لغيره من متاعنا وان رأيت بعد وصولى الى المطار انها كانت تتسع لأكثر منه . وبعد ربع ساعة من ظهر ذلك اليوم ركبنا سيارة (اللفت هانزا)

الذاهبة الى المطار ومعنا صاحبنا الذى أشار بركوب الطيارة . وقطعت بنا السيارة أنحاء المدينة وخرجنا الى ظاهرها وبلغنا محطة الطيران . وما كدنا ندخل ونلقى بأبصارنا على المطار حتى ألفينا أكثر من طيارة ذات سطح واحد . لكن الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة لم تكن قد أتت بعد . فجلسنا فى مطعم لم نتناول فيه طعاماً ولكننا جعلنا نطل منه على هذه الطيارات المستعدة لتطير . وفى الساعة الواحدة أقبلت الى المطار تجرى على عجلها طيارة ذات سطحين ونادى المنادى : الى برلين .

اذن هى طيارتنا هذه فلنطر اليها حتى تطير بنا . وسبقتنى زوجى فلما لحقت بها أخبرتنى أنها سمعت أثناء مرورها شخصاً عند مؤخر الطيارة يذكر أن بها عطباً وأنه يصلحه . فلما أردت أن أسكن من هذه الناحية روعى وروعها بأن سألتها كيف فهمت كل هذه العبارة الطويلة بالالمانية ، أخبرتنى ان الشخص كان يتكلم الفرنسية . فنحن اذن سنكون على أجنحة الهواء فى طائرة بذنبها عطب . واذن فلله الامر من قبل ومن بعد . ولكل أجل كتاب فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

ولست أدرى ماذا كان يجر اليه حديثنا عن هذا العطب لولم تلتفت الينا جارة لنا فتتبادل زوجى الحديث معها فتعلم منها أنها فرنسية وأنها وحيدة فى سفرها وأنها حضرت على هذه الطيارة من باريس فلم تجد فى سفرها نصباً بل لم تجد الا الراحة التامة والسكينة كل السكينة لولا ضجة المحركات المزعجة التى لا مفر معها من أن يملأ الانسان آذانه قطناً ليستطيع احتمالها مع شىء من العناء . ثم قالت

كى تطمئننا : ولقد نزل بنا الطيار هنا نزولا بديعاً لم نشعر معه بأى شيء ... وجعلت تمدح هذا السفر بالطيارة وتذكر أنها ذاهبة بها من باريس الى برلين لتمضي بالعاصمة الالمانية أسبوعاً ثم تعود بالطيارة كذلك الى باريس . ولما كانت قد ذكرت ان هذا هو سفرها الاول فى الجو فقد جعلنا نسألها عما شعرت به أول ارتفاع الطيارة وأثناء سيرها وحين هبوطها ونسأل عن تفاصيل أخرى لم تدر بخاطرنا قبل أن نشعر بنفسنا فى هذا المضيق .

لم يدفعنى الى كتابة كلمة المضيق هذه شيء من معنى الخشية أو التخوف . فطيارتنا والطيارات الاخرى التى رأينامضيق فعلا . فهذه الاجنحة الفسيحة تضم بينها غرفة فى صورة غلاف جسم الطائر سواء بسواء . والغرفة التى كنا بها تتسع لعشرة أشخاص فقط ركب منهم ثمانية وبقى مقعدان خاليين . وصادف ان كان الثمانيــة : أربع سيدات وأربعة رجال . وعرض الطيارة ، أو بالاحرى هـذه الغرفة الضيقة ، يتسع لمقعدين من نوع (الفوتى) الذى يريح الجالس عليه تمام الراحة . وبين المقعدين ممر ضيق لايكاد يتسع للشخص الواحد الا رغماً . ووراء المقاعد فى هذا المضيق مكان يوضع فيه المتاع الى جانب دورة المياه . فأنت اذن ترى أننا كنا فى مضيق بالصورة المادية الصحيحة لهذه الكلمة وانى اذا تحدثت عن المضيق لم أقصد به الى أى معنى آخر .

وكان مقعدى فى المقــدمة فليس بينى وبين الطيار غير حاجز ضعيف . والمقــدمة تطل على ماق الطيارة من أدوات وعدة تلفت الناظر اليها . فهذه المحركات الحــديدية الضخمة على صورة المروحة

الكهربائية تدور فى حركة سريعة فتدور معها لوالب وزنبركات وبابات تمدها بالعشرات وكلها تدق فى نظام هو بعينه نظام نبض الحياة فى الانسان وهى بعينها دقات قلب المرء . وهذه الزنبركات واللوالب والبابات صغيرة ، صغيرة الى جانب هذا المحرك الضخم العظيم . والجناحان المزدوجان عن يميننا وعن يسارنا فسيحى السعة حتى لا يكاد المضيق الذى يحشر الناس بينهما تتعلق به العين أو تهنى به النفس لولا أننا جاثمون بين جدرانه المتينة .

الساعة الاولى والدقيقة الخامسة ! الموعد الذى قيل لنا ان الطيارة ستتحرك فيه وهاهى مع ذلك لم تتحرك ! اذن فلا بد أن يكون العطب الذى بالمؤخر داعياً الى التأخير . ولكن ليكن ! فماذا عسانا نستطيع أن نقول ومعنا ستة آخرون تبدو عليهم الطمأنينة . فلننتظر . . . وهاهى الساعة الاولى والربع والطيارة مع ذلك لم تتحرك ! والاولى والثلث والطيارة مع ذلك لم تتحرك ! أى عطب هذا الذى اقتضى اصلاحه هذا الوقت كله ؟ .... والآن هاهى الاولى والدقيقة الخامسة والعشرون . وها طيار يمر من بيننا ويأخذ مجلسه الى جانب زميله ويجيب على سؤال زميله فى لهجة استخفاف : لقد كان عطباً تافهاً فى المؤخرة أصلحناه فى الوقت المناسب . وما يزال أمامنا خمس دقائق .

ما يزال أمامنا خمس دقائق ! نعم . كذلك أجابتنا السيدة الفرنسية التى تحدثنا اليها وتحدثت الينا . فالطيارة تدخل المطار الساعة الاولى والدقيقة الخامسة . لكنها لا ترتفع طائرة الا فى الساعة الاولى والنصف . ألا لو علمنا ذلك لما كان ثمة موضع

لعدنا الدقائق والثوانى ولاعتبارنا العطب سبب التأخير .

وفى الساعة الاولى والنصف تماماً أقبـل الى ناحيـة الطيارة ضابط المطار فصفر إيذاناً لها بالسفر وجرت الطيارة على عجلها حتى توسطت المطار عند ضابط آخر واقف الى جانب علم مثبت فى الارض . هنالك رأينا الارض تبتعد عنا رويداً رويداً من غير أن نشعر ونحن فى الطيارة بأكثر من حركة الصاعد (الاسنسير) حين ارتفاعه . لكن ضيق المحشر الذى حشرنا فيه جعل أنفاس العشرة الاشخاص الذين يشغلونه تجعـل منه بوتقـة أو شبهها . فخلعت معطفى بينا الطيارة ترتفع ثم جعلت أحدق بالارض وما عليها من شجر وعمارة وهضاب وجبـال تبتعد عنا رويداً رويداً . وكلما آن للطيارة أن تزداد ارتفاعا شعرنا بها تهبط فجأة بعض الثانية ثم ترتفع من جديد فلا نشعر بارتفاعها . وأشهد لقد هبطت فى شىء من السرعة فخلت قلبى يهبط وأحسب أن الذين كانوا يطيرون مثلنا للمرة الاولى هبطت قلوبهم كذلك معها . لكنها فى هذه المرة ارتفعت ثم ارتفعت ثم ازدادت ارتفاعاً حتى بلغ ما بينها وبين الارض ألف وخمسمائة متر .

وفى أثناء هذا الهبوط ثم الارتفاع كنا فى شغل بحركة الطيارة عن أن ندقق فى الاحاطة بمـا تقع عليـه أنظارنا من زجاج نوافذها . وكنا كذلك ممتلئى النفس شعوراً بأنا لا نقدر من أمرنا على شىء وانا بحاجة الى عون كل القوى لتمدنا من لدنها بما يعيننا على مواجهة هـذا الجديد الذى لم نعرف قبل ساعة حشرنا فيـه ، وان كنا قد سمعنا وقرأنا عنـه ما جعل يسيراً علينا أن نرجع اليه لنزداد بأمره خبراً . لهذا دعتنى زوجى كى أقرأ « آية الكرسى » وانطلق لسانها

هي بالدعوات الحارة الى الله رجاء كل مستعين، وذكرت أهلنا ومن خلفنا في مصر فوجهت الى السماء من صالح الدعوات لهم ما يرتفع به القلب حين يصفو من مشاغل الحياة الدنيا . على أننا لم نستطع التفاهم على ما نقرأ وما نتلو من الدعوات الا زمناً يسيراً . فقد قوى دوى المحركات أثناء مسير الطيارة وارتفاعها حتى أصبح لا يسمع أحد أحداً ولا يستطيع جار أن يتفاهم مع جاره الا بالكتابة .

وفيما هي في ارتفاعها كانت تسير بنا صوب برلين . أين نحن الآن منا في القطار نطل من نافذته الواسعة على المزارع تارة وعلى الجبال أخرى وعلى الانهر ثالثة نعبرها فوق الجسور المختلفة الصناعة ؟! ها نحن نشهد أعيننا الجبال والمزارع والانهر والغدران والقصور والطرقات وكلها كأنها خطوط مستقيمة تارة ، ملتوية طوراً، خضراء حيناً ، مغبرة حيناً آخر ، لامعة بالموج حيناً ثالثاً ! ولكنها في هذه الحال جميعاً لا تزيد على خطوط رسمت على خريطة مسطحة مستوية من الارض لا تختلف في شيء عن الخريطة السطحية المستوية من الورق التي ترسم عليها الصور الطبيعية والجغرافية لهذه الكائنات التي نراها عن قرب بارزة أو غائرة مرتفعة أو منخفضة ضخمة أو ضئيلة . وكما صرنا بالعادة نعرف ما تشير اليه الالوان على الخرائط كذلك استطعنا أن نعرف ما تمر فوقه الطيارة في مروقها كالسهم فنميز بين الجبل والسهل والبناء ، وان كنا ننظر اليها جميعاً نظرة علو واستكبار فلا نرى لها من العظمة ولا من الجمال ما نراه لها اذ نمر بها ونحن صغار الى جانبها وهي عظيمة تبهر عظمتها الابصار ويأخذ جمالها بمجامع القلوب . ولم لا ننظر

كذلك اليها ؟ ألسنا منها فى سماواتها العلى ؟ ألسنا نطل من نوافذ زجاج الطيارة فنراها صاغرة دوننا ونرى قممها التى كانت شامخة متعالية وقد طأطأت هامتها لنا وكشفت عما كان مخبوءاً منها لأنظارنا ؟ فماذا بقى منها غيباً علينا حتى نجلها أو نعظمها والانسان لا يجل الا الغيب ولا يعظم أمامه الا المحجب .

وهدأت النفس واطمأنت الى مكانتها بعد روعها من سلوك السبيل الى هذه المكانة . ألم يكن هذا السبيل مجهولا أمامها . فلتستعن اذن بالغيب وبالمجهول مادامت قادمة على غيب ومجهول ! لتصبح ذرة فى وحدة الوجود العظيمة ولتفن مع غيرها من الذر ولتلتمس لها فى فنائها هذا أنساً لها من وحشة ومعونة لها على المجازفة وسكينة فى أحضان الاستسلام . أما وقد تسنمت الذروة واطلت من فوق الكائنات على هذه الكائنات فما الروع وما الغيب وما الاستعانة الا ضعف غير لائق بالنفس التى تؤمن بالعلم . نعم ! ما دام العلم فالوجود كله للانسان . واذا هو لم يكن لانسان اليوم فهو لانسان مائة سنة أو ألف سنة أو ألوف سنين مقبلة . أليس الوجود هو هذا الذى نحدق به حولنا ؟ أو لسنا نكشف كل يوم منه عن جديد ؟ ففيم استحالة أن نكشف يوما من الايام عنه كله ؟ ...

وذهبت فى هذه التأملات وفى مثلها . لكنى شعرت بشىء يلفتنى عنها ويردنى الى حقائق الوجود الذى حولى . ذلك هو البرد الذى جعل يشتد رويداً رويدا . أليست الطيارة قد ارتفعت ألفاً وخمسمائة متر ! فهذا الهواء الذى كانت الانفاس أدفأته قد بدأ يتأثر شيئاً فشيئا بالجو المحيط بالقفص الذى نحن فيه ، وها هو الآن قد

أصبح بارداً فأنا بحاجة الى معطف أضمه على ساقى ! كلا ! بل أرتديه فدفء ساقى لم تدفأ له أكتافى . وارتديته ثم ضممته الى كأشد مايضم الانسان اليه رداءه فى ساعات القر المرعد وعدت الى تفكيراتى من جديد . عدت اليها اذ ليس لى الى غيرها سبيل . فلست أستطيع أن أتحدث الى جار لى وقد ملأت آذانى قطناً أتقى به دوى المحرك المزعج المصم

وربما وجدت من مجرد التأملات مندوحة لو أنه كانت تحت نظرى خريطة تفصل لى ماغر به من بلاد وما تقع عليه العين من مناظر ، وكان معى كذلك منظار معظم أتبين به هذه البلاد والمناظر . لكن أحداً ممن فى الطيارة جميعاً لم يكن بيده خريطة ولا منظار . وأحسب أن هذه الخرائط لم توضع بعد للمسافرين بالطيارات لأن عددهم مايزال قليلا أو لأن سرعة الطيارة تجعل التحديق بما نمر به أمراً غير ميسور .

ها ساعتان مضتا وبقى لنا ساعة كاملة للهبوط فى مطار برلين فاذا عساى أصنع ؛ أسندت رأسى الى زجاج الغرفة وأغمضت عينى فنمت . وأحسبنى نمت برهة غير قصيرة . فقد شعرت بجارى يوقظنى ورأيته يشير الى ماتمر الطيارة فوقه ويكتب الى على غلاف كتاب معه : برلين . اذن وصلنا !.. ولكن لا . فكيف تكون هذه برلين ونحن نرى تحت أنظارنا غابات مبعثرة هنا وهناك ونرى بحيرات تلمع مياهها خلال الغابات ونرى كل ماعهدناه فى المروج الفسيحة وفى الاحراش الواسعة . صحيح ان هذه الاشجار الخضراء وتلك البحيرات التى تتخللها تحيط بها عمارات وأشباه عمارات .

لكن العمارات صغيرة لبعدها عن النظر ولا كتظاظ ما تجاور منها وتبعثرها بما تفصل الغابات والبحيرات بينها . فهل ترى تكون العاصمة الالمانية فى هذا الجمال الذى تجلوه نظرة الطائر منها ! لابد أن يكون ذلك هو الواقع ، لأن الساعة أوفت على الرابعة والنصف. ولكن كيف تكون هذه برلين ! وصادف أن أشار الى جارى الامريكى بأنا نزل عند مجدبرج أو بينها وبين برلين . ولم أكد حتى اذا الطيارة بدأت تهبط ثم تهبط ثم تهبط ... حتى قاربت الارض وحتى صرنا نستطيع أن ننزع القطن من آذاننا فلا يزعجنا دوى المحرك . وفى أثناء هبوط الطيارة لم نشعر بأكثر من مثل حركة هبوط الأسنسير أيضا ، ثم جرت الطيارة بعد ذلك على عجلها فى المطار حتى أبوابه فوقفت وهبطنا منها فوق درج صغير .

هبطنا منها وجعل ركابها يهز بعضهم يد بعض حمداً لله على السلامة . وأقبل علينا حاجب المفوضية المصرية يخبرنا أن القائم بأعمال المفوضية تفضل لحضر بنفسه . وسلمنا الحاجب متاعنا وذهبنا جميعاً الى الفندق فأوينا اليه وأنا أشد ما أكون غبطة بسفرى هذا ورجاء فى تقدم المواصلات الجوية تقدماً يقرب أجزاء العالم بعضها من بعض ويجعل العالم كرة صغيرة فى قبضة الانسان .

في برلين

صدقت نظرة الطائر الى برلين . فهي غابات وأحراش وبحيرات تغطي من المساحة القائمة فوقها مبانيها أضعاف ما تقوم عليه المباني . نزلنا من المطار الى فندق «ادن» بالاحياء الجديدة من المدينة فتخطت السيارة بنا اليه شوارع تحيط بها من الجانبين أو من أحدهما غابات تذهب مع البصر حتى لا ترى شيئاً غير أشجارها ثم وقفت عند باب الفندق فاذا ازاءه غابة هائلة أعادت الى الذهن غاب بولونيا الى جوار باريس . ونزلت بعد الغروب مع صديق رفيق يعرف المدينة العظيمة حق المعرفة فاخترق بي طرفاً أخرى حتى وصلنا الى بحيرة جلسنا في متنزه على شاطئها . وفي الايام التي قضينا ببرلين لم يكن يوم ينقضي دون ان نخترق غاب التيرجارتن أو ان نذهب الى احدى الغابات الكثيرة الاخرى المنثورة ببحيراتها خلال العاصمة الالمانية الهائلة . وشوارع المدينة الحافلة من جانبيها بالمنازل والمتاجر أكثرها فسيح مغروس وسطه الاشجار ويجري الترام منه فوق الحشيش الاخضر حتى لتظنك أينما كنت في حدائق ناضرة . والالمان مزهوون أشد الزهو بنظام مدينتهم هذا ويعتبرون الغابات المنثورة خلالها والتيرجارتن أكبرها وأفسحها بمثابة الرئة من برلين تنفس عنها ولا تضطر الناس للخروج منها ابتغاء هواء نقي وجو صاف ما دام هواء المدينة دائم التجدد بمروره بهذه الرئة نفرز فاسده وترد الى المدينة النقي الصالح . وهم

أشد زهواً بشوارع مدينتهم وبنظافتها وبدقة نظام المرور فيها . والحق ان شوارع برلين ليس كمثلها سعة ونظافة فى باريس أو فى لندن حتى لكانت زوجى تشير مازحة الى انى لا يجب ان ألقى بقية سيكارتى بها حتى تظل فى نظافتها وفى لمعانها . فأما المرور فنظم نظاماً أوتوماتيكياً بالانوار الحمراء والخضراء والصفراء تشير بالمرور أو بالانتظار فتجيب الاوتموبيلات اشارتها فى رضى واطمئنان . أخذ ذلك كله بنظرى فجعلت أسائل نفسى كم يقتضى ذلك كله لحسن العناية به ولتبقى برلين أبداً كما أراها . وتردد هذا السؤال بخاطرى غير مرة فألقيت به على أحد شباننا المقيمين هنالك فذكر لى ان ميزانية بلدية العاصمة وحدها خمسون مليوناً من الجنيهات ، أى ما يكاد يعادل الضعف لميزانية الدولة المصرية كلها .

ويخيل الى ان النظافة بعض الغرائز الالمانية . أقمنا بفندق ادن أياما انتقلنا بعدها الى فندق الاسبلاناد فكان مما لاحظناه فيهما جميعا أن جماعة من الخدم لا يفتأون منذ الصباح الباكر الى المساء المتأخر ينظفون . ينظفون الاراضى والجدران والنوافذ والابواب والاسقف وكأنهم كلما فرغوا عادوا ينظفون من جديد مستعينين بكل ماهدى اليه العلم وبكل ماتعاونهم به الكهرباء . وما أشك فى أن سائر فنادق برلين وكل منازلها تلقى من العناية بنظافتها كل ماتدفع اليه هذه الغريزة على نحو مارأينا فى الفندقين اللذين نزلنا بهما وعلى نحو ماهى بادية بصورة تلفت النظر فى كل شوارع المدينة وطرقاتها .

على أن مايسر لبرلين سعة شوارعها أن برلين مدينة حديثة

لايرجع تاريخ أكثر الاحياء فيها الى مائة سنة ولا يرجع تاريخ ابهى أحيائها الى أكثر من خمسين سنة . وحداثتها هى بعض مايطوع للناس فى باريس وفى غير باريس أن يوجهوا لها مايوجهون من أسباب النقد. فهى عندهم كالرجل المحدث الثروة كان بالأمس فى كوخ أو فى بيت صغير، فلما أنعمت الصدفة عليه بما أنعمت من ثروة تبدى فى وجاهة المحدثين ووقاحتهم وابتنى لنفسه قصراً على أحدث طراز وجهزه بأحدث أسباب النعمة والترف. فأما العريقون فى حسبهم ونسبهم فيقيمون فى قصور آبائهم وأجدادهم . قد لا تبدو هذه القصور فى وجاهة دور المحدثين ولا فى ترفها ، لكن لها من حديث التاريخ ما تمتز به . فى كل غرفة من غرفها وفى كل بهو من أبهائها من الذكريات مايتضاءل أمامه هذا الجمال الحديث طرباً . ثم ان مقاومة هذه القصور القديمة لصروف الزمن قد جعلتها بأمن من زعازع الحياة بينا دور المحدثين ما تزال عرضة لأعنف الهزات كيما تستقر . فاذا كانت شوارع برلين وغاباتها على ماوصفت فليس فى برلين مايحدث حديث باريس وحديث روما وحديث لندن ، وليس فيها من صور الفن ماعصره الزمن فى بوتقته القاسية فسما على الزمن وارتقى الى مكان الخلود .

لست أريد أن أقف عند هذا النقد وبرلين أمامى فى جلال جمالها وبهر عظمتها تحدث حديث الروعة والبهاء . لكنى أعترف بأن بى ضعف للقديم يجعلنى أقف أمامه مقدساً متهجداً . قد يكون هذا الضعف فى نفسى المصرية راجعاً الى تقديس آثار الفراعنة الاقدمين . وقد يكون راجعاً الى اعتقادى بأن مايتركه الزمن من ندوب فيما يعجز الزمن عن دكه صرحه ابلغ حديثا من

كل فن حديث . على أن هذا الضعف عنـدي لم يحل بيني وبين الاعجاب ببرلين والاستمتاع بما فيها من جمال وعظمة تتبدى فيها للالمانيين من ميل خاص للضخم وللعظيم، حتى ترى أهل المانيا رجالا ونساء أضخم من غيرهم من أهل أمم الشمال ، كما تتبدى في دأبهم وأمعقهم عما يجعلهم يميلون في طريقة بحثهم وتفكيرهم الى التقصي لابعد الحدود كي يظهر بحثهم عظيما وتفكيرهم ضخما وكيما يظهر كل أثر لبحثهم في العلم أو في الصناعة ضخما عظيما . وكان أول ما لفت نظري من مظاهر عظمتهم أن الشهوة لم تخرج بهم ماخرجت بالفرنسيين أثناء الحرب الى صغائر تأباها العظمة . من ذلك أن الفرنسيين ألغوا من حياتهم ماله أيسر اتصال بالمانيا فاستبدلوا ماكان من أسماء الشوارع متحدثا عن الامبراطورية الالمانية باسماء فرنسيه أو متصلة بالحلفاء . أما في برلين فما يزال الميدان الذي يقابل ميدان الكونكرد يسمى كما كان يدعى قبل الحرب ميدان باريس . وكما بقي لهذا الميدان اسمه فقد بقيت سائر الاسماء لم تغير ولم تعتبر بعض ماذهبت عليه عداوة الحرب . وميدان باريس يتصل من ناحية بالتيرجارتن يفصل بينه وبينها عقد كأنه قوس النصر يسمى برج براندبور ، ويتصل به من ناحيته الاخرى طريق «انتردن لندن» أي طريق الزيزفون، منافسا طريق الشانزليزيه بباريس ، ممتداً حتى يبلغ غايته عند تمثال القيصر فرانس جوزيف تقوم على جانبيه مبان غاية في الفخامة والضخامة، احداها مباني الجامعة وآخر بناء دار الاوبرا ثم المكتبة الملكية والترسانة . ويتخطى السائر أحد فروع الاسبري الى « اللستجاردن ». وهي حديقة قامت خلالها تماثيل شتى كلها لانصر

والغلب وكلها تدخل فى روعك سجايا ألمانيا الحربية متجلية ناطقة إن فى التماثيل نفسها أو فى الصور البارزة التى نقشت على قواعدها . وأشد هذه التماثيل أخذاً بالنظر تمثال فردريك غليوم الثالث . على أنك اذ تقف معجباً بالحديقة وتماثيلها يأخذ بنظرك بناءان غاية فى العظمة والفخامة . أحدهما القصر الملكى والثانى الكنيسة (الدوم) . ولم نزر نحن القصر ولكنا زرنا الكنيسة . هى كنيسة جميلة ولكنها كنيسة حديثة بنيت فى هذا القرن العشرين اذ تمت عمارتها فى سنة ١٩٠٥ . وهى على جمالها لا تبعث الى النفس شيئاً من معنى الرهبة التى تبعثها اليها كنائس كثيرة مما زرنا . وبحسبى أن أذكر ان هذه المعانى الدينية التى شعرنا بها العام الماضى فى كنيسة ميلانو والتى شعرنا بها منذ أيام فى مدينة كولونيا لا تجد أى مدخل الى النفس فى كتدرائية برلين . مابالك ما تبعثه الى النفس كنيسة نوتردام فى باريس وكنيسة القديس بطرس فى روما . دخلناها فاذا هى أقرب لأن تكون بهو محاضرات منها مكان عبادة . بل ان بهو السوربون الكبير لأكثر منها مهابة ورهبة . وعلى جدرانها وفى بعض مقاصيرها العليا صور لا تعبر عن معنى دينى رهيب . وصعدنا الى طابقها الأعلى فاذا تزين جدرانه صور جميلة تجعل المكان متحفاً أكثر منه كنيسة . وما أدرى لعل جماعة البروتستانت يريدون لبيوت الله فى مذهبهم أن لا تبلغ هيبتها من النفس موضع الرهبة حتى تكون عبادة المرء ربه عبادة جمال لا عبادة سر قوى مخوف . أم لعل الامر لا يتصل بالبروتستانتينية وانما يتصل بمذهب جديد فى فن العمارة . على أنه أيا كان السبب فى هذه البدعة فى

المعابد فأرانى أشد ميلا للهيبة فى العبادة ولو كانت عبادة الجمال .

يتصل طريق الزيرفون « الانتردن لنـدن » بأكثر الاحياء التجارية فى برلين نشاطاً وحركة . فهو يقطع شوارع وهلم شتراس وفردريك شتراس،ويوازى ليبزج شتراس، وكلها شوارع تنبض بحركة برلين فى التجارة نبضاً قويا . ويمر هذا الشارع الأخير كما تمر شوارع غيره بمتاجر فرتيم التى تزدهى برلين بعظمتها وضخامتها وتضعها مكاناً علياً فوق اللوفر والبون مارشيه فى باريس بل فوق سلفردج وهاردز فى لندن . وأشهد لفرتيم بالعظمة حقاً . ففيه كل صنوف التجارة من مصرف الى محل الفاكهة والخضر ومابين ذلك كله . لكنى أشهد كذلك بأنى شعرت بفرق بين فرتيم ومتاجر باريس الكبرى كالذى شعرت به بين طريق انتردن لندن والشانزليزيه . فكلا الطريقين جميل وعظيم . لكن طريق باريس على ماوصفت فى الكتاب الاول من هذا المؤلف مجموعة فيها اتساق عجيب حتى لكأنما لوحظ فى كل بناء شيد فيـه أن يجرى مجرى الاتساق مع سائره . فأما طريق برلين فينقصه هذا الاتساق وترى فيه من صور النبو عن فن الجمال ما يفجأ نظرك برغم اعجابك بما هو عليه من عظمة ونظافة . كذلك ينقص الاتساق والجمال الفنى متاجر فرتيم على عظمتها وضخامتها. وهو ينقص الكثير مما ترى فى برلين لان العظمة والضخامة مقدمة عند الالمانيين على الاتساق وجمال التجاوب

يعاودك الشعور بهذا المعنى اذ تتخطى الطريق الذى يخترق التير جارتن والذى أقيمت على جانبيه تماثيل ملوك المانيا فى عصورها المختلفة بما يجعله حقيقاً بأن يدعى الطريق الملكى . كل واحد من

هـذه التماثيل جميل والطريق فى اختراقه الغابة جميل . لـكنا نحن الذين اعتادوا ذوق الجمال على ماغرسته فى نفوسنا الثقافة الفرنسية كنا نشعر فى هذا الطريق بنقص فى الاتساق يجعلنا برغم قربه من فندق الاسبلانا دلانهرع اليه المرة بعد المرة لنستريح الى جماله. وكم ذكرت خلال المرات التي اخترقناه فيها نصف دائرة الملـكات فى حديقة اللـكسمبور بباريس وما فيها من معان وما لجمال تجاوبها واتساقها من سحر يحببها للنفس . وبرالمان برلين القريب من هذا الطريق الملـكى فيه كذلك من الفخامة والضخامة أكثر مما فيه من حسن التجاوب والاتساق . لـكن ذلك لايعنى نقص الجمال فى هذه التماثيل والمبانى والطرق، وانما يعنى ان الالمان أكثر تقديراً للفخامة منهم للاتساق فى الجمال. وهذا ما يؤدى بهم الى تفضيل موسيقى فاجنر الضخمة على غيرها من أنغام الموسيقى الايطالية والفرنسية الميالة أبدا الى الاتساق والانسجام .

على ان هذه الضخامة التى امتازت بها الميول الالمـانية لم تبد فى أوضح مظاهرها ما بدت لنا فى مصانع الكهرباء لشركة زيمن . ومصانع الكهرباء هذه تقع بمدينة زيمن على نحو الساعة من برلين يقطع الاوتموبيل خلالها قرابة أربعين كيلو متراً تمتد على جانبى الطريق فيها مزارع خضراء ذات بهجة تنساب خلالهـا أحياناً غدران صغيرة . وقـد زرناها يوماً بدعوة رقيقـة من أهلها وصعدنا الى ادارتها مع مهندس الشركة فى صاعد (أسنسير) ضخم يديره عامل مبتور الذراع من أيام الحرب . وقوانين ما بعد الحرب فى ألمـانيا تقتضى هذه المصانع الكبرى ان تستخدم بنسبة معينة ممن أصابتهم الحرب بعاهة من العاهات لتعلم الامة ان ما يصيب أبناءها فى سبيلها

لن يحول بينهم وبين الكسب وعول من تلقى عليهم المقادير عولهم من أهل وولد . وبعد أن قابلنا مديرى المصنع ذهبنا فى أوتوموبيل جرى بنا نحو ربع الساعة الى مصنع الاسلاك الكهربائيـة . أية ضخامة هذه ! لقد قابلنا شيخ ألمانى جاوز السبعين طويل القامة جم النشاط دار وايانا فى هذه المصانع التى تتسع لسبعة آلاف من العمال ساعات متوالية كان نشاطه فى ختامها كنشاطه فى بدئها . وكان أول ما اتجه بنا نحوه الماكينة المحركة لجميع الآلات التى تدير مصنعه ، والتى قيل عنها انها أقوى محرك من نوعها فى أوروبا كلها. ثم انحدرنا الى مصانع الاسـلاك فاذا الضخامة هى الضخامة واذا العمال والعاملات ينقلون الاسلاك الى الماكينات فتخرج منها ، فى دقائق ، مستوية صالحة ثم تلتف على محجل من الخشب ينقلها الى ماكينات أخرى تكسوها ورقاً ثم الى ماكينات ثالثة تكسو الورق قاراً ثم الى ماكينات تكسو القار كاوتشوكا ثم تلتف الاسلاك كلها معاً بالعدد المطلوب وتحاط بأنابيب من الزنك تحميها حين تلقى فى الماء لنقل أخبار العالم التلغرافية والتليفونية فى أنحاء المعمورة . وكضخامة مصنع الاسلاك مصنع الامشاط وما اليها مما يصنع من الكاوتشوك ممزوجاً بمسحوق الفضة . فامامصانع مولدات الكهرباء من مساقط المياه فأشد من ذلك ضخامة بكثير . ومارى فى مصانع زيمن من ضخامة تراه فى مطابع أولشتين التى ترتفع اثنى عشر طابقاً كلها ماكينات ومطابع تخرج مئات الصحف والمجلات فى كل يوم

على أنك اذ تزور هـذه المصانع وتلاحظ هذه الضخامة ترى نفسك امام مظهر بالغ غاية الروعة . ليس هذا المظهر فى اشتراك الرجال

والنساء فى العمل على قاعدة المساواة فى المجهود والانتاج ، ولكن فى عناية هـذه المصانع بطمأنينة العمال والارتقاء بعيشهم ليكون عيشا انسانيا صحيحا الى حـدود تستريح لهـا النفس التى تؤمن بالديمقراطية غاية الراحة . تناولنا طعام الغداء مع مديرى مصنع زيمن فعلمنا ان الطعام الذى تناولنـاه هو الطعام الذى يتناوله العمال جميعا تطهيـه لهم الكهرباء . وأرونا فى أولشتين حمامات العمال وأماكن غذائهم فاذا الحمامات كأنفم ماتعرف الطبقات الراقية واذا الغذاء صحى جيد . وبمدينة زيمن مساكن صحية أمامها حدائقها يأوى اليها العمال الذين يشتغلون فى المصانع . ولا عجب فى هذا كله والحركة الاشتراكية فى المانيا حركة قديمة قوامها الديمقراطية الصحيحة التى تأنف الحكم البلشفى كما تأبى الاستبداد الفردى . وهذه النعمة التى توفرها المصانع الكبرى لعمالها هى خير كفيل بتثبيت أقدام الحرية واقامة أسس السعادة الانسانية

هذا التعاون بين المال والعمل هو الذى يجعل للحياة جمالا لاسبيل اليه حين تنافسها ويطوع للناس جميعاً ذوق هذا الجمال بل النهل منه أحرار سعداء . والحق ان فى برلين موارد لهـذا النهل شتى يردها الناس من مختلف الطبقات . كانت الاوبرا الكبرى معطلة فذهبنا الى أوبرا البلدية لعلها فى حكم الاوبرا كوميك بباريس . وهنالك سمعنا موسيقى وغناء أنسيانا الضخامة والعظم وأعادا الى نفسنا من معانى الاتساق وجمال التجاوب ما أشجانا وأطربنا . ثم مثلت أوبرا صامتة لاغناء فيها ولكن تهيئة مسرحها جعلتنا نحس أنفسنا وكأننا فى عالم من الملائكة والجن تطير أشخاصه الى سماوات تارية الحمرة حينا بديعة الخضرة

حيناً آخر تسعدها موسيقى هى الجمال كل الجمال . وذهبنا يوماً الى « الكوليزيم » فاذا به يجمع بين الضخامة والجمال فى عمارته ، واذا المناظر المختلفة التى تعرض فيه تفوق فى كثير مايعرض من مثله بباريس فى مسارح الاولمبيا وأشباهها وان لم يكن فيه شىء مما فى الفولى برجير والمولن روج . وأراد أصدقاؤنا الترويح عنا ليلة فذهبوا بنا الى ملهى من نوع فريد فى بابه . على كل مائدة من موائده تليفون ولكل مائدة نمرة فاذا أردت التحدث الى أى شخص على أية مائدة طلبت نمرته فتحدثت اليه وطلبت الى من تحدث ان كان يرغب فى الرقص أولا يرغب ، ثم تابعت الحديث ماشئت وما دام عندك على استعداد لمتابعته . هذه موارد مرح قل فى غير برلين نظيرها . أما ماله نظائر فى كافة المدن فبرلين بها منه مالا يعد ولا يحصى وان يكن أكثره دون مابباريس بهاء وروعة .

على أن مابرلين من صور الجمال ومايتخللها من غابات وبحيرات يدعوك لترى مجاورات برلين ولتزور ضواحيها ولتزور بوتسدام بنوع خاص . ففى بوتسدام قصور ثلاثة ملكية منها قصر فردريك الاكبر وقصر سان سوسى وحديقته وفيها الطاحون التاريخية التى أراد الامبراطور ضمها لقصره فأبى صاحبها وأنصفه القضاء من الامبراطور بحكم سجل للعدل فى المانيا هذه الكلمة المشهورة : « ان فى برلين قضاة » ، وسجل للامبراطور احترام العدل باستبقائه الطاحون باذن صاحبها أثراً قومياً ناطقاً بقداسة العدالة وسموها فوق كل اعتبار وفوق كل مقام . ذهبنا اليها نشق طريقا تحيط به سهول مزرعة المخضرة المموهة بالزهر مختلف ألوانه وتتخطى بحيرات وغابات

حتى دخلناها فذهبنا الى قصر بوتسدام سررنا فيه بغرف فردريك الأكبر ثم زرنا حديقة «سان سوسى» وتناولنا طعام الغداء فى مطعم يطل على نهر الهافل . وبالرغم من أن الامبراطور غليوم كان يقيم فى بوتسدام كما كان الامبراطور فرنسوا جوزيف يقيم فى شونبرن فاننا لم نشعر هنا بمثل ماشعرنا به العام الماضى حين زيارتنا فينا . لم نشعر بما رزأت به الحرب ألمانيا ولا شعرنا بأن أهل هذه القصور قدفروا منها ولما يضع الشعب ، مالكها الجديد، يده عليها . كلا ! بل شعرنا فى ألمانيا بأن هزيمتها عظمة لعلها أروع مما شعرنا به للنصر من عظمة فى كثير من الدول المنتصرة. شعرنا فيها بقوة وشباب ومضاء عزيمة للعمل بما فوق طاقة الانسان للتغلب على ما أصابها وللسمو بنفسها فوق همومها . ولئن بدت على الوجوه سحابة كآبة وهم كلما ذكر الالمانى الحرب وانتصار الحلفاء فيها وتجريدهم ألمانيا العظمى من ممتلكاتها فان القلوب الفتية الكبيرة التى تحتل ما بين جنبى كل ألمانى تنبض فى اللحظة نفسها بمعانى الاخلاص المتقد لهـذا الوطن الذى يجب ان يسمو الى مثل ما كان له قبل الحرب من مكانة، وبروح التضحية أكبر التضحية فى سبيل درك هذه الغاية العليا . وهـذه العزيمة هى التى دعت الحلفاء ليروا سلام العالم متصلا بسلام ألمانيا وليروا ضرورة وجود ألمانيا معهم فى عصبة الامم وجلائهم عن أرضها واعترافهم لها بسمو مكانتها وعظيم مجهودها .

وآن لنا أن نغادر برلين قاصدين بادجاشتين فأقلنا قطار سافر فى الساعة العاشرة مساء الى مونيخ حيث قضينا أربعاً وعشرين ساعة سافرنا بعدها الى التيرول البديع نخترق جباله ووديانه حتى نزلنا بادجاشتين .

مونيخ — بادجاشتين — باريس — مصر

نزلنا مونيخ وفى ذاكرتى منها أنها بلد البيرة . ولم تكذبنى ذاكرتى . فقد أوينا بمتاعنا الى الفندق وتناولنا فيه طعام الافطار ثم نزلنا نسير على هدى الدليل فلم نسر غير بعيد حتى اذا أحد شوارعها الكبرى وبه ست مصانع كبرى للبيرة أو أكثر من ست، واذا على هذه المصانع منذ الساعة الحادية عشر من الصباح اقبال ، واذا الناس ينتظرون تناول طعامهم بها تقدم لهم منه البفتيك الضخم والبطاطس الجم . لكن هذه الصورة المرتسمة فى الذاكرة بسبب ما لمونيخ فى صناعة البيرة من شهرة ما تلبث ان تتلاشى كلما ازداد الانسان تطوافاً فى نواحى المدينة المختلفة فرآها مدينة قديمة لها ما للمدن القديمة من جلال ، ورأى فيها من آيات الفن فى مختلف الصناعات ومن صور الجمال فى التماثيل الكثيرة المنثورة فى ميادينها ما يشعرك بأنها جديرة بأن تقضى فيها أياماً بدل أن تقضى فيها يوماً واحداً . دخلنا احدى كنائسها لما اعتدنا فى الكنائس من جمال العمارة ولما تدفعه الى النفس من معنى مهوب فألفيناها الا تكن فى شىء من عظمة « الدوم » ببرلين فهى أشد منها مهابة وجلالا . ووقفنا فى أكثر من ميدان فيها فأعجبنا ما فيها جميعاً من فساقى وتماثيل وخضرة زاهية . ثم خرجنا الى ظاهرها قبيل مغيب الشمس فاذا بنا فى غابة جميلة توسطتها بحيرة جلسنا اليها نستمع الى الموسيقى عندها . وذهبنا فى المساء الى بهو فيه طعام وشراب وطرب وغناء.

وغادرناها صبح الغد الى بادجاشتين بالتيرول النمسوى وفى النفس من ألمانيا اكبار لعزيمتها وأسف على ما أصابها . وقد عاودنا هـذا الشعور بعد عام من ذلك اليوم حين كنا بلندن فى « الـكورنر هاوس » حين جلس الى جانبنا جماعة من السيدات والرجال لا تقل سن أحـدهم عن الخمسين . وكانوا يتناولون طعام الغـداء اذ دقت الموسيقى بلحن وقف له مئات من فى البهو جميعاً وعلى وجوههـم آثار الغبطة . أما هم فاضطربت أيديهم وسقطت الشوك والسكاكين منهـم وانهلت العبرات من عيونهـم وحاروا برهة بين الوقوف والجلوس ثم وقفوا ودمعهم مدرار ووجوههم محتقنة فلما تم اللحن وجلس الناس جلسوا وأخرج كل منـديله يكفكف به واكف دمعـه ويمسح به أنفـه ، وان بقيت صـدورهم مضطربة تهتز بالفجيعة والأسى . ذلك بأنهم ألمان وأن اللحن الذى سمعوا لحن نصر الحلفاء على المـانيا . فهو ما كاد يبـدأ حتى تحركت فى نفوسهم العزة المهيضـة والعظمة المهددة فلم يستطيعوا كظم ما فى نفوسهم وعجزت عزائمهم عن التغلب على عواطفهم واندفعت واياهم فلم أطق فى تأثرى بجلال هذ المظاهر العظيم حبس عبرة أشاركهم بها المخلصين لوطنهم فى سمو اخلاصهم له وتقديسهم اياه . وما يزال هذا الشعور يعاودنى وما أظن الأيام قديرة على أن تقضى عليه فى نفسى

من التجوز ان تسمى بادجاشتين قرية ، فهى بالاحرى مصح بادجاشتين . فليس بها منازل لأهلها وانما كلها فنادق ومتاجر، وما بها من منازل فيؤجره ذووه للنازلين بها للاستشفاء . ذلك بأن من يمكن ان يسموا أهلها لا يقيمون بها الا فى فصل السائحين . فاذا جاء

الشتاء وثلجه وزمهريره تركوها وهبطوا الوادي الى هفجاستين التي تسكن طوال السنة كلها . وفنادق بادجاشتين رشيق أكثرها وقد جهزت كلها في الدور الاسفل منها بحمامات للاستشفاء بما يقال أن في مياهها من الراديوم . وبالمصح على مقربة من المحطة كرسال تصدح الموسيقى فيه كل يوم وكل مساء . وبه كذلك بعض مقاه ونواد يختلف المستشفون اليها . على أن المقام بالمصح يوماً أو يومين يورث النفس الملل ويدفع الانسان الى التخلص منه بالانطلاق فيما يحيط ببادجاشتين من غابات قائمة على السفوح المحيطة بها وكلها فتنة باهرة ببساطتها وطيب هوائها وانسياب المياه في الاخاديد خلالها . وفي هذا الجو الحر الطليق ترتفع نفس الانسان الى أسمى مكان من تقديس الحرية وعبادة الجمال ومن السرور الجم بالاشتراك المطلق مع الطبيعة البديعة في عظمتها وابداعها . وقد نظمت الطرق التي يسير المصطافون فيها انتظاما يزيد في متاعهم بالجمال حولهم ويدعوهم الى الشعور العميق بمتاعهم . على انك لست أقل سروراً اذا أنت ضللت الطريق فانطلقت خلال الغابات على غير هدى حتى تهديك الصدفة طريقك . واني لاذكر يوما كنت فيه وزوجي واثنين من المصريين وسيدة نمسوية نقصد قهوة تبعد عن بادجستين نحو نصف الساعة فاخترنا طريقا غير طريقها الذي اعتدنا وسرنا فيه فضللنا وجعلنا نهبط سفوحا ونصعد أخرى والجهد ينال منا والطريق لا يستبين أمامنا حتى قضينا أكثر من ساعة قبل أن نهتدي، ثم كنا بهذا الضلال كلنا السرور وكنا نضحك عن نفس راضية وقلب مطمئن ساعة بلغنا القهوة وجلسنا نتصبب عرقا وكلنا يحاول أن يفر من تبعة هذا الضلال .

على أن هـذه الفتنة الباهرة فى مجاورات بادجاشتين تذبل وتنسى اذا ذهب الانسان يخترق بالاوتوموبيل أوالاوتوبيس جبال التيرول . هنا يحار الانسان أيهما أروع : أوبرلاند سويسرا أم تيرول النمسا . والحق أشهد أنا قضينا يوما نخترق هـذه الجبال، وها أنا أكتب بعد مضى ثلاث سنوات الا أشهر وما يزال قلبي تهزه هذه المناظر العظيمة الرائع سحرها . انطلقت بنا الاوتوبيس حوالى الساعة العاشرة وراحت تقطع سهولا ووديانا ترى سلاسل الجبال بعيدة عند آفاقها حتى وصلنا بحيرة زى (زيلمسى) تقع على شاطئها قرية ظريفة هى احدى مصايف التيرول . وبعد فترة قضيناها بها عاود الاوتوبيس انطلاقه صاعداً سفح الجبل حتى وقف بنا عند صاعد شمتنهوهن . صاعد من نوع غير كل مارأينا من قبل . فهو ليس بالفنكيلير يجرى القطار على شريطين بينهما شريط مسنن يعاونه على الصعود وعلى الهبوط . وهو ليس من نوع صاعد الهاردركلم يجرى على شريط معلق فوق سارية وتجذبه الجنازير . بل هو صندوق معلق فى جنزير معرض اذا انقطع الجنزير الى أن يهوى ويتحطم على الصخور . وركبنا هذا الصندوق وجذبه الجنزير حتى كنا عند قمة الجبل . وفى فنـدق فوق القمة تناولنا طعامنا ودرنا نمتع الطرف من فوق الجبل بما حولنا . ولم يكن ما حولنا غـير جبال تغطى بعض قممها ثلوج قليلة أذاب الصيف سائرها . فلما آن للصندوق ان يهوى بنا معلقاً فى جنزيره هبطنا وعدنا الى أوتوبيسنا مسرورين بما رأينا . لكنه ما كاد ينطلق بنا بعض الساعة حتى نسينا كل ما رأينا وحتى ابتلعتنا جبال سالزبرج وعظمة

طبيعة التيرول الرهيبة المجدبة وحتى شعرنا بأوتوبيسنا وبأنفسنا بعوضة على قرن ثور ، بل دون البعوضة بمئات المرات كما وأقل من البعوضة اشعاراً بوجودنا فى هذه العزلة المهوبة بين الجبال الشاهقة والمنحدرات المخيفة . والعربة تجهد نفسها فى تسلق السفح وفى متابعة التسلق فلا تزداد الجبال امامنا الا ارتفاعاً . والتوى الطريق أمامنا وانطبقت شواهق القمم من حولنا لحبستنا فى مضيق تنحنى أمام رهبته رهبة جبال البسفور وبوابات الحديد . وآن للعربة ان تستدير فتنحدر فتقطع طريقاً لسكة الحديد يجتاز خلال أنفاق بين جبلين هبطنا من فوق أحدهما لنتسنم غارب الآخر ولنجرى فوق النفق ثم لنرتفع أمتاراً وعشرات الامتار فوقه حتى يزج بنا من جديد بين جبلين نتلوى على سفوح أقل من سفوح الجبال الاولى جدباً وأكثر منها ابتساماً وان لم تكن أقل منها رهبة . ووقفت العربة بنا فجأة بين هذه الجبال وأشير الينا بالنزول منها وبأنها ستنتظر فى الجانب الآخر من مساقط كسل (كسلفال) غاية مسيرتنا وخاتمة مطافنا وتاج ما رأينا من جمال طول يومنا . ودخلنا واجتزنا هذه المساقط من جانب الى جانب . ماذا أقول وبأى ألفاظ أعبر عن مشاعرى وعن احساسى وكيف أردد الصيحات التى تنفس عنها صدرى وهتف بها فؤادى وقلبى لهذا السحر البارع والفتنة الساحرة. ليست كسلفال مساقط كساقط الرين وكان الأجدر بها ان تدعى حلوقاً. وهى أفخم مائة مرة من حلوق سرقوز وأبهى وان لم تكن أعظم من حلوق ديوزا . كان الجانب الذى دخلنا منه غاية انحدار المساقط فكانت روعة الانحدار عنده على أيسرها . لكن

دوى المياه لفتنا الى متابعة انحدارها فاذا هى تتلوى ثم تتلوى واذا نحن فوقها حيناً والى جانبها حيناً آخر على الصخر تارة وعلى درج من الخشب أو من الحديد أخرى ، والدوى يزداد والحلوق تغمس عياهما ونحن مأخوذون بهذه الروعة الحبيسة بين الجبال نسينا فيها أنفسنا ونسينا تفكيرنا وملأ الدوى والماء والرشاش والجبال كل وجودنا ففنينا فى هذه القطعة من الكون وصار وجودنا كله يدوى بالاعجاب والطرب دوياً يندفع فى آهات من المسرة والانشراح حيناً ، ومن البهر والروعة حيناً ، ومن التقديس والاجلال حيناً ، ومن الاسلام والاذعان لهذه القوة الكونية العظمى ننسى عظمتها ما حبسنا أنفسنا بين الجدران فاذا اندمجنا فيها وأصبحنا بعضها عظمنا بها وانطوى فى نفوسنا العالم الأكبر بانطوائنا فيه وصرنا له ومنه كما صار لنا ومنا.

وتدرجنا الحلوق ثم تدرجناها حتى فجأتنا عند أعلاها فجوة عميقة يهبط الماء اليها ولا ندرى الى أين يتسرب منها . لعل له تحت الجبال انفاقا يتسرب فيها عالم من الجن كما نطرب نحن للسير وهذه الحلوق والمساقط التى شهدت . والى هذه الفجوة يهبط الانسان بدرج وضعته يد الصناعة لتزيد الناس سحر الجمال الطبيعة . وهبطنا فاذا كل ما حولنا يزيدنا غبطة وسروراً ، واذا نحن نصعد بعد ذلك لتناول الشاى فى بيت صغير قام الى جانب هذه الحلوق المساقط لتعود بنا العربة بعد ذلك أدراجنا الى بادجاشتين ونحن فى ذهول مأخوذون عما رأينا حريصون على أن ننهل أثناء مقامنا بالتيرول أكبر حظ من جماله .

لكننا لم نقم بعد ذلك ببادجاشتين الا يومين غادرناها بعدها

قاصدين باريس . وبلغناها بعد سفر ست وعشرين ساعة وشوقنا لها على أشده . ونعمنا فيها بما لا تشبع النفس من النهل منه والنعمة به . على أننا صدمنا فى أيامنا الثلاثة الأخيرة بما بعوت المغفور له عبد الخالق ثروت باشا فيها. ثم غادرناها الى فيشى فأقمنا بها أربعة أيام سافرنا بعدها الى مارسيليا فالى الاسكندرية لننخرط فى الحياة من جديد منتظرين أن نفى للصيف المقبل بنذرنا أن نقضيه مستشفين فى أوربا من مصابنا .

غير أن القدر المحسن ، القدر البار الرحيم ، رأت عدالته السامية أننا كفرنا خلال سنوات أربع عما لا أدرى مما قد يكون فرط منا . وانا لفى منتصف ابريل سنة ١٩٢٩ اذ عاودنا الامل فى أمومة جديدة ، وفى أبوة جديدة . أمل كانت ثمرة هاته الطفلة التى تسعدنا وتتنفس ابتسامتها لنا عن أريج ما فى العالم كله من سعادة .

فليكن فى ذمة الله ما احتسبنا . ولتكن هذه البقعة الطاهرة فى صحراء القاهرة وسيلتنا الى مغفرة من الله ورضوانه . ولعل القدر الذى مد يده المحسنة فضمد بها جراحات قلوبنا يكون من بعد أبر بنا وأحنى علينا . وشكراً لهذه البلاد والدول فى أوربا كانت لنا عزاء وسلوى ، وكان جمالها وفنها وعلمها كما كان اندماجنا فيها ونهلنا منها مصدر الوحى بما فى هذا الكتاب .

﴿ انتهى ﴾

« كان الفراغ من طبع هذا الكتاب فى ١٢ مايو سنة ١٩٣١ »

تنبيه — سبق القلم [illegible] الوتر الذهبى فى صفحة ٩٩ وصحتها السهم الذهبى. أما أغلاط الطبع فلا نظن فيها ما يفوت القارى اصلاحه.